

الإمام الحسين

في

تفسير القبرين

تأليف

الإمام المجاهد

الشيخ محمد جواد البلاغي

١٣٨٢ - ١٣٥٢ هـ

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مرکز تحقیقات کلام و علوم اسلامی

الإمام الحسين

في

تفسير الميزان



مرکز تحقیقات کلامیه و علوم اسلامی

آلاء الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الإمام المجاهد

الشيخ محمد جواد البلاغي

١٢٨٢ - ١٣٥٢ هـ

شبكة كتب الشيعة

الجزء الأول

مجموعتين

مكتبة الإمام الخميني
مؤسسة البحوث
قم



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بافلي، محمد جواد، ۱۸۶۱ - ۱۹۳۳.

آلاء الرحمن في تفسير القرآن / المؤلف محمد جواد
البافلي، كشاف في قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة -
قم: مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر، ۱۴۱۹ ق - ۱۳۷۸.

ج ۲

ISBN 964 - 309 - 269 - 0 (دوره ۲)

ج ۱ - 964 - 309 - 270 - 0 (ج ۱)

فهرستکتابی بر اساس اطلاعات فيها.

هرمز.

کتابخانه.

ج ۲ (چاپ اول، ۱۳۷۸).

ISBN 964 - 309 - 271 - 0 (ج ۲)

۱. کتابسیر شهید -- قرن ۱۴ الف. بنیاد بعثت. واحد
کتابخانه اسلامی. ب. بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر. ج. عنوان.

۲۹۷ / ۱۷۹

BP 9A / ۸۸۷۷

۸۱۸۹ - ۷۸م

کتابخانه ملی ایران



مرکز الطباعة و النشر في مؤسسة البعثة

اسم الكتاب: آلاء الرحمن في تفسير القرآن ج ۱

المؤلف: الإمام المجاهد الشيخ محمد جواد البافلي

تأليف: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

الطبعة: الأولى ۱۴۲۰ هـ. ق

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

التوزيع: مؤسسة البعثة

تهران: شارع ستیة - بین شامی الشهید مطیع و فرست - هاتف: ۸۸۲۲۳۲۲ - ۸۸۲۲۳۲۲

فاکس: ۸۸۳۱۴۱۰ ص. ب. ۱۳۶۱ / ۱۵۸۱۵

لبنان - بیروت. ص. ب. ۸: ۲۲

هاتف وفاکس: ۵۵۸۳۷۹ - ۱ - ۰۰۹۶۱

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة لمؤسسة البعثة

شابک: ۹۶۴ - ۳۰۹ - ۲۶۹ - ۰ (دوره دو جلدی) ISBN: 964 - 309 - 269 - 0 (2 Vol. SET)

شابک: ۹۶۴ - ۳۰۹ - ۲۷۰ - ۰ (جلد ۱) ISBN: 964 - 309 - 270 - 0 (Vol. 1)

مقدمة التحقيق

الحمد لله ربّ العالمين، بارئ السهوات والأرضين، باعث الأنبياء والمرسلين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خير الخلق محمد الأمين، وعلى آله الهداة الميامين، وصحبهم المتقين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

يُولي قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة أهمية فائقة لتحقيق ونشر الآثار التراثية التي تُعنى بتفسير القرآن الكريم، وفي هذا السياق استطاعت المؤسسة أن تهض بمهمة تحقيق (تفسير العياشي) لأبي النضر محمد بن مسعود (وتفسير البرهان) للسيد هاشم البحراني (وتفسير نور الثقلين) للشيخ الحويزي (ونفحات الرحمن في تفسير القرآن) للمُحدّث النهاوندي، وقد وصلت في هذه التفاسير وفي غيرها إلى أعتاب المراحل النهائية من التحقيق أو النشر.

ومن بين المشاريع التي هي في طور العمل إعداد معجم لآي القرآن الكريم يتضمّن فهرسة شاملة لما ورد من الأحاديث والآثار في تفسير أو تأويل كلّ آية من آياته، معتمدين على أهمّ المصادر وأكثرها سعة وشمولاً.

ونُقدّم إلى الجميع هذا الكنز النفيس في تفسير الكتاب العزيز، الذي نال مؤلّفه من المواهب والمزايا ما جعل تفسيره هذا واحداً من مفاخر المكتبة الاسلامية، وواحداً من أهم تفاسير الشيعة الامامية، فقد تميّز هذا التفسير بمزايا فريدة قلما تجدها عند غيره، وأبرزها: اعتناؤه النقد العلمي الأمين، والتحليل الموضوعي الرصين، والدراسة

٨.....آلاء الرحمن ج ١ - البلاغي

المقارنة في أعلى درجاتها، مع التزامه الأسلوب الرشيق، والعبارة المتينة المختصرة. ذلك
(آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للعلامة المجاهد الأديب الهارح محمد جواد
البلاغي (رضوان الله تعالى عليه).



ترجمة المؤلف^(١)

اسمه ونسبه

هو الشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب بن عباس بن إبراهيم بن حسين بن عباس بن حسن بن عباس بن محمد علي بن محمد البلاغي الرُّبَعي^(٢).

مولده

ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٨٢هـ. على ما أثبتته الشيخ الطهراني في (نقباء البشر)^(٣) اعتياداً على روايته عنه (رحمه الله).

حياته

أكمل دراسته التمهيدية في النجف الأشرف حتى بلغ الرابعة والعشرين، وفي سنة ١٣٠٦هـ سافر إلى الكاظمية لطلب العلم، فدرس على جماعة من الأفاضل المعروفين آنذاك فأتمى مرحلة المقدمات وعاد بعدها إلى النجف الأشرف في سنة ١٣١٢هـ.

- (١) انظر ترجمته في أعيان الشيعة ٤: ٢٥٥، نقباء البشر ١: ٣٢٣، الكنى والألقاب ٧: ٩٤، شعراء الغري ٢: ٤٣٦، معارف الرجال ١: ١٩٦، رحمة الأدب ١: ٢٧٨، مقدمة كتاب (الهدى إلى دين المصطفى)، مقدمة كتاب (الرحلة المدرسية)، مجلة نور علم: العدد ٤١.
- (٢) شعراء الغري ٢: ٤٣٦، نقباء البشر ١: ٣٢٣.
- (٣) نقباء البشر ١: ٣٢٣.

وسافر إلى سامراء سنة ١٣٢٦هـ طلباً للعلم أيضاً، وتلمذ هناك للميرزا محمد نقي الشيرازي، مواظباً على حضور دروسه لمدة عشر سنوات. وسافر من سامراء إلى الكاظمية قبل أحداث ثورة ١٩٢٠م فهارس دوره الجهادي لمدة سنتين، عاد بعدها إلى موطنه (النجف الأشرف) ليعكف على التأليف والدرس ومواصلة البحث وإلقاء الدروس.

البلاغي كما وصفه بعض معاصريه

١ - الاستاذ علي الحاقاني:

«الامام البلاغي أغنتنا آثاره العلمية عن التنويه بعظمته وعلمه الجَمّ وآرائه الجديدة المبتكرة، فلقد سدّ شاغراً كبيراً في المكتبة العربية الاسلامية، بها أسداه من فضل فيها قام به من معالجة كثير من المشاكل العلمية والمناقشات الدينية، وتوضيح التوحيد، ودعمه بالآراء الحكيمة قبال التالوث الذي هذه بآثاره وقلمه السَّيَال . ولو لم يكن للمترجم له إلّا كتابه (الرحلة المدرسية) لكفاه فخراً، فقد تناول الاسلام فيه على المسيحية، وضيق الحقائق عليها فيه، ومن المستحيل أن إنساناً أوتي من التعمّل والتمييز شيئاً لا يستقرّ بعد قراءته على الحقّ، ولا يعتنق الاسلام بعد هضمه له.

والمترجم له كان عظيماً في جميع سيرته، فقد ترفع عن دَرَن المادّة، وتردّى بالمثل العالية التي أوصلته في الحياة - ولا شك بعد المئات - أرفع الدرجات، فقد كنت أختلف عليه مع من يختلف من أصدقائه وتلاميذه والمُقتدين بآرائه الدينية، فلم أجده إلّا وهو يُجيب على سؤال أو يُحرّر رسالة يكشف فيها ما التبس على المراسل من شك، أو يكتب في أحد مؤلفاته.

وكان مثال الامام المُحقّ، فهو جدي لأبعد حدّ، يهارس حاجياته بنفسه، ويختلف على السوق بشخصه لا باتباع ما هو مضطرّ إليه، غير مهالٍ بالقُشور، ولا يحترم للأنايات والعناوين الفارغة، وقلّ من يستطيع تمييزه مَن لا يعرفه فيتصوّره عظيماً أو زعيماً دينياً حقاً.

وكان يُصَلِّي جماعةً في الجامع المقابل القريب من داره، يَأْتُمُّ به أفاضل الناس وخيارهم، وبعد الفراغ من الصلاة كان يُدْرِس كتابه (آلاء الرحمن) في تفسير القرآن، وقد حضرت مع مَنْ حَضَرَ بُرْهَةً من الزمن، فإذا به بحرٌ خِضَمٌ لا ساحلَ له، يستوعب المخاطرة، ويحوم حول الهدف، ويصوِّر الموضوع تصويراً قوياً.

والكتاب مع الأسف لم يكْمَلْ فقد وصل فيه إلى آخر سورة النساء، وكُنَّا كثيراً ما نصارحه بقولنا: نرجو من الله - أيها الشيخ - أن يُطِيلَ عُمرَكَ لاكمال هذا التفسير، وبعد ذلك لا يَحْتَمِلُ بقيت أم لم تَبَقْ. فيقول: «أنا متشائم في عدم إتمامي له».

ومن نظر سيرة المترجم له يجدد قد تأثَّرَ بِسِيرِ الأولياء الذين جاءوا ومضوا ولم يكن لهم من قَصْدٍ سوى القيام بما يجب عليهم من خدمة البشر والعقل والحق.

وقد كان (تسريته) مثال هذه السيرة التي تَقَمَّصَت الحق واستهدفت خدمته، فقد تَخَصَّصَ للدفاع عن الاسلام الذي ساء على جميع الأديان، ودَبَّ عنه أمام تيار الغرب الجبار الذي هجم عليه، فكان يستمدُّ الصمود من مُبْدِنِهِ، والشُّجَاعَةِ من مُوجِدِهِ، وقف وقفةً خَلَدَتْه في قلوب خصومه النصارى فضلاً عن المسلمين، وعرفه علماءهم أكثر من معرفة أبناء وطنه له.

ابتعد عن حُبِّ الشهرة والمظاهر ابتعاداً غريباً حتَّى إِنَّه كان لا يقبل أن يَضَعَ اسمه على كُتُبِهِ لئلا يَشُمَّ من ذلك التَّبَجُّع، ولقد سُئِلَ يوماً عن سبب ذلك فقال: «المقصود من عملي إبراز الحق والدفاع عنه من أيّ طريق كان، فلا فرق بين أن يكون قد جثت به أنا أو غيري، فالغاية العمل».

هذا ما يُفْهَمُنَا جليلاً فهمه لواقع الحياة، وأنها شريطٌ قصيرٌ لا يَهْمُ المُثُلُ إِلَّا أن يُبَدَعَ في التمثيل.

والاسام البلاغي كانت سيرته تُناقض كثيراً هُوءَ الشهرة الذين تشدُّقوا بالألقاب وكالوها لأنفسهم باسم غيرهم، مع العلم أنَّ الذين جاءوا به لم يكن بجديده، إنَّها هو صدقٌ لمن سبقهم، مع بعض التحوير غير المفيد، ولكن البلاغي كانت حياته مليئة بالمفاخر والخدمات الصادقة.

وكم كان اللازم على رجالنا أن يقتدوا بسيرته، وينهضوا بأعباء رسالته التي

أدائها، والذي مهّد لهم السبيل بالسير على ضوئها»^(١).

٢ - الشيخ الطهراني:

«كان من أولئك الأفاضل النادرين الذين أوقفوا حياتهم وكرسوا أوقاتهم لخدمة الدين والحقيقة، وقد وقف قبال النصارى وأمام تيار الغرب الجارف، فمثّل لهم سموّ الاسلام على جميع الملل والأديان، حتّى أصبح له الشأن العظيم والمكانة المرموقة بين علماء النصارى وفضلاتها .

وقد كان من خلوص النية واخلاص العمل بمكان حتّى أنّه كان لا يرضى أن يُوضع اسمه على تأليفه عند طبعها، وكان يقول: «إني لا أقصد إلا الدفاع عن الحق، لا فرق عندي بين أن يكون باسمي أو اسم غيري».

ومع كلّ ذلك أصبح نارا على علم وبلغت شهرته أقاصي البلاد، وذلك لما عالجه من المعضلات العلمية والمناقشات الدينية التي أقيم لها الوزن الراجح في عواصم أوروبا، وقد اتصل به أعلام (لورندرة) وغيرها، وكانوا يفزعون إليه في المسائل العويصة، ومن المستفيدين منه (المستر خالد شردراك) فإنّه كان يحوّل على المترجم في المشاكل، وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الانجليزية للاستفادة من مضامينها الراقية. وكان متواضعا للغاية يبارس حاجياته بنفسه، ويختلف على الاسواق بشخصه لابتياح ما يلزم له، وكان يُقيم الجماعة في المسجد القريب من داره فيأتّم به أفاضل الناس وخيارهم»^(٢).

٣ - السيد محسن الأمين العاملي:

«كان عالما فاضلا، أديبا شاعرا، حسن العشرة، سخي النفس، صرّف عمره في طلب العلم، وفي التأليف والتصنيف، وصنّف عدّة تصانيف في الردود، صاحبناه في النجف الأشرف أيام إقامتنا فيها، ورغب في صحبة العالمين فصاحبناه وخالطناه حصرا وسفرا عدّة سنين إلى وقت هجرتنا من النجف، فلم نر منه إلّا كلّ خلقي حسن

(١) شعراء الغري ٢: ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) نقباء البشر ١: ٣٢٤.

وتقوى وعبادة وكلّ صفة تُحمد»^(١).

شيوخه

كان من جملة الأعلام الأفاضل وكبار المجتهدين الذين تلمذ لهم الامام
البلاغي ما يلي:

- ١ - الشيخ آغا رضا الهمداني، المتوفى سنة ١٣٢٢هـ.
- ٢ - السيد حسن صدر الدين الكاظمي، المتوفى سنة ١٣٥٤هـ.
- ٣ - الميرزا حسين النوري، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ.
- ٤ - السيد محمد بن هاشم الهندي الغروي، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ.
- ٥ - الميرزا محمد تقي الشيرازي، قائد الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م،
المتوفى سنة ١٣٣٨هـ.

- ٦ - الشيخ محمد حسن المامقاني، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ.
- ٧ - الشيخ محمد طه نجف، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ.
- ٨ - الشيخ محمد كاظم الخراساني، المتوفى سنة ١٣٢٩هـ.

تلامذته

كان من جملة أعيان الطائفة المشهورين الذين حضروا درسه أو روي عنه ما

يلي:

- ١ - الشيخ ذبيح الله بن محمد علي المحلاتي، المتوفى سنة ١٤٠٥هـ.
- ٢ - السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، المتوفى سنة ١٤١١هـ.
- ٣ - السيد صدر الدين الجزائري.
- ٤ - الشيخ علي محمد البروجردي، المتوفى سنة ١٣٩٥هـ.
- ٥ - الشيخ مجتبي اللنكراني النجفي.

- ٦ - الشيخ مرتضى المظاهري النجفي.
- ٧ - الشيخ محمد رضال آل فرج الله النجفي، المتوفى سنة ١٣٨٦هـ.
- ٨ - الشيخ محمد رضا الطّبي النجفي.
- ٩ - السيد محمد صادق بحر العلوم، المتوفى سنة ١٣٩٠هـ.
- ١٠ - العلامة محمد علي أديب الطهراني.
- ١١ - العلامة محمد علي الفروي الأردوبادي، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ.
- ١٢ - العلامة محمد علي مدرس الحياياتي.
- ١٣ - الشيخ محمد مهدي اللاهيجي.
- ١٤ - السيد محمد هادي الميلاني، المتوفى سنة ١٣٩٠هـ.
- ١٥ - الشيخ نجم الدين جعفر العسكري الطهراني.

مكانته الشعرية

كان الامام البلاغي أديباً مقدّماً، وشاعراً مُبدعاً، فُخِمَ العبارة، سَلِسَ التعبير، وأغلب شعره (رحمه الله) في مدح أهل البيت ورثائهم (عليهم السلام)، وهو غرضُ يسمو على أغلب الأغراض الشعرية المعروفة عند الشعراء، وقد سجّل البلاغي (رحمه الله) تقدّماً ملموساً في هذا المضمار.

فمن قصيدة له في ذكرى ولادة الحُجّة المنتظر (عليه السلام) في منتصف شعبان:

حَيَّ شَعْبَانَ فَهُوَ شَهْرُ سُعُودِي	وَعُدْ وَصَلِي فِيهِ وَلَيْلَةُ عَيْدِي
طُلُبْتُ فَخْرًا يَا لَيْلَةَ النُّصُفِ مِنْ شَعْدَ	بِجَانِ بَيْضِ الْأَيَّامِ بِالتَّسْوِيدِ
يَا إِمَامَ الْهُدَى سَعِدْتَ وَمَا كُلُّ	زَمَانٍ فِي ذَاتِهِ بِسَعِيدِ
لَا يَفْرَنْكَ الْبَيَاضُ فَلَوْلَا	لَقُودِرْتُ كَالْإِلْيَاسِ السُّودِ
فَهُوَ نُورُ أَقْهَ الَّذِي اشْرَقَ الْكُودُ	نُ بَأَنْوَارِهِ وَسِرُّ الْوُجُودِ
وَهُوَ الْلَطْفُ بِالْعِبَادِ إِمَامُ الدِّ	حَقَّقَ فِيهِمْ وَحُجَّةَ الْمَعْبُودِ
خَازِنُ الْعِلْمِ آيَةُ اللَّهِ وَالذِّ	عِي إِلَيْهِ عِذْلُ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ
الْمُنَادَى لِكُلِّ خَبْطٍ عَظِيمِ	وَالْمُرْجَى لِكُلِّ هَوٍّ شَدِيدِ

ثائِرُ السِّدِّينِ مُدْرِكُ الشَّارِ شَانِي الـ	خَيْطُ غُوْثِ السُّوَيْ غِيْطُ الحَسُوْدِ ^(١)
وَمِنْ قَصِيْدَةٍ لَهُ يَرْتِي بِهَا الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ):	
يَا تَرِيْبَ الحَدِّ فِي رَمْعَا السُّطُوفِ	لَهْتِي دُونَكَ نَهْباً لِلْسُّيُوفِ
*	*
يَا نَصِيْرَ الدِّينِ إِذْ عَزَّ النُّصِيْرُ	وَحَيِّي الْجَارِ إِذْ عَزَّ الْمُجِيْرُ
وَشَدِيْدَ الْهَاسِ وَالْهَوْمِ الْعَسِيْرُ	وِثْمَالُ الْوَقْدِ فِي الْعَامِ الْقُسُوفِ
*	*
كَيْفَ يَا خَامِسَ أَصْحَابِ الْكِسَا	وَابْنَ خَيْرِ الْمُرْسَلِيْنَ الْمُصْطَفَى
وَابْنَ سَاقِي الْحَوْضِ فِي يَوْمِ الضَّأِ	وَشَفِيْعَ الْخَلْقِ فِي الْيَوْمِ الْمُخُوفِ
*	*
يَا صَرِيْعاً ثَاوِيّاً فَوْقَ الصُّمُودِ	وَحَضِيْبَ الشَّيْبِ مِنْ قَبْضِ الْوَرِيْدِ
كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَ أَجْنَادِ يَزِيْدِ	ظَالِماً تُسْقَى بِكَاسَاتِ الْحُسُوفِ
*	*
كَيْفَ تَقْضِي ظَالِماً حَوْلَ الْفُرَاتِ	دَامِياً تَهْلُ مِنْكَ الْمَاضِيَاتِ
وَعَلَى جِسْمِكَ تَجْرِي الصَّافِنَاتِ	عَافِرِ الْجِسْمِ لَقَى بَيْنَ الصُّفُوفِ
*	*
يَا مُرِيْعَ الْمَوْتِ فِي يَوْمِ الطُّعْمَانِ	لَا خَطَا نَحْوَكَ بِالرَّمْحِ سِنَانِ
لَا وَلَا شِمْرَ دَنَا مِنْكَ فَكَانَ	مَا أَمَارَ الْأَرْضَ هَوَلاً بِالرُّمُوفِ
*	*
سَيِّدِي أَبْكَيْكَ لِلشَّيْبِ الْخَضِيْبِ	سَيِّدِي أَبْكَيْكَ لِلْوَجْهِ السَّتْرِيبِ
سَيِّدِي أَبْكَيْكَ لِلْجِسْمِ السَّلِيْبِ	مِنْ حَشَا حَزَانٍ بِالدَّمْعِ الذَّرُوفِ ^(٢)
*	*

(١) شعراء الغري ٢: ٤٤٧.

(٢) شعراء الغري ٢: ٤٥٦.

وللإمام البلاغي نظمٌ في الأغراض العلمية وفي فنون شتى، فمن قصيدته

العينية التي عارض بها عينية ابن سينا في النفس يقول:

نَعِمْتُ بِأَنْ جَاءَتْ بِخَلْقِ الْمُنْبَعِ تَمَّ السَّعَادَةُ أَنْ يَقُولَ لَهَا: أَرْجِعِي
خَلَقْتُ لِأَنْفَعِ غَايَةٍ يَا لَيْتَهَا تَبِعْتُ سَبِيلَ الرُّشْدِ نَحْوَ الْأَنْفَعِ
الله سَوَاهَا وَالْهَمَّهَا فَهَلْ تَتَّعُو السَّبِيلَ إِلَى الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ
نَعِمْتُ بِنَعْيَاءِ الْوُجُودِ وَنُودَيْتُ هَذَا هَذَاكَ وَمَا تَشَانِي فَأُضْغِي
وَدَعَى الْهَوَى الْمُرْدِي لِئَلَّا تَهْطِي فِي الْخُسْرِ ذَاتَ تَوَجُّعٍ وَتَفْجِعِ
إِنْ شِئْتَ فَأَرْفِعِي لِأَرْفَعِ ذُرْوَةٍ وَحَذَارٍ مِنْ ذُرِّكَ الْخَضِيفِ الْأَوْضَعِ
إِنْ السَّعَادَةُ وَالْفَنَى أَنْ تَقْنَعِي مَوْفُورَةٌ لَكَ وَالشَّقَا أَنْ تَطْمَعِي
فَتَنْعَمِي وَتَزُودِي وَتَهْذِي وَتَلْذِذِي وَتَكْشَلِي وَتَوْرَعِي
وَبِهَجَةِ الْمَرْفَعَانِ وَالْعِلْمِ أَهْجِي وَلِنَزْعِ أَطْبَارِ الْجَهَالَاتِ أَنْزِعِي
وَأُخْذِي هَذَاكَ فِتْلَكَ أَعْلَامُ الْهُدَى زَهْرٌ سَوَاطِعُ فِي الطَّرِيقِ الْمُهْمَعِ^(١)

ويبدو أن شعره لم يجمع في ديوانٍ مستقلٍ ولهذا فقد ضاع أغلبه، يقول الأستاذ علي الحاقاني: «وكان لانشغاله لم يعتنِ بمنظومه، فقد ذهب في أوراقٍ له ذهبت خلال أسفاره وتنقلاته، ولم يبق منها إلّا ما عثرنا عليه عن طريق بعض المجاميع والروايات وما سجله صاحب الأعيان»^(٢).

تصانيفه

ترك البلاغي (رحمه الله) ثروةً علميةً هائلةً، كان لها صداها في الأوساط العلمية المختلفة، وذلك لأنها كانت تتسم بالابداع والابتكار مع متانة التعبير وسلاسته، ويمكن إجمال مصنّفاته في العلوم والفنون المختلفة كما يلي:

أولاً في الفقه

١ - أجوبة المسائل التبريزية.

(١) أعيان الشيعة ٤: ٢٥٦، شعراء الفري ٢: ٤٤٩.

(٢) شعراء الفري ٢: ٤٤٢.

- ٢ - أجوبة المسائل الحليّة.
- ٣ - التعليقة على العروة الوثقى.
- ٤ - التعليقة على كتاب الشُّفعة من (جواهر الكلام).
- ٥ - التعليقة على مباحث البيع من (المكاسب) مطبوعة.
- ٦ - رسالة في بطلان العَوَل والتعصيب، وهي أول مؤلفاته.
- ٧ - رسالة في التقليد.
- ٨ - رسالة في حُرمة حلق اللحية.
- ٩ - رسالة في الخيارات.
- ١٠ - رسالة في صلاة الجمعة لمن سافر بعد الزوال.
- ١١ - رسالة في فروع الرُّضاع على مذهب الامامية والمذاهب الأربعة.
- ١٢ - رسالة في وضوء الامامية وصلاتهم وصومهم، طبعت بالانكليزية.
- ١٣ - العقود المُفَصَّلة في حلّ المسائل المُشكلة، وهي (١٤) عقداً في الفقه وأصوله، مطبوعة، وهي:
 - أ: رسالة في العلم الإجمالي.
 - ب: رسالة في ذهائع أهل الكتاب.
 - ت: رسالة في قاعدة غلّ اليد ما أخذت وفروعها.
 - ث: رسالة في ضبط الكُرّ.
 - ج: رسالة في ماء الغُسالة.
 - ح: رسالة في حُرمة مسّ المصحف على المُحدِّث.
 - خ: رسالة في تنجيس المُتَنَجِّس إذا لُوقِيَ برطوبة.
 - د: رسالة في إقرار المريض.
 - ذ: رسالة في مُنجزات المريض.
 - ر: رسالة في اللباس المشكوك.
 - ز: رسالة في مواقيت الإحرام.
- س: رسالة في القبلة وتعيين مواقع البلدان المهمة في العالم من مكة المكرمة

بحسب الاختلاف في الطول والعرض.

ش: رسالة في إلزامهم بما ألزموا به أنفسهم.

ص: رسالة في الرضاع، وهي غير مأمّر تحت رقم (١١) من هذه المجموعة.

ثانياً: في التفسير والعقائد

١ - آلاء الرحمن في تفسير القرآن، مطبوع، لم يتم، وهو آخر ما ألفه (رسم الله)،

وسبأني التعريف به لاحقاً ضمن هذه المقدمة.

٢ - أجوبة المسائل البغدادية، في أصول الدين، مطبوعة.

٣ - البلاغ المبين، في الالهيات، مطبوع.

٤ - رسالة في البداء، مطبوعة.

ثالثاً: في الردّ على الملل والنحل والنزعات العقائدية المنحرفة

١ - أعاجيب الأكاذيب، في الردّ على النصارى، مطبوع، ومترجم إلى اللغة

الفارسية.

٢ - أنوار الهدى، في الردّ على الطبيعيين والماديين، مطبوع، ومترجم إلى اللغة

الأوردية.

٣ - التوحيد والتثليث، مطبوع.

٤ - داروين وأصحابه، مطبوع.

٥ - داعي الاسلام وداعي النصارى.

٦ - الرحلة المدرسية أو (المدرسة السيار) في الردّ على النصارى، مطبوع،

ومترجم إلى اللغة الفارسية.

٧ - رسالة في الردّ على جرجيس سايل وهاشم العربي، في الردّ على النصارى.

٨ - رسالة في الردّ على الدهرية، مطبوعة.

٩ - رسالة في الردّ على كتاب (تعليم العلماء).

١٠ - رسالة في الردّ على كتاب (حياة المسيح) للقاديانية^(١).

(١) وهي فرقة من الفلاة، تُنسب إلى غلام أحد القادياني، المولود في مدينة قاديان الهندية نحو سنة ١٢٨١هـ وقد

ادّعى أنه المسيح المعهود والمنهني الموعود.

- ١١ - رسالة في الردّ على كتاب (ينابيع الاسلام) في الردّ على النصارى.
 - ١٢ - رسالة في الردّ على الوهابيّة، مطبوعة.
 - ١٣ - عيّانوثيل في المحاكمة مع بني إسرائيل.
 - ١٤ - المسيح والأنجيل، في الردّ على النصارى، مطبوع.
 - ١٥ - مصابيح الهدى، في الردّ على القاديانية والبابية^(١) واليهانية الأزلية^(٢).
 - ١٦ - نسبات الهدى، طبع في (مجلة العرفان).
 - ١٧ - نضائح الهدى والدين، في الردّ على البابية، مطبوع.
 - ١٨ - الهدى إلى دين المصطفى، في الردّ على النصارى، مطبوع.
- رابعاً: في الشعر والمراسلات:
- ١ - قصيدة في جواب القصيدة البغدادية، في إثبات وجود صاحب الزمان وأحواله (مِثْلُ اللَّهِ تَالِىَ رَجَبِهِ)، طُبِعَتْ ملحقة بكتاب (كشف الأستار) للميرزا النوري^(٣).
 - ووردت في ترجمته في كتاب (شعراء الغري)^(٤) و(معارف الرجال)^(٥).
 - ٢ - قصيدة في معارضة قصيدة ابن سينا العينية في النفس، وردت ضمن ترجمته في (أعيان الشيعة)^(٦) و(شعراء الغري)^(٧) وتقدّم بعضها في شاعريته.
 - ٣ - مجموعة مراسلات علمية وشعرية وإخوانية مع السيد محسن الأمين العاملي، وقد أُنْتُهتْها في (أعيان الشيعة)^(٨)، وله أشعار متفرقة جمعها الخاقاني في (شعراء الغري)^(٩).
- (١) وهي فرقة تُنسب إلى علي محمد الملقب بالباب، المقتول سنة ١٢٦٦هـ في تبريز.
- (٢) وهي فرقة من البابية، تُنسب إلى الميرزا يحيى، الملقب (صُحْب الأزل)، وهو خليفة مؤسس البابية، أمّا أخوه الميرزا حسين فهو مؤسس البهائية.
- (٣) ملحقات كشف الأستار: ٢٦٣.
- (٤) شعراء الغري ٢: ٤٤٣.
- (٥) معارف الرجال ١: ١٩٨.
- (٦) أعيان الشيعة ٤: ٢٥٦.
- (٧) شعراء الغري ٢: ٤٤٩.
- (٨) أعيان الشيعة ٤: ٢٥٨.
- (٩) شعراء الغري ٢: ٤٤٢ - ٤٥٨.

خامساً: في أغراض شتى

- ١ - الزام المتدين بأحكام دينه.
- ٢ - دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى.
- ٣ - رسالة في الاحتجاج لكل ما انفردت به الامامية بها جاء من الأحاديث في كتب غيرهم.
- ٤ - رسالة في الأوامر والنواهي.
- ٥ - رسالة في تكذيب رواية التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام).
- ٦ - رسالة في عدم تزويج أم كلثوم بنت أمير المؤمنين (عليه السلام).
- ٧ - نور الهدى، في الرد على مسائل وردت من لبنان، مطبوع.

وفاته

توفي (رحمه الله) ليلة الاثنين ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٢هـ.

يقول الاستاذ الخاقاني: «انقلب النجف يوم أن سَمع نبأ وفاته فخرج عن بكرة أبيه وصار مشهوداً، ودُفن في إحدى عُرف الصحن من الجهة الجنوبية ورتاه أعلام شعراء عصره بقصائد مؤثرة»^(١).

ومن رثاه العلامة محمد رضا المظفر في قصيدة مطلعها:

قد كان كالهدر في ليل الشتاء ومضى كالشمس معروفة بالعين والأثر

والسيد رضا الهندي في أكثر من قصيدة، يقول في أحدها:

قد خَصَّكَ الرحمنُ في آلائه فدعاك داعيه لدار لقائه

عمَّت رزيتك السما والأرض يا داعي هُداة بأرضه وسبانه

كما رثاه السيد مسلم الحلبي، والشيخ محمد تقي الفقيه، والسيد محمود الحبوبي

وغيرهم.

هذا الكتاب

الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - تفسير مزجي، جعله مؤلفه وسطاً بين البسط والاختصار، ويُعد من أئمن التفاسير وأنسبها وأليقها بهذا العصر، لما يحتويه من النقد العلمي البناء والتحليل الموضوعي الهادف والدراسة المقارنة مع التزام الأسلوب المتين والبحث العميق وسلاسة التعبير، وقد شرع - (نسر سر) - بهذا التفسير سنة ١٣٥٠هـ، والكتاب يشمل على مُقَدِّمة ذات فصول أربعة:

الأول: في إعجاز القرآن.

الثاني: في جمعه في مصحف واحد.

الثالث: في قراءته.

الرابع: في تفسيره، مع خاتمة بين فيها مصادر الكتاب، ثم شرع في التفسير، وقد كان (رحمه الله) مثابراً بكلِّ حرصٍ وجِدٍّ على إتمام هذا التفسير إلى نهايته، رغم ما يعانيه آنذاك من كثرة الأمراض التي أَلَمَّت به وأضنته، ورغم شَطَفَ العيش حيث كان يباشر معاشه بنفسه حتى آخر لحظات حياته، ضارباً بذلك أروع الأمثلة للتواضع وسمو النفس، لكنَّ المنية عاجلته قبل إتمامه، فتوقَّف يراعه الشريف عند الآية (٥٧) من سورة النساء، قوله (تس): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. جعله الله من أصحاب هذه الآية، وتغمده برحمته الواسعة، وحشره مع خيرة خلقه محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين.

وما يناسب هذا المقام أن نذكر متن رسالته الجوابية التي بعثها إلى السيد محسن الأمين العاملي في ٢٨ محرم سنة (١٣٥٢هـ):

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد وهو المستعان.

تشرَّفْتُ بكتابك المؤرخ ٢٦ ذي الحجة (١٣٥١) وقد أرجأت الجواب لعلِّي أحصل على ما أُمِرْتُ به...

مولاي، منذ سنتين شرعت في تفسير للقرآن الكريم، وقريباً - إن شاء الله - يتم طبع الجزء الأول في مطبعة العرفان بنحو ٤٠٠ صفحة إلى آخر سورة آل عمران، وإلى

الآن كتبت في تفسير سورة النساء إلى نهاية الآية السادسة عشرة مع آية الكلاله من آخر السورة جمعاً لآيات الموارث، وأنا الآن مشغول بها لطلقاتها أو عموماتها من التقييد أو التخصيص الحقيقي، كبعض موانع الإرث ومسائل الحبوة وغير ذلك، والتقييد الموهوم كمسألة إرث النبي (صلى الله عليه وآله)، والتعصيب والعول وغير ذلك. وأظن ما كتبه من سورة النساء يبلغ في المطبوع نحو ست ملازم، والله الموفق، وأسألكم الدعاء بالتوفيق والتيسير والتسديد، والذي يعيقني عن سرعة السير في التفسير هو ضعف مزاجي بشدة، وكثرة الأمراض، مع انفرادي بتتبع حديث العامة والتسويد والتبييض والتصحيح، وكتابة المكاتيب، ومباشرتي لأمر التعيش، ذكرت ذلك رجاء لإمدادي بالدعاء.

وإن شاء الله أول ما يتم تغليف الجزء الأول يُقدّم لحضرتك منه نسخة، أرجو الفضل عني فيها، والله الميسر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. في ٢٨ محرم سنة ١٣٥٢.

من الأقل محمد جواد البلاغي عفي عنه^(١).

وما أثبتته السيد محسن الأمين العاملي في هذا المجال ايضاً:

وكتب إلينا بتاريخ ٩ شعبان ١٣٥٢ بها صورته:

إلى حضرة سيدنا ومولانا العلامة الأجل حجة الاسلام دام ظله، وأدام الله به عز الدين ومجد الشريعة وهجة العلم بحرمة سيد المرسلين وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

مولاي، أمّا بعد السلام عليكم والاستقصاء في السؤال عن أحوالكم وشريف مزاجكم، فإني لا زلت داعياً مشتاقاً، وقد مضت مدة لم أحظ فيها بمكاتيبك لعدم إحرازي أنك في شرقاء أو في الشام، وكنت أحب أن أعرف رأيك في التفسير (آلاء الرحمن) وهل يعد في التفاسير أو لا، وقد وعدت بالأمر ببيعه لأجل نشره، والداعي

كُتِبَتْ بِأَنْ يُسَلِّمَ لِحَضْرَتِكَ وَأَمْرِكَ الْمَقْدَارَ الَّذِي تَأْمُرُ بِهِ مِنَ النُّسخِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ صَدَّقَ عَنْ وَعْدِكَ سَقُوطَ الْكِتَابِ مِنْ نَظَرِكَ.
مولاي، أَقْدَمْتُ عَلَى كِتَابَتِهِ رَاجِئاً أَنَّ اللَّهَ أَنْ يُنْبِئَ الْأُمَّةَ مِنْ غَفْلَاتِهَا فَيَكْتُبُوا خَيْراً مِنْهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ قَدْ أَهْمَلُوا مَا يَعْنِيهِمْ وَيُلْزِمُهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ التَّمَيُّسَ.
هَذَا، وَأَهْدِي وَافِرَ السَّلَامِ إِلَى كَافَّةٍ مِنْ يَلُودُ بِحَضْرَتِكَ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ.

مِنَ الْأَقْلَ مُحَمَّدُ جَوَادُ الْبَلَاغِي عَفِيَ عَنْهُ

وَهَذَا آخِرُ كِتَابٍ كَتَبَهُ إِلَيْنَا وَتَوَفَّى بَعْدَهُ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ يَوْماً (رَحِمَهُ اللَّهُ وَلِيَّانَا) ^(١).

عملنا في الكتاب

تَمَّ الْعَمَلُ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَفِي الْمَرَاهِلِ وَالْخَطَوَاتِ التَّالِيَةِ:

- ١ - اعْتِنَادُ النُّسخَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي مَطْبَعَةِ الْعُرْفَانِ - صِيْدَا.
- ٢ - تَخْرِيجُ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ مِنْ مَصَادِرِهَا الْأَمِّ، وَعَدَمُ الْاِكْتِفَاءِ بِهَا نَقْلَ عَنْهُ الْمَوْلَفِ (قُدْسُ سِرِّهِ) بِالْوِاسِطَةِ.
- ٣ - الْإِبْقَاءُ عَلَى هَوَاشِ الْكِتَابِ الْأَصْلِيَةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ تَعْلِيقَاتِ الْمَوْلَفِ نَفْسِهِ، وَلِتَمْيِيزِهَا عَنْ مَا أَتْبَهَتْهُ مِنْ هَوَاشٍ عَقَبْنَا لَهَا بِلَفْظِ (مِنْهُ قُدْسُ سِرِّهِ).
- ٤ - تَرْجُمَةُ الْأَعْلَامِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ تَرْجُمَةً مُوجِزَةً جَامِعَةً بِاعْتِنَادِ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي هَذَا الْبَابِ.
- ٥ - تَقْوِيمُ نَصِّ الْكِتَابِ وَإِخْرَاجُهُ بِصُورَتِهِ الصَّحِيحَةِ بِتَخْلِيصِهِ مِمَّا وَرَدَ فِيهِ مِنْ أَخْطَاءِ النُّسخِ وَالطَّبَاعَةِ مَعَ ضَبْطِ مَفْرَدَاتِهِ وَشَرْحِ الْأَفَاظِ الصَّعْبَةِ بِاعْتِنَادِ أَهَمِّ الْمَعْجَمِ اللَّفْظِيِّ.
- ٦ - إِعْدَادُ فَهَارِسٍ فَنِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ تُيسِّرُ الِاسْتِفَادَةَ مِنْ مَطَالِبِ الْكِتَابِ.

شكر وثناء:

يسرّ مؤسسة البعثة إذ تقدم للقارئ الكريم هذا النتاج النفيس أن تتقدّم بالثناء والتقدير للاخوة الأفاضل الذين ساهموا في إنجازه كلّ بحسب تخصصه، ونخصّ بالذكر منهم:

الأخ علي الكمبي، والأخ صائب عبد الحميد، والسيد عباس بني هاشمي، والشيخ ناطقي، والأخ عصام البدري، والسيد حميد الرضوي، والسيد اسماعيل الموسوي، والشيخ كريم الرزقي، والأخ عبد الله الخزاعي.

نسأل الله (سبحانه) أن يوفق كلّ العاملين في خدمة دينه المبين إلى ما يحبّ ويرضى، وأن يوفقنا لأداء واجبنا في حقّ إحياء تراث أهل البيت (عليهم السلام) إنّه (عالى) وليّ التوفيق.

قسم الدراسات الإسلامية

مؤسسة البعثة

آلاء الرحمن في تفسير القرآن

من فضله جلّت آلاؤه على عبده الضعيف الفقير إلى رحمته وعفوه
محمد جواد البلاغي النجفي أعتاه الرحمن بالتوفيق
والتسديد وأنعم عليه بالمحسن والسعادة في
الدنيا والآخرة إنه أرحم الراحمين
وخير المسؤولين

منزل



مرکز تحقیقات کلام و تفسیر علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد وهو المُستعان، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه
محمد (سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ الْمُعْصومِينَ (صلوات الله عليهم أجمعين).
وبعد: ففي فجر سعادة البشر، وَتَبْلُغُ صُبحُ الْهُدَى ورسالته، أَشْرَقَ نور القرآن
الكَرِيم على الْعَالَمِ من أَفْقِ الْوَحْيِ على الرسول الْأَمِينِ الصَّادِعِ بِأَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ
بِإِعْجَازِهِ الْبَاهِرِ حُجَّةً على وَحْيِهِ، وَبِفَضَائِلِهِ الْفَائِظَةِ دَلِيلًا على فَضْلِهِ، وَبِسَنَائِهِ الْوَضَّاحِ
هَادِيًا إلى اتِّبَاعِهِ، يَعْرِفُكَ في كُلِّ بَابٍ من أَبْوَابِ مَعَارِفِهِ السَّامِيَةِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبِّ
الْعَالَمِينَ.

ولَكِنَّ اختلاطَ اللِّسَانِ، واختلافَ الزَّمانِ، وَتَشَعُّبَ الْأَهْوَاءِ، وتضاربَ الآراءِ،
أَثَارَتْ من دُونِ أَنْوَارِهِ غُبَارًا، وَجَعَلَتْ على الْبَصَائِرِ من الْجَهْلِ غِشَاوَةً، وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ
على عِبَادِهِ أَنْ يَنْصُرُوا الْحَقِيقَةَ بِالْبَيَانِ، وَيُجْلُوا غِبَارَ الشُّكُوكِ بِالْحُجَّةِ، وَيُمِيطُوا غِشَاوَةَ
الْجَهْلِ بِيَدِ الْعِلْمِ الشَّافِي.

وقد نهض جماعة لتفسيره والإرشاد إلى منهج فهمه، فَأَثَرَتْ - وَأَنَا الْأَقْلَ مُحَمَّدَ
جَوَادِ الْبِلَاغِي - أَنْ أَنْطَلُقَ في هَذَا الشَّأْنِ، وَاتَّقَهُمُ في هَذَا الْمِيْدَانِ، جَارِيًا على مَا
تَقْتَضِيهِ أَصُولُ الْعِلْمِ، مُتَنَكِّبًا مَا لَا حُجَّةَ فِيهِ من نَقْلِ الْأَقْوَالِ، مُتَحَرِّيًا للاختصارَ مِمَّا
أَمَكُنْ، مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ، وَمُسْتَعْمِدًا من فَضْلِهِ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ.

وقد سُمِّيَتْ الْكِتَابُ (آلَاءُ الرَّحْمَنِ في تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) وَجَعَلْتُ لِلْمَقْصُودِ مَقْدَمَةً،
فِيهَا فُصُولٌ وَخَاتَمَةٌ:



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول في إعجازه

المُعْجَز: هو الذي يأتي به مُدَّعي النبوة بعناية الله الخاصة خارقاً للعادة، وخارجاً عن حُدود القُدرة البَشَريّة، وقوانين العلم والتعلّم، ليكون بذلك دليلاً على صدق النبيّ، وحُجَّتَه في دعواه النبوة ودعوته.

وجه شهادة المُعْجَز

ودلالته على صدق النبيّ في دعواه ودعوته، ليس إلّا أنّ مُدَّعي النبوة، إذا كان ظاهر الصلاح، موصوفاً بالأمانة، معروفاً بصدق اللهجة والاستقامة، لا يخالف العقل في دعوته وأساسياتها، لم يَجْزَ عقلاً إظهار المُعْجَز على يده إلّا إذا كان صادقاً في دعوى النبوة ودعوته. ألا ترى أنّه لو كان مع صفاته المذكورة كاذباً في دعواه، لكان إظهار المُعْجَز على يده وتخصيص الله له بالعناية إغراءً للناس بالجهل، وتوريطاً لهم في مناهات الضلال، وهذا قبيح ممتنع على جلال الله وقُدسه.

توضيح ذلك

هو أنّ الناس بحسب عيظتهم التي لا تُدَنِّسها رذائل الأهواء والعصبيّة، إذا ظهر لهم صلاح الشخص وصدقه وأمانته واستقامته، فيما يعرفونه من أحواله وأطواره، توسَّموا بباطنه الخير، وإنّ باطنه موافق لظاهره في الصلاح. وكلّما زادت خبرتهم بصلاح ظاهره، زاد وثوقهم بصلاح باطنه، إلّا أنّه مهما يكن

من ذلك، فإنه لا يتلَّغ بهم مرتبة العلم وثبات الاطمئنان بعصمته عن الكذب في دعواه وتبليغات دعوته، فلا ينتظم تصديقهم له ولا يدوم انقيادهم إلى تبليغاته في دعوته، بل لا يزال اختلاج الشكوك يمنيل بهم يميناً وشمالاً.

لكن إذا خصَّته العناية الإلهية بكرامة المعجز وخارق العادة، حصل العلم الثابت، واطمئنت النفوس السليمة بصدقه وعصمته في دعواه وما يأتي به في دعوته، وثبتت اليقين وينتظم أمره بالنظر إلى أنه يمتنع على جلال الله وقُدسه في مثل هذه المزلَّة أن يُظهر المعجز وعنايته الخاصة على يد الكاذب المُدلس بصلاح ظاهره.

فإن إظهار المعجز حينئذ يكون مساعدةً للمُدلس على تدليسه، ومشاركةً له في إغوائه، وإغراءً للناس في الجهل الضارُّ المهلك، وذلك لما ذكرناه من مُقتضى فِطْرة الناس السليمة، فالمعجز الشاهد بصدق النبي في دعواه ودعوته، هو ما يقوم بما ذكرناه من الفائدة في مثل ما ذكرناه من المقام والوجه.

حكمة تنوع المعجز

ولا يخفى أن حصول الفائدة المذكورة من تنوع المعجز المذكور، يختلف كثيراً بسبب اختلاف الناس في أطوارهم ومعارفهم ومألوفاتهم، فربَّ خارق للعادة يعرف بعض الشعوب أنه خارق للعادة، لا يكون إلا بإرادة إلهية خاصة، ويكون في بعض الشعوب معروضاً للشك أو الجحود لإعجازه وخرقه للعادة.

كان في عصر موسى النبي (عليه السلام) من الرائج بين المصريين صناعة السحر المبتنية على قوانين عادية، يجري عليها التعليم والتعلم، فكانوا يعرفون ما هو جارٍ على نواميس هذه الصناعة، وما هو خارج عنها وعن حدود القدرة البشرية. ولأجل ذلك اقتضت الحكمة أن يحتج عليهم بمعجزة العصا التي ألقاها موسى (عليه السلام) أمام أعينهم، فصارت ثميناً تلقف ما يافكون ويسحرون به الناس من الخيال والمصي، ثم رجعت بعد ذلك عصا كحالها الأول، ولم يبق لحياهم وعصيتهم عين ولا أثر، فإنهم بسبب معرفتهم لحدود السحر عرفوا أن أمر العصا خارج عن صناعة السحر، وعن حدود القدرة البشرية، ولذا آمن السحرة بأن أمرها من الله (عالي).

وكانت فلسطين وسوريا في عصر المسيح مستعمرة لليونان، وفيها منهم نزلاء كثيرون، فكان للطب فيها رواج ظاهر، وكان في الفصل الثالث عشر والرابع عشر من سفر اللاويين من التوراة الرائجة تعليم طويل في تطهير القرع والبرص والقوباء، بنحو يختص بروحانية الكهنوت، ويؤهم أنه من بركات الكهنة والآثار الروحية، وإن كان من نحو الحَجَرِ الصَّخِي، فلأجل ذلك كانت معجزات المسيح بشفاء الأبرص والأعمى والأثمة، مما يعرفون أنه خارج عن حدود الطب ومزاعم الكهنة وقُدرة البشر، ومن خارق العادة الذي لا يكون إلا بقُدرة الله (عالم).

حكمة كون المعجز للعرب هو القرآن

وأما العرب الذين ابتدأت بهم دعوة الإسلام في حكمة سيرها في الإصلاح، فقد كانت معارفهم نوعاً منحصرة بالأدب العربي، وكانوا خالين من سائر العلوم والصنائع المفاضة للعلم والتعلم، فلم يكونوا يميزون حدودها العادية بحسب موازين العلم والتعلم وأسرار الطبيعيات، المنقادة بقوانينها للباحث والممارس والمتعلم والمجرب والمكتشف، والداخلية تحت سيطرة العلم والتعلم، فلا يعرفون من الأعمال ما هو خارج عن هذه الحدود وخارق للعادة ولا يكون إلا بإعجاز إلهي، فكل عمل مُعْجَز من غير الأدب العربي بمجرد مشاهدتهم له أو سماعهم به يسبق إلى أذهانهم، ويستحكم في حسابهم أنه من السُّحْرِ، أو من مهارة أهل البلاد الأجنبية في الصنائع وتقدمهم في العلوم وأسرار الطبيعيات وقوانينها، ولا يُدْعَنون بأنه مُعْجَز إلهي بل يسوقهم شك الجهل إلى المجهود، خصوصاً إذ كان ذلك محتججاً به النبي على دعوى ودعوة ثقيلتين على ضلالتهم، باهظتين لعاداتهم الوحشية وأهواء الجهل.

نعم، برعوا بالأدب العربي وبلاغة الكلام التي تقدموا فيها تقدماً باهراً حتى قد زها في عصر الدعوة روضه الخميل، وأبنت حداثته، وفانى مجده، وقرروا له المواسم، وعقدوا المحافل للمفاخرة بالرقى فيه، فرقت بينهم صناعته إلى أوج مجدها، وزهت بأجل مظاهرها، وأحاطوا بأطرافها وحددوا مقدورها، فعاد المرء منهم جَذْ خبير بما هو داخل في حدود القُدرة البشرية، وما هو خارج عنها، ولا يصدر على لسان بشر ابتداءً

إلا بناية إلهية خاصة خارقة للعادة البشرية لحكمة إلهية شريفة.
ولذا اقتضت الحكمة الإلهية - وقه الحكمة البالغة - أن يكون القرآن الكريم هو المعجز المعنون والذي عليه المدار في الحجّة لرسالة خاتم النبيين وصفة المرسلين (صلوات الله عليهم أجمعين)، فإنه يكون حُجّة على العرب بإعجازه وبلاغته وبمعجزهم عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله، وبخضوعهم لإعجازه وهم الخبراء في ذلك، ويكون أيضاً حُجّة على غيرهم في ذلك، وإنه هو الذي يدخل في حكمة المعجز والإعجاز في شمول الدعوة للعرب وابتدائها بهم، بحسب سيرها الطبيعي على الحكمة، وبه تتم فائدة المعجز على وجهها.

امتيازها عن غيره من المعجزات

مضافاً إلى أنه امتاز عن غيره من المعجزات وفاق عليها بأكبر الأمور الجوهرية في شؤون النبوة والرسالة ودعوتها:

فمن ذلك أنه باقى مدى السنين ممثلاً بصورته ومادته لكل من يريد أن يطلع عليه، ويأرأس أمره، وينظر في أمره، ويعرف كنهه وحقيقته، فهو باقٍ في كل آن ومكان، لكل من يطلب الحجّة على النبوة والرسالة، ويريد النظر في حقيقة معجزها الشاهد لصدقها، ماثلاً لكل من يريد النظر في الحقائق، ولا تحتاج معرفة حقيقته ووجه إعجازه إلى أساطير النقل ومماراة قال أو قيل. فلا يحتمل أمره أنه دُبرّت دعواه لبيل، ولا يُستراب من أمره باحتال التمويه، بل ينادي هو بنفسه في كل زمان ومكان: هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ^(١)، وكلّه خيار فائق متفوّق.

(١) في الحديث: أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ «ع» دَخَلَ بَيْتَ الْمَالِ فَقَالَ: يَا سَحْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ، احْمَرِّي وَابْيَضِي وَغَرِّي غَيْرِي، وَأَنْتُمْ:

هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلُّ جَانٍ يَهُدُ إِلَى فِيهِ

ويريد أنه لم يطلّع بشيء من فيه المسلمين بل وضعه مواضعه.

وقيل: المثل لقروين عدي اللخمي، ويضرب للرجل يترك الاستئثار، ويُؤثّر صاحبه بخيار ما عنده. أنظر

«المستقصى» ٢: ٣٨٦، جمهرة الأمثال ٢: ٣٦٠، لسان العرب - جنى - ١٤: ١٥٥، النهاية ١: ٣٠٩.

ومن ذلك أنه بنفسه ولسانه وصريح بيانه، قد تكفل بالإتيان لجميع المقدمات التي تنتظم منها الحجّة على الرسالة الخاصّة وشهادة إعجازه لها، ولم يوكل أمر ذلك إلى غيره ممّا يختلج فيه الرّيب، وتعرض فيه الشُّبهات، وتطول فيه مسافة الاحتجاج، وتكثر صعوباته، فالتفت وأعرّف ذلك من أمور:

الأول: أنّه تكفل ببيان دعوى النبيّ للنبوة والرّسالة كما في سائر النبوات.
الثاني: أنّه تكفل في صراحة بيانه بالشهادة للنبوة والرّسالة، فلم تبق حاجة لدلالة العقل ودفع الشبهات عنها.

الثالث: أنّه تكفل في صراحته المتكرّرة ببيانه لكلمات مدعي رسالته، وأطرى بصلاحه وأخلاقه الفائقة كما هو معروف، فمهدّ المقدمات اللازمة في البيان وصورة الاحتجاج، بأنّه لو كان كاذباً لكان ظهور المعجزة له من الإغراء بالجهل القبيح، الممتنع لقبحه على جلال الله وقُدسه (تعالى عنه)، وإليك فاسمع بعض ما جاء في القرآن في بيان هذه الأمور الثلاثة:

ففي سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).
وسورة النجم المكيّة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٢).

وفي سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾^(٣).
وفي سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤).

وفي أوائل سورة القلم المكيّة: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ * بِأَيْتِكُمُ الْفِتْنُ * إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٥).

(١) الآية: ١٥٨.

(٢) الآية: ٢ - ٤.

(٣) الآية: ٢٩.

(٤) الآية: ٤٠.

(٥) الآية: ٢ - ٧.

وقوله (عالي): ﴿وَذُؤْا لَوْ تَذَنُّنُ تَذْهِنُونَ﴾^(١).

وفي سورة الأعراف: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

وفي سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَذَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾^(٣).

الأمر الرابع: أنه تكفل بنفسه دفع الموانع عن الرسالة والنبوة، إذ بين مواد الدعوة وأساسياتها ومعارفها وقوانينها الجارية بأجمعها، على المعقول من عرفانها وأخلاقيها واجتماعيها وسياسيها، فلا يوجد فيها ما يخالف المعقول ليكون مانعاً عن النبوة.

وفي سورة الإسراء المكية: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٤) وديونك القرآن الكريم، وحققت وتبصر وتنور فيها تضمنه من هذه المواد الشريفة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

الأمر الخامس: أنه زاد على كونه معجزاً بنفسه بأن كرر النداء والمصارحة في الاحتجاج بإعجازه، وتحدي الناس، وأعلن بالحجة، وهتف بهم هتافاً مكرراً، مؤكداً بأن يعارضوه لو لم يكن معجزاً، ويأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو سورة واحدة من مثله، إن كان مما تناله قدرة البشر المحدودة.

وقد نادى بقرار الإنصاف والمباشرة، وجعل لهم إن أتوا بعشر سور، أو سورة من مثله، أن تسقط عنهم هذه الدعوة، ويستريحوا من ثقلها الباهظ لضلالتهم، ويدعوا من يستطيعون عقلاً أن يدعوه من دون الله، لو استطاعوا أو وجدوا إلى ذلك من المعقول سبيلاً.

جعل لهم ذلك من باب المباشرة والمجاراة في الحجة، تعليقاً على المستحيل، ولهم في ذلك المهلة والأناة ليعيدوا عدتهم في المظاهرة والتعاون، ففي سورة هود المكية: ﴿أَمْ

(١) الآية: ٩.

(٢) الآية: ٨٥٧.

(٣) الآية: ٤٥ و ٤٦.

(٤) الآية: ٩.

يَقُولُونَ أَفَرَأَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴿٢﴾

وفي سورة يونس المكية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣)

وفي سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - فِيمَا تَدْعُوهُمْ وَنَصِيحَتِهِمْ بِهِ - فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي﴾ (٤)

وفي سورة الإسراء المكية: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٥)

هذا وقد مضت لهم عدة أعوام ودعوة الرسالة والإعذار والإنذار والاحتجاج بإعجاز القرآن دائمة عليهم، وهم في أشد الضجر من ذلك والكرهية له والخوف من عاقبته، وفي أشد التألم من آثار الدعوة وتقدمها وظهورها، وفي أشد الرغبة في أهوانهم وعاداتهم الوحشية ورناساتهم والعكوف على معبوداتهم، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعارضوا شيئاً من القرآن الكريم، ولو بأن يأتوا بسورة من مثله، لكي تظهر حججهم، وتسقط عنهم حجة الرسول، ويستربحوا من عناهم وقلقهم وآلامهم، من دعوته التي شتت جامعتهم الأوثانية، وهددت رناساتهم الوحشية وتشريعاتهم الأهوائية، وفترت بين الأب منهم وبنيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه، والقريب وقريبه، وكذرت صفاءهم، ونافرت بين عواطفهم.

وقد سامهم في دعوته إصلاحاً وخضوعاً، لم يكونوا يحتسبونه، ولم يجحدوا لذلك حيلة إلا المجحود السخيف، والعناد الشديد، وقساوة الاضطهاد، والاستشفاع بأبي

(١) الآية: ١٣ و ١٤.

(٢) الآية: ٣٨.

(٣) الآية: ٢٣ و ٢٤.

(٤) الآية: ٨٨.

طالب في ترك الرسول لدعوته، أو تمردهم بالمثابرة الوحشية، فافتحموا فيها الأهوال، وتجشّموا المصاعب، وقتل الأقارب والإخوان، ومقاساة الشدائد، وذلة المغلوبة.

فلماذا لم يتظاهروا بأجمعهم عشر سنوات أو أكثر ويأتوا بشيء من مثل القرآن الكريم، ولو سورة واحدة، ويفاخروا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويحاكموه في المواسم والمحافل التي أعدوها لمثل ذلك، فتكون لهم الحجة والانتصار في الحكومة وقرار النصفة، وينادوا بالعلية، ويستريحوا من عناء هذه الدعوة وتهديدها لضلالهم؟

فلماذا لم يفعلوا ذلك، والقرآن والرسول قد دَعَاهُم إلى ذلك تعجيزاً وهم هم، وينابيع فصاحتهم وبلاغتهم غزيرة، وغرائزهم في الأدب العربي متدققة، وقرائحهم سيالة، ومواد القرآن في مفرداته وتراكيبه من لغتهم، وأسلوبه من نحو صناعتهم التي لهم فيها الممارسة التامة، والمهارة الفائقة، والرقي المعروف؟ وقه الحجة البالغة.

ولو كان هناك أقل قليل من المعارضة والإتيان بسورة واحدة من مثل القرآن، لرفعه الضلال ناراً على علم، واحتفلت به ألوف الألوف من أزداد الإسلام والقرآن، ولسجلته دواوينهم في أقطار الأرض وأجيال الأمم، وتلقوه بأحسن ابتهاج، وصالوا به أكبر صولة، لأنه الفيلس السلمي والحجة الأدبية التي ما فوقها حجة لهم في الجدل والبرهان.

ولكن هل سمعت أن أحداً نَس في ذلك بينت شفة، أو أجرى فيه قلم، وإن أمر ذلك بمعزل عن داخلية الإسلام، لكي يقال إنه أخفته شوكة المسلمين أو دسائس تواطئهم؟ بل إن بذرتهم ومغرسه وسوره وحفظه وحياطته ترجع إلى ألوف الألوف في كل جيل من أنصاره أزداد الإسلام والقرآن، سواء كان ذلك قبل الهجرة أو بعدها، أو بعد زمان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ألا ترى أنه بعد أن ضرب الإسلام بجِرانه^(١) في جزيرة العرب، بقي في اليمن وسوريا والعراق كثير من اليهود والنصارى وأمنائهم، وهم الألوف أو ألوف الألوف من العرب، أو من يعرف اللغة العربية ويتكلم بها ويتأدب بأدابها، وأضف إلى ذلك

المتأقين الذين كانوا يكيدون الإسلام جهد وسعيهم في عصر الرسول وبعده، فهل يُعني هؤلاء ما هو ضالتهم المنشودة، وسلاح سطوتهم، وعدة صولتهم، وأقطع حجة لهم، وأكبر مدافع عن أديانهم؟ فإنه لا عطر بعد عروس^(١)، ولكن ماذا يصنعون بالعدم، وعدم القدرة من التأخر على الاختلاق.

ومما يشهد لما ذكرناه، ويجلو تخيله لبداية الاعتبار، أن اليد الأثيمة غلبت بسنوح الفرصة حتى على المحدثين والمفسرين، فدرست في كثير من كتب التفسير خرافة الغرائق، وخرافة سبب النزول في آية التمني من سورة الحج^(٢) كما نجده في أكثر التفاسير^(٣)، فلوئت قدس رسول الله (صلواته عليه وآله وسلم) بها شاءت وسنحت به لها الفرصة، وكذا قدس جميع الأنبياء والمرسلين في حديثهم وتلاوتهم، بحيث لا يبقى بهم أدنى ونوق في ذلك^(٤).

هذا في وجهة الإعجاز الذي تقوم به الحجة على العرب. وإن للقرآن المجيد أيضاً وجوهاً من الإعجاز مما يشترك في معرفتها كل بشر ذي رشد إذا أطلع عليها، وهي عديدة نشير إلى بعض منها في هذا المختصر.

إعجازه من وجهة التاريخ

لا نقول بذلك بمحض إخباره عن الحوادث الماضية والأمم الخالية، وإن كان

(١) مثل بضرب في ذم ادخار الشيء وقت الحاجة إليه، أنظر مجمع الأمثال ٢: ٣٤٩١/٢١١، المستقصى ٢: ٩١٩/٢٦٣.

(٢) الحج ٢٢: ٥٢.

(٣) أنظر تفسير التقي ٢: ٨٥، تفسير الطبري ١٧: ١٣١، التفسير الكبير ٢٣: ٤٩، تفسير التبيان ٧: ٣٢٩، الكشاف ٣: ١٦٤، الدر المنثور ٦: ٦٥ - ٦٩.

(٤) أنظر في الجزء الأول من كتاب (الهدى): ١٦٨ - ١٧٠ والجزء الأول من (الرحلة المدرسية): ٣٧ و٣٨ «متنوعاً شريفاً». الكتابان للمؤلف الأول (الهدى إلى دين المصطفى) رد على كتاب (الهداية) لأحد علماء التصاوي، والتاني (الرحلة المدرسية) موضوع على شكل محاورات بين جماعة من الدارسين للكتب السبائية، بأسلوب مقارن ولسان عصري شيق، يتوصل من خلاله إلى إثبات أحقية الديانة الإسلامية مع التطرق لموضوعات أخرى مختلفة.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي جاء به لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدخل مدرسة، ولم يبارس تملُّماً، كما هو المعلوم من تاريخ حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنه يمكن أن يقال إنَّ هذا الإخبار المذكور ممكن في العادة لنوع البشر، وإن كان معرضاً للغلطات التي لا تُقال، بل نقول إنَّ القرآن الكريم اشترك في تاريخه في بعض القصص مع التوراة الرائجة التي اتفق اليهود والنصارى على أنَّها كتاب الله المنزل على رسوله موسى، فأوردت هذه التوراة تلك القصص، وهي مملوءة من الخرافات أو الكفر أو عدم الانتظام، الذي تشابه فيه كلام المبطل بالبرَّسام^(١):

فمن ذلك قصة آدم في نهي الله له عن الأكل من الشجرة، وما فيها من الخرافات والكفر بنسبة الكذب والخداع إلى الله (جلَّ جلاله)، وسائر شؤون القصة على ما جاء في الفصل الثالث من سفر التكوين.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الخامس عشر منه من شك إبراهيم في وعد الله له بإعطائه الأرض في سوريا، ومن ذكر العلامة في ذلك.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثامن عشر والتاسع عشر في بحى الملائكة إلى إبراهيم بالبشرى بإسحاق، وإخباره بأمر هلاك قوم لوط، ومن حكاية ذهابهم إلى لوط وخطابهم معه.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثالث من سفر الخروج، في خطاب الله لموسى من الشجرة، وفي أواخره ما حاصله أنَّ الله (جلَّ جلاله)، افتتح الرسالة لموسى بالتعليم بالكذب.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثاني والثلاثين في سفر الخروج في أنَّ هارون هو الذي عمل العجل ليكون إلهاً لبني إسرائيل، ودعا لعبادته، وبني له رسوم العبادة، فانظر إلى هذه القصص في مواردها المذكورة من التوراة الرائجة.

والقرآن الكريم أورد القصة الأولى في سُورتي الأعراف وطه، والثانية في أواخر سورة البقرة، والثالثة في سُورتي هود والذاريات، والرابعة في سُور طه والنمل

(١) البرَّسام: ذات الجنِّب، وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة والمعجم الوسيط - برسم - ١: ٤٩.

والْقَصَص، والخامسة في سُورَتَيْ طه والأعراف، فجاءت هذه الْقِصَص بِكرامة الوحي الإلهي مُنْزَعَةً عن كُلِّ خُرافة وكفر، وعن كُلِّ ما ينافي قُدس الله وقُدس أنبيائه، جاريةً على المعقول، منتظمة الحُجَّة، شريفة البيان، وذلك ممَّا يُقيم الحُجَّة ويوجب اليقين بأنَّه لا يكون إلَّا من وحي الله، ولا يكون من بشر بما هو بشر، مثل رسول الله الذي لم يَارسَ تعلُّماً في المعارف الإلهية، ولم يتخرَّج عن مدرسة، ولم يترَبَّ إلَّا بين أعراب وحشيين وثنيين على أوحش جانب من الوحشية والوثنية، بل لو مارس جميع التعاليم، وتخرَّج من جميع الكليات، لما أمكنه أن يشرَّه ويُزَّه معارفه وكلامه من أمثال هذه الخُرافات الكُفْرية.

لم يكن في ذلك العصر وما قبله إلَّا تعاليم اليهود والنصارى، وأساسها في الديانة مبنية على ما أشرنا إليه من خُرافات التوراة الرانجة، فهم عُكوف عليها في عبادتهم ومواسمهم وتعاليمهم ومدارسهم، أو تعاليم الوثنيين ومنهم قومه، تلك التعاليم الجُهليَّة الخاسئة، أو تعاليم المجوس المنسعبة من كُلا التعليمين المذكورين.

فإنَّه (صلى الله عليه،) لو كان أخذ الْقِصَص المذكورة من ذات التوراة الرانجة بالإتقان، أو من الروحانيين المسيطرين على تعليمها، وأراد أن يتقول بها على الوحي نزلاً أو مُحاذعةً لهم، ليستجيبوا إلى اتِّباع دعوته. لأنَّى بها على ما في التوراة من الخُرافة والكفر.

ولو كان أخذها سطحياً من أفواه الرجال كما يأخذ الأمي من ألسن العامة، لَزاد عليها أضعاف خُرافاتها وكفرها، كما تستلزمه وتوجيه أُميته وتربيته وجهل قومه وبلاده وحشيتهم ووثنتهم.

لكن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١) إلى رسول لا تأخذه في تبليغ الحقائق لومة لائم أو محالفة أُمم، فانظر إلى تفصيل ذلك في الجزء الأول من (الرحلة المدرسية)^(٢) وعلى هذا النحو يجري الكلام فيها ذُكر في العهد القديم، الذي يعدُّه أهل الكتاب من

(١) النجم ٥٣: ٤.

(٢) الرحلة المدرسية ١: ٧ - ١١ و ٤١ - ٤٧ و ٥٨ و ٣١ - ٣٤ «منه قدس سره».

الوحي الصادق، حيث نُسبَ إلى أيّوب أشنع الاعتراض على الله والجَزَع من قضائه، ونسبة الظلم إليه (جَزَعاً)، وطلب المحاكمة معه، حتّى أنّه صار يوبّخ واعظيه والناهين له عن هذه الجريمة ويسفّه رأيهم، ونُسبَ الزنا إلى داود بأشنع وجه، ونُسبَ إلى سليمان أنّه تمادى في تأييد الشرك بالله والعبادة الأوثانيّة، وكثر منه بناء المباني لعبادة الأوثان. وقد كُثرت مصائب الأناجيل في القَدَح بقدس المسيح، مع صغر حجمها وقلة مكتوبها، فنُسبت إلى قدسه شرب الخمر، وتكرّر الكذب، والأحوال المنافية للعِفّة، وانتهاره لوالدته، وقَدَحِه في قداستها، والقول بتعدّد الآلهة والأرباب وغير ذلك ممّا سنُسبِر إليه.

وجاء رسول الله (سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بوحى قرآنه مُنزَهاً لهؤلاء الأنبياء، ومُبرِّهاً لهم عن هذه الوَصَمَات الشنيعة، فانظر إلى تفصيل ذلك في الجزء الأوّل من كتاب (الهدى)^(١). وعلى هذا النحو يجري الكلام أيضاً فيما ذُكر في التوراة والعهد القديم من القصص المُخرَافية المنافية لجلال الله وقُدس أنبيائه، وشرفهم وعائلاتهم، كما في خُرَافات اختباء آدم عن الله، وبرج بابل، وشأن لوط مع الخمر وابنتيه، والمصارعة مع يعقوب، ومُخادعة يعقوب لأبيه، وتكرّر كذبه عليه، وقِصّة يهوذا مع كَنْتِه ثامار، وولادة سبط يهوذا الذي منهم داود وسليمان وكثير من الأنبياء، وقِصّة آمنون بن داود وابن عمّه مع أخته ثامار، وملاعبب شمشون، ومشورة الله (جَلَّ جَلالُهُ) مع جُنْد السَّاء في إغواء آخاب ملك إسرائيل، وكثير من ذلك^(٢).

ولأجل أنّ القرآن الكريم كلام الله القُدّوس ووحيه، لم يذكر شيئاً من ذلك، ولو كان من اختلاق رسول الله (سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) كما يزعم الظالمون، لامتنع في العادة على البشريّة وأغراضها وتزلفاتها أن لا يذكر شيئاً من ذلك مع ما فيها من القَعَمَة التاريخية، وإنّ البشر الذي يتطلّب قصص العهدين ويذكرها في كلامه وأغراضه لا

(١) الهدى إلى دين المصطفى: ٩٣ - ١٠٨ و ١٠٩ - ١١٥ و ١٢٥ - ١٣٤

(٢) انظر إلى ذلك في (سفر التكوين) في الإصحاح الثالث، والحادي عشر، والتاسع عشر، والتاسع والعشرين، والثامن والثلاثين، وفي الثالث عشر من (صموئيل الثاني)، والرابع عشر إلى السابع عشر من (سفر القضاة)، والثاني

والعشرين من (الملوك الأول)، والثامن عشر من (الأيام الثاني)، «متنقّصاً».

يفوته ما أشرنا إليه.

إعجازه من وجهة الاحتجاج

نهض رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتعليم البشر وتنوير بصائرهم في عصر الظلمات والجهل والعمى، وإرشادهم إلى حقائق المعارف التي حجبها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور المظلمة، تلك الظلمات التي استولت على أرجاء العالم بحيث لم تدع أن يتفدح من نور الحق للعقول المغلوبة أقل بصيص، فجاء (صلى الله عليه وآله وسلم) في قرآنه بكثيرٍ غزيرٍ من الحجج الساطعة على أهم المعارف وأشرفها، تلك الحجج الجارية على أحسن نهج وأعم نفعاً في الاحتجاج والتعليم.

جاء بها على أرقى نحو يستلقت العامي إلى نور الفريزة الفطرية، فيمتلئ لمشوره، وإلى سناء البديهات فيجلوه لإدراكه، ويمرر بمؤدى تلك الحجج مع الفيلسوف في قوانين المنطق وتنظيم قياساته على أساسيات المعقول، فاحتج على وجود الإله ولوازم إلهيته، وعلمه وقدرته، وتوحيده، وعلى المعاد الجسماني، وعلى أن القرآن وحى إلهي، وعلى صدق الرسول في دعوته، فلا يكاد يوجد في شيء من هذه الحجج خلل عرفاني، أو فني أدبي، أو شائبة اختلاف، أو شائبة من تناقض.

فإذا فرضت أي بشر يكون في ذلك العصر المظلم ومثلت نشأته وتربيته بين الأعراب الوحشيين الوثنيين في تلك البلاد الماحلة من كل تعليم، والقاحلة من كل فضيلة في المعارف، وأنه لم يتعاط تعليماً ولا تأدباً على معلم، ولا قراءة مكتوب، ولا دراسة كتاب، علمت أنه يمتنع عليه في العادة بما هو بشر، وبلا وحى إلهي إليه، أن يأتي ببيان المعارف الصحيحة، والمناقضة للجهل العام في عصره وبينته وقومه، ويحتج عليها بتلك الحجج النيرة القيمة، على ذلك المنهاج الممتاز بفضيلته.

وإن شئت أن تزداد بصيرة فيما ذكرناه فانظر إلى ما في الأنجيل، مما نسبته إلى احتجاجات المسيح، وحاشاً قدسه منه، ومما ذكرته من الحجج الساقطة الفاسدة على أمور أكثرها ضلال أو غلط، كالاتجاج على تعدد الآلهة وعلى تعدد الأرباب، وعلى المنع من الطلاق، وانظر إلى ما اشتملت عليه من الغلط والتحريف.

نعم، ذكرت الاحتجاج على القيامة من الأموات، ولكن ماذا جاءت به من الغلط والخبث في الحجة وأحوال القيامة؟ وإن شئت الاطلاع على شيء من ذلك فانظر في الجزء الأول من كتاب (الهدى)^(١) والجزء الأول من (الرحلة المدرسية)^(٢).

إعجازه من وجهة الاستقامة والسلامة من الاختلاف والتناقض

قد خاض القرآن الكريم في فنون المعارف والإصلاح، مما يتخصص فيه المتأززون بالرقي، في أبواب الفلسفة والسياسة والخطابة والإصلاح، من علم اللاهوت، أو الأخلاق، أو التشريع المدني والتنظيم الإداري، أو الفن الحربي، أو البشري والترغيب بالجلاء، أو الإنذار والتهديد بالنكال. أو الحجج والأمثال، أو تذكرة المواعظ والعبر.

وجرى من ذلك في الميادين الشريفة بأحسن أسلوب وأقوم منهج، وبلغ في جميع ذلك أكرم الغايات وأعلاها في الرقي، وهو يكرّر بحسب الحكمة كثيراً من قصصه ومقاصده، وفي جميع ذلك لم تُشبه زلة اختلاف، ولا عُثرة تناقض، ولا وهن اضطراب، ولا سقوط حجة، ولا فساد مضمون، ولا سخافة بيان، وما هو بارز في جميع العالم لكل من يريد الهدى والفحص والتدبر، ينادي بأبهة الافتخار وجمال السداد، وشوكة الاستظهار: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٣) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٤) منتشراً في أبوابه ومقاصده.

فهل يمكن في العادة أن يكون كل هذا من بشر، قد ذكرنا لك عصره ونشأته وتربته وبلاده وقومه وجهلهم الوحشي الوثني؟ ولك العبرة بكتب المهديين، وهي التي منذ قرون عديدة يصفق لاستحسانها أكثر العالم المفتخر بالعلم والتمدن، وينسبونها بكمال الاحتفال إلى كرامة الوحي، فكم وكم يوجد فيها من الوهن والسقوط

(١) الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٥٦ - ١٦٦

(٢) الرحلة المدرسية ١: ١٤٣.

(٣) الاسراء ١٧: ٩.

(٤) النساء ٤: ٨٢.

والاختلاف والتناقض؟ وقد ذكر شيء من ذلك في كتب (إظهار الحق) (الهدى) (الرحلة المدرسية).

واعتبر أيضاً بأن كل واحد من الأنجيل لا يزيد على صحيفة أسبوعية، وقد كثر فيها الخبط والتناقض والاختلاف إلى حد مهول مدهش، وقد ذكر شيء منه في الجزء الأول من كتاب (الهدى)^(١). وأيضاً إن الأنجيل وكتب العهد الجديد مؤسسة على أن كتب العهدين الرائجة هي كتب وحي إلهي صحيحة، إذن فاعتبر بأنه كم وقع الاختلاف والتناقض بين الأنجيل والعهد الجديد، وبين العهد القديم، وقد ذكر شيء مما ذكرنا في الجزء الأول من (الرحلة المدرسية)^(٢).

إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية

قدّر رسول الله صلى الله عليه وآله رسماً بشراً عادياً في مثل ما ذكرناه مراراً في عصره ونشأته وتربيته وبلاده وقومه وجهلهم وعاداتهم الوحشية، ثم انظر هل يمكن في العادة لمثل هذا البشر - إذا لم يكن موحى إليه - أن يأتي من عنده ومن بشرته بمثل ما أتى به في القرآن الكريم من الشريعة الحقوقية العادلة والقوانين القيمة والأنظمة المعقولة، الجارية بأجمعها على ما هو الصالح للبشر في المدنية والاجتماع والسياسة والحرب ومقدماتها ونتائجها، وجرّت في عنايتها بالإصلاح من إدارة جميع العالم إلى الإدارة العائلية والبيئية والزوجية، بل وإلى شؤون الكاتب والشاهد، كما في سورة البقرة آية (٢٨٢)^(٣) فنمت فيها من مضارة الكاتب والشاهد، ونهت عن أن يُحْمَلَا من أجل الكتابة والشهادة وأدائها ضرر المشقة والعناء، وتضييع وقت أكثر من الوقت الطبيعي لمحض الأداء، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

وإليك فانظر ما في القرآن الكريم من الشرائع والقوانين العامة والخاصة، واعتبر بكرامتها ومجدها في التشريع الفائق والإصلاح الحميد، ولا تحتاج معرفة مجدها

(١) الهدى إلى دين المصطفى ٢٤٦:٩ - ٢٧٤.

(٢) الرحلة المدرسية ٩: ١٦٧ - ٢٠٥.

(٣) قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأَلَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وكرامتها إلى المقايسة والاعتبار بشرائع قُطره وقومه، تلك الشرائع الجائرة الوحشية الوثنية.

نعم، تزداد بصيرةً إذا نظرت إلى شرائع التوراة الرائجة، التي يعتبرها اليهود والنصارى في أجيالهم في أكثر من خمسة وعشرين قرناً ويعدونها كتاب وحي إلهي مقدس، فانظر فيها فيها من شريعة تقديس هارون وبنيه، وتفصيل ثيابهم وأوضاعها، وشريعة امرأة الأخ الميت، وتفلفتها، ولدها البكر من الأخ الثاني، وشريعة من ادعى زوجها أنه لم يجد لها عُذرةً، وشريعة قتل الأطفال والنساء من البلاد المفتوحة بالحرب، فإنك تعرف أن هذه الشرائع لا تكون إلا من بشر سخيّف قاسٍ، وتزداد بصيرةً بمجد القرآن الشريف في تشريعه، وإنه لا يكون إلا من وحي إلهي.

وقد أُشير إلى شيء مما ذكرنا في أواخر الجزء الثاني من كتاب (الهدى)^(١) والجزء الأول من (الرحلة المدرسية)^(٢).

وانظر إلى العهد الجديد وإلغائه لنظام المدنية، والأخذ أمام الظلم والعدوان، بحيث ترك العالم بلا نظام رادع، ولا شريعة تأديب عادلة، فإنك تزداد بصيرةً بأن المُتَقَوِّلَ على الوحي في أمر التشريع لا بدّ له من أن يسقط سقطه، تُشوّه التاريخ وتُشوّث منها الحقائق جَزَعاً. فاعرف إذن إعجاز القرآن في تشريعه الممتاز بفضيلة الوحي الإلهي.

إعجازه من وجهة الأخلاق

وإذا نظرت إلى ظلمات العصر والقُطر، والتربية وشيوع الجهل في الأمة، وسوء الأعمال وعدم الدراسة في العلم، أو التخرّج في الفضيلة على الحكماء الصالحين، فإنك ترى هذه الأمور لها أثر كبير في الجهل بالأخلاق الفاضلة، والانحراف عن جادتها، والخلْبُطُ في معرفتها وتمييز حدودها. فلا تردّ البشر إلى الاستقامة في ذلك تكلفات الفكر

(١) الهدى إلى دين المصطفى ٢: ٣٣٨ - ٣٥٠.

(٢) الرحلة المدرسية ١: ٨٣ - ٨٧.

المحاط بالجهل العام والجيل المظلم والقطر الوبيء من نزغات الأهواء، ولئن حاول الرجل المريد للصالح حينئذ شيئاً من تهذيب الأخلاق، لم يهتد السبيل في قوله وعمله إلا إلى شيء يُشير إليه التداول بين جملة من الناس، ولئن تكلف المتفلسف شيئاً من التعليم بالأخلاق خَبَطَ فيها خَبِطاً، غلب فيه الجهل والزلل، وتتابع فيه العثرات. ومن بين تلك الظلمات المذكورة بَرَعَ القرآن الكريم بأنواره، وأتى بما لا تسمح به العادة بأن يأتي به في تلك الظلمات بشر من عند نفسه وتقوُّلاً على الوحي، فجاء في إجماله وتفصيله مستقصياً للأخلاق الفاضلة على حُدودها، بالحث على التزيّن بها بما توجبه الحكمة من البعث والترغيب، ومحصياً للأخلاق الرذيلة، بالزجر عن التلوّث بها بما يوجبه الإصلاح من الإرهاب والتنفير، وأقام لذلك في العالم أشرف مدرسة زاهرة، وأعلى فلسفة مُرشدة، وأبلغ خطابة واعظة.

والإك بعضاً من جوامعه في ذلك: كقوله (سار) في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

ومن سورة الفرقان ما في الآية الثالثة والستين إلى الخامسة والسبعين^(٢).

ومن سورة المعارج ما في الآية الثالثة والعشرين إلى الثالثة والثلاثين^(٣).

ومن سورة الحجرات ما في الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة^(٤).

وغير ذلك ممّا لا يكاد أن تخلو منه سورة، أو يتخطّاه تعليم، أو يحايى به قوم دون قوم، أو يتجاوز بالإفراط إلى التفريط، والإخلال بنظام المدنيّة وراحة الاجتماع.

ولك العبرة بأن التوراة الرائجة فيها وُشِّلَ من تعاليم التوراة الحقيقية، ولكن لأنّها تلفيق واختلاق بشري كُدرت ما فيها من ذلك الوُشْل، وذهبت بصفاء التعليم الإلهي، فأمرت بني إسرائيل بالحكم بالعدل لقريبهم، ونهتهم عن الحقد على أبناء

(١) الآية: ٩٠.

(٢) قوله (سار): ﴿وَعِبَادُ الْأَرْضِ الَّذِينَ يُشْكِنُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَرُونَ﴾ إلى قوله - وَتَلْقَوْنَ فِيهَا حَبِيبَةً وَسَلَامًا -.

(٣) قوله (سار): ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ إلى قوله - وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَاتِبُونَ -.

(٤) قوله (سار): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إلى قوله - وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ -.

شعبهم، وعن السعي بالوشاية، وعن شهادة الزور على قريبيهم، وأن يغدر أحدهم بصاحبه، وبالأأسف على شرف هذا الأمر والنهي، إذ شوّهت جماله بتخصيص تعليمها لبني إسرائيل، وبتخصيص المأمور به والمنهي عنه بالقرب والشعب والصاحب.

ولك المبرة أيضاً بأنّ الأناجيل الرائجة قد أقرطت بتصوّفها البارد، فنهت عن ردع الظالمين بالانتصاف من الظالم، وقطع مادة الفساد بالحدود الشرعية، ودفاع الظالمين، بل علّمت بأنّ من لطمك على خدك الأيمن فأدير له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه، فلوئنت بإفراطها البشري قدس تعاليم المسيح المتلقاة من الوحي الإلهي.

إعجازه من وجهة علم الغيب

وقد تكرر في القرآن مُعْجَزه في إخباره بالغيب، إخباراً يقتضي التكهن والفراسة خلافة، من حيث النظر إلى الحال الحاضر وطُفيان الشرك وُضعف الدعوة الإسلامية، وما يجري من النكال والتشريد والجفاء على ملبيها، فمن ذلك قوله في سورة الحجّر المكيّة في الأمر لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإعلان بالدعوة، والبُشرى بنجاحها، وإرغام معانديها ومعارضيه، وكان ذلك عند طُفيان الشرك واستفحال وهيجان المشركين على رسول الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقد كفاه الله أشرف كفاية لم تكن تعلق بها الآمال بحسب العادة، وقد بان للمشركين وعلموا ما في قوله (نار) في آخر الآية: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله في سورة الصف المكيّة في الحال الذي وصفناه من طُفيان الشرك والمشركين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢) فأظهره على الدين أعزّ إظهار، أرغمت به أناف المشركين.

ومن الإخبار بالغبيب قوله (تبارك وتعالى) في سورة الروم: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ في أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿١﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٢﴾ فَقَلَبَتِ الرُّومُ فَارِسَ، ودخلت مملكتها قبل مُضَيِّ عَشْرَ سِنِينَ.

وقوله (تبارك وتعالى) في سورة تَبَّتْ فِي شَأْنِ أَبِي لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٣﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿٤﴾ وهو إخبار بأنها يموتان على الكفر، ولا يحظيان بسعادة الإسلام، الذي يكفر عنها آثام الشرك ويحطُّ أوزاره، فهاتان على الكفر، كما أخبر به إخباراً حتمياً.

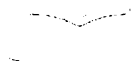
ولك العبرة في ذلك بأنَّ إنجيل متى ذكر إخباراً واحداً غيبياً للمسيح، وهو أنه يبقى مدفوناً في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ولكن ما برح إنجيل متى أن كُذِّبَ في أواخره هذا الإخبار، فوافق الأنجيل الثلاثة الأخر على أنَّ المسيح في مساء ليلة السبت طلب بعض الناس جُثَّتَهُ مِنْ بِيلاطُسَ فَأَنزَلُوهَا عَنْ الصَّلِيبِ، وَكَفَّنُوهَا، وَقَبِلَ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الْمَوْتِ وَخَرَجَ عَنْ قَبْرِهِ، وعلى ذلك لا يكون المسيح بقي في القبر إلاَّ ليلة السبت ونهاره وليلة الأحد، وذلك نهار وليلتان.

هذا وإنِّي عند مقايستي للقرآن الكريم بما يُنسب إلى الوحي الإلهي من كتب الأمم المتديّنة، ومنهم البراهمة والبوذيون وغيرهم، لم يحضر عندي إلاَّ كتب المهديين، فلا ينبغي أن يجعل مقايستي بهما تحاملاً على خصوص اليهود والنصارى، ولي العذر في ذلك، فإنه لا يصحَّ للإنسان أن تأخذه في خدمة الحقِّ وإيضاح الحقيقة وتأبيدها لومة لائم، أو يصدّه عَدْلٌ عَازِلٌ، فَإِنَّ خِدْمَةَ الْحَقِّ نُصْرَةٌ لِلْبَشَرِ جَمِيعاً، والله المستعان.

هذا شيء قليل من البيان في الوجهات المذكورة، إذ لايسع هذا المختصر أكثر من ذلك، وهب أنَّ الِوَسَاسَ تَتَقَحَّمُ عَلَى الْحَقَائِقِ وَتَغَالُطُ الْأَذْهَانَ بِوَاهِيَاتِ الشُّكُوكِ فِي الْإِعْجَازِ بِبَعْضِ أَحَادِثِهَا، وَلَكِنْ هَلْ يُمْكِنُ ذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى مَجْمُوعِهَا، وَهَلْ يَسُوغُ لِذِي الشُّعُورِ أَنْ يَخْتَلِجَ فِي ذَهْنِهِ الشُّكُّ فِي إِعْجَازِ الْكِتَابِ الْجَامِعِ بِفَضِيلَتِهِ هَذِهِ

٤٨.....آلاء الرحمن ج ١ - البلاغي

الكرامات الباهرة، وخروجه عن طوق البشر مطلقاً وخصوصاً في ذلك العصر، وتلك الأحوال، وهل يسمح عقله إلا بأن يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١)؟؟



الفصل الثاني: في جمعه في مُصحف واحد

لم يزل القرآن الكريم بحسب حكمة الوحي والتشريع والمصالح والمقتضيات المتجددة أنا فأنا يتدرج في نزوله نُجوماً^(١) الآية والآيتين والأكثر والسورة. وكلما نزل شيء هَفَّتْ إليه قلوب المسلمين، وانشرحت له صدورهم، وهبوا إلى حفظه بأحسن الرغبة والشوق وأكمل الإقبال وأشدّ الارتياح. فتلقوه بالابتهاج وتلقوه بالاغتنام من تلاوة الرسول العظيم الصادر بأمر الله والمسارع إلى التبليغ والدعوة إلى الله وقرآنه، وتناوله حفظهم بما امتازت به العرب، وعرفوا به من قوة المحافظة الفطرية، وأثبتوه في قلوبهم كالنقش في الحجر.

وكان شعار الإسلام وسمة المسلم حينئذ هو التجلُّم والتكامل بحفظ ما ينزل من القرآن الكريم، لكي يتبصر بحججه، ويتنور بمعارفه وشرائعه وأخلاقه الفاضلة وتاريخه المجيد وحكمته الباهرة وأدبه العربي الفائق المعجز، فأخذ المسلمون تلاوته لهم حُبّة الدعوة، ومُعْجَز البلاغة، ولسان العبادة لله، ولهجة ذكره، وترجمان مناجاته، وأنيس الخلوة، وترويح النفس، ودرساً للكمال، وقريناً في التهذيب، وسلماً للترقي، وتدرّباً في التملُّن، وآية الموعظة، وشعار الإسلام، ووسام الإيمان والتقدّم في الفضيلة.

(١) ولا بدّ من أن تكون كتب الوحي والدعوة والتشريع جارية في كمالها على منهاج هذه الحكمة، ومما يشير إلى ذلك أنّ التوراة الرائجة تذكر أنّ نزول التوراة على موسى «ع. السلام» كان من زمان تكليمه من الشجرة متدرّجاً بحسب الأزمان والحوادث والتاريخ والحكم في التشريع إلى حين وفاته بعد التيه عند عبر الأردن ومترافحاً في أكثر من أربعين سنة. فانظر في شرح هذا المجلد إلى المقدمة الثانية من الجزء الأول من كتاب (الهدى): ٩ - ١٢ منه.

واستمر المسلمون على ذلك حتى صاروا في زمان الرسول يُعدون بالألوف وعشراتهما ومئاتها، وكلهم من حَمَلَةِ القرآن وحَفَاطِهِ^(١) وإن تفاوتوا في ذلك بحسب السابقة والفضيلة، هذا ولما كان وحيه لا ينقطع في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن كله مجموعاً في مُصحفٍ واحد، وإن كان ما أُوحى منه مجموعاً في قلوب المسلمين وكتاباتهم له.

ولما اختار الله لرسوله دار الكرامة وانقطع الوحي بذلك، فلا يُرجى للقرآن نزول تنمة، رأى المسلمون أن يُسجلوه في مُصحفٍ جامع، فجمعوا مادته على حين إشراف الألوف من حفَاطه، ورقابة مكتباته الموجودة عند الرسول، وكتاب الوحي.

(١) أخرج ابن سعد وابن عساکر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: جمع القرآن - أي حفظاً - في زمان النبي (صلى الله عليه وآله) خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبيدة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء [أنظر: طبقات ابن سعد ٢: ٣٥٦، كنز العمال ٢: ٤٧٩٨/٥٨٩، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٧].

وأخرج ابن سعد ويحيى بن سفيان والطبراني وابن عساکر، عن الشعبي، قال: جمع القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ستة من الأنصار: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وأبو زيد. وكان يجمع ابن جارية قد أخذته كله إلا سورتين أو ثلاثة [أنظر: طبقات ابن سعد ٢: ٣٥٥، كنز العمال ٢: ٤٧٩٧/٥٨٩، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٢].

وأخرج ابن عساکر، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كان من ختم القرآن ورسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبداه بن مسعود [أنظر: كنز العمال ٢: ٤٧٩٩/٥٩٠، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٢].

وأخرج عن أنس: قرأ القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) معاذ، وأبي، وسعد، وأبو زيد [أنظر: كنز العمال ٢: ٤٨٨٢/٦١١، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٦١].

وأخرج الحساکم في الصحيح على شرط البخاري ومسلم، عن زيد بن ثابت، قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) نؤلف القرآن من الرقاع [أنظر: المستدرک ٢: ٢٢٩ و٦١١]. وفي رواية: حول رسول الله (صلى الله عليه وآله) نؤلف القرآن [أنظر: نفس المصدر السابق].

فاظهر إلى (كنز العمال) (ومنتخبه) أقلّ، ولم أذكر هذه الروايات احتجاجاً بها للحقيقة المعلومة، ولكن لتجبه بالمعارضة بعض الروايات الشاذة الواردة في خلاف ما ذكرناه من حفظ المسلمين في عصر النبي وبعده للقرآن الكريم «هتة تدر سز».

وسائر المسلمين جُملةً وأبعضاً وسُوراً^(١).

نعم، لم يترتب على ترتيب نزوله، ولم يُقدّم منسوخه على ناسخه^(٢)، فاستمر القرآن الكريم على هذا الاحتفال العظيم بين المسلمين جيلاً بعد جيل، ترى له في كلّ آن ألوفاً مؤلفة من المصاحف، وألوفاً من الحفاظ، ولا تزال المصاحف يُنسخ بعضها على بعض، والمسلمون يقرأ بعضهم على بعض، ويسمع بعضهم من بعض. تكون ألوف المصاحف رقيقة على الحفاظ، وألوف الحفاظ رقباء على المصاحف.

(١) وما يشهد لما ذكرناه ما عن أبي عبيد في فضائله، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه مستنداً عن عمر بن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرأ: «والسابقون الآزلون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان» [التوبة ٩: ١٠٠] فرغم الأنصار، ولم يدخل واو العطف على (الَّذِينَ).

فقال له زيد بن ثابت: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾. فقال عمر: «الذين اتبعوهم بإحسان». فقال زيد: أمير المؤمنين. أعلم.

فقال عمر: إنوني بأي بن كعب. فسأله عن ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فجعل كلّ واحد منها يشير إلى أنف صاحبه بإصبعه. فقال أبي: والله أقرأنها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت تتبع الخط. فقال عمر: نعم إذن، نعم إذن [أنظر، جامع البيان ١١: ٧، الدر المنثور ٤: ٢٦٨، كنز العمال ٢: ٥٩٧/٤٨٢٢، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٥].

وأخرج أبو عبيد في فضائله) وسنيد وابن جرير وأبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي. وأخرج أبو الشيخ في تفسيره، والحاكم في (المستدرک) مصححاً على شرط البخاري وسلم، عن أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي أنه جرى بين عمر وأبي بن كعب في هذه الآية نحو ذلك فأنظر في (كنز العمال) (ومنتخبه) [أنظر، المستدرک ٣: ٣٥٣، الدر المنثور ٤: ٣٦٨، كنز العمال ٢: ٦٠٥/٤٨٥٨، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٦] ههنا نشره.

(٢) نعم من المعلوم عند الشيعة أن علياً أمير المؤمنين (عليه السلام)، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يرتد برداء إلا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله، وتقدّم منسوخه على ناسخه.

وأخرج ابن سعد وابن عبد البر في (الاستيعاب) عن محمد بن سيرين، قال: ثبت أن علياً ابطأ عن بيعة أبي بكر. فقال: أكرهت إمراضي، فقال: أليت يميني أن لا أرتدي برداء إلا للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنه كتبه على تنزله، قال محمد: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم. قال ابن عوف: فسألت عكرمة عن ذلك الكتاب فلم يعرفه [أنظر، سليم بن قيس: ٩٢، الاحتجاج: ٧٥، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٤١، الاستيعاب بهامش الإجابة ٢: ٢٥٣، كنز العمال ٢: ٤٧٩٢/٥٨٨، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٢] ههنا نشره.

وتكون الألوف من كلا القسمين رقيقة على المتجدد منها، نقول الألوف ولكنها منات
الألوف وألوف الألوف، فلم يتفق لأمر تاريخي من التواتر وبداية البقاء مثل ما اتفق
للقرآن الكريم، كما وعد الله (جنته)، بقوله في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

وقوله في سورة القيامة: ﴿إِن عَلَيْنَا جُمُعَهُ وَقَرَأْنَهُ﴾^(٢).

ولئن سمعت في الروايات الشاذة شيئاً في تحريف القرآن وصياح بعضه، فلا
تقيم لتلك الروايات وزناً، وقل ما يشاء العلم في اضطرابها ووهنها وضعف رواياتها
ومخالفتها للمسلمين، وفيها جاءت به في مروياتها الواهية من الوهن، وما ألصقته بكرامة
القرآن مما ليس له شبه به واستمع من ذلك لأمر:

اضطراب الروايات في جمع القرآن

الأمر الأول: جاء فيها: أَنَّ أبا بكر هو الذي أدى رأيه أولاً إلى جمع القرآن،
وهو الذي طلب من زيد بن ثابت جمعه فتقل ذلك عليه، فلم يزل أبو بكر يراجعهم
حتى قيل^(٣).

وجاء فيها أيضاً: أَنَّ زيداً هو الذي أدى رأيه أولاً إلى جمع القرآن وعزم عليه،
وكلم في ذلك عمر، فكلم فيه عمر أبا بكر، فاستشار أبو بكر في ذلك المسلمين^(٤).

وجاء فيها أيضاً: أَنَّ أبا بكر هو الذي جمع القرآن في أيامه^(٥).

وجاء فيها: أَنَّ عمر قتل ولم يجمع القرآن بأمره^(٦).

وجاء فيها: أَنَّهُ هو الذي جمع القرآن^(٧).

(١) الآية: ٩

(٢) الآية: ١٧.

(٣) كنز العمال ٢: ٥٧١/٥٧١، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٣.

(٤) كنز العمال ٢: ٥٧٥/٥٧٢، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٦.

(٥) كنز العمال ٢: ٥٧٢/٥٧٢ و ٥٧٣، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٤.

(٦) كنز العمال ٢: ٥٧٤/٥٧٤، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٥.

(٧) كنز العمال ٢: ٥٧٤/٥٧٤ و ٥٧٥، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٥.

وجاء فيها: أن عثمان هو الذي جمع القرآن في أيامه بأمره^(١).
وجاء فيها: أن عمر هو الذي أمر زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، لما أراد جمع القرآن، أن يُعَلِّي زيد ويكتب سعيد^(٢).
وجاء فيها: أن ذلك كان من عثمان في أيامه، وبعد قتل عمر^(٣).
وجاء في ذلك أيضاً: أن الذي يُعَلِّي أبي بن كعب، وزيد يكتبه، وسعيد يقره^(٤).
وفي رواية أخرى: أن سعيداً وعبد الرحمن بن الحارث يقرانه^(٥).
هذا بعض حال هذه الروايات في تعارضها واضطراباتها، ومن جملة ما جاء فيها ما مضمونه: أن (براعة) آخر ما نزل من القرآن، فهاذا ترى لهذه البراية من القيمة التاريخية؟ فانظر إلى الجزء الأول من (كنز العمال) و(منتخبه) أفاًلاً.

بعض ما ألصق بكرامة القرآن الكريم

الأمر الثاني: في الجزء الخامس من (مسند أحمد) عن أبي بن كعب، قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: فقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾^(١). فقرأ فيها: لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً، فلو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يعمل خيراً فلن يكفره^(٢).

وفي رواية الحاكم في (المستدرک) ورواية غيره أيضاً: إن ذات الدين عند الله

(١) كنز العمال ٢: ٥٨٠ - ٥٨٧/٥٧٤ و ٥٧٧ و ٥٧٩ و ٥٨٠ و ٥٨٢ - ٥٨٥. منتخب كنز العمال بهامش مسند

أحمد ٢: ٤٨.

(٢) كنز العمال ٢: ٥٧٨ و ٥٧٦/٥٧٧، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٧.

(٣) كنز العمال ٢: ٥٨٤ و ٥٧٩/٥٨٤، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٠.

(٤) كنز العمال ٢: ٥٨٧ و ٥٨٩/٥٨٩.

(٥) كنز العمال ٢: ٥٨٧ و ٥٨٩/٥٨٩، منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٥٢.

(٦) الهبة ٩٨: ١.

(٧) مسند أحمد ٥: ١٣٩.

الحنيفية لا المشركة.

وفي رواية: غير المشركة. إلى آخره^(١).

وعن (جامع الأصول) لابن الأثير الجزري: أن الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية^(٢).

وذكر في (المسند) أيضاً بعد هذه الرواية، عن أبي، قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن الله أمرني أن أقرأ عليك. فقرأ علي: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾^(٣) إن الدين عند الله الحنيفية لا المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل خيراً فلن يُكْفَره.

قال شعبة: ثم قرأ آيات بعدها، ثم قرأ: «لو أن لابن آدم واديين من مال لسأل وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب». قال: ثم ختمها بما بقي منها^(٤). انتهى.

وهذه الروايات رواها أيضاً أبو داود الطيالسي، وسعيد بن منصور في (سننه) والحاكم في (مستدرکه) كما في (كنز العمال)^(٥).

وذكر في (المسند) أيضاً، عن أبي واقد الليثي، قال: كنا نأتي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أنزل عليه فيحدثنا. فقال لنا ذات يوم: إن الله (عز وجل) قال: «إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ لأحب أن يكون له ثاب، ولو كان له واديان لأحب أن يكون لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب»^(٦). انتهى.

(١) سنن الترمذي ٥: ٣٨٩٨/٧١١، مستدرک الحاكم ٢: ٢٢٤، كنز العمال ٢: ٥٦٧/٥٤٢.

(٢) جامع الأصول ٣: ٩٧٢/٥٢.

(٣) البينة ٩٨: ١ - ٤.

(٤) مسند أحمد ٥: ١٣٢.

(٥) كنز العمال ٢: ٤٧٤٢/٥٦٧.

(٦) مسند أحمد ٥: ٢١٩.

هب أَنَّ المعرفة والصدق لا يظالمان المحدثين - ولا نقول القصاص - ولا يسألانهم عن هذا الاضطراب الفاحش فيما يزعمون أَنَّهُ من القرآن، ولا يسألانهم عن التمييز بين بلاغة القرآن وعلو شأنه فيها وبين انحطاط هذه الفقرات، ولكن أليس للمعرفة أن تسألهم عن الغلط في قولهم: «لا المشركة» فهل يوصف الدين بأنَّه مشركة؟! وفي قولهم: «الحنيفيَّة المسلمة» وهل يوصف الدين أو الحنيفيَّة بأنَّه مسلمة؟! وقولهم: «إنَّ ذات الدين» وفي قولهم «إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة» ما معنى إنزال المال؟! وما معنى كونه لإقام الصلاة؟!

هذا واستمع لما يأتي، ففي الجزء السادس من (مسند أحمد) مسنداً عن مسروق، قال: قلت لعائشة: هل كان رسول الله يقول شيئاً إذا دخل البيت. قالت: كان إذا دخل البيت تمثّل: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا يتغنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ فمه إلا التراب، وما جعلنا المال إلا لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويتوب الله على من تاب»^(١).

وفي الجزء السادس في إسناده، عن جابر، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لو أنَّ لابن آدم وادياً من مال لتمتني واديين، ولو أنَّ له واديين لتمتني ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»^(٢).

وإسناده أيضاً، قال: سُئل جابر: هل قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): [لو كان لابن آدم وادٍ تمتني آخر؟ فقال جابر: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: لو كان لابن آدم وادٍ من نخل تمتني مثله حتى يتمتني أودية، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب]^(٣) وهل تجد من الغريب أو الممتنع في العادة، أن يكون لابن آدم وادٍ من مال، أو من نخل، أو ليس في بني آدم في كلِّ زمانٍ من ملك وادياً من ذلك، بل أودية؟!

إذن فكيف يصحُّ في الكلام المستقيم أن يقال لو كان لابن آدم، لو أنَّ لابن آدم، أو ليست لو للامتناع؟! ياللمعجب من الرواة لهذه الروايات، ألم يكونوا عرباً، أو

(١) مسند أحمد ٦: ٥٥.

(٢) مسند أحمد ٣: ٣٤٠.

(٣) مسند أحمد ٣: ٣٤٦.

لهم إلمام باللغة العربية؟

نعم، يرتفع هذا الاعتراض بما رواه أحمد في مسند ابن عباس: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب» وكذا ما يأتي من رواية الترمذي عن أنس^(١).

وأيضاً إن تَمَيَّ الوادي والواديين والثلاث، ليس بذنب يحتاج إلى التوبة، إذن فما هو وجه المناسبة بتعقيب ذلك بجملة: «ويتوب الله على من تاب»؟

وإن شئت أن تستزيد مما في هذه الرواية من التدافع والاضطراب، فاستمع إلى مارواه الحاكم في (المستدرک): أَنَّ أبا موسى الأشعري، قال: كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ نَشِئِهَا بِالطَّوْلِ وَالشَّدَّةِ بِـ(براءة) فَأُنْسِيَتْهَا، غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا يتهنى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب».

وذكر في (الدُر المنثور) أَنَّهُ أَخْرَجَهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي مُوسَى^(٢).

وأضف إلى ذلك في التدافع والتناقض ما أسنده في (الإتقان) عن أبي موسى أيضاً، قال: نزلت سورة نحو (براءة) ثُمَّ رُفِعَتْ، وَحُفِظَتْ مِنْهَا: «إِنَّ اللَّهَ سَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلْقَ^(٣) لَهُمْ، وَلَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيَيْنِ لَتَمَنَّى» إِلَى آخِرِهِ^(٤).

وأُسند الترمذي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثانٍ، ولا يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٥).

وها أنت ترى روايات عائشة وجابر وأنس وابن عباس تجعل حديث الوادي والواديين من قول رسول الله وقَتْلَهُ، فهي بسوقها تنفي كونه من القرآن الكريم، ومع ذلك فقد نسبت إلى كلام الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ما يأتي فيه بعض من الاعتراضات المتقدمة مما يجب أن ينزه عنه، ودع عنك الاضطراب الذي يدع الرواية مهزلة.

(١) مسند أحمد ٥: ١١٧، سنن الترمذي ٤: ٢٣٣٧/٥٦٩.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٥٦.

(٣) الخَلْق: النصب «الصالح - خلق - ٤: ١٤٧١».

(٤) الإتقان ٣: ٨٣.

(٥) سنن الترمذي ٤: ٢٣٣٧/٥٦٩.

الأمر الثالث: وبما ألقوه بكرامة القرآن المجيد، قولهم في الرواية عن زيد بن ثابت: كنّا نقرأ آية الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة»^(١).

وفي الرواية: عن زُرّ، عن أبيّ: أنّ سورة الأحزاب كانت تضاهي سورة البقرة، أو هي أطول منها، وأنّ فيها أو في أواخرها آية الرجم، وهي: «الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة نكالا من الله والله عزيز حكيم»^(٢).

وفي رواية السّيّاري من الشيعة: عن أبي عبد الله (عليه السلام)، بزيادة قوله: «بها قضا من الشهوة»^(٣).

وفي رواية (الموطأ) والمستدرک) ومسند وابن سعد، عن عمر كما سيأتي: «الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة»^(٤).

وفي رواية أبي أمامة بن سهل: أنّ خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آية الرجم: «الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة بها قضا من اللذة»^(٥).

ونحو ذلك رواية سعد بن عبد الله وسليمان بن خالد من الشيعة، عن أبي عبد الله (عليه السلام)^(٦).

ويا للعجب كيف رضي هؤلاء المحدثون لمجد القرآن وكرامته أن يلقى هذا الحكم الشديد على الشيخ والشيخة بدون أن يذكر السبب، وهو زناهما أقلّاً، فضلاً عن شرط الإحصان، وإنّ قضاء الشهوة أعمّ من الجماع، والجماع أعمّ من الزنا، والزنا يكون كثيراً مع عدم الإحصان؟
سأحبنا من يزعم أنّ قضاء الشهوة كناية عن الزنا، بل زد عليه كونه مع

(١) مستدرک الحاكم ٤: ٣٦٠، البتّة: منصوبة على المصدر، يقال لكل أمر لا رجعة فيه «الصحيح - بنت - ١ - ٢٤٢».

(٢) مستدرک الحاكم ٤: ٣٥٩، الاتقان ٣: ٨٢، كنز العمال ٢: ٥٦٧/٥٧٤٣.

(٣) فصل الخطاب: ٨٦ عن القراءات للسّيّاري.

(٤) الموطأ ٢: ٨٢٤/١٠، كنز العمال ٥: ٤٣٢/١٣٥٢٣.

(٥) مستدرک الحاكم ٤: ٣٥٩.

(٦) علل الشرائع: ١٣/٥٤٠، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧/١٧.

الإحصان، ولكننا نقول: ما وجه دخول الفاء في قوله: «فارجوها» وليس هناك ما يُصحّح دخولها من شرط أو نحوه، لا ظاهر ولا على وجه يصحّ تقديره؟
وإنما دخلت الفاء على الخبر في قوله (نار) في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا^(١)﴾ لَأَنَّ كلمة اجلدوا بمنزلة الجزاء لصفة الزنا في المبتدأ، والزنا بمنزلة الشرط، وليس الرجم جزاءً للشيخوخة، ولا الشيخوخة سبباً له.

نعم، السوجه في دخول الفاء هو الدلالة على كذب الرواية، ولعلّ في رواية سليمان بن خالد سقطاً، بأن تكون صورة سؤاله: هل يقولون في القرآن رجم؟ وكيف يرضى لمجده وكرامته في هذا الحكم الشديد أن يقيد الأمر بالشيخ والشيخة مع إجماع الأمة على عمومه لكلّ زانٍ مُحْصَن بالغ الرشد من ذَكَرٍ أو أنثى، وأن يُطلق الحكم بالرجم مع إجماع الأمة على اشتراط الإحصان فيه؟ وفوق ذلك يؤكد الإطلاق ويجعله كالنصّ على العموم، بواسطة التعليل بقضاء اللذة والشهوة الذي يشترك فيه المُحْصَن وغير المُحْصَن. فتبصّر بها سمعته من التدافع والتهاافت والخلل في رواية هذه المهزلة.

وأضف إلى ذلك ما رواه في (الموطأ) و(المستدرک) ومسند وابن سعد من أنّ عمر قال قبل موته بأقلّ من عشرين يوماً فيها يزعمونه من آية الرجم: لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها: «الشيخ والشيخة فارجوها البتّة»^(٢).
وأخرج الحاكم وابن جرير وصحّحه أيضاً: أنّ عمر قال: لما نزلت آيت رسول الله (مَن آثَرَهُ عَلَيْهِ وَآثَرَهُ وَسَلَّمَ)، فقلت: أكتبها - وفي نسخة كنز العمال: أكتبنها - فكانه كره ذلك.

وقال عمر: ألا ترى أنّ الشيخ إذا زنى ولم يُحصَن جُلِد، وأنّ الشاب إذا زنا وقد أحصن رجم^(٣)؟

فالمحدثون يروون أن عمر يذكر أنّ رسول الله كره أن تُكتب آية منزلة، وعمر

(١) الآية: ٢.

(٢) الموطأ: ٢/٨٢٤، طبقات ابن سعد: ٣/٣٣٤، كنز العمال: ٥/١٣٠، ١٣٥١٦/٤٣٢، ١٣٥٢٣/٤٣٢.

(٣) تهذيب الآثار: ٢/٨٧٠، مستدرک الحاكم: ٤/٣٦٠، كنز العمال: ٥/١٤٨٢/٤١٨.

يذكر وجوه الخلل فيها، فياللعجب منهم!!

وفي (الإتقان) أخرج النسائي أن مروان قال لزيد بن ثابت: ألا تكتبها في المصحف؟ قال: ألا ترى أن الشائين الثيبين يُرجمان! وقد ذكرنا ذلك لعمر، فقال: أنا أكفيكم. فقال: يا رسول الله، اكتب لي آية الرجم. قال: لا تستطيع^(١). انتهى.

فزيد بن ثابت يعترض عليها، ولما رأوا التدافع بين قول عمر: «اكتبها لي» وبين قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تستطيع» قالوا: أراد عمر بقوله ذلك إنذن لي بكتابتها، وكأنهم لا يعلمون أن عمر عربي، لا يُعبر عن قوله «إنذن لي بكتابتها» بقوله: «اكتبها لي» ومع ذلك لم يستطيعوا أن يذكروا وجهاً مقبولاً لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تستطيع».

وفي رواية في (كنز العمال) عن ابن الضريس، عن عمر: قلت لرسول الله: اكتبها، يا رسول الله. قال: لا أستطيع^(٢).

وأخرج ابن الضريس، عن زيد بن أسلم: أن عمر خطب الناس، فقال: لا تشكروا في الرجم، فإنه حق، ولقد هممت أن أكتبه في المصحف، فسألت أبي بن كعب، فقال: أليس أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله، فدفعت في صدري، وقلت: كيف تستقرئ آية الرجم، وهم يتساقدون تساقفد الحُمُر؟^(٣). انتهى.

فهذه الرواية تقول: إن عمر لم يرض بإزالة شيء في الرجم، وليت المحدثين يفسرون حاصل الجواب من أبي لعمر، وحاصل منع عمر لأبي عن استقرئها.

وأخرج الترمذي عن سعيد بن المسيب، عن عمر، قال: رجم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ورجم أبو بكر، ورجمت، ولولا أنني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبته في المصحف^(٤). فعمر يقول: إن كتابة الرجم في المصحف زيادة في كتاب الله، وهو يكرهها!!

(١) الإتقان ٣: ٨٧.

(٢) كنز العمال ٥: ١٣٥١٩/٤٣١.

(٣) الإتقان ٣: ٨٧، التساقف: نزو الذكر على الأنثى، أنظر «الصاحح - سفد - ٢: ٤٨٩».

(٤) سنن الترمذي ٤: ١٤٣١/٣٨.

فقابل هذه الروايات الأربع إحداهن بالأخرى، واعرف ما جناه المؤلفون بكثرة الرواية من المحدثين. وإذا نظرت إلى الجزء الثالث من (كنز العمال) فإنك تزداد بصيرة في الاضطراب والحلل^(١).

هذا، ومما يصادم هذه الروايات ويكافحها، ما روي من أن علياً (عليه السلام) لما جلد شراحة الحمداية يوم الخميس، ورجعها يوم الجمعة، قال: أجلدها بكتاب الله، وأرجعها بسنة رسوله. كما رواه أحمد والبخاري والنسائي وعبد الرزاق في (الجامع) والطحاوي والحاكم في (مستدرکه) وغيرهم^(٢).

ورواه الشيعة عن علي (عليه السلام) مُرسلاً^(٣). فعلي (عليه السلام) يشهد بأن الرجم من السنة، لا من الكتاب.

الأمر الرابع: مما ألصقوه بكرامة القرآن المجيد، ما رواه في (الإتقان) والدر المنثور: أنه أخرج الطبراني والبيهقي وابن الضريس: أن من القرآن سورتين - وقد سهاها الراغب في المحاضرات سورتي القنوت - ونسبوهما إلى تعليم علي (عليه السلام) وقنوت عمر، ومصحفي ابن عباس وزيد بن ثابت، وقراءة أبي وأبي موسى.

والأولى منها: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونُثني عليك الخير ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك»^(٤). انتهى.

لا نقول لهذا الراوي: إن هذا الكلام لا يشبه بلاغة القرآن ولا سوقه، فإننا نسامحه في معرفة ذلك، ولكننا نقول له: كيف يصح قوله: «يفجرك» وكيف تتعدى كلمة يفجر؟ وأيضاً إن الخلع يناسب الأوثان، إذن فماذا يكون المعنى، وبهذا يرتفع الغلط؟ والثانية منها: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد،

(١) يقابله الجزء الخامس من طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت، باب الحدود، فصل الرجم، ص ٤٢٨ - ٤٤٥ الاحاديث ١٣٥٦٢ - ١٣٥٦١.

(٢) مسند أحمد ١: ١٠٧، صحيح البخاري ٨: ٢٩٤/١١، مشكل الآثار ٥: ٣، سنن الدارقطني ٣: ١٢٣/١٣٧، مستدرک الحاكم ٤: ٣٦٥، سنن البيهقي ٨: ٢٢٠ «نحوه»، كنز العمال ٥: ١٣٤٨٦/٤٢٠.

(٣) عوالي اللآلئ ٣: ٢٨/٥٥٢.

(٤) الإتقان ١: ٢٢٧، الدر المنثور ٨: ٦٩٥.

واليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك الجَدَّ، إِنَّ عذابك بالكافرين ملحق^(١)، انتهى.

ولنستمع الراوي أيضاً فيها ساعته فيه في الرواية الأولى، وكنا نقول له: ما معنى الجَدَّ هنا، أهر العظمة، أو الفنى، أو ضدَّ الهزل، أو هو حاجة السَّجْع؟ نعم في رواية عُبيد: «نخشى نفمتك» وفي رواية عبداً: «نخشى عذابك»^(٢) وما هي النكته في التعبير بقوله ملحق؟ وما هو وجه المناسبة وصحة التعليل لخوف المؤمن من عذاب الله، بأنَّ عذاب الله بالكافرين ملحق، بل إِنَّ هذه العبارة تناسب التعليل لأن لا يخاف المؤمن من عذاب الله، لأن عذابه بالكافرين ملحق.

الأمر الخامس: ومَّا ألصقوه بالقرآن المجيد ما نقله في (فصل الخطاب)^(٣) عن كتاب (دبستان المذاهب)^(٤) أَنَّهُ نسب إلى الشيعة أَنَّهُم يقولون: إِنَّ إحراق المصاحف سبب إتلاف سور من القرآن، نزلت في فضل عليٍّ وأهل بيته (عليهم السلام).

(١) المصدر السابق.

(٢) الاتقان ١: ٢٢٦ و ٢٢٧.

(٣) (فصل الخطاب في تحريف الكتاب): للشيخ المحدث ميرزا حسين الثوري المُنَوَّى سنة (١٣٢٠هـ) ردَّ عليه الشيخ الثمرب في كتاب (كشف الارتباب في عدم تحريف الكتاب) ولما عُرِضَ عليه كتب رسالة أوصى كلُّ مَنْ عنده (فصل الخطاب) أَنْ يَضُمَّ إليه هذه الرسالة التي هي في دفع الشبهات التي أوردها الشيخ الثمرب عليه، قال فيها ما حاصله: إِنَّ المراد بالتحريف الواقع في الكتاب هو غير التغيير والتبديل والزيادة والتنقيص وغيرها المحقَّق والثابت جَمِيعاً في كتب اليهود وغيرهم، بل المراد من التحريف خصوص التنقيص إجمالاً، في غير آيات الأحكام جزئياً، وأمَّا الزيادة فالإجماع المحقَّق الثابت من جميع فرق المسلمين والاتفاق العالم من كلِّ مُتَنَحِّلٍ للإسلام على عدم زيادة كلام واحد في القرآن المجموع فيها بين الدفتين، ولو بمقدار أقصر آية، يصدق عليه كلام فصيح، بل الإجماع والاتفاق من جميع أهل القبلة على عدم زيادة كلمة واحدة في جميع القرآن بحيث لا نعرف مكانها، فأين التنقيص الإجمالي المراد لنا عن تهمة وقروح التحريف في الكتاب العزيز؟ وهذا إِلاَّ مبالغة لفظية.

أنظر «الذريعة» ١٠: ٢٢٠، ١٦: ٣٣١، ١٨: ٢٤٨، ٢٧٨.

والحقَّ عليه عند علمائنا كآبويه والشيخ المفيد والطوسي والشيخ المرتضى (رحمهم الله) وفيهم: أَنَّ القرآن هو ما بين الدفتين، وأن الزيادة مجمع على بطلانها، ومما لا يبيح من التهمة فهي أخبار آحاد لا تُوجب علماً ولا مثلاً والأولى الإعراض عنها.

(٤) دبستان المذاهب: موضوعه الملل والنحل، فارسي مطبوع في بومبي، مرَّتب على اثني عشر تعليلاً، وفي كلِّ تعليل أنظار، اختلف في مؤلفه لأنَّه لم يذكر المؤلف اسمه فيه.

منها: هذه السورة، وذكر كلاماً يضاهي خمساً وعشرين آيةً في الفواصل، قد لُفّق من فقرات القرآن الكريم على أسلوب آياته، فاسمع ما في ذلك من الغلط، فضلاً عن ركاكة أسلوبه المُلَفّق.

فمن الغلط: «واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه» ماذا اصطفى من الملائكة، وماذا جعل من المؤمنين، وما معنى أولئك في خلقه؟ ومنه: «مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنّات النعيم» ليت شعري ما هو مثلهم؟

ومنه: «ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فيهما هارون فصبر جميل» ما معنى هذه الدمدمة، وما معنى بما استخلف، وما معنى فبغوا هارون، ولن يعود الضمير في بغوا، ولن الأمر بالصبر الجميل؟

ومن ذلك: «ولقد آتينا بك الحكم كالذي من قبلك من المرسلين، وجعلنا لك منهم وصياً لعلمهم يرجعون» ما معنى آتينا بك الحكم، ولن يرجع الضمير الذي في منهم ولعلمهم، هل المرجع للضمير هو في قلب الشاعر. وما هو وجه المناسبة في لعلمهم يرجعون؟

ومن ذلك: «وإن علياً كانت في الليل، ساجد يحذر الآخرة، ويرجو ثواب ربّه، قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بهادي يعلمون»^(١).

قل: ما محلّ قوله: «هل يستوي الذين ظلموا» وما هي المناسبة له في قوله: وهم بهادي يعلمون؟

ولعلّ هذا المُلَفّق تختلج في ذهنه الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة الزمر. وفي آخرها: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) فأراد المُلَفّق أن يُلَفّق منها شيئاً بعدم معرفته، فقال في آخر ما لُفّق: هل يستوي الذين ظلموا. ولم يفهم أنّه جيء بالاستفهام الإنكاري في الآيتين، لأنّه ذكر فيها الذي جعل الله أنداداً

(١) فصل الخطاب: ١٧٧.

(٢) الآية: ٩.

ليُضَلَّ عن سبيله، والقانت آناه الليل يرجو رحمة ربِّه، فهذا لا يستويان ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون! هذا بعض الكلام في هذه المهزلة.

وإن صاحب (فصل الخطاب) من المحدثين الكثيرين المجدين في التتبع للنشوء، وإنه ليعدّ أمثال هذا المنقول في (دبستان المذاهب) ضالته المنشودة، ومع ذلك قال: إنه لم يجد لهذا المنقول أثر في كتب الشيعة، فباللعمجب من صاحب (دبستان المذاهب) من أين جاء بنسبة هذه الدعوى إلى الشيعة، وفي أي كتاب لهم وجدها؟! أفهكذا يكون النقل في الكتب؟! ولكن لا عجب «شَيْئَةً أُعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ»^(١) فكم نقلوا عن الشيعة مثل هذا النقل الكاذب، كما في كتاب (الملل للشهرستاني)^(٢) و(مقدمة ابن خلدون)^(٣) وغير ذلك ممّا كتبه بعض الناس في هذه السنين. والله المستعان.

قول الإمامية بعدم النقيصة في القرآن

ولا يخفى أنّ شيخ المحدثين والمعروف بالاعتناء بما يروي، وهو الصدوق طاب ثراه، قال في كتاب (الاعتقاد): اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيه (سأله عليه وآله وسلم) هو ما بين الدفتين. وليس بأكثر من ذلك، ومن نسب إلينا أنّنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب^(٤). انتهى. وحمل الروايات الواردة في نقصان على وجوه أخر.

وفي أواخر (فصل الخطاب) من كتاب (المقالات) للشيخ المفيد (قدس سره)، أنه قال جماعة من أهل الإمامة: إنه - أي القرآن - لم ينقص من كلمة، ولا من آية، ولا من

(١) مثل يُضْرَب في قُرْب الشَّيْءِ. والشَّيْءُ: الطَّيْبَةُ والعَادَةُ، وَأَخْزَمٌ: من أجداد حاتم الطائي، وكان من أكرم الناس، فلما نشأ حاتم وعُرف بالكرم قبل المثل. وقيل فيه غير ذلك، أنظر «جمهرة الأسماء» ١: ٥٤٦/٩٩٥، السفصمى ٢: ٤٦٣/١٣٤، جمع الأسماء ١: ١٩٣٣/٣٦٦.

(٢) الملل والتحلل ١: ١٣٩ باب (٦).

(٣) المقدمة: ١٩٦ فصل (٢٧).

(٤) اعتقادات الصدوق: ٩٣.

سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين (عليه السلام) من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله^(١).

وعن السيد المرتضى (قدس سره) قوله بعدم النقيصة، وإن من خالف في ذلك من الإمامية والمحسوية^(٢) لا يُعتدّ بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفةً ظنوا صحتها^(٣).

وفي أول (البيان) للشيخ الطوسي (قدس سره): أما الكلام في زيادته ونقصه فمما لا يليق به أيضاً، لأن الزيادة فيه مُجمع على بطلانها، والنقصان فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبتنا، وهو الذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات، غير أنه رُويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من أي القرآن، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لا تُوجب علماً ولا عملاً، والأولى الإعراض عنها^(٤). انتهى. وتبعه على ذلك في (مجمع البيان)^(٥).

وفي (كشف الغطاء) في كتاب القرآن المبحث الثامن في نقصه: لا ريب أنه محفوظ من النقصان، بحفظ الملك الديان، كما دلّ عليه صريح القرآن، وإجماع العلماء في كل زمان، ولا عبرة بالناسد، وما ورد من أخبار النقص تمنع البديهة من العمل بظاهرها - إلى أن قال - فلا بدّ من تأويلها بأحد وجوه^(٦).

وعن السيد القاضي نور الله في كتابه (مصاب النواصب): ما نُسب إلى

(١) أوائل المقالات: ٥٥، فصل الخطاب: ١١٠.

(٢) المحسوية: وهم الذين يحنون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) - عليه وآله - أي يدخلونها فيها وليست منها - وجميعهم يقولون بالجبر والتشبيه، وإن الله تعالى موصوف عندهم بالنفس والبدن والسمع والبصر، وقالوا: كل ثقة من العلماء بأي خبر مستند عن النبي (ص) عليه وآله فهو حجةٌ «مجمع الفرق الإسلامية».

٩٧. فرق الشيعة: ٦٥.

(٣) مجمع البيان ١: ٨٤ عن المرتضى.

(٤) تفسير البيان ١: ٣.

(٥) مجمع البيان ١: ٨٣.

(٦) كشف الغطاء: ٢٩٩.

الشيعة الإمامية من وقوع التغيير في القرآن، ليس مما قال به جمهور الإمامية، إنها قال به شريحة قليلة منهم لا اعتداد بهم فيما بينهم.

وعن الشيخ البهائي: وأيضاً اختلفوا في وقوع الزيادة والنقصان فيه، والصحيح أن القرآن العظيم محفوظ عن ذلك زيادةً كان أو نقصاناً، ويدل عليه قوله (س): ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١). وما اشتهر بين الناس من إسقاط اسم أمير المؤمنين (ع) منه في بعض المواضع، مثل قوله (س): «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك في علي» وغير ذلك، فهو غير معتبر عند العلماء.

وعن المقدس البغدادي في (شرح الوافية): وإنا الكلام في النقيصة، والمعروف بين أصحابنا حتى حُكي عليه الإجماع عدم النقيصة أيضاً.

وعنه أيضاً: عن الشيخ علي بن عبد العالي، أنه صنف في نفي النقيصة رسالةً مستقلةً، وذكر كلام الصدوق المتقدم، ثم اعترض بها يدلاً على النقيصة من الأحاديث، وأجاب بأن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة أو الإجماع، ولم يمكن تأويله، ولا حمله على بعض الوجوه، وجب طرحه...

هذا وإن المحدث المعاصر جَهد في كتاب (فصل الخطاب) في جمع الروايات التي استدلت بها على النقيصة، وكثر أعداد مسانيدِها بأعداد المراسيل عن الأئمة (عليهم السلام) في الكتب، كمراسيل (العيّاشي) و(فترات) وغيرها، مع أن المتتبع المحقق يجزم بأن هذه المراسيل مأخوذة من تلك المسانيد.

وفي جملة ما أوردته من الروايات ما لا يتيسر احتمال صدقها، ومنها ما هو مختلف باختلاف يؤول به إلى التناقض والتعارض، وهذا المختصر لا يسع بيان التحوين الأخيرين.

هذا مع أن القسم الوافر من الروايات ترجع أسانيدُه إلى بضعة أنفار، وقد وصف علماء الرجال كلاً منهم إما بأنه ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجفوء الرواية. وإما بأنه مضطرب الحديث والمذهب، يعرف حديثه وينكر، ويروي عن الضعفاء. وإما

بأنه كذاب متهم، لا استحل أن أروي من تفسيره حديثاً واحداً، وأنه معروف بالوقف، وأشد الناس عداوةً للرضا عليه السلام. وإما بأنه كان غالباً كذاباً. وإما بأنه ضعيف لا يكتفى إليه ولا يعول عليه ومن الكذابين. وإما بأنه فاسد الرواية يُرمى بالغلو^(١).

ومن الواضح أن أمثال هؤلاء لا تُجدي كثرتهم شيئاً، ولو تسامحنا بالاعتناء برواياتهم في مثل هذا المقام الكبير، لوجب من دلالة الروايات المتعددة أن ننزلها على أن مضامينها تفسير للآيات أو تأويل أو بيان لما يعلم يقيناً شمول عموماتها له، لأنه أظهر الأفراد وأحقها بحكم العام، أو ما كان مراداً بخصوصه وبالنص عليه في ضمن العموم عند التنزيل، أو ما كان هو المورد للتنزيل، أو ما كان هو المراد من اللفظ المبهم. وعلى أحد الوجوه الثلاثة الأخيرة يُحمل ما ورد فيها أنه تنزيل، وأنه نزل به جبرئيل، كما يشهد به نفس الجمع بين الروايات.

كما يُحمل التحريف فيها على تحريف المعنى، ويشهد لذلك مكاتبة أبي جعفر عليه السلام لسعد الخير، كما في (روضة الكافي) ففيها: وكان من نَبَذهم الكتاب أن أقاموا حُرُوفه، وحرّفوا حُدوده^(٢).

(١) ومَن اعتمد عليهم صاحب (فصل الخطاب) فيما أخرجه من الروايات:

أحمد بن محمد بن سيار: قال النجاشي والطوسي: يعرف بالسياري، ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجفوّ الرواية، كثير المراسيل «رجال النجاشي»: ١٩٢/٨٠، فهرست الطوسي: ٦٠/٢٣.

محمد بن سنان: قال الكشي: قال حمويه: كتبت أحاديث محمد بن سنان، عن أيوب بن نوح، وقال: لا استحل أن أروي أحاديث محمد بن سنان «رجال الكشي»: ٧٢٩/٣٨٩.

علي بن أبي حمزة البطائني: قال العلامة الحلي: قال الشيخ الطوسي: «رب الله» في عدة مواضع: إنه واقفي، وقال أبو الحسن علي بن الحسن بن فضال: علي بن أبي حمزة كذاب واقفي متهم ملعون - إلى أن قال - إنّي لا استحل أن أروي عنه حديثاً واحداً، وقال ابن الفضائري: علي بن أبي حمزة «الله» أصل الوقف، وأشدّ الخلق عداوةً للولي من بعد أبي إبراهيم عليه السلام: «المخلاصة»: ١/٢٣٦.

محمد بن جمهور القميّ: قال النجاشي: أبو عبد الله العمي، ضعيف في الحديث، فاسد المذهب، وميل فيه أشياء أقلّ أعلم بها من عظمها «رجال النجاشي»: ٩٠١/٣٣٧.

عمرو بن شمر: قال العلامة الحلي: ضعيف جداً - إلى أن قال - فلا اعتمد على شيء مما يرويه رجال العلامة الحلي: ٦/٢٤١.

وكما يُجمل ما فيها من أنّه كان في مصحف أمير المؤمنين (عليه السلام) أو ابن مسعود^(١)، ويُتزل على أنّه كان فيه بعنوان التفسير والتأويل؛ ومّا يشهد لذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام) للزنديق كما في (تهج البلاغة) وغيره: ولقد جتتهم بالكتاب كَمَلًا مُشْتَمَلًا على التنزيل والتأويل^(٢).

ومّا أشرنا إليه من الروايات أنّ المحدث المعاصر أورد في روايات سورة المعارج أربع روايات، ذكرت أنّ كلمة «بولاية عليّ» مُثبتة في مصحف فاطمة، وهكذا هي في مصحف فاطمة^(٣) (عليها السلام)، ولا يخفى أنّ مصحفها (عليها السلام) إنّما هو كتاب تحديث بأسرار العلم، كما يُعرف ذلك من عدّة روايات في (أصول الكافي) في باب الصحيفة والمصحف والجامعة، وفيها قول الصادق (عليه السلام): ما فيه من قرآنكم حرف واحد^(٤).

وما أزعج أنّ فيه قرآنًا، كما في الصحيح والحسن:

ومنها: ما في (الكافي) في باب أنّ الأئمة (عليهم السلام) شهداء على الناس: في صحيحة بُرَيْد، عن أبي جعفر (عليه السلام)، وروايته عن أبي عبد الله (عليه السلام)، من قولها (عليها السلام) في قوله (تعالى): ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٥): نحن الأئمة الوسطى^(٦). وفي شرحه عن أمير المؤمنين (عليه السلام): ونحن الذين قال الله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٧).

إذن فما روي مرسلاً في تفسيري (النصائي) (وسعد) من أنّ الآية «أئمة وسطاً»^(٨) لا بدّ من حمله على التفسير، وإنّ التحريف إنّما هو للمعنى.

(١) فصل الخطاب: ١١٢.

(٢) الاحتجاج: ٢٥٧.

(٣) فصل الخطاب: ٣٣٦.

(٤) الكافي ١: ١٨٦.

(٥) البقرة: ١٤٣.

(٦) الكافي ١: ١٤٧.

(٧) مرآة العقول ٢: ٣٣٩.

(٨) المحكم و التمشاه: ٢٧، البحار ٩٢: ٦٦ عن سعد بن عبدالله الأشعري.

ومنها: كما رواه في (الكافي) في باب أَنَّ الْأَتَمَّةَ هُمُ الْهَدَاةُ، عن القُضَيْل: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله (تعالى): ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١)، فقال: كُلُّ إِمَامٍ هُوَ هَادٍ لِلْقَوْمِ الَّذِي هُوَ فِيهِمْ^(٢).

ورواية بُرَيْد عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله (تعالى): ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فقال: رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الْمُنْذِرُ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ مَنَّا هَادٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَالْهَدَاةُ مِنْ بَعْدِهِ: عَلِيُّ (عليه السلام) ثُمَّ الْأَوْصِيَاءُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ^(٣).

ونحوها رواية أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام)^(٤). ورواية عبد الرحيم القصير عن أبي جعفر (عليه السلام): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الْمُنْذِرُ وَعَلِيُّ الْهَادِي^(٥). وبمضمونها جاءت روايات الجمهور مستندة عن طريق أبي هريرة، وأبي بَرَزَةَ، وابن عَبَّاسٍ، وطريق أمير المؤمنين (عليه السلام)، وصَحَّحه الحاكم في (مستدرکه)^(٦).

وإذا أحطت خبراً بهذا، فهل يروق لك التجاء (فصل الخطاب) في تلفيقه وتكثيره إلى النقل عن بعض التفاسير المتأخرة، وعن الداماد في (حاشية القيسات) من قوله: إِنَّ الْأَحَادِيثَ مِنْ طَرُقِنَا وَطَرُقَهُمْ متضافرة بأنه كان التنزيل: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ لِعِبَادٍ، وَعَلَى كُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»^(٧). انتهى.

هذا الشعر الذي ينشده المَدَّاحُونَ ولا يرضى العارف باللغة العربية أن ينسب إليه نظمه، ولا أَظُنُّكَ تجد من طرقنا وطرق أهل السُنَّةِ غير ما سمعته أولاً، وهو غير ما نقله، فاعتبر.

(١) الرد ١٧٣: ٧.

(٢) الكافي ١/١٤٧: ٩.

(٣) الكافي ١/١٤٨: ٩.

(٤) الكافي ١/١٤٨: ٩.

(٥) الكافي ١/١٤٨: ٩.

(٦) تفسير الطبري ٣: ٧٢، مستدرک الحاكم ٣: ١٢٩، التفسير الكبير ١٩: ١٤، الدر المنثور ٤: ٦٠٨، كنز العمال

١١: ١٢٠-١٢١/٣٣، نور الانصار: ١٥٩.

ومنها: رواية (الكافي) عن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: قوله (عز وجل): ﴿رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١) يعنون بولاية علي (عليه السلام)^(٢). وهذا صريح في كونه تفسيراً، فهي حاكمة ببيانها على ضعيفي أبي بصير^(٣) في ظهورها بأن لفظ «بولاية علي» محذوف من الآية، وسري البيان من رواية أبي حمزة إلى أمثال ذلك.

ومنها: رواية عمر بن حنظلة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله (تعالى) في سورة البقرة: ﴿مَتَاعاً إِلَىٰ أَقْوَلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾^(٤) مخرجات. ولا أظن إلا أنك تقول: إن إلحاق الإمام (عليه السلام) لكلمة مخرجات إنما هو تفسير للمراد من كلمة «إخراج» لا بيان للنقيصة من القرآن الكريم، ولكن (فصل الخطاب) أورده بعنوان البيان للنقيصة فاعتبر.

ومنها: صحيحة محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) كما في (الكافي) في أول باب منع الزكاة، وفيها: ثم قال (عليه السلام): هو قول الله (عز وجل): ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٥) يعني ما بخلوا به من الزكاة^(٦). فالرواية كالصرحة بأن لفظ «من الزكاة» إنما هو تفسير من الإمام، لا من القرآن، فهي حاكمة ببيانها على رسالة ابن أبي عمير عن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله (عز وجل): ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ - من الزكاة - يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٧) وصارفة لما عن كونها بياناً للنقيصة.

ومنها: صحيحة أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) كما في (الكافي) في باب نص الله ورسوله على الأئمة واحداً بعد واحد، وفيها: فقلت له: إن الناس يقولون: فما له لم يُسمَ علياً (عليه السلام) وأهل بيته في كتاب الله؟ قال: فقولوا لهم: إن رسول الله نزلت

(١) الانعام ٦: ٢٣.

(٢) الكافي ٨: ٢٨٧/٤٣٢.

(٣) تفسير القمي ٩: ١٩٩.

(٤) فصل الخطاب: ٢٥٨، الآية: ٢٤٠.

(٥) آل عمران ٣: ١٨٠.

(٦) الكافي ٣: ١٠٢/١.

(٧) فصل الخطاب: ٢٦٧.

عليه الصلاة ولم يُسمَّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي فسر لهم ذلك. وكذا قال (عليه السلام) في الزكاة والحج^(١).

ومقتضى الرواية تصديق الإمام (عليه السلام) لقول الناس: إن الله لم يسمَّ علياً في القرآن، وإن التسمية كانت من تفسير رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، وحديث الثقلين. ويشهد لذلك ما رواه في (الكافي) أيضاً في هذا الباب بعد ذلك ببسیر في صحيحة الفضلاء، عن أبي جعفر (عليه السلام)^(٢). ورواية أبي الجارود عنه (عليه السلام) أيضاً^(٣). ورواية أبي الذئلم، عن أبي عبد الله (عليه السلام)^(٤) أنها تَلَوْا في مقام الاحتجاج وعدم التقية قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٥). ولم يذكر في تلاوة الآية كلمة «في علي»، وهذا يدل على أن ما روي في ذكر اسم علي (عليه السلام) في هذا المقام - بل وفي غيره - إنها هو تفسير وبيان للمراد في وحي القرآن، يكون التفسير والبيان جاء به جبرئيل من عند الله بعنوان الوحي المطلق لا القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٦).

ومنها: رواية الفضيل، عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام)، في باب النكت من التنزيل في الولاية من (الكافي) قال: قلت: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾^(٧) قال: يعني أمير المؤمنين (عليه السلام). قلت: تنزيل! قال (عليه السلام): نعم^(٨). فإنه (عليه السلام) ذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: «يعني» بعنوان التفسير وبيان المراد والمشار إليه في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(١) الكافي ١: ٢٢٦/١.

(٢) الكافي ١: ٢٢٩/٤.

(٣) الكافي ١: ٢٢٩/٦.

(٤) الكافي ١: ٢٣٢/٣.

(٥) المائدة ٥: ٦٧.

(٦) النجم ٥٣: ٣ و٤.

(٧) المطففين ٨٣: ١٧.

(٨) الكافي ١: ٣٦١ ذيل حديث (٩١).

هذا، فقوليه في الجواب: «نعم» دليل على أنَّ ما كان مراداً بهينه في وحي القرآن يستعمله (عليه السلام) تنزيلاً. فتكون هذه الرواية وأمثالها قاطعة لتشبّهات (فصل الخطاب) بها حشده من الروايات التي عرفت حالها إجمالاً، وإلى ما ذكرناه وغيره، يشير ما نقلناه من كلمات العلماء الأعلام (قدس سرهم).

فإن قيل: إنَّ هذه الرواية ضعيفة، وكذا جملة من الروايات المتقدمة. قلنا: إنَّ جُلَّ ما حشده (فصل الخطاب) من الروايات هو مثل هذه الرواية وأشدَّ منها ضعفاً، كما أشرنا إليه في وصف روايتها، على أنَّ ما ذكرناه من الصحاح فيه كفاية لأولي الألباب.



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث: في قراءته

ومن أجل تواتر القرآن الكريم بين عامة المسلمين جيلاً بعد جيل، استمرت مادته وصورته وقراءته المتداولة على نحو واحد، فلم يؤثر شيئاً على مادته وصورته ما يروى عن بعض الناس من الخلاف في قراءته من القراء السبعة المعروفين وغيرهم، فلم يُسيطر على صورته قراءة أحدهم أتباعاً له، ولو في بعض النسخ، ولم يُسيطر عليه أيضاً ما روي من كثرة القراءات المخالفة له، مما انتشرت روايته في الكتب (كجامع البخاري) و(مستدرک الحاكم) مسنداً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلي (عليه السلام)، وابن عباس، وعمر، وأبي، وابن مسعود، وابن عمر، وعائشة، وأبي الدرداء، وابن الزبير، وانظر أقلّاً إلى الجزء الأول من كنز العمال صفحة ٢٨٤ - ٢٨٩^(١).

نعم، ربما أتبع مصحف عثمان على ما يقال في مجرد رسم الكتابة في بعض المصاحف، في كلمات معدودة، كزيادة الألف بين الشين والياء من قوله (تعالى): ﴿لِشَأْنِي﴾^(٢) من سورة الكهف، وزيادتها أيضاً في: ﴿لَا أَذْبَحُهَا﴾^(٣) من سورة النمل، ونحو ذلك في قليل من الكلمات^(٤).

وإن القراءات السبع، فضلاً عن العشر، إنها هي في صورة بعض الكلمات، لا

(١) يعادل ج ٢ من طبعة مؤسسة الرسالة ص ٥٩١ - ص ٦١٠ الحديث ٤٨٠٢ - ٤٨٧٩.

(٢) الآية: ٢٣.

(٣) الآية: ٢٩.

(٤) الاثنان ٤: ١٧٤.

بزيادة كلمة أو نقصها، ومع ذلك ما هي إلا روايات آحاد عن آحاد، لا تُوجب اطمئناناً ولا وثوقاً، فضلاً عن وهنها بالتعارض، ومخالفتها للرسم المتداول المتواتر بين عامة المسلمين في السنين المتطاولة.

وإنَّ كلاً من القراء هو واحد لم تثبت عدالته ولا ثقته، يروي عن آحاد، حال غالبهم مثل حاله، ويروي عنه آحاد مثله، وكثيراً ما يختلفون في الرواية عنه، فكم اختلف حفص وشعبة في الرواية عن عاصم، وكذا قالون وقرش في الرواية عن نافع، وكذا قنبل والبرقي في روايتهما عن أصحابهما عن ابن كثير، وكذا رواية أبي عمر وأبي شعيب في روايتهما عن الزبيدي عن أبي عمر، وكذا رواية ابن ذكوان وهشام عن أصحابهما عن ابن عامر، وكذا رواية خلف وخالد عن سليمان عن حمزة، وكذا رواية أبي عمر وأبي الحارث عن الكسائي

مع أنَّ أسانيد هذه القراءات الأحادية ، لا يتصف واحد منها بالصحة، في مصطلح أهل السنة في الإسناد، فضلاً عن الإمامية، كما لا يخفى ذلك على من جاس خلال الديار، فياللعجب بمن يصف هذه القراءات السبع بأنها متواترة^(١)!

هذا وكل واحد من هؤلاء القراء، يوافق بقراءته في الغالب ما هو المرسوم المتداول بين المسلمين، وربما يشذ عنه عاصم في رواية شعبة، إذن فلا يحسن أن يعدل في القراءة عما هو المتداول في الرسم والمعمول عليه بين عامة المسلمين في أجيالهم إلى خصوصيات هذه القراءات، مضافاً إلى أننا - معاشر الشيعة الإمامية - قد أمرنا بأن نقرأ كما يقرأ الناس^(٢)، أي نوع المسلمين وعامتهم.

ولعلمنا نقول: إنَّ غالب القراءات السبع أو العشر، ناشئ من سعة اللغة العربية في وضع الكلمة وهيئتها، نحو: عليهم، وإليهم، ولديهم، بكسر الهاء أو ضمها مع سكن الميم أو ضمها، ونحو: تظاهرون، بفتح الظاء أو تشديدها، فعلى أي قراءة قرأت أكون

(١) قال الزركشي: التعريف أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أما تواترها عن النبي (صلى الله عليه وآله) فغيره نظر، وهي نقل الواحد عن

الواحد؛ وقال غيره: الحق أن أصل المد والإمالة متواتر، ولكن الظدير غير متواتر، وقال ابن الجزري: قد نص على تواتر ذلك

كله اثنته الأصول كالقاضي أبو بكر وغيره، قال: وهو الصواب. الاثنان ١: ٢٧٣.

قارئاً على العربية، ولكن كيف يخفى عليك أن تلاوة القرآن وقراءته، يجب فيها وفي تحقّقها، أن تتبع ما أوحى إلى الرسول وخوَّط به عند نزوله عليه، وهو واحد، فعليك أن تتحرّاه بما يثبت به، وليست قراءة القرآن عبارة عن درس معاجم اللغة. ولا تنسب لذلك بما روي من أن القرآن نزل على سبعة أحرف، فإنه تنسبت وإياهن.

أما أولاً: فقد قال في (الإتقان) في المسألة الثانية من النوع السادس عشر: اختلف في معنى السبعة أحرف على أربعين قولاً^(١). وذكر منها عن ابن حبان خمسة وثلاثين^(٢)، وما ذاك إلا لو هن روايتها واضطرابها لفظاً ومعنى. وفي (الإتقان) أيضاً في أواخر النوع السادس عشر: وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع، وهو جهل قبيح^(٣).

وأما ثانياً: فقد روى الحاكم في (مستدركه) بسند صحيح، على شرط البخاري ومسلم، عن ابن مسعود، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): نزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: زاجراً، وأمرأ، وحلالاً، وحراماً، ومحكماً، ومتشابهاً، وأمثالاً، فأحلّوا حلاله^(٤).

وروى ابن جرير مُرسلاً، عن أبي قلابة، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر، وزاجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل^(٥). وروى ابن جرير والسجزي وابن المنذر وابن الأنباري، عن ابن عباس، عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): أن القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، الحديث^(٦). وأسند السجزي في (الإبانة) عن علي (عليه السلام): أنزل القرآن على عشرة

(١) الإتقان ٨: ١٦٤.

(٢) الإتقان ٨: ١٧٣.

(٣) الإتقان ٨: ١٧٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٣: ١، مستدرک الحاكم ١: ٥٥٣.

(٥) تفسير الطبري ١: ٢٤.

(٦) تفسير الطبري ١: ٢٦، كنز العمال ٢: ٣٠٩٧/٥٥.

أحرف: بشير ونذير، وناسخ ومنسوخ، وعظة ومثل، ومحكم ومُتشابه، وحلال وحرام^(١).
وأما ثالثاً: فقد جاء في روايات السبعة أحرف بأسانيد جيد في مصطلحهم، ما يعرفك وفنها وإلحاقها بالخُرافة، ففي رواية أحمد من حديث أبي بكرة: أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اسْتَزَادَ مِنْ جَبْرِئِيلَ فِي أَحْرَفِ الْقِرَاءَةِ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، قَالَ: يَعْنِي جَبْرِئِيلُ كُلَّهَا شَافٍ كَافٍ، مَا لَمْ تَخْتِمِ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، وَآيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ^(٢).
وزاد في حديث آخر: نحو قولك: تعال، وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وأعجل^(٣).

ونحوه في رواية الطبراني، عن أبي بكرة^(٤).
وفي (الإتقان) أخرج نحوه أحمد، والطبراني عن ابن مسعود^(٥).
وأخرج أبو داود في (سننه) عن أبي، عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، إلى قوله: حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ قُلْتَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا عَزِيزاً حَكِيماً، مَا لَمْ تَخْتِمِ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ^(٦).
وفي (كنز العمال) فيها أخرجه أحمد وابن مَنيع والغساني وابن أبي منصور وأبو يعلى، عن أبي، عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إِنْ قُلْتَ: غَفُوراً رَحِيماً، أَوْ قُلْتَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، أَوْ عَلِيًّا سَمِعْتُ فَاقَهُ كَذَلِكَ، مَا لَمْ تَخْتِمِ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ^(٧).
وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة، عنه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَءُوا وَلَا حَرَجَ، وَلَكِنْ لَا تَخْتِمُوا ذِكْرَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ، وَلَا ذِكْرَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ^(٨).

(١) كنز العمال ٢: ١٦/٢٩٥٦.

(٢) مسند أحمد ٥: ٤١.

(٣) مسند أحمد ٥: ٥١.

(٤) كنز العمال ٢: ٥٠/٣٠٧٥.

(٥) الإتقان ٩: ١٦٨.

(٦) سنن أبي داود ٢: ٧٦/١٤٧٧.

(٧) مسند أحمد ٥: ١٢٤، كنز العمال ٢: ٦٠٣/٤٨٥٤.

(٨) تفسير الطبري ١: ١٥.

وأخرج أحمد، من حديث عمر: القرآن كله صواب ما لم تجعل مفقرةً عذاباً، أو عذاباً مفقرةً^(١). فانظر إلى هذه الروايات المفترسة للسبعة أحرف، كيف قد رخصت في التلاعب في تلاوة القرآن الكريم، حسبما يشتهيهِ التالي، ما لم يختم آية الرحمة بالعذاب وبالعكس.

وأما رابعاً: ففي الروايات ما يقطع سَنَدَ القراءات السبع: فمن ابن الأثيري (في المصاحف) مسنداً، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة^(٢).

وعن ابن أبي داود، مسنداً عن أنس، قال: صليت خلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكلهم كان يقرأ: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣).
وروي أيضاً: أنَّ أول من قرأ: «ملك يوم الدين» هو مروان بن الحكم^(٤).
وأما خامساً: وهو (فصل الخطاب) فقد روي من طُرُق الشيعة، في (الكافي) مسنداً عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): أنَّ القرآن واحد، نزل من عند واحد، ولكن الاختلاف مجيء من قبل الرواة^(٥).

وأرسل الصدوق نحوه في (اعتقاداته) عن الصادق (عليه السلام)^(٦).
وفي (الكافي) أيضاً في الصحيح، عن الفضل بن يسار، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنَّ الناس يقولون: إنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف؟ فقال (عليه السلام): كذبوا، ولكنَّه نزل على حرف واحد، من عند الواحد^(٧). ويؤيد ما ذكرناه رواية

(١) مسند أحمد: ٤: ٣٠.

(٢) كنز العمال: ٢: ٥٩٩/٤٨٠٢.

(٣) كنز العمال: ٢: ٦٠٩/٤٨٧٦، الآية في سورة الحمد: ٩: ٤.

(٤) سنن أبي داود: ٤: ٣٧/٤٠٠٠، الدر المنثور: ٩: ٣٦.

(٥) الكافي: ٢: ٤٦٩/١٢.

(٦) اعتقادات الصدوق: ٩٤.

(٧) الكافي: ٢: ١٣/٤٦٩، في المصدر زيادة: كذبوا أعداء الله.

السيّاري له أيضاً، عن الباقر والصادق (عليهما السلام)^(١).

الفصل الرابع: في تفسيره

وللحاجة إليه مقامات:

الأول: في مفردات ألفاظه، وبيان معناها في المريّة:

قد أنزل القرآن الكريم على أفصح لغات العرب، وأكثرها تداولاً ومألوفةً لنوع العرب، فلا تخفى معاني مفرداته على العرب إلا نادراً، لبعض الجهات التي لا يتفك عنها نوع الإنسان، كما يروى في الأبّ والقضب، في قوله (تعالى) في سورة عبس: ﴿وَفَأَكْفَهُ وَأَبَاهُ﴾ ﴿وَعِنْباً وَقَضْباً﴾^(١).

ولكن لما تشرّفت الأمم من غير العرب بالإسلام، وتطوّرت اللغة العربيّة بسبب الاختلاط ومرور الزمان، عرض لبعض الألفاظ التي كانت متداولةً مأنوسةً معروفة المعاني في عصر النزول، أن صارت غريبةً بعد ذلك في استعمال العامة، بعيدةً عن فهمهم لمعانيها، ولا زال ذلك يزداد يوماً فيوماً حتّى سرى دلوّه إلى بعض الخواصّ، ولاستراحتهم في ذلك إلى الاتّباع والتقليد أثر غير هيّن.

إنّ فيرجع في التفسير لمفردات ألفاظه الشريفة إلى ما يحصل به الاطمئنان والوثوق من مزاولة علم اللغة العربيّة، والتدبّر في موارد استعمالها، ممّا يُعرف أنّه من كلام العرب ولغتهم، وإنّ للتدبّر في أسلوب القرآن الكريم وموارد استعماله وقراءتها دخلاً كبيراً في ذلك.

وأما محض الركون إلى آحاد اللغويّين، تعيّدُ بكلامهم وتقليدُ لآرائهم، فذاك ممّا لا مساع له، فإنّ الأغلب أو الغالب ممّا يستندون إليه في أقوالهم، ما هو إلاّ الاعتقاد

على ما يحصلونه بحسب أفهامهم، وتتبعهم لموارد الاستعمال، مع الخلط للحقيقة بالمجاز، وعدم التثبت بالقرائن ومزايا الاستعمال. ألا ترى كم يشهد بعضهم على بعض بالخطأ والوهم؟

ومن شواهد ما ذكرناه، ما وقع في تفسير اللبس والمس من الاضطراب والخطأ، ففي (النهاية): مَسَسْتُ الشيء: إذا لمست بيدك^(١).

وفي (القاموس): لَمَسَهُ: مَسَّهُ بيده^(٢). وَمَسَسْتُهُ: أي لَمَسْتُهُ^(٣).

وفي (المصباح): مَسَسْتُهُ: أَفَضَيْتُ إِلَيْهِ يَدِي من دون حائل. هكذا قَيَّدُوهُ^(٤).

وقال قبل ذلك: لَمَسَهُ: أَفَضَى إِلَيْهِ بِالْيَدِ. هكذا فَسَّرُوهُ.

وقال ابن تَريد: أصل اللبس باليد ليعرف مَسَّ الشيء، وقال: لَمَسْتُ: مَسَسْتُ،

وكلُّ ماسٍ لابسٍ.

وقال الفارابي: اللبس: المس.

وفي (التهذيب) عن ابن الأعرابي: اللبس يكون مَسَّ الشيء، وقال في باب

الميم: المس: مَسَكَ الشيء بيدك.

وقال الجوهري: اللبس: المس.

ثم قال في (المصباح): وإذا كان اللبس هو المس، فكيف يفرق الفقهاء

بينهما^(٥)؟ انتهى.

ولعلك تدع بأن الفقهاء أحق في استفادة المعنى من تتبع موارد الاستعمال،

وذلك لما اعتادوه، وشحنوا به أذهانهم، من بذل الجهد بالبحث والتحقيق، فإن الفرق

بين معني اللبس والمس واضح بحكم التبادر والتتبع لموارد الاستعمال.

وغير خفي أن المعروف والمتبادر تبادراً يُجزم معه بعدم النقل عن المعنى اللغوي

(١) النهاية ٤: ٣٢٩.

(٢) القاموس المحيط ٢: ٢٥٩.

(٣) القاموس المحيط ٢: ٢٦٠.

(٤) المصباح المنير ٢: ٢٧٠.

(٥) في المصباح المنير - لس - ٢: ٢٥٣، نقل الاقوال جيداً، وأنظر الصحاح ٣: ٩٧٥ وجمهرة اللغة ٢: ٨٥٩.

الأصلي، هو أن اللمس: هو الإصابة بها به الإحساس من البدن، بقصد الإحساس لللموس، لا خصوص اللمس باليد، ولا مطلق المسّ. نعم، كثير من موارد اللمس ما يكون باليد، باعتبار أنها آلة عادية وأقوى إحساساً.

كما أن المسّ: هو مطلق الإصابة لا بقصد الإحساس، وقد صرح جماعة من أساطين علمائنا، بأن معنى المسّ لفة - بل وعرفاً - هو ما ذكرناه، كما في (المعتبر) والمنتهى) و(روض الجنان) و(الهدائق) بل و(المهذب البارع)^(١).

وأظن أن الذي يحقق في مراجعة العرف والتبادر وتتبع موارد الاستعمال قديماً وحديثاً، لا يشك في أن معنى اللمس هو ما ذكرناه أولاً.

ومن شواهد ما ذكرناه هو الاضطراب في معنى التوفي، وما استعمل في لفظه المتكرر في القرآن الكريم، فاللغويون جعلوا الإمامة في معنى التوفي^(٢). والكثير من المفسرين في تفسير قوله (نار)، في سورة آل عمران: ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كُنْ هَذَا كَقَوْلِكَ رَبِّ افْعَلْ﴾ إلى^(٣) قالوا: أي مُمِيتك^(٤). وقال بعض: مُمِيتك حَتَفَ أَنْفَكَ^(٥). وقال بعض: مُمِيتك في وقتك بعد النزول من السماء^(٦).

وكأنهم لم يعمموا الالتفات إلى مادة التوفي واشتقاقه، ومحاورات القرآن الكريم، والقدر الجامع بينها، وإلى استقامة التفسير لهذه الآية الكريمة، واعتقاد المسلمين بأن عيسى لم يمت ولم يقتل قبل الرفع إلى السماء كما صرح به القرآن، وإلى أن القرآن يذكر فيها مضي قبل نزوله أن المسيح قال لله: ﴿قَلْبًا تَوَفِّيْتَنِي﴾^(٧).

ومن كل ذلك لم يفتنوا إلى أن معنى التوفي، والقدر الجامع المستقيم في محاوره

(١) المعتبر ١: ١٧٦، منتهى المطلب ١: ٧٦، المهذب البارع ١: ١٣٨، روض الجنان: ٤٩، الهدائق الناضرة ٢: ١٢٤.

(٢) الصحاح ٦: ٢٥٢٦، لسان العرب ١٥: ٤٠٠، الصباح الخير ٢: ٣٨٩، القاموس المحيط ٤: ٤٠٣.

(٣) الآية: ٥٥.

(٤) تفسير الطبري ٣: ٢٠٣، التفسير الكبير ٨: ٦٧، تفسير القرطبي ٤: ١٠٠.

(٥) الكشاف ١: ٣٦٦، جوامع الجامع: ٥٩، تفسير النار ٣: ٣٦٦.

(٦) تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.

(٧) المائدة ٥: ١١٧.

القرآن فيه وفي مشتقاته، إنها هو: الأخذ والاستيفاء، وهو يتحقق بالإماتة وبالنوم، وبالأخذ من الأرض وعالم البشر إلى عالم السماء.

وإن محاور القرآن الكريم بنفسها كافية في بيان ذلك، كما في قوله (نار) في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١) ألا ترى أنه لا يستقيم الكلام إذا قيل: الله يُميت الأنفس حين موتها، وكيف يصح أن التي لم تمت يُميتها في منامها؟

وكما في قوله (نار) في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾^(٢) فإن توفي الناس بالليل إنها يكون بأخذهم بالنوم، ثم يبعثهم الله باليقظة في النهار ليقضوا بذلك أجالهم المُسمَّاة، ثم إلى الله مرجعهم بالموت والمعاد.

وكما في قوله (نار) في سورة النساء: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاكُنَّ الْمَوْتُ﴾^(٣) فإنه لا يستقيم الكلام إذا قيل: يُميتهن الموت.

وحاصل الكلام أن معنى التوفي في موارد استعماله في القرآن وغيره، إنها هو أخذ الشيء وافياً، أي تاماً، كما يقال: درهم وافٍ، وهذا المعنى ذكره اللغويون للتوفي في معاجمهم، وقالوا: إن توفاه واستوفاه بمعنى واحد، وأنشدوا له قول الشاعر:

إِنْ بَنِي الْأَذْرَدِ لَيْسُوا لِأَحَدٍ^(٤) وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَدَدِ^(٥)
أي لا توفاهم وتأخذهم تاماً.

قلت: لكن بين الاستيفاء والتوفي فرقاً واضحاً من جهة أثر الاشتقاق، فإن

(١) الآية: ٤٢.

(٢) الآية: ٦٠.

(٣) الآية: ١٥.

(٤) في اللسان والفتاح: من أحد.

(٥) الصحاح ٦: ٢٥٢٦، لسان العرب ١٥: ٤٠٠، المصباح المنير ٢: ٣٨٩، تاج العروس ١٠: ٣٩٥، وبدون استشهاده في الصحاح والمصباح.

الاستيفاء استفعال كالاستخراج، يشير إلى طلب الأخذ واستدعائه ومعالجته. والتوفي يشير إلى القدرة على الأخذ بدون حاجة إلى استدعاء وطلب ومعالجة. ولذا اختص القرآن الكريم بلفظ التوفي، وعدل عن الأخذ، لعدم دلالة على التهام والوفاء كالتوفي الدال على تمام القدرة. على نحو المعنى في ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١). ولك العبرة فيها قلناه بقوله (سأ): ﴿اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فإنك إن جعلت قوله (سأ): ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ معطوفاً على الأنفس، لم تقدر أن تقول: إن معنى يتوفى يميت.

وإن قلت: إن التوفي في المنام إمانة مجازية. قلنا: كيف يكون معنى اللفظ الواحد معنيين: معنى حقيقياً، ومعنى مجازياً، ويتعلق باعتبار كل معنى بمفعول، ومُعطف أحد المفعولين على الآخر مع اختلاف المعنى العامل به؟ وهل يكون اللفظ الواحد مرآة لكل من المعنيين المستقلين؟ كلا لا يكون.

وإن جعلت قوله (سأ): ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ مفعولاً لكلمة «يتوفى» مقدرةً بدّل عليها قوله (سأ): ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ قلنا: إن دلالة الموجود على المحذوف إنما هي بمعناه، كما لا يخفى على من له معرفة بمحاورات الكلام في كل لغة، فكيف يجعل التوفي بمعنى الموت دليلاً على توفٍ محذوفٍ هو بمعنى آخر.

إذن فليس إلا أن التوفي بمعنى واحد، وهو الأخذ تماماً ووافياً، إما من عالم الحياة، وإما من عالم اليقظة، وإما من عالم الأرض والاختلاط باليُسر إلى العالم الساهوي، كتوفي المسيح وأخذه.

ومن الغريب ما قاله بعض من أن رفع المسيح إلى السماء، غير مشتمل على أخذ الشيء تاماً. انتهى. وليت شعري ماذا بقي من المسيح في الأرض، وماذا تعاصى منه على قدرة الله في أخذه فلا يكون رفعه مشتملاً على أخذ الشيء تاماً؟!

هذا، ولا يخفى أن القرآن ناطق بأن المسيح ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، ورفع الله إليه، وإن عقيدة المسلمين مستمرة كإجماعهم على أنه لم يميت بل رُفِعَ إلى

السما إلى أن ينزل في آخر الزمان، فلأجل ذلك التجأ بعض من يُفسّر التوفي بالإماتة إلى أن يُفسّر قوله (عالي): ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُنْ فِي سَكْنِكَ يَوْمَئِذٍ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (١)، ولكنني لا أدري ماذا يصنع بحكاية القرآن لما سبق على نزوله في قوله في أواخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ - مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ - فَلَِمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (٢)؟

فهل يسوغ أن تُفسّر هذه الآية بالوفاة بعد النزول، وهل يصحّ القياس في ذلك على قوله (عالي): ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ (٣) وهل يخفى أن مقتضى كلام المسيح في الآيتين، هو أنه بعد أن توفاه الله وانقطعت تبليغاته في دعوة رسالته وكونه شهيداً على أمته، تمخض الأمر ورجع إلى أن الله هو الرقيب عليهم؟

وإن سَوّق الكلام وأتساقه ليدلّ على اتصال الحالين، وإن الرقيب كيفاً فسرته، إننا يكون رقيباً في وجود تلك الأمة في الدنيا دار التكليف، لا الآخرة التي هي دار جزاء وانتقام، ولا تصحّ الطفرة في المقام من أيام دعوة المسيح لأُمته في رسالته وكونه شهيداً عليهم إلى ما بعد نزوله من السماء في آخر الزمان حيث يكون وزيراً في الدعوة الإسلامية لا صاحب دعوة.

ومن الواضح أن المراد في الآيتين من الناس الذين جرى الكلام في شأنهم، إننا هم الذين كانوا أمة المسيح، وفي عصر رسالته ونوبة دعوته وتبليغه، وأما صرف وجهة الكلام إلى الناس الذين هم في أيام نزوله من السماء، فما هو إلا مجازفة فيها ما فيها وتحريف للكلم.

وأما قوله (عالي): ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فلم يكن إخباراً ابتدائياً يكون وقوع الفعل الماضي فيه باعتبار حال المتكلم كما في الآيتين، بل جاء في سياق قوله (عالي): ﴿مَا

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٠٣، تفسير غرائب القرآن جهامش تفسير الطبري ٣: ٢٠٦، تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.

(٢) الآية: ١١٧، ١١٦.

(٣) الكهف: ١٨، ٩٩، يس: ٣٦، ٥٩.

يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ^(١) في حوادث زمان البعث والقيامة ومقدماتها، فهو في سياقه ناظر إلى ذلك الحين، وسباق الكلام يجعله بدلالته في قوّة قوله: ونفخ حينئذ في الصور. فهو على حقيقة الفعل الماضي، وباعتبار ذلك الحين، كما في قوله (نار): ﴿وَجِئْتَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ^(٢)﴾.

هذا، وبعض المفسرين لقوله (نار): ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْثَى قَدْ كُنْتَ كَذِبًا أَسْتَكْبَرْتَ^(٣)﴾، أي مُمْتَكِرًا، حَتَفَ أَنْفَكَ^(٤).

وأقول: إن أراد الإمامة بعد نزول المسيح من السماء، شارك ما سبق من التفسير وورد الاعتراض عليه، وإن أراد إمامته قبل ذلك وقبل نزول القرآن، خالف المعروف من عقيدة المسلمين وإجماعهم في أجيالهم، ويرد عليه السؤال أيضاً بأنه من أين جاء بالإمامة حَتَفَ أَنْفَهُ، وماذا يصنع بها جاء في القرآن كثيراً، مما يتنافى اختصاص التوقّي بالموت حَتَفَ الْأَنْفَ؟

بل المراد منه الأخذ بالموت، وإن كان بالقتل، كقوله في سورة الحجّ والمؤمن في أطوار خلق الإنسان من التراب والنطفة إلى الهرم: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ^(٥)﴾ ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ^(٦)﴾. وفي سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا^(٧)﴾. ويونس: ﴿وَلَكِنْ أَعِذُّ اللَّهَ الَّذِي يُتَوَفَّاكُمْ^(٨)﴾. والنحل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ^(٩)﴾.

(١) يس: ٣٦، ٤٩.

(٢) الفجر: ٨٩، ٢٣.

(٣) الكشف: ١: ٣٦٦، جوامع الجامع: ٥٩، تفسير المنار: ٣: ٣٦٦، ومعنى «مات حَتَفَ أَنْفَهُ»: أي على فراشه من

غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق «بمعجم البحرين - حنف - ٥: ٣٤».

(٤) الآية: ٥.

(٥) الآية: ٦٧.

(٦) الآية: ٢٣٤ و ٢٤٠.

(٧) الآية: ١٠٤.

(٨) الآية: ٧٠.

والسجدة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾^(١).
 والأعراف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾^(٢).
 والنساء: ﴿تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٣).
 والنحل: ﴿تَتَوَفَّاكُم الْمَلَائِكَةُ﴾^(٤).
 والأنعام: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾^(٥).
 ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٦).
 والأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾^(٧).
 والزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾^(٨).
 وإنك لا تكاد تجد في القرآن المجيد لفظ التوفي مستعملاً فيها يراد منه الإمانة
 حَتَفَ الأنف، إذن فمن أين جيء بذلك في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؟ نعم، ابتلي
 لفظ التسوي ومشتقاته بالأخذ بمعناه يمنة ويسرة، حتى أن العامة حسبوها مرادفة
 للموت، حتى أنهم يقولون في الذي مات: تَوَفَّى بفتح التاء والواو والفاء بالبناء للفاعل،
 ويقولون في الميت: مُتَوَفَّى بكسر الفاء وصيغة اسم الفاعل، بل يحكى أن أبا الأسود
 الدؤلي كان يمشي خلف جنازة في الكوفة فسمع رجلاً يسأل عن الميت، ويقول: من
 المتوَفَّى بكسر الفاء^(٩).
 وأما ما نسب إلى ابن عباس من أن معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي

(١) الآية: ١١.

(٢) الآية: ٣٧.

(٣) الآية: ٩٧.

(٤) الآية: ٢٨ و ٣٢.

(٥) الآية: ٦١.

(٦) الآية: ٢٧.

(٧) الآية: ٥٠.

(٨) الآية: ٤٢.

(٩) الكشف: ١: ٧٨٢، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٤٧.

«وَقِيلَ ﴿إِنِّي مُمِيتُكَ﴾^(١)، فما أراه إلا كما نُسب إلى ابن عباس في مسائل نافع بن الأزرق^(٢)، كما ذُكر في الفصل الثاني من النوع السادس والثلاثين من (إتقان السيوطي) من أن نافعاً سأله عن قول الله: ﴿مَا إِنَّ مَقَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَى﴾^(٣) أي بما يرجع إلى معنى تيهظهم وتنقل عليهم، كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

وَمِثْنِي لَذَنِي سَمَقَتْ وَطَالَتْ رَوَادِفُهَا تَنُوءُ بِهَا وَلِينَا^(٤)
وكما أنشده اللغويون:

إِلَّا عَصَا أَرَذَنْ طَالَتْ^(٥) بَرَأَيْتُهَا تَنُوءُ ضَرْبُتُهَا بِالْكَفِّ وَالْعُصْبِ^(٦)
فذكر أن ابن عباس قال له في الجواب: لتثقل، أو ما سمعت قول الشاعر:
تَمَشَّى فَتَثْقَلُهَا عَجِيزَتُهَا مَشَى الضَّعِيفُ يَنُوءُ بِالْوَسْقِ^(٧)
أي ينهض بالوسق بتكلف وجهه، على عكس المعنى المذكور في القرآن.

أهل تری ابن عباس یفسر «تنوء» التي في الآية بغير معناها، كما ثار من هذا الاستشهاد المنسوب إليه اعتراض النصارى بأن القرآن جاء بلفظة «لتنوء» في غير محلها؟

وهل ترى ابن عباس لا يعرف أن معنى ينوء بالوسق ليس يثقل بل ينهض به بتكلف؟

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٠٣، التفسير الكبير ٨: ٦٧، تفسير القرطبي ٤: ١٠٠.

(٢) نافع بن الأزرق بن قيس المنفي البكري الوائلي، رأس الأزارقة من الحوارج، وإليه نسبهم، كان أمير قومه، وفقههم، من أهل البصرة، ضُجِبَ في أول أمره عبادة بن عباس، وله اسئلة رواها عنه، وقتل «يوم دولا» على مقربة من الأهواز في سنة (٦٥هـ) «الكامل في التاريخ ٤: ١٤٣، ١٦٥ - ١٦٨، لسان الميزان ٦: ٥٠٦/١٤٤، جهرة أنساب العرب ٢: ٣١١».

(٣) القصص ٢٨: ٧٦.

(٤) شرح المعلقات العشر: ١٣٩.

(٥) في الصحاح واللسان: طارت.

(٦) «الصحاح - نوأ: ١: ٧٩، لسان العرب - نوأ: ١: ١٧٥».

(٧) الاتقان ٢: ١٠١، الوسق: سَوْنٌ ساعة، وقال الخليل: هو جمل البعير «الصحاح - وسق: ٤: ١٥٦٦».

وهل ترى ابن عباس لا يدري بيت المعلقة ليستشهد به استشهداً صحيحاً مطابقاً منتظماً؟ كيف، وإن المعلقات كانت للشعر في ذلك العصر كبيت القصيد؟! ولكن «حَنُّ قِدْحٍ لَيْسَ مِنْهَا»^(١) وقد خرجنا عما نُؤثِّره من الاختصار، ولكننا ما خرجنا عن المقصود الأصلي من الكلام في تفسير القرآن الكريم، بل سارعنا إلى شيء من الخفي، والله المُسَدِّدُ الموفق.

المقام الثاني: لا يخفى أنَّ القرآن الكريم مبني على أرقى أنحاء البلاغة العربية، وتفنُّنها بمحاسن المجاز والاستعارة والكناية والإشارة والتلميح، وغير ذلك من مزايا الكلام الراقي ببلاغته، ممَّا كان مانوس الفهم في عصر النزول ورواج الأدب العربي وقيام سوقه، وكان بحيث يفهم المراد منه ومزاياه بأنس الطبع ومركز الغريزة كلَّ سامع عربي.

ولكن بعد اشتراك الأمم في بركة الإسلام، وامتلاء جزيرة العرب من الأمم، وتفرَّق العرب بالتجنيد في غير البلاد العربية، تغيَّر أسلوب الكلام العربي في عاتمة الناس، وتبدَّلت مزايا الكلام وأساليب المحاورات، فعاد ذلك المانوس غريباً في العاتمة، وذلك الطبيعي الغريزي يحتاج في معرفته إلى ممارسة التطعيم، وكلفة التعلُّم والتدرب في اللغة العربية وأدبها على النهج السوي، من دون تقليد معرقل، ولا وقوف عند الأساء، ولا جمود على قشور القواعد التي مهَّدها المتدربون في العربية من الخواصَّ اقتباساً بقدر الوسع من ذلك الأدب القديم، فدوَّنوا من ميثهها شيئاً، وفاتهم من أسرارها وحقائقها الشيء الكثير، وربما أدَّت بهم وعورة البحث والجمود على التقليد إلى عُثرات الوهم أو إحجام الشكوك.

انظر إلى أنَّ جماعة من النحويِّين كالشَّراح لألفية ابن مالك وغيرهم، قالوا في قول الراجز:

(١) القِدْح: أحد قِداح البسر، وإذا كان أحد القِداح من غير جوهر إخوته، خرج له صوت يُخالف أصواتها، فيُعرف به أنَّه ليس من جملة القِداح. وهذا المثل يُضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس هو منها، أو يتمدَّح بما لا يوجد فيه «جمهرة الأنساب ١: ٥٥٦/٣٧٠، المستقصى ٢: ٢٤٦/٦٨، مجمع الأمثال ١: ١٨١/١٨٠».

جَاءُوا بِمَنْقِي هَلْ رَأَيْتَ الذُّنْبَ قَطُّ؟

إنَّ التقدير «بمَنْقِي مقول فيه: هل رأيت»^(١) إلخ، ولا يخفى أَنَّ الراجز يُريد وصف المَنْقِي بما يبين حاله وتبدل لونه بكثرة الماء، وماذا يُجدي في ذلك كونه «مقولا فيه: هَلْ رَأَيْتَ الذُّنْبَ قَطُّ؟» ولم يفتنوا إلى أَنَّ الصفة التي يُريدها الراجز، كما يقتضيها المقام، قد أشار إليها باستفهامه الذي هو بمنزلة التمثيل الحِسِّي لها، فكأنه قال: جاءوا بِمَنْقِي لونه كلون الذنْب، هل رأيت الذنْب يوماً من الأيام؟ فإنَّ لون المَنْقِي كلونه، فاعرف كيف كان.

ومن شواهد ذلك أَنَّ صاحب (الكشاف) مع تضلعه من الأدب العربي، ومعرفته بفَذَلِكات الكلام اضطرب كلامه وتفسيره في كلمة واحدة تكررت في القرآن الكريم على نحو واحد، وهو قوله (تعالى): ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ ففي سورة الواقعة في قوله (تعالى): ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(٢) قال: فأقسم، وإنَّ «لا» مَزِيْدَة، مثلها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(٣).

وفي قوله (تعالى): ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٤) قال: إدخال لا النافية على فعل القسم مُستفيض في كلامهم وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

وَلَا وَابْنِكِ ابْنَةُ الْعَايِرِي لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرَّ

(١) المَنْقِي: اللبن المزوج بالماء، شبهه بالذنْب لانغاق لونهما، لأنَّ فيه غَبْرَة وكَفْرَة. والراجز يصف قوماً نزل بهم بالْبُخْل لكثرة ما خلطوا من الماء في ظلمة الليل، يقول:

حَتَّى إِذَا جُنَّ الظُّلَامُ وَاسْتَلَطَّ جَاءُوا بِمَنْقِي هَلْ رَأَيْتَ الذُّنْبَ قَطُّ؟

قال بعض النحاة: ظاهر الأمر أَنَّ الجملة المصدرية بحرف الاستفهام قد وقعت نمناً للكرة - وهذا ما يمنعه أكثرهم - وليس الأمر على ما هو الظاهر، بل التثنية قول محذوف، وهذه الجملة معمولة له «مغني اللبيب»:

٤٤٧/٣٢٥، شرح ابن عقيل ٢: ١٩٩/٢٨٨، أوضح المسالك ٣: ٣٩٤/٨.

(٢) الآية: ٧٥ و٧٦.

(٣) الكشاف ٤: ٤٦٨، الآية في سورة الحديد ٥٧: ٢٩.

(٤) القِيَامَة ٧٥: ١ و٢.

وقال غُوَيْهٌ بن سُلَيْمٍ^(١):

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةً بَاحْتِمَالٍ لِتَحْزُنُنِي فَلَا بَكَ لَا أَبَالِي
وفائدتها تأكيد القسم، وقالوا: إنها صلة، أي زائدة، مثلها في ﴿لَتَلَأْلَأَ بَعْلَمٌ أَهْلُ
الْكِتَابِ﴾ وقال في ذلك كلاماً فيه ما فيه.

وقال: والوجه أن يقال هو النفي، والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا
إعظاماً له، يدلّك عليه قوله (نأى): ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فكانه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا
إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك^(٢)، انتهى.

ومقتضى بيانه هذا أن يقول إعظاماً للمقسم به، فإنه أوضح للبيان من مثله،
وليته لم يخلط بين دخول «لا» على فعل القسم كما في الآيتين، وبين دخولها على حرف
القسم كما في بيتي امرئ القيس وغُوَيْهٌ وغيرهما، مما لا يقع جوابه إلا منفياً، فإنه واضح
الظهور في أن «لا» فيه نافية، موطئة لنفي الجواب لتأكيد، وسبيلها سبيل قوله (نأى) في
سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾^(٣).

وفي سورة الحاقة في قوله (نأى): ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤)
قال: إقسام بالأشياء كلها^(٥).

وفي سورة البلد في قوله (نأى): ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٦) قال: أقسم بالبلد
الحرام^(٧). ولم يقل شيئاً في قوله (نأى): ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ في سورة المعارج والتكوير

(١) غُوَيْهٌ بن سُلَيْمٍ بن ربيعة، وقيل: غُوَيْهٌ.

شاعر جاهلي ينسب إلى زيان بن عازر بن ثعلبة الضبي، عاش إلى زمن المهجّاج، وتعرّض للتشردّ والخوف منه

«معجم الشعراء في لسان العرب»: ٢٧١.

(٢) الكشف: ٤: ٦٥٨.

(٣) الآية: ٦٥.

(٤) الآية: ٣٨ و٣٩.

(٥) الكشف: ٤: ٦٠٦.

(٦) الآية: ١.

(٧) الكشف: ٤: ٧٥٣.

والانشقاق^(١).

ومن شواهد ذلك ما سمعته هنا عن صاحب (الكشاف) في قوله (عالي): ﴿لَتَلْمِزَ يَعْزَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من أن «لا» في لَتَلْمِزَ مَزِيدَةٌ، وَصَرَحَ أَيْضاً بِذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ حَيْثُ قَالَ: ﴿لَتَلْمِزَ يَعْزَمُ﴾ لِيَعْلَمَ. وَوَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ^(٢).

فاغتنم أعداء القرآن الكريم من ذلك فرصة، فاعترضوا على القرآن بأنه مشتمل على الزيادة اللغوية، ولكن الجزء الأول من كتاب (المهدي)^(٣) أوضح البطلان في زعم الزيادة، كما عليه جماعة من أن المعنى: أن الله وعد الذين آمنوا ويتقون الله ويؤمنون برسوله أن يؤتيهم كفلين من رحمته، ويجعل لهم نوراً يمشون به، ويغفر لهم. ومن فوائد ذلك وغاياته أن لا يعلم أهل الكتاب أن الذين آمنوا لا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَلَئِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ.

وليت شعري لماذا لا تُنَزَّهَ جَلَالَةُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَبِرَاعَتِهِ عَنْ لُغْوِيَّةِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الَّتِي لَا غَايَةَ فِيهَا إِلَّا الْإِيْهَامُ.

وفي تفسير قوله (عالي) في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٤) قَالَ فِي (الْكَشَافِ) أَيْضاً: «لَا» فِي ﴿إِلَّا تَسْجُدَ﴾ صِلَةٌ - أَيْ زَائِدَةٌ - بِدَلِيلِ قَوْلِهِ (عالي)، أَيْ فِي سُورَةِ (ص): ﴿وَمَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾^(٥) وَمِثْلُهَا ﴿لَتَلْمِزَ يَعْزَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بِمَعْنَى لِيَعْلَمَ. اِنْتَهَى^(٦).

أقول: وَإِنَّ التَّدْبِيرَ فِي آيَاتِ الْأَعْرَافِ وَ(ص) يَشْهَدُ بِأَنَّ «لَا» غَيْرُ زَائِدَةٍ، بَلْ جِيءَ بِهَا فِي الْأَعْرَافِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَمْرٍ قَدْ صُرِّحَ بِهِ فِي آيَاتِ (ص)، وَذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ قَدْ

(١) الكشاف ٤: ٦٦٣ و ٧١ و ٧٢٧.

(٢) الكشاف ٤: ٤٨٣، مجمع البيان ٩: ٣٦٧.

(٣) المهدي إلى دين المصطفى: ٣٥٠ و ٣٥٥، (بت قدس سره).

(٤) الآية: ١٧٢.

(٥) الآية: ٧٥.

(٦) الكشاف ٢: ٨٩.

يكون له مانع من ضِدٍّ أو غَذَلٍ أو غَفْلَةٍ أو عَجْزٍ أو كسل، وقد يكون له سبب داعٍ وحامل على تركه ومخالفته الأمر به، فسأل الله إنكاراً أو توبيخاً في سورة (ص) عن المانع بقوله (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ وعن السبب والحامل على المخالفة بقوله (ص): ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾.

وأشار (جذائه) في سورة الأعراف بوجود «لا» إلى السؤال عن السبب الحامل على المعصية بعد السؤال عن المانع، فكأنه قال: ما منعك من أن تسجد، وما حملك على أن لا تسجد. ولذا وقع الجواب من إبليس في كلا المقامين ببيان السبب الحامل له على أن لا يسجد، لا التعليل بالمانع، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

وكذا الكلام في قوله (ص): ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(١) فإن التفرع في قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ يدل على أنه قد سبق السؤال عن المانع عن الاتباع، وعن السبب الحامل على المعصية بتركه، وأشير إليه بإدخال «لا»، ولكن قال في (الكشاف): لا مزيدة، والمعنى ما منعك أن تتبعني^(٢).

وقال الله في سورة الأنبياء: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٣) وفي (الكشاف) فسر الإهلاك بالعزم عليه، وفسر الرجوع بالرجوع من الكفر إلى الإسلام. وهذا مختاره على الظاهر من الوجوه الثلاثة، ثم قال فيه: «ولا» صلة مزيدة^(٤). انتهى.

وليته أبقى الإهلاك على ظاهره، وفسر الرجوع بالرجوع إلى الإيمان، والتوبة عند مشاهدة آيات الهلاك وأحوال الموت، كإيمان فرعون عند الفراق، كما في سورة

(١) الآية: ٩٢ و ٩٣.

(٢) الكشاف: ٣: ٨٣.

(٣) الآية: ٩٥.

(٤) الكشاف: ٣: ١٣٤.

يونس: ٩٠^(١)، أو كالذين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾^(٢) كما في سورة النساء، وكما ذكره الله في سورة المؤمنين في حال المشركين والظالمين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾^(٣).

فإن قولهم هذا رجوع إلى التوبة، ولكنها لا تقبل، كما قال الله في الموارد الثلاثة، ويكون معنى الآية الكريمة هو أن أهل القرى التي أهلكتها الله حرام عليهم - بسبب مشاهدتهم لآيات الإهلاك وحضور الموت، وممتنع في العادة، ومنفي بالمرّة - كونهم لا يرجعون إلى التوبة والإيمان بحسب الفطرة، وإن كان لا ينفعهم، ويستمرّون على ما هم فيه، حتى إذا جاءت الساعة وصار يوم القيامة وعابنوا ما كانوا يوعدون، قالوا: يا ويلنا قد كنّا في غفلة عن هذا.

وقال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾^(٤).

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ معطوف على ﴿يَقُولُ﴾ المعطوف بثمّ على المنفي بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي ليس له، وإن «لا» هنا نافية يؤتى بها لتثبيت النفي في الأمرين، مثلها في قولك: ليس لك أن تقوم، ولا أن تأكل. لئلا يتوهم أن النفي للجمع بين الأمرين، والجمع بين القيام والأكل، كما قال في (الكشاف) في ثاني وجهيه في الآية.

وقال في (الكشاف): إن في الآية وجهين:
أحدهما: أن نجعل «لا» مزيدة، والمعنى: ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له،

(١) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ غَافَتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي غَافَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

(٢) الآية: ٨٨.

(٣) الآية: ٩٩ و ١٠٠.

(٤) الآية: ٧٩ و ٨٠.

ويأمركم أن تتخذوا النبيين.

والثاني: أن نجعل «لا» نافية غير مزيدة، والمعنى ما كان لبشر يستنبه الله أن يأمر الناس بعبادته، ومنهاكم عن عبادة الملائكة، أي ما كان له أن يجمع بين الأمر والنهي^(١).

وباللعجب ممن سوغ لنفسه في مثل بلاغة القرآن المجيد أن يفسر «لا يأمركم» بقوله: «ينهاكم» ولو فسر بذلك كلام واحد من الناس لأوسع من الملام ما أوسع. ولم ينفرد الزمخشري بدعوى زيادة «لا» في هذه الموارد، بل أدعى ذلك جماعة من المفسرين والنحويين، كما ذكر ابن هشام في (المغني) في كلمة «لا»^(٢).

ولو أن زيادة «لا» محققة في كلام العرب، متداولة في شعرهم ونثرهم، لما ساء هؤلاء أن يقولوا بذلك في مثل بلاغة القرآن الكريم ومجدها، وفي خصوص الموارد التي ادعوا فيها الزيادة، فإن البلاغة بل استقامة الكلام تقتضي تثبيت إثباتها، ورفع أوهام النفي عنها، لو كانت مثبتة إذن فكيف يقلق مضمونها الشريف بها يومه النفي ويشوش الكلام؟ وإن المخبر الذي يعرف كيف يتكلم، لا يدخل على خبره ما يوهم نقيضه، هذا مع أنني لم أجد شاهداً ذكره من الكلام على زيادة «لا» إلا قوله:

وَتَلَحَّيْنِي فِي اللَّهْوِ أَنْ لَا أَحِبُّهُ وَلِلَّهْوِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَائِلٍ^(٣)
ولو كان هذا من شعر العرب، وكان المراد منه ما فهموه، لجاز أن يُضمر فيه «وتأمريني بأن لا أحبه» أو «وتدعيني إلى أن لا أحبه».

ومن غرائبهم استشهاد بعضهم أيضاً بقول الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلُ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُسُودَ قَاتِلُهُ^(٤)

(١) الكشف ١: ٣٧٨.

(٢) مغني اللبيب ١: ٣٢٧. وأنظر أيضاً معاني القرآن للرفاء ١: ٣٧٤، المنتخب ١: ٤٧، مجمع البيان ٤: ٦١٩ و٩.

٣٦٧، التفسير الكبير ١٤: ٣١، تفسير البياض ١: ٣٣٣ و٢: ٤٧٢، خزائن الأدب ٤: ٤٨٩.

(٣) مغني اللبيب ١: ٣٢٧/٤٥٢، شرح شواهد المغني ١: ٣٩٥/٦٣٤ والبيت منسوب لعبد الله بن محمد الأحمس المتوفى سنة

(٤١٠٥هـ).

(٤) مغني اللبيب ١: ٣٢٧، شرح شواهد المغني ٢: ٣٩٦/٦٣٤، قال السيوطي: قال الزمخشري في أحاجيه: هذا

نعم، لم يوافقهم الزمخشري على زعمهم لزيادة «لا» في قوله (نار) في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) وقوله (نار) فيها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾^(٢).

ومن شواهد ذلك أنك سمعت كلام (الكشاف) في دخول لا النافية على القسم، واستفادته في كلامهم وأشعارهم، وما ذكره من الشواهد في الشعر، ومع ذلك قال في تفسير سورة النساء في قوله (نار): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ معناه: فوربك، كقوله (نار): ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِفَّنَّهُ﴾^(٣) و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في: ﴿لَتَلْمِزَ يَعْلَمُ﴾ لتوكيد وجوب العلم. انتهى^(٤).

فانظر فيه واعتبر، وقل: أين ما ذكرته من الاستفاضة، وأين مضى الاستشهاد بالشعر؟! ولولا الحمل على التحامل لذكرنا عن (الكشاف) وغيره أكثر من ذلك، وفي ذلك كفاية لأولي الأبواب.

ومن ذلك ما نقله السيد الرضي في (حقائق التأويل) من قول بعضهم بزيادة الواو في قوله (نار) في سورة آل عمران: ﴿وَلَوْ أَقْنَدْتَنِي بِهِ﴾^(٥) وإبراهيم: ﴿وَلَيَنْبَرُوا بِهِ﴾^(٦) والزمر: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٧).

أقول: ولثل هذه الواو في القرآن موارد، وهي فيها كلها واو العطف على محذوف،

→ المبنى غامض المعنى، وما رأيت أحداً فسره. وحكى يونس عن أبي عمرو بن العلاء: أنه جرُّ البُخل بإضافة «لا» إليه.

وقال السخاوي: هذا البيت أورده أبو علي بنصب البُخل، وزعم أنه مفعول أبي، وأن «لا» زائدة، وحكى ذلك عن أبي الحسن الأخفش.

(١) الكشاف ٢: ٥٧ - ٥٨، والآية: ١٠٩.

(٢) الكشاف ٢: ٧٨ - ٧٩، والآية: ١٥٦.

(٣) الحجر ١٥: ٩٢.

(٤) الكشاف ١: ٥٢٨.

(٥) الآية: ٩١.

(٦) الآية: ٥٢.

(٧) حقائق التأويل: ٢٨٥، والآية: ٧٣.

يدلّ عليه سياق القرآن، بكرامة نهجه وبراعة أسلوبه في مناحي البلاغة، وبحلوله المقام بإشراق تلك البراعة بأجلى المظاهر، كما سيأتي التنبيه عليه في موارد إن شاء الله.

ومن شواهد ذلك أنّ جناة القصور أنّ جماعة وقفوا عن الوصول في بعض ما في القرآن الكريم من فرائد البراعة وفوائد البلاغة حتّى صار يلوح من ترددهم أنّ ذلك، مخالف لقواعد العربيّة، فاغتنم أعداء القرآن من ذلك فرصة الاعتراض، وقد ساعد التوفيق على التصرّص لتلك الاعتراضات وبيان خطئها، بإيضاح براعة القرآن الكريم في موارد أسرار البلاغة ولباب الأدب العربي وبواهر أساليبه، وقد كُتب شيء من ذلك في الجزء الثاني من كتاب (الهدى) وفي خصوص المقدّمة الثالثة عشرة^(١).

ومن شواهد ذلك أنّ كثيراً من مجازات القرآن الكريم واستعاراته الواضحة العلاقة، والفائقة في لحاظ التشبيه ومرمى الإشارة، والمؤدّة بأحكام العقل ومحكّات الكتاب، هذه الاستعارات التي كانت من أزهار الأدب العربي الغريزي، حين ما كان روضه زاهياً زاهراً، عادت بعد ما دوى خميله معركة للأراء، وهُدفاً للجُحود، وإن حامت عنها محكّات الكتاب ونصرتها البراهين العقلية في تقديس الله وتفردّه بالكمال.

فمن ذلك ما في القرآن من نسبة الإضلال إلى الله (جلّ اسمه) في عدّة آيات، منها: السابعة والعشرون من سورة الرعد^(٢)، والسابعة والعشرون من سورة إبراهيم^(٣) ونحوهما، فإنّ التعبير في ذلك بالإضلال مجاز فائق في الحسن، يمثّل ببراعته حاجة الإنسان مع نفسه الأمّارة إلى لطف الله به وعنايته في توفيقه، ويشير إلى ما في اللطف والتوفيق من الأثر الشريف الكبير في النعمة على الإنسان، ويُنَبِّه إلى أنّ خذلان الله للإنسان المتعمّد برفع العناية في التوفيق، وإيكااله إلى نفسه، شبيه بإضلاله في قوّة الأثر. كلّ ذلك لأجل التنويه والامتنان بنعمة الله في توفيقه لعباده، ولأجل هذه المزايا الفائقة استيعير الإضلال لخذلان الله لعبده المتعمّد وإيكااله إلى نفسه والعياذ بالله.

(١) الهدى إلى دين المصطفى ٢: ٥ - ٢٩٤.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ نَافَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاقِبُ﴾.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَيَضِلُّ اللَّهُ السَّالِكِينَ وَيَهْدِي اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾.

ولقد كان يكفي في القرينة على التجوز في لفظ الإضلال هنا، وصرفه عن مقتضى وضعه، ما في القرآن من المحكمات، مثل: قوله (نار) في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾^(١).

وفي سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) فإن تمجد الله بذلك كافٍ في كونه قرينة على أن الإضلال المنسوب لله (نار) إنما هو مجاز وأن مجده وألطافه جلّت آلاؤه تعين المراد منه، وهو ما ذكرناه.

وكيف يكون الإضلال المنسوب إلى الله على حقيقته، مع أن الله يذم الضالين، ويعذبهم على ضلالهم، ويوبخهم بقوله (نار): ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾^(٣) ﴿لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾^(٤) ﴿لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥) ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٦) ﴿فَمَا لَمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٧) ﴿فَمَا لَمْ عَنْ التَّذْكِيرَةِ مُعْرِضِينَ﴾^(٨) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا﴾^(٩) ١٢ وقام الكلام في الكتب الكلامية.

وقد ذكر شيء منه في الجزء الثالث من (الرحلة المدرسية)^(١٠) ومن ذلك أن الفرقة الظاهرية^(١١) لم تلتفت إلى المجاز ووجهه الواضح في قوله (نار): ﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ

(١) الآية: ٢٨.

(٢) الآية: ٩٠.

(٣) البقرة: ٢٨.

(٤) آل عمران: ٣٠.

(٥) آل عمران: ٣٠.

(٦) يونس: ٩٠.

(٧) الانشقاق: ٨٤.

(٨) الدثر: ٧٤.

(٩) النساء: ٤٩.

(١٠) الرحلة المدرسية: ٣: ٤٢٠ - ٤٣٠.

(١١) وهم أصحاب أبي سليمان داود بن علي بن خلف الاصفهاني الشافعي الظاهري. ولد بالكوفة سنة مائتين، ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة سبعين ومائتين هجرية. وهو من أئمة السنة والجماعة، أخذ العلم عن ابن راهويه وأبي ثور

الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿١﴾ ولم يصرفهم عن المعاني الحقيقية لهذه الألفاظ ضرورة العلم من القرآن والبراهين القطعية في أن الله مُنَزَّهٌ عن الجسم والأين والمكان، لكي يعرفوا أن المراد بالعرش هنا هو شأن القدرة والجلال، واستيلاء السلطان على الملوك في الأزل والأبد. ولأجل إحضار هذا الشأن العظيم في أذهاننا القاصرة، ومَلِّءْ قلوبنا بعظمته، مثل القرآن لتصورنا المحدود بتشبيهه بها نعرفه ونعرف آثاره من العرش الجسدي للملك الأرضي، الذي بالصعود عليه صعوداً زمنياً ينفذ سلطانه وتعم قدرته.

ومن آثار الظاهريين العجيبة ما أخرجه ابن مردويه والخطيب في (تاريخه) وابن منصور في (سننه) من مسند عمر عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في قوله (تعالى): ﴿عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ قال: حتى يسمع له أطيط الرحل ^(١).

وانظر إلى (كنز العمال) الجزء الأول صفحة (٢٢٦) ^(٢) وكذا (منتخب الكنز) ^(٣) وأطيط الرحل والقَتَب: صوته، أي صوت أخشابه من ضغط ثقل الراكب والحمل، وسيأتي شبه ذلك في تفسير آية الكرسي.

وفي (ميزان الذهب) من أنكر ما جاء عن مجاهد في التفسير في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ ^(٤) قال: يجلسه معه على العرش ^(٥).

وفي (شواهد الحق) كتاب الشيخ يوسف النبهاني، قال: ومن كتب ابن تيمية كتاب (العرش) قال في (كشف الظنون): ذكر فيه أن الله يجلس على العرش، وقد أخل فيه مكاناً يقعد معه فيه رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

→ وغيرهما، لقب بالظاهري لفعله بأخذ معنى القرآن والحديث الظاهر دون الباطن، على أن تكون من الأحاديث النبوية الثابتة.

(١) طه ٢٠: ٥.

(٢) تاريخ بغداد ١: ٢٩٥.

(٣) يقابله الجزء الثاني من طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ص ٤٦٦ الحديث ٤٥٠٧.

(٤) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ١: ٤٦١.

(٥) الاسراء ١٧: ٧٩.

(٦) ميزان الاعتدال ٣: ٤٣٩.

كما ذكر ذلك أبو حيان في قوله (سار): ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١) وقال- يعني أبا حيان -: قرأت في كتاب (العرش) لأحمد بن تيمية بخطه ما صورته ما ذكرناه^(٢).

ونقلها في (كشف الظنون) من طريق آخر عن الشَّيْخِي. انتهى.
وعلى هذا السوتر ضَرَبَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ في رسالته المطبوعة في ضمن مجموعة فيها عدَّة من الرسائل، طُبِعَتْ في مَكَّة، فانظر إلى صفحة (١٥٥) و(١٥٦) من المجموعة. وكذا عبدالرحمن بن حسن الوهَّابي في صفحة (٣٦) من المجموعة المذكورة.
المقام الثالث: جاء في القرآن شيء كثير من الألفاظ العامة التي يُراد بها الخاص، أو التي هي نصٌّ في خاصٍّ باعتبار نزولها في شأنه، وغير ذلك ممَّا كان معروفاً في عصر نزوله، ثُمَّ صارت أسباب الحُفَاء تختلسه شيئاً فشيئاً وتجعل ضده، كما في خُرافة الفرائق وآية التمني.

والمفزع في تفسير ذلك هو ما يحصل به العلم من إجماع المسلمين أو اتفاقهم في الرواية للتفسير، أو في الرواية عن الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في الدلالة على من يُفزع إليه بعده في تفسير كتاب الله، وذلك كحديث الثقلين المتواتر القطعي، الذي ذكره إخواننا من أهل السُّنَّة في كتبهم، وأوردوا من روايته عن الصحابة الذين سمعوه من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أكثر من ثلاثين صحابياً، وبقي على ذلك متواتراً في كلِّ عصر إلى العصر الحاضر، وهو قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ - أَوْ الخِلْفَتَيْنِ -: كِتَابُ اللَّهِ، وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي، مَا إِنَّمَا تَمَسَّكْتُمْ بِهَا لَنْ تَضِلُّوا أَبَداً، فَإِنَّهَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْخَوْضُ»^(٣).

وإنَّ لفظ العِترَةِ والأحاديث الكثيرة الصحيحة الواردة في تعيين أهل البيت،

(١) البقرة ٢: ٢٥٥.

(٢) نواهد الحنف: ١٣٠، كشف الظنون ٢: ١٤٣٨.

(٣) مسند أحمد ٤: ١٧ و ٢٦ و ٥٩ و ٤: ٣٦٧ و ٣٧١، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣/٣٦ و ٣٧، سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٢ و ٣٧٨٨/٦٦٣، مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩ و ١٤٨، سنن البيهقي ٢: ١٤٨ و ٣٠ و ١١٤.

يُعَيِّنُ المَراد من أهل البيت، فضلاً عن دلالة العرف والمحاورات، وقوله (سَلَّمَ) عليه وآله وسلم: «ما إن تَمَسَّكتم بهما لن تَضِلُّوا أبداً» مع قوله (سَلَّمَ) عليه وآله وسلم: «فأنهما لن يَفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض» يَمَيِّنُ الأئمة الاثني عشر المعصومين من عترة الرسول وذرئته، ومن دلائل ذلك اجماع المسلمين على أنَّ من عدا هؤلاء ليس معصوماً، ولا يَتَّصف بأنَّه مثل كتاب الله لا يضلُّ من تَمَسَّك به.

وهاك أسماء الصحابة السامعين لهذا الحديث عن رسول الله (سَلَّمَ) عليه وآله وسلم:

- (١) عليّ (عليه السلام) أمير المؤمنين.
- (٢) عبدالله بن عباس.
- (٣) أبو ذرّ الغفاري.
- (٤) جابر الأنصاري.
- (٥) عبدالله بن عمر.
- (٦) حذيفة بن أسيد.
- (٧) زيد بن أرقم.
- (٨) عبدالرحمن بن عوف.
- (٩) ضَمِيرَةُ الأسلمي.
- (١٠) عامر بن ليلى.
- (١١) أبو رافع.
- (١٢) أبو هريرة.
- (١٣) عبدالله بن حنطب.
- (١٤) زيد بن ثابت.
- (١٥) أمّ سلمة.
- (١٦) أمّ هانئ أخت أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام).
- (١٧) خُزَيْمة بن ثابت.
- (١٨) سَهْل بن سعد.
- (١٩) عَدِي بن حاتم.

- (٢٠) عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ.
- (٢١) أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ.
- (٢٢) أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ.
- (٢٣) أَبُو شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيُّ.
- (٢٤) أَبُو قُدَّامَةَ الْأَنْصَارِيِّ.
- (٢٥) أَبُو لَيْلَى.
- (٢٦) أَبُو الْهِثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ. وهؤلاء الذين ذكرنا أسماؤهم من بعد أم هانئ، قد رواه كلٌّ منهم منفرداً كمن تقدّمه، وقاموا في رَحْبَةِ الْكُوفَةِ مع سبعة من قُرَيْشٍ فشهِدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فهؤلاء ثلاثة وثلاثون.
- ورواه أَبُو نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ (مَنْقِبَةِ الْمُطَهَّرِينَ) مُسْنَدًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَأَسْنَدُهُ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَسْنَدُهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ^(١).
- ورواه مُوَفَّقُ بْنُ أَحْمَدَ أَخْطَبَ خَوَارِزْمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ^(٢).
- وقُلَّ مَا يَخْلُو عَنْ رَوَايَةِ هَذَا الْحَدِيثِ مُسْنَدٌ أَوْ جَامِعٌ أَوْ كِتَابٌ فِي الْفَضَائِلِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ، مِنْ أَوَّلِ مَا أَخْرَجَ الْحَدِيثَ مِنَ الْحِفْظِ وَصُدُورِ الْحِفَافِ إِلَى صُحُفِ الْمُحَدِّثِينَ، وَلَا زَالَ يَرُوي فِيهَا عَنْ صَحَابِيٍّ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَبِمَا رُوي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ صَحَابِيًّا، إِمَّا مُجْمَلًا كَمَا فِي (الصَّوَاعِقِ)^(٣) وَإِمَّا مُسْنَدًا مُفَصَّلًا كَمَا فِي كِتَابِ السَّخَاوِيِّ وَالسِّيُوطِيِّ وَالسَّمْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ^(٤)، وَمَنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى الْجُزْأَيْنِ الْمَكْتُوبَيْنِ فِي أَسَانِيدِ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ كِتَابِ (الْعَبَقَاتِ).
- ورواه الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي كُتُبِهِمْ بِأَسَانِيدِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ عَنِ الْبَاقِرِ وَالرُّضَا وَالْكَاطِمِ وَالصَّادِقِ عَنْ آبَائِهِمْ (عليهم السلام) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

(١) خلاصة عبقات الأنوار ١: ١٧٠ عن (منقبة المطهرين).

(٢) مناقب الخوارزمي: ١٢٩.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٥٠.

(٤) مصابيح السنة ٤: ١٨٥/٤٨٠٠، مجمع الزوائد ٩: ١٦٣، الدر المنثور ٢: ٢٨٥، الجامع الصغير ١: ٢٤٤/١٦٠٨.

خلاصة عبقات الأنوار ١: ٢٥٩ عن السخاوي و ٢٧٩ عن السمعودي.

وبالأسانيد الأخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وعمر، وأبي ذرٍّ، وجابر، وأبي سعيد، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وحذيفة بن أسيد، وأبي هريرة وغيرهم، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في (غاية المرام) و(تفسير البرهان) للسيد هاشم البحراني (طاب ثراه)، وغير ذلك .

ولعلك تقول: إن البخاري لم يذكر هذا الحديث في جامعه. فاعرف إذن أن المحدثين لا يلتفتون إلى استفاضة الحديث وتواتره، وإفادته للعلم من هذه الجهة، كما هو شأن العالم المحقق في حُجَّتِهِ وبعثته عن الحقائق، وإننا المهتم للمحدث والموضوع في فنّه، هو الحديث الأحادي الذي يأخذه بما عندهم في طرق الأخذ من رجل عن آخر على شروط يُقرُّها في السند، فكأن البخاري لم يحصل شرطه في سند من أسانيد الحديث الأحادية، ولكن الحاكم في (مستدركه) استدرك عليه وعلى مسلم حديث زيد بن أرقم، من طريق حبيب، عن أبي الطفيل، قال: لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات^(٢) فقمم^(٣)، فقال الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي، فانظروا كيف تحلفوني فيها، فإنها لن يفرقا حتى يردا عليّ الخوض». ثم قال: «إن الله عز وجل، مولاي، وأنا مولى كل مؤمن» ثم أخذ بيد عليّ فقال: «من كنت مولاه فهذا وليّ، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه بطوله^(٤). ومن طريق مسلم بن صبيح، عنه، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنهما لم يفرقا حتى يردا عليّ الخوض». وقال الحاكم أيضاً: هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يُخرجاه^(٥).

(١) تفسير البرهان ١: ٩، غاية المرام: ٢١٧.

(٢) جمع دوحَة: الشجرة العظيمة من أي شجر كان «جمع البحرين - دوح - ٢: ٣٤٩».

(٣) قم البيت: كنه «جمع البحرين - قم - ٦: ١٤٦».

(٤) مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩.

(٥) مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

قلت: ولم أجد من تعقب الحاكم على استدراكه بهذين الحديثين، فيكون ذلك موافقةً لمن عاصر الحاكم ومن بعده على الاستدراك وصحة الحديثين على شرط البخاري ومسلم.

ومن طريق سلمة بن كهيل، عن أبي الطفيل أنه سمع زيد بن أرقم يقول وساق نحو الحديث الأول، وفيه: «إني تارك فيكم أمرين، لن تضلوا إن اتبعتموهما: كتاب الله، وأهل بيتي عترتي» الحديث، وتعقبه الذهبي بأن طريقه محمد بن سلمة، وقد وهّاه السعدي (١)، وذكر له ابن عدي أحاديث منكّرة. ومراده من السعدي هو إبراهيم بن يعقوب السعدي الجوزجاني، كما ذكره في ترجمة محمد بن سلمة (٢).

قلت: وما أدراك ما السعدي! فإنه معروف بالنصب، وفي (الميزان) عن ابن عدي: كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق في التحامل على علي (عليه السلام)، وقد قال في إسماعيل بن أبان الورّاق شيخ البخاري: إنه كان مائلاً عن الحق.

قال ابن عدي: ولم يكن يكذب الجوزجاني، يريد به ما عليه الكوفيون من التشيع (٣).

إذن، فأعرف السبب في تحامل الجوزجاني وابن عدي على محمد بن سلمة، ولعلم العلم الحق إن الحديث بتواتره في غنى عن التعرض له في جامع البخاري. هذا، وأما الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة ومجاهد وعطاء والضحاك، كما ملئت كتب التفسير بأقوالهم المرسلة، فهو مما لا يُعذر فيه المسلم في أمر دينه فيما بينه وبين الله ولا تقوم به الحجة، لأن تلك الأقوال إن شاب روايات فهي مراسيل مقطوعة، ولا يكون حجة من المسانيد إلا ما ابتنى على قواعد العلم الديني الرصينة، ولو لم يكن من الصوارف عنهم إلا ما ذكر في كتب الرجال لأهل السنة لكفى، وإن الجرح مُقدم على التعديل إذا تعارضاً. أما عكرمة فقد كثر فيه الطعن بأنه

(١) مستدرک الحاكم ٣: ١١٠.

(٢) ميزان الاعتدال ٣: ٥٦٨.

(٣) ميزان الاعتدال ١: ٢٥.

كذاب غير ثقة، ويرى رأي الخوارج وغير ذلك^(١).
وقيل للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو شيء نحوه، قال: أخذه من أهل الكتاب. ومما جاء عن مجاهد من المنكرات في قوله (قال): ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾^(٢) قال: يجلسه معه على العرش^(٣).
وأما عطاء فقد قال أحمد: ليس في المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطاء، كانا يأخذان عن كل أحد.
وقال يحيى بن القطان: مرسلات مجاهد أحب إلي من مرسلات عطاء بكثير، كان عطاء يأخذ من كل ضرب، وروى أنه تركه ابن جريج وقيس بن سعد^(٤).
وأما الحسن البصري فقد قيل: إنه يدلس^(٥). وسمعت كلام أحمد فيه وفي عطاء.
وأما الضحاك بن مزاحم المفسر، فعن يحيى بن سعيد قوله: الضحاك ضعيف عندنا، وكان يروي عن ابن عباس وأنكر ملاقاته له حتى قيل: إنه ما رآه قط^(٦).
وأما قتادة فقد ذكروا أنه مدلس^(٧).
وأما مقاتل بن سليمان فقد قال فيه وكيع: كان كذاباً.
وقال النسائي: كان مقاتل يكذب.
وعن يحيى، قال: حديثه ليس بشيء.
وقال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم^(٨).

(١) ميزان الاعتدال ٣: ٩٣.

(٢) الاسراء ١٧: ٧٩.

(٣) ميزان الاعتدال ٣: ٤٣٩.

(٤) ميزان الاعتدال ٣: ٧٠.

(٥) ميزان الاعتدال ١: ٥٢٧.

(٦) ميزان الاعتدال ٢: ٣٢٥.

(٧) ميزان الاعتدال ٣: ٣٨٥.

(٨) ميزان الاعتدال ٤: ١٧٣.

وأما مُقَاتِل بن حَيَّان فعن وكيع: أنه يُنسب إلى الكَذِب.

وعن ابن مُعِين: ضعيف.

وعن أحمد بن حَنْبَل: لا يُعبأ بمُقَاتِل بن حَيَّان، ولا بـابن سُلَيْمَانَ^(١).

فانظر إلى (ميزان الذهب) من كتب الرجال أَقْلًا، ودع عنك أن أصول العلم عندنا تأبى من الركون إلى روايتهم، فضلاً عن أقوالهم، إلّا في مقام الجَدَل أو التأييد أو حُصول الاستفاعة والتوافق في الحديث.

هذا، وإن كثيراً من كتب التفسير قد لهج بأكذوبة شنيعة، وهي ما زعموا من أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ سورة النجم في مكّة في محفل من المشركين حتّى إذا قرأ قوله (ص): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَلَأَ وَالْعِزَّى * وَمَنْوَاةَ الْمَالِئَةِ الْآخِرَى﴾^(٢) قال (صلى الله عليه وآله وسلم) في تمجيد هذه الأوثان وحاشا قدسه:

«تلك الفرائق الأولى منها الشفاعة تُرجمي».

فأخبره جبرئيل بها قال: فاعتمّ لذلك، فنزلت عليه في تلك الليلة آية تُسلّيه، ولكن بماذا تُسلّيه بزعمهم؟ تُسلّيه بما يسلب الثقة من كلّ نبيّ وكلّ رسول في قراءته وتليقه، والآية هي قوله (ص): في سورة الحجّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^(٣) فقالوا: معنى ذلك إذا تكلم أو حدّث أو تلا وقرأ، أدخل الشيطان ضلاله في ذلك^(٤).

إذن، فما حال الأمم المساكين، وما حال هداهم مع هذا الإدخال الذي لم يسلم - بزعمهم - منه نبيّ أو رسول، ولم يسلم منه شيء من كلامهم أو حديثهم أو تلاوتهم على ما يزعمون؟! ما هكذا تُورد يا سعد الإبل^(٥).

(١) ميزان الاعتدال ٤: ١٧٢.

(٢) النجم ٥٣: ١٩ و٢٠.

(٣) الآية: ٥٢.

(٤) تفسير الطبري ١٧: ١٣١، الكشاف ٣: ١٦٤، التفسير الكبير ٢٣: ٤٩، الدر المنثور ٦: ٦٥، تفسير أبي السعود

١١٣: ٦.

(٥) مثل يضرب لمن تكلف أمراً لا يحسنه، حياة الحيوان ٨: ٢٦.

أفلا صَدَّهم من ذلك أَقْلاً أَنْ سورة الحجَّ مدنية، أُمِر فيها بالأذان بالحجَّ (٢٧) وأُذِن فيها بالقتال (٣٩) وأُمِر فيها بالجهاد (٧٨) ولم يكن هذا الأمر وهذا الإذن إلَّا بعد الهجرة بأعوام.

وإنَّ الذي بين ذلك وبين الوقت الذي يعملونه لحُرَافة الغرائبي وخُرَافة نزول الآية هذه في ليلتها يكون أكثر من عشرة أعوام، وقد ذُكر شيء من الكلام في ذلك في الجزء الأول من كتاب (المُهدى)^(١) فلا بأس بمراجعتها.

ومن ذلك أَنَّ جُمْلَةً من المفسرين والقُرَّاء يتردّدون في الوقف على بعض الكلمات، لتردّدهم في ارتباطها بها بعدها أو بها قبلها، فلم يراعوا في ذلك مناسبات الكلام وجوْده، والحاجة إلى التقدير أو حسنه..

ومن ذلك كلمة «فيه»^(٢) من قوله (عالم) في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٣) زعماً منهم أنها تكون خبراً مقدّماً لقوله (عالم): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) ويقدّرون مثلها لقوله (عالم): ﴿لَا رَيْبَ﴾ مع أَنَّ الوقف على لا ريب يجعل الكلام قلقاً مبتوراً، بنحو لا يُجدي فيه التقدير، ومع أَنه لا حاجة لجعل الظرف خبراً مقدّماً هُدى، وجملته تكون خبراً ثانياً لذلك الكتاب، فإنَّ كلمة «هُدى» هي بنفسها تكون خبراً، وهذا هو الأنسب بكرامة الكتاب المجيد، فقد قال الله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾^(٥) كما في الأعراف والنحل وغير ذلك. وإنَّ القرآن ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) و﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾^(٧) و﴿لَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) و﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾^(٩) كما في سورة البقرة والنمل وحَم السجدة.

(١) الهدى إلى دين المصطفى: ١٦٨ - ١٧٣.

(٢) الكشف ١: ٣٥، التفسير الكبير ٢: ١٩، التبيان في إعراب القرآن ١: ١٥.

(٣ - ٤) البقرة ٢: ٢.

(٥) الأعراف ٧: ٥٢، النحل ١٦: ٦٤ و ٨٩.

(٦) البقرة ٢: ٩٧.

(٧) البقرة ٢: ١٨٥.

(٨) النمل ٢٧: ٧٧.

(٩) فصلت ٤٦: ٤٤.

ومن ذلك كلمة «هذا» من قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْثُرْ مِنْ مُرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾^(١) فكانهم لا يلتفتون إلى أَنَّ المقام غني عن وصف المرقد باسم الإشارة حتى للإيضاح، لأنهم يقولون ذلك عند خروجهم من الأجداث ومرقّد القبور، وإن إخراج اسم الإشارة عن كونه مُبتدأ «مَا وَعَدْنَا» خبره، ليخرج الكلام عن الانتظام، ويجعل صورته الحسنى مشوشة، هي للنفي أقرب منها للإثبات، وهو ضدّ المعنى الذي سبقت لبيانها الآية.

هذا وأما الذين تهاجوا بأرائهم على تفسير القرآن بها يُسمّونه تفسير الباطن، ركوناً بأرائهم إلى مزايم المكاشفة والوصول ونزعات التفلسف أو التجنّد أو حبّ الانفراد والشهرة بالقول الجديد، وإن كان فيها ما فيها، فقد أثروا متاهة الرأي على النهج السوي عن أصول العلم، وفارقوه من أوّل خطوة.

المقام الرابع: إن القرآن الكريم كثيراً ما ينسب التعقّل والإدراك والاهتداء ونحو ذلك إلى القلب، والمتجدّدون ينسبون الإدراك وآثاره إلى الدماغ، ويعتمدون في حدّسهم في ذلك على أنهم رأوا تلافيف الدماغ أي عقده في الإنسان أكثر منها في سائر الحيوانات، وأن الأعصاب الجُمُجميّة المتصلة بظاهر الدماغ المنتشرة أليافها في باطنه، مرتبطة بأعصاب آلات الحسّ كالأذن والعين وغيرها.

ولكن مباحث التشريح تقف دون حدّسهم هذا، فإن المجموع العصبي والنخاع الممتد إلى الفقرة القطنيّة الأولى التي هي تحت الفقرة الثانية عشرة من الظهر، هذه كلّها كمنخ الدماغ، في كونها مكوّنة من الجوهر السنجابي والجوهر الأبيض، فلا ميزة لتكوين الدماغ لكي يحبس امتيازها عنها بكونه كُرسى الإدراك والتعلّق دونها، وإن الأعصاب كما ترتبط بآلات الحسّ ترتبط أيضاً بالقلب والكبد والمعدة بل حتى الأسنان وأعضاء البدن إلى أنامل اليدين والرجلين.

وأما ما يتراعى من أنّ صغر الدماغ يقارن ضعف الإدراك والتعلّق إلى أن يصل الحال إلى البُهْلَة، فلا يدلّ على مدّعاهم، بل يجوز أن يكون خروجه عن المقدار الطبيعي

للإنسان، ككثير من العوارض البدنية، موجباً لضعف الجزء الآخر العاقل في أداء وظيفته.

وأما التفاوت بين أدمغة الرجال وبين أدمغة النساء، فهو جارٍ في قلوب الصنفين أيضاً، هذا مع أن الدماغ يزيد نموه في زمان قلة القوة العاقلة إلى السنة السابعة، ثم ينمو ببطئاً إلى الرابعة عشرة، ويتقهقر نموه إلى العشرين، ومنها إلى الثلاثين، ويقف عند الأربعين، ثم ينقص وزنه في كل عشر سنين نحو أوقية، مع أن الإنسان من العشرين فما زاد يزداد في قوة التعقل ويترقى في كونه أقوى وأحسن تعقلاً وإدراكاً. والقلب لا يزال يأخذ بالنمو والزيادة إلى الأدوار الأخيرة من الحياة، ولا سيما في الذكور. وهذا أنسب بأزمته بحسن التعقل وجودة الإدراك، مُضافاً إلى أن القلب هو مبدأ الحركة الحيوية المدبرة للدورة الدموية وأسباب الحياة والنمو وتوزيع القوى على جميع أجزاء البدن، فهو أنسب من غيره بأن تستخدمه الروح الحيوانية في أعمالها العقلية، وأيضاً إن بناء القلب مؤلف من حَلَقَات لَبْيَةٍ وألياف عضلية، وكلها على نوع مُدْهِش من التغمُّم^(١) والتصلُّب والتشبيك، بحيث يقال إن البناء العضلي للقلب لم يُعرف كما ينبغي إلى الآن، وإنَّ بناء القلب وأليافه العضلية أكثر وأكثر تغمُّماً وتصلُّباً وتشبيكاً من البناء الذي امتازت به عضلات الحياة الحيوانية الحساسة للإرادة التي هي من أعمال النفس والممتثلة في أعمالها لأمرها.

وهذا كله يشير إلى أن لعضلية القلب وميزة بنائه عمل نفسي كبير فائق، يفوق ما ذكر لعضلات الحياة الحيوانية، وأنسب ما يكون بذلك هو الإدراك والتعقل، نعم يمكن أن يكون الدماغ محفظة لصور المذكرات التي يستودعها القلب إياه. وخلاصة الحُجَّة في ذلك هو أن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم حُجَّة على أنه مُنَزَّل من الله خالق القلب والدماغ بعلمه وحكمته، وقد أخبر بأنَّ محل الإدراك والتعقل وآثاره هو القلب.

(١) متغمم: مُحْتَبَس ليس فيه فُرْجة، أو مُغَطَّى.

خاتمة

من جملة ما يحضرني عند كتابتي لهذا التفسير من كُتُب الشيعة من كُتُب التفسير وأنقل عنه: (تفسير القمي) علي بن إبراهيم. والجيزة الخامس من كتاب (حقائق التأويل في متشابهات التنزيل) للسيد الرضي (طاب ثراه). وهذا هو المقدار الموجود منه، وابتدأه من الآية الخامسة من سورة آل عمران إلى نهاية تأويل الحادية والخمسين من سورة النساء. وكتاب (مختصر التبيان) للشيخ الطوسي. وهو قليل النسخة جداً وفيه إحالات على كتابيه (الخلاف) و(شرح جبل العلم). وكتاب (مجمع البيان) للطبرسي. وكتاب (البرهان) للسيد هاشم البحراني. وهو تفسير بالحديث، وهو مع (الوسائل) واسطفي إلى (تفسير العياشي). وأما (التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)) فقد أوضحنا في رسالة منفردة في شأنه أنه مكنوب موضوع، ومما يدل على ذلك نفس ما في التفسير من التناقض والتهافت في كلام الراويين، وما يزعم أن رواية، وما فيه من مخالفة الكتاب المجيد ومعلوم التاريخ كما أشار إليه العلامة في (المُحَلَّصَة) وغيره^(١). ومن كُتُب آيات الأحكام: (كنز العرفان) للمقداد، و(زبدة البيان) للأردبيلي، و(القلائد) للجزائري.

(١) المُحَلَّصَة: ٢٥٦/٦٠، جامع الرواة: ٢: ١٨٤، مجمع الرجال: ٦: ٢٥.

ومن كُتُب الحديث: (الكافي)، (الفقيه)، (التهذيبان)، (الوسائل). وعدّة من كتب الصدوق وغيرها.

ومن كُتُب أهل السُنَن كُتُب التفسير: (تفسير الطبري) و(الكشاف) و(النز المنثور في التفسير بالمأثور) للسيوطي.

ومن كُتُب الحديث: (جوامعهم الستة)، و(موطأ مالك)، و(مسند أحمد)، و(مستدرک الحاكم)، و(كنز العمال)، و(مختصره).

وإنّ (الدرّ المنثور) أجمع من غيره للمأثور في التفسير باعتبار الأحاديث ورواتها ومخرجيها في كتبهم، فلذا كانت إحالتي في الغالب عليه. وإن أخرج الحديث عن صحاحهم التي هي أعلى منه سُمعةً، وقد أنقل عنها ما لم يذكره، وإنّا أذكر عنه ما أسنده عن الرسول الأكرم (منزله عليه وآله وسلّم)، أو عن الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)، وأمّا ما يرويه موقوفاً على التابعين ومن بعدهم، فلا حاجة لي فيه، والله الموفق والمعين، ولنشرع بعون الله وتوفيقه في المقصود.

سُورَةُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٣
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ٤
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٥
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ٦

تسميتها

تواترت تسميتها بـ (فاتحة الكتاب) ومن ذلك قوله (سَنُأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ونحو ذلك^(١). وتكاثرت روايات الفريقين من الشيعة وأهل

(١) صحيح البخاري ١: ١٤٤/٣٠٢، صحيح مسلم ١: ٣٤/٢٩٥، سنن النسائي ٢: ١٣٧، عوالي اللآلئ ١:

السُّنَّةُ عن رسول الله (سَلَّمَ) عليه وآله وسلَّم، وأمير المؤمنين والصادق (عليهما السلام) في تسميتها بـ (أُمِّ الْكِتَابِ) ^(١)، و (أُمِّ الْقُرْآنِ) ^(٢)، و (السَّيِّعِ الْمَثَانِي) ^(٣).
وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): «إِنَّمَا سُمِّيَتْ الْمَثَانِي لِأَنَّهَا تَتَنَّى فِي الرِّكَعَتَيْنِ» ^(٤).

بَرَكَتُهَا

واستفاضت الرواية من الفريقين عن رسول الله (سَلَّمَ) عليه وآله وسلَّم، والباقر والصادق (عليهما السلام)، بل كادت أن تكون متواترة المعنى أَنَّ في قراءتها شِفَاءٌ من الداء ^(٥).

مَعْلُ نَزُوحُهَا

ذكر الواحدي في (أسباب النزول) وعن التُّعَلُّبِي في (تفسيره) عن علي (عليه السلام): قد نزلت فاتحة الكتاب بمكة، الحديث ^(٦).
وروي عن عمرو بن شَرْحِبِيل ما حاصله أَنَّ نَزُوحَهَا كان في أَوَّلِ الرِّسَالَةِ ونَزُولُ

(١) تفسير العياشي ١: ١٩٩، تفسير الفقي ١: ٢٩، سنن الدارقطني ١: ٣٦٢/٣٦٣، سنن البيهقي ٢: ٤٥، الدر المنثور ١: ١١.

(٢) سنن الدارمي ٢: ٤٤٦، سنن الترمذي ٥: ٣٩٢٤/٢٩٩٧، تفسير التبيان ١: ٢٢، تفسير أبي الفتح الرازي ١: ١٦.

(٣) مستند أحمد ٤: ٢١١، سنن الدارمي ١: ٣٥٠، وج ٢: ٤٤٥، تفسير العياشي ١: ٣/١٩، ٢: ٣٧/٢٥٠، سنن النسائي ٢: ٩٣٩، أمالي الصدوق: ١/١٤٨، التهذيب ٢: ٢٨٩/١١٥٧.
(٤) تفسير العياشي ١: ٣/١٩.

(٥) سنن الدارمي ٢: ٤٤٥، تفسير العياشي ١: ٩/٢٠، مجمع البيان ١: ٨٧، الدر المنثور: ١٤.

(٦) أسباب النزول: ١١، التفسير الكبير ١: ١٧٧، عن التلمبي، الدر المنثور ١: ١٠.

جبرئيل بالوحي^(١). ولكن في مضامين الرواية ما فيها.
وعن رجل من بني سلمة ما يقضي بأنها كانت تُتلى قبل الهجرة^(٢).
وقال الله (تعالى) في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ﴾^(٣) وإذا كانت سورة الحجر كلها مكّية قبل الهجرة، ففي ذلك بضميمة ما
ذكره في تسميتها دلالة على أنها نزلت في مكّة قبل الهجرة، ولكن مرسوم في عناوين
المصاحف أنها مدنيّة، وقيل: إنها مكّية مدنيّة.
وهي سبع آيات باتّفاق المسلمين وتضافر الأحاديث، زيادةً على أحاديث السبع
الثاني، بل الأحاديث في روايات الفريقين متواترة في ذلك.

بَسَمَلُهَا

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جزء من السورة باتّفاق الإماميّة والشافعيّة^(٤).
وإجماع أهل البيت والروايات المتكاثرة عنهم (عليهم السلام)^(٥)، وباتّفاق المسلمين على
رسمها في المصاحف من أول الأمر إلى الآن.
والأخبار من طرق أهل السُنّة عن رسول الله، وفيها الصحاح والحِسان
باصطلاحهم، متكاثرة في ذلك، كما في أحاديث عليّ (عليه السلام)^(٦)، وأمّ سلمة^(٧)، وعُمَار^(٨).

(١) التفسير الكبير ٨: ١٧٧، الدر المنثور ١: ٨٠.

(٢) الدر المنثور ١: ١١.

(٣) الآية: ٨٧.

(٤) الخلاف ١: ١١٢، ٨٢؛ مكر الرافض ١: ١١٩، بداية المجتهد ١: ١٣٦، شرائع الإسلام ١: ٨٦، جواهر الكلام ٤: ٢٩٦، المنهاج ١: ٥١٧ و ٥١٨.

(٥) عيون أخبار الرضا ١: ٣٠٦، ٦٠، أمالي الصدوق: ٢/١٦٨، التهذيب ٢: ٦٩/٢٥١.

(٦) سنن الدارقطني ١: ٣٠٢ و ٣.

(٧) مسند أحمد ٦: ٣٠٢، سنن الدارقطني ١: ٣٠٧ و ٢٩/٣١٢ و ٣٧.

(٨) سنن الدارقطني ١: ٣٠٢ و ٤.

وجابر^(١)، وبُرَيْدة^(٢)، وطلحة بن عُبَيْد الله^(٣)، وابن عمر^(٤)، وأبي هُرَيْرَةَ^(٥)، وأنس^(٦) .
والنعمان بن بَشِير^(٧) ، كما روي أيضاً عن عليّ (عليه السلام)، وابن عباس^(٨) ، ومحمد بن
كعب القرظي^(٩) .

الْجَهْرُ بِالْبِسْمَلَةِ

يُجْهَرُ بِهَا بِاتِّفَاقِ الْإِمَامِيَّةِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عليهم السلام) وعملهم وحديثهم^(١٠)،
وحديث أهل السُّنَّةِ عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، من طريق عليّ (عليه السلام)^(١١)،
وعِمَار^(١٢)، وعائشة^(١٣)، والحكم بن عُمَيْر^(١٤)، وابن عمر^(١٥)، وأنس^(١٦)، وأبي هُرَيْرَةَ^(١٧)،

(١) سنن الدارقطني ١: ٢٢/٣٠٨.

(٢) سنن الدارقطني ١: ٢٩/٣٦٠ و ٣٠.

(٣) الدر المنثور ١: ٢٦.

(٤) سنن الدارقطني ١: ١١/٣٠٥ و ١٢، الدر المنثور ١: ٢٠.

(٥) سنن الدارقطني ١: ١٧/٣٠٦ و ١٩ و ٣٦/٣١٢.

(٦) سنن الدارقطني ١: ٢٣/٣٠٨ و ٢٤.

(٧) سنن الدارقطني ١: ٢٧/٣٠٩، الدر المنثور ١: ٢٢.

(٨) سنن الدارقطني ١: ١/٣٠٢ و ٣ و ٨/٣٠٤، الدر المنثور ١: ٢٠ و ٢١.

(٩) الدر المنثور ١: ٢٣.

(١٠) تفسير العياشي ١: ٦/٢٠ و ٢: ٨٧/٢٩٥، الكافي ٣: ٢٠/٣٦٥، من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٢/٢٩٣، التهذيب

٢: ٢٤٦/٦٨.

(١١) سنن الدارقطني ١: ٢/٣٠٢ و ٥/٣٠٣.

(١٢) سنن الدارقطني ١: ٤/٣٠٢ و ٥/٣٠٣.

(١٣) سنن الدارقطني ١: ٣٢/٣١٠.

(١٤) سنن الدارقطني ١: ٣١/٣١٠.

(١٥) سنن الدارقطني ١: ١٠/٣٠٤ و ١٢/٣٠٥.

(١٦) سنن الدارقطني ١: ٢٤/٣٠٨ و ٢٦، مستدرک الحاكم ١: ٢٣٣.

(١٧) سنن الدارقطني ١: ١٨/٣٠٦ و ٢٠، مستدرک الحاكم ١: ٢٣٢.

بالنعمان بن بشير^(١).

وإن (تفسير البرهان) للسيد هاشم البحراني من الإمامية، وتفسير (الثر المنثور) للسيوطي من أهل السنة، قد ذكر فيها الكثير مما أشرنا إليه من الأحاديث^(٢)، فليرجع إليها من أراد الاطلاع على التفصيل.

إعراب البسملة

(بسم الله): يتعلّق بمحذوف يشير إليه ظاهر المقام.

وقيل: تقديره ابدءوا، أو اقرأوا، أو قولوا.

قلت: على تقدير اقرأوا أو قولوا، تكون الباء بمعنى الاستعانة باسم الله، كما يُقال: اكتبوا بالقلم، وذلك لجلالة اسم الله وبركته بجلال المسمى (جذوعاً) وبركته، ويكون المقروء والمقول هو ما بعد البسملة من السورة.

ويرد على هذا النحو من التقدير، أولاً: أنه منافٍ لجزئية البسملة من السورة، ومساواتها لسائر آياتها في حكم القراءة، وأنّ التخلّص يجعل البسملة معمولة أيضاً لاقرأوا، أو مقولة لقولوا، يستلزم تقدير عامل آخر تتعلّق به الباء ومجرورها، فما هو إذن؟ كما يرد أيضاً ما ذكرنا على تقدير (الكشاف) اقرأ أو اتلو من كلام القاري والتالي، ويكون المقروء والمتلو هو ما بعد البسملة.

ويردّ الجميع ثانياً حتى ابدءوا للأمر: أنه لا يتجه أطراف هذه التقادير في السورة المصدّرة بخطاب النبي (سلى الله عليه وآله) نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾^(٣)، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾^(٤)، ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾^(٥) بل وسائر السور المصدّرة بكلمة «قل» وما أشبه ذلك

(١) سنن الدارقطني ١: ٢٧٢/٣٠٩.

(٢) أنظر الدر المنثور ١: ٢٠ - ٢٣، تفسير البرهان ١: ١٧/٤٢.

(٣) الانفال ٨: ٦٤.

(٤) المزمل ٧٣: ١.

(٥) الجن ٧٢: ١.

من السُّور. وكذا السُّور المُصدِّرة بخطاب غير النبيِّ نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢) فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ للعباد بالقراءة أو القول، يخرجها عن كونها في أوَّل نزولها خطاباً إنشائياً من الله لرسوله أو للناس أو للذين آمنوا.

وكذا إذا كان المُقدَّر «أقرأ» أو «أتلو» بصيغة المضارع، مضافاً إلى أَنَّ كلمة «أقرأ» أو «أتلو» لا يصحُّ أَنْ تكون من الله لِأَنَّهُ (جزئانه) هو المُتكلِّم بالقرآن والمُنشئُ له، فكيف تُنسب إليه القراءة والتلاوة؟!

فإن قلت: إِنَّا في السُّور المشار إليها نجعل المُقدَّر ما لا يُتَنافى خطابها، وفي غيرها نجعل المُقدَّر كلمة أقرأ أو أتلو بصيغة المضارع من قول الناس. قلنا: أولاً: ماذا تصنع بها أوردناه أولاً؟

وثانياً: ما هو الذي تُقدِّره في السُّور المشار إليها بحيث لا يُتَنافى مقام خطابها وإنشاءه، فَإِنَّهُ ينبغي بيانه؟

ثالثاً: يلزم من ذلك أَنْ تُفَكَّك بين سياق البَسْمَلات التي في القرآن بلا دليل ولا حاجة ملزمة، مع أَنَّ الظاهر كونها في جميع السُّور على سياق واحد مُتَّسق، كما أَنَّ الظاهر أَنَّ المُقدَّر في تلك السُّور وغيرها في حال النزول وحيي الله، وفي حال تلاوة الناس وقراءتهم هو واحد، كما أَنَّ الظاهر أَنَّ التالي يتلو البَسْمَلَةَ على ما تعلَّقت به حال النزول، وَأَنَّ ما تعلَّقت به هو من القرآن المُنزَّل الذي أَمَرَ الناس بتلاوته، وإن كان مُقدَّراً.

فالظاهر أَنَّ البَسْمَلَةَ في جميع السُّور مُتعلِّقة بكلمة «أبدأ» للمُتكلِّم من قول الله (جزئانه)، تنويعاً بجلال اسمه الكريم وبركاته، وتعظيماً له لجلال المُسمَّى وعظمته (جزئانه) وله الأسماء الحسنَى، كما أَمَرَ في القرآن بذكر اسمه وتسميحه، كما في سورة

(١) البقرة ٢: ٢١.

(٢) البقرة ٢: ١٠٤.

المائدة^(١) والحج^(٢) والمزمل^(٣) والدھر^(٤) والأعلى^(٥). فينتظم المقدر في جميع السور وجميع الأحوال بنظام واحد على نسق واحد، ولا يعترى ما استظهرناه غرابة ولا إشكال، وكيف يعترى ذلك وقد نسب الله الابتداء لذاته المقدسة في خلقه، كما في قوله (جزأه): ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٦) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ﴾^(٧)؟ وقد أقسم (جزأه) بمخلوقاته كالشمس والقمر والنفس وغيرها تعظيماً لها، لأنها مظاهر قدرته وآيات حكمته.

خَلَقَ الْقُرْآنَ

وإنّ لوحى الله بالسور إلى رسوله بداية ونهاية، كما للسور كما قال الله (تبارك) في سورة الأحقاف في شأن القرآن: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾^(٨) ودع عنك أنّ القرآن الكريم كلام مؤلف من الحروف والكلمات، ولا بدّ من أن يكون لها ولتأليفها بداية ونهاية، ولا بدّ من أن يكون له علّة في إيجاد وجوده، لأنّه ليس بواجب الوجود، فإنّ واجب الوجود واحد هو الله، وليست علّة وجود الموحى منه إلّا خلق الله خالق كلّ شيء، قال الله في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾^(٩) والجعل هو الخلق، وكلّ مجعول ومخلوق له بداية.

(١) الآية: ٤ قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

(٢) الآية: ٢٨ قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ والآية: ٣٤ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ والآية: ٣٦ قوله تعالى:

﴿فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ والآية: ٤٠ قوله تعالى: ﴿وَمَسَاجِدَ يُدْعَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

(٣) الآية: ٨ قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾.

(٤) الآية: ٢٥ قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾.

(٥) الآية: ١ قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ والآية: ١٥ قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّهِ فَغْلِي﴾.

(٦) السجدة: ٣٢: ٧.

(٧) الأنبياء: ٢١: ١٠٤.

(٨) الآية: ١٢.

(٩) الآية: ٣.

(الله): عَلَّمَ لَوَاجِبَ الوجودِ إله العالمين (جئت اسأله وعطت لأبي)، وَفَخَّمْ لأمه بعد الفتح والضم.

(الرحمن): لا أَظُنَّكَ تَشْكُ في أَنَّ معنى الرحمة تتلقاه أفهام الناس من لفظه في المحاورات على حدوده ومزاياه. وتتناوله غرائزهم في اللغة على خصائصه، وتُمَيِّز في كُلِّ مقام ما يراد منه، بيد أَنَّ مقام التفسير قد يُشَوِّشُ ذهن لعدم اللفظ المرادف وعدم الاستقصاء في البيان لمزايا المعنى وحدوده.

وقد فُسِّرَت الرحمة بالعطف والحنو، أو الرأفة والحنان، أو الرِّقَّة والتعطف، وكلُّ هذه التفاسير إنما تحوم حول المعنى، وتشير إلى شيء منه من بعيد. ألا ترى أَنَّ كَلَامًا من التفاسير الثلاثة تختلف كلمناه في المعنى، وَأَنَّ هذه المذكورات قاصرة، مع أَنَّ الرحمة تتعدى إلى المفعول، وَأَنَّ الأساس لمعنى الرحمة ودعامه أَنَّ تتعلق بالاحتياج إلى ما لا يَقْدِر عليه من نيل الخير ودفع الأذى والضَّر، ويكون الداعي للراحم هو احتياج ذلك المحتاج، والرغبة في إسعافه وإعانته فيه، من دون أن يرجع إلى أغراض الراحم من نحو حاجة أو محبة أو ارتباط خاص به.

وُعرِف من تعديتها إلى المفعول أَنَّها ليست عبارة عن الانفعال النفسي، بل هي تستعمل في حالة نفسية تتعلق بالاحتياج على الوجه المذكور، وبالنسبة لله (جَزَانَه) نحو من كماله الذاتي يتعلق بالاحتاجين على الوجه المذكور.

ولأجل قصور البشر نوعاً عن فهم صفات الله (جَزَاه) على ما هي عليه، جرى القرآن الكريم على التعبير عنها بما يعبر به عما يناسبها في الشبه بالآثار والمزايا من صفات البشر الحميدة، وجرى على ذلك في المبدأ والاشتقاق. وتستعمل الرحمة أيضاً بنفس الإسعاف أو بنفس المُسْعَف به.

ومن الثالث بحسب الظاهر قوله (نار) في سورة آل عمران: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾^(١) وفي سورة الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾^(٢) وغير ذلك.

(١) الآية: ٨.

(٢) الآية: ٩٠.

وفي القرآن أيضاً ما يصلح انطباقه على المعنى الأول والثاني، فالرحمن فعلاق الذي الصفة الفعلية البينة، ذات الأثر الظاهر، ولها بقاء واستمرار كغضبان وريان وفرحان. فيدل على فعلية الرحمة البينة واستمرارها، وإن إهمال المتعلق مع اشتقاقها من المتعدي ليدل على عموم هذه الرحمة، ذات الأثر الظاهر، وشمولها لكل محتاج إليها، والكُل محتاج إليها.

ومن ذا الذي تكون راحيته، أو رحمته، بمعنى إسعافه فعلية بينة ظاهرة الأثر، مستمرة شاملة مطلقة، ومن ذا الذي يقدر على هذا الإسعاف غير الله (بنت آلي)؟ ولأجل ذلك اختص هذا الاسم الكريم بالله (جل شأنه).

(الرحيم): صفة مشبهة، تؤخذ بهذه الصيغة من المعاني الثابتة، كالسجاية والأخلاق، فتدل على ثبوت الرحمة ودوامها لله كدوام السجاية والأخلاق للبشر ولزومها، وهذه الدلالة وهذه المزية كانت أبلغ في المدح، وهذه الجهة صح الرقي إليها بالتمجد والمدح.

ولا يمتنع أخذ الصفة المشبهة بهذه الصيغة من الوصف المتعدي بحسب وضعه، لأنه قد يجعل لازماً بتضمينه معنى السجية والمخلوق، فيؤول إلى معنى «فعل» بضم العين، كقوله (تال) في سورة المؤمن: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾^(١) أي رفيعه درجاته، فأضيفت الصفة إلى فاعلها، كحسن الوجه، على ما هو من خصائص الصفة المشبهة، كما قال الشريف في حاشية (الكشاف) وحكاها عن (صرف المفتاح) (وفائق الزمخشري).

وما يشهد بأن لفظ الرحيم ضمن معنى غير المتعدي، هو أنه حيث ذكر في القرآن متعلقاً بمعمول، ذكر متعلقاً بواسطة الباء على سنة غير المتعدي دون لام التقوية، كما في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْسِنَاسٍ لَزُؤْفٍ رَحِيمٌ﴾^(٢). وفي سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجَرِي فِي

(١) الآية: ١٥.

(٢) الآية: ١٤٣.

الْبَحْرُ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ^(١).

وفي سورة الحديد: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ... وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ^(٢)﴾.

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَنبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ ... * أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ... فَيَغْرِقَكُمْ يَمًا كَفَرْتُمْ^(٣)﴾.

وفي سورة التوبة: ﴿إِنَّهُمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ^(٤)﴾ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ^(٥)﴾.

وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا^(٦)﴾.

وفي سورة الأحزاب: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا^(٧)﴾ وهذه الصفة غير مختصة بالله، فقد جاء في سورة التوبة في وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم): ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ^(٨)﴾.

وقد عرفت مما ذكرناه من سورة البقرة والحج وبني إسرائيل والحديد، ما ينبغي أن تُطرح الرواية التي تذكر أن الرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة، ومما ذكرناه من سورتي بني إسرائيل والحج ينبغي أن تُطرح أيضاً الرواية التي تذكر أن الرحمن رحيم الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة، كما أمرنا بذلك في عرض الحديث على كتاب الله.

(١) الآية: ٦٥.

(٢) الآية: ٨ - ٩.

(٣) الآية: ٦٦ - ٦٩.

(٤) الآية: ١١٧.

(٥) الآية: ١٢٨.

(٦) الآية: ٢٩.

(٧) الآية: ٤٣.

﴿أُحْمَدُ لله﴾: الحمد ثناء بالخير معروف يضعه المتكلم بحسب مُرتكزاته في اللغة مواضعه، ويعرف معناه بمزاياه، ويفرق بينه وبين ما يقارنه في الاستعمال والفهم، ولكن الاضطراب يبيح من ناحية التفسير، فمن قائل إنه أخو المدح أي مرادفه، ومنهم من فسره بالشكر مُستشهداً بقولهم: «الحمد لله شُكراً» جاعلاً قولهم «شُكراً» مفعولاً مطلقاً لا مفعولاً لأجله. ومنهم من قال: إن الحمد والمدح والشكر متقاربة، ومنهم من جعله على صفات المحمود الذاتية وعلى عطائه، ومنهم من خصّه بالثناء على الفعل الجميل الاختياري.

والظاهر من التدبر في موارد الاستعمال والتبادر أن الحمد: هو الثناء باللفظ بالخير على فعل الجميل الاختياري، إذا كان للجميل، نحو مساس بالحامد وإلا فهو مدح.

وأما الشكر: فهو مقابلة الإحسان بنوع إحسان يتضمّن الاعتراف، سواء كان عملاً أو قولاً، ولو بنحو من الاعتراف بذلك الإحسان وفضله، لا مجرد الاعتراف بذات الفعل لا من حيث إنه إحسان وتفضل. ولا أظن قولهم: الحمد لله شُكراً. إلا أن «شُكراً» مفعول لأجله نحو: سَبَّحْتَهُ تعظيماً.

وإن فاعل الجميل من الناس إنما يستحقّ الحمد إذا فعله لحُسْنِهِ أو لوجه الله، وهو روح الإتيان بالفعل لحُسْنِهِ. وقليل ما هم بل لا يستحقّ حتى في الظاهر إذا عُرِفَ أنه لم يفعله لله ولا لحُسْنِهِ، وذلك القليل لا يستحقّ الحمد إلا من حيث مباشرته لفعل الجميل واختياره له. فإن القسوى التي فعل بها، والإدراك الذي عُرِفَ به حُسْنِهِ، والإرشاد إلى فعل الجميل، والأعيان التي تكون محققة لإسداء الجميل، هي كلّها لله، ومن الله (جنت الآراء)، ولذا كان الحمد كله وبحقيقته لله الغني المطلق جليل النعم الذي لا تُحصى نعمائِهِ، ولا يخلو من عظائِمها إنسان في حال من الأحوال.

وجملة «الحمد لله» خبرية، إن كانت من كلام الله في تمجيده لذاته وتنويه

بجلاله (جل شأنه).

ولكن روى الصدوق في الفقيه من كتاب (العلل) للفضل بن شاذان عن

الرضا (عنه السلام): ليس شيء من القرآن والكلام، جمع فيه من جوامع الخير والحكمة، ما جمع في سورة الحمد، وذلك أَنَّ قوله (عز وجل): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إِنَّمَا هُوَ آدَاءٌ لِمَا أُوجِبَ إله (عز وجل)، من الشكر، وشكر لما وفق له عبده من الخير.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد له وتعميد وإقرار بأنَّه هو الخالق المالك لا غيره.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ استعطاف وذكر لآلائه ونعمائه على جميع خلقه.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة. الحديث^(١).

إذن، فجملة «الحمد لله» إلى آخره، إِنَّمَا هي عن لسان العباد وتعليم لهم كيف يحمدون ويوحدون ويُقرَّون، فهي خبرية تتضمن إنشاء الحمد بأنَّه كَلَّه وبحقيقته لله.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: المالك المُدَبِّر، أو المُرَبِّي. والعالمين: جمع عالم.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدَّم تفسيره.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مالك يوم القيامة، ويده أمره يتصرَّف فيه بعدله أو

برحمته كيف يشاء، وفي (التبيان) و(الكشاف) و(مجمع البيان) أَنَّ إضافة «مالك» إلى «يوم الدين» من إضافة اسم الفاعل إلى الظرف نحو قولهم: «ياسارق الليلة أهل الدار»^(٢). ولا أرى حاجة ماسة إلى ما ذكره.

وروي في (التبيان) و(مجمع البيان) مُرسلاً عن الباقر (عنه السلام)، و(القمي) مسنداً عن أبي عبد الله (عنه السلام)، وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه، مُسنداً عن ابن مسعود وناس من الصحابة: أَنَّ يوم الدين: يوم الحساب^(٣)، وأظنَّ ذلك لبيان أَنَّهُ يوم القيامة.

وفي (التبيان) و(البيان) الدين: الحساب والجزاء^(٤). وفي (الكشاف) الجزء^(٥).

(١) عيون أخبار الرضا (عنه السلام): ٢: ١٠٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١/٢٧٧.

(٢) تفسير التبيان ١: ٣٥، تفسير الكشاف ١: ١٢، مجمع البيان ١: ٩٩.

(٣) تفسير القمي ١: ٢٨، تفسير الطبري ١: ٥٢، مستدرک الحاكم ٢: ٢٥٨، تفسير التبيان ١: ٣٦، مجمع البيان ١: ٩٨.

(٤) تفسير التبيان ١: ٣٦، مجمع البيان ١: ٩٩.

(٥) تفسير الكشاف ١: ١١.

واستشهدوا لذلك بقولهم: «كما تدِينُ تُدان» وبيت (الحماسة) المنسوب لشَّهْل بن ربيعة^(١):

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي دُهْلٍ وَقَلْنَا: الْقِسْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَزْ جَعَنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
وَلَا صَرْحَ الشَّرِّ وَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَتَّقِ سِوَى الْعُدَا ن دُنَاهُمْ كَمَا دَانُوا^(٢)

على معنى كما تُجَازِي غيرك إذا أساء فإنك تُجَازِي أيضاً إذا أسأت، وأنا جازينا بني دُهل على عدوانهم كما جازوا غيرنا، فإن ظاهر الشعر أن قوم شَّهْل كانوا قد صفحوا عن بني دُهل، ولم يسبق منهم ما يكون به اعتداء بني دُهل عليهم بمجازاة. ولعل من معنى الدين المذكور في قول الأعشى:

هُوَ دَانَ الرَّبَابَ إِذْ كَرِهَ الْدَّيْ مَن دِرَاكًا يَفْرُقُ وَصِيَالِ^(٣)

ولعل من هذا الباب الدِّيَان من أساء الله، له الأسماء الحمسنى، ودَيَّان يوم الدين، وقول الأعشى مخاطباً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):
يا سَيِّدَ النَّاسِ ودَيَّانَ الْعَرَبِ^(٤).

(١) هو شَّهْل بن شيبان بن ربيعة بن زُمان الحنفي، من بني بكر بن وائل، المعروف بـ«الفد الزَّمانى» لعظم خلفته، تشبهاً بفد الجبل - وهو القطعة منه - شاعر جاهلي، كان سيد بكر في زمانه، وفارسها وقائدتها، من أهل البصرة، شهَّد حرب بكر وتغلب وقد نازح عمره المائة، وتوفي في (٥٣٠م) «الأهلي ٧٠: ١٤٣»، شرح شواهد المغني ٢: ٩٤٥، خزنة الادب ٢: ٥٧.

(٢) الأبيات من قصيدة قالها الشاعر في حرب البسوس، أورد قطعة منها أبو نغم في أول (الحماسة)، أنظر «الأغاني ٢٠: ١٤٣، مغني اللبيب ٢: ١١٦/٨٦١، شرح ابن عقيل ١: ٦١٣ و ٦١٤/١٧٣، شرح شواهد المغني ٢: ٨٣٦/٩٤٤، خزنة الادب ٢: ٥٧».

(٣) هو دان الرباب: يعني أدناها وقهرها، أنظر «غريب الحديث للهروي ٣: ١٣٥، الصحاح - دين - ٥: ٢٦٦٨، تاج العروس - دين - ٩: ٢٠٩».

(٤) من قصيدة للأعرابي بن قُرَاد بن سُفْيَان، من بني جَرْمَاز بن مَازِن، شاعر جاهلي شهَّد الإسلام وأسلم، وقد سمعها النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو ينتقد فيها سلوك امرأته، وأطلق عليه في (اللسان) تارة «أعشى جرمازه» وأخرى «أعشى مازن» وقيل فيه غير ذلك.

والديان هنا: القَهَار أي قهرهم على الطاعة، وقيل: هو الحاكم والقاضي، أنظر «النهاية ٢: ١٤٨»، لسان العرب

والحديث كما ذكره في (النهاية): «كان عليّ دَيَان هذه الأمة»^(١).

والأمر في تفسير الدين في الآية سهل، فإنه يتراوح بين هذه المعاني وما يقرب منها، ولا غرو إذا تشابهت علينا هاهنا حقيقة معنى الدين بحدودها بواسطة التوسّع في الاستعمال.

ولا ينبغي أن يخفى أن قوله (عز وجل): ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ هو بمنزلة الحُجَّة على أن الحمد له (جنته)، وبمنزلة الحُجَّة على انحصار العبادة والاستعانة به في قوله (جنته): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهل يُعبد أو يُستعان به بما هو ربّ العالمين غير ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وهل يصحّ في الشعور أن يرغب عن عبادته أو لا تقتنم الاستعانة به؟
وقد كرّرت كلمة «إِيَّاكَ» لوجهين:

الأول: للتصريح والنصّ على انحصار كلّ من العبادة والاستعانة به. ولو قيل: إِيَّاكَ نَعْبُدُ ونستعين. لأوهمت صورة اللفظ أن المنحصر هو مجموع الأمرين من العبادة والاستعانة، لا كلّ واحد منها.

والثاني: لأنّ المحصر فيها مختلف، فإنه بالنسبة للعبادة حصر لجميع أفرادها، وبالنسبة للاستعانة حصر باعتبار بعض أفرادها كما سيأتي إن شاء الله.

وهذا الأسلوب في الآية الكريمة من قسم الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات في كلام العرب وشعرهم كثير^(٢)، وهم يعدّونه من محاسن الكلام ومزاياه في البلاغة، وهو متفاوت في الحسن، ولكنّه مهما بلغ فإنه لا يكاد أن يبلغ ما بلغه هذا الالتفات من الحُسْن الباهر والجودة الفائقة وأعلى درجات البلاغة، فإنه يمثل العبد

→ - رب - ١: ٣٨٦.

(١) النهاية ٢: ١٤٨.

(٢) الالتفات: هو - في علم المعاني - الانتقال من ضمير إلى ضمير أثناء الكلام، نحو قول امرئ القيس:

نَامَ الْغُلَامُ وَتَمَّ تَرْقُودُهُ تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِيمِيدِ

حيث انتقل الشاعر من الغيبة في «تَرْقُودُهُ» إلى الخطاب في «لَيْلُكَ».

ومنه قوله (س): ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ نَوْمَ بَرِّمْ طَبِيعَةٍ﴾ يونس (٢٢) حيث كان الكلام بصيغة الخطاب (كُنْتُمْ) ثم تحوّل إلى الإخبار (جَعَلْنَاهُمْ).

شاخص البصر إلى جلال مولاه، ومتوجّهاً إلى حضرته بالاعتراف بأنه لا معبود سواه، ولا مستعان إلا هو، ومتضرّعاً بخطاب العبوديّة والمُسكنة ومُنْجاة الرهبة والرغبة، خاضعاً لربوبيّته، مادّاً إلى رحمته يد الانقطاع في المسألة والاستعانة.

العبادة

لا يزال العوامّ والخواصّ يستعملون لفظ العبادة على رسلهم ويمجّرون مركزاتهم على طَرز واحد، كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر، ويعرفون بذوقهم مجازه ووجه التجوّز فيه. وإنّ المحور الذي يدور عليه استعمالهم وتبادرهم هو أنّ العبادة ما يرونها مُشجّراً بالخضوع لمن يتّخذُه الخاضع إلهاً ليوقيّه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلهيّة، أو بعنوان أنّه رمز أو مجسّمة لمن يزعمونه إلهاً تعالى الله علماً يُشركون، ولكن الخطأ والشرك، أو البهتان والزور، أو الخبط في التفسير، وقع هنا في مقامات ثلاثة:

الأوّل: الإتيان بما تتحقّق به حقيقة العبادة، لما ليس أهلاً لذلك، بل هو مخلوق لله، كعبادة الأوثان مثلاً.

الثاني: مقام البهتان والافتراء، وخدمة الأغراض الفاسدة لترويج التحزّبات الأنيمية، فيقولون لمن يوفي النبيّ أو الإمام شيئاً من الاحترام، بعنوان أنّه عبد مخلوق لله، مقربٌ عنده، لأنّه عبده وأطاعه، ويرمونه بأنّه عبّد ذلك المُحرّم، وأشرك بالله في عبادته.

ألا تدري لمن يبهتون بذلك؟ يبهتون من يحترم النبيّ أو الإمام تقرباً إلى الله، لأنّه اختاره وأكرمه بمقام الرسالة أو الإمامة، التي هي بجعل الله وعهده، كما وعد الله بذلك إبراهيم في قوله (ص): ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ بَكَلْبَاتٍ فَاغْمُزْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) وهذا الاحترام المعقول المشروع، لا يقلّ عنه، ولا يخرج من نوعه، ما هو المعلوم والمشاهد من احترام هؤلاء المتحرّزين للوكلهم وزعاباتهم وحكّامهم، وخضوعهم لهم بالقول

والعمل، مهما بلغوا من النخوة الأعرابية.

ولقد سرت هذه البادرة السوأى موروثه من ضلال الخوارج في تحزبهم، إذ نسبوا الشرك والكفر لأمر المؤمنين (عليه السلام)، إذ ألبأوه عند رفع المصاحف إلى السكوت عن تحكيم رجلين يعملان بها بوجه القرآن في شقاق معاوية في حربه، كما ألبأوه إلى كون الحكيمين أبا موسى وابن العاص. وكما نسبوا الشرك ثانياً إلى ولده الحسن السبط (عليه السلام)، لما نافق قومه وزعماء جنده، وانحاز بعضهم إلى معاوية، وكاتبه آخرون، وواعدوه تسليم الحسن له قبض اليد، فخطب الحسن (عليه السلام) في معسكره المحشور بالنفاق، مستشيراً، ومقياً للحجة، ومختبراً لهم، لكي يعرف الناس نفاقهم، فيكونوا على بصيرة من أمرهم في الحرب أو الهدنة.

وهذه المباهطة الوخيمة والدسيسة الوبيئة في التحزب الأثيم، صارت في العصور المتأخرة وسيلة للتهاجم على ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وعلى حرمان الرسول والأئمة (عليهم السلام)، وجرى من جرأ ذلك ما تقشعر منه الجلود، ولولا أن ملكهم قمع طغيانهم لجرى من عدوانهم والدفاع لهم حوادث في المسلمين مزعجة، والله المستعان، اللهم إياك نعبد وإياك نستعين.

المقام الثالث: كثيراً ما فسرت العبادة بأنها ضرب من الشكر مع ضرب من الخضوع أو الطاعة، وهل يخفى عليك أن هذه التفسيرات مبنية على التساهل بخصوصيات الاستعمال، أو الارتباك في مقام التفسير، وهل يخفى أن أغلب الأفراد من كل واحد مما ذكره، لا يراه الناس عبادة، ويقلطون من يسميها أو بعضها عبادة إلا على سبيل المجاز؟

وإن لفظ العبادة وما يُشتق منه كعبد ويعبد، لا تجدها مستعملة على وجه الحقيقة إلا فيما ذكرناه من معاملة الإنسان لمن يتخذها إلهاً معاملة الإله المستحق لذلك بمقامه في الإلهية، ولم أجدها في القرآن الكريم مستعملة في غير ذلك إلا في ثلاثة موارد، ولكنها لم تخرج عن النظر إلى مناسبة المعنى الحقيقي المذكور والتجوز بلفظه، وهي: قوله (نار) في سورة مريم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ

عَصِيًّا^(١).

وفي سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٢). فاستُعير اسم العبادة للطاعة العمياء للشيطان على الدوام، كما يلقي المؤمنون قياد طاعتهم لله على بصيرة من أمرهم، لأنه إلههم على نحو التجوز الواقع في قوله (تعالى) في سورة الفرقان: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٣) والجمالية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٤) فإنهم لم يكونوا يعبدون الشيطان، ولم يتخذوا هواهم إلهاً على سبيل الحقيقة.

وثالثها: قوله (تعالى) في سورة المؤمنون: ﴿قَالُوا - أَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ - أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾^(٥) أي دأبوا على العمل في تسخيرنا، كما يدأب المؤمن في طاعة الله وعبادته، أو باعتبار أن فرعون كان يدعي الإلهية، فجعلوا بالتشبيه والتعويي خضوع بني إسرائيل بالقهر والغلبة عبادة لفرعون هذا.

وإن الشيخ محمد عبده خاض في هذا المقام في البحث على ما حكاه عنه تلميذه في تفسيره لسورة الفاتحة، وقارب الغرض في كلامه ولما يقرطس، قال ما ملخصه: منها غالى العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له وتفانى في هواه وإرادته، أو بالغ بعض الناس في تعظيم الملوك والزعماء، فترى من خضوعهم لهم ما لا تراه من خضوع القانتين لله، فإن العرب لم يكونوا يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة، فما هي العبادة إذن؟

وقال: تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصريح أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن اشتعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه^(٦). انتهى كلامه.

(١) الآية: ٤٤.

(٢) الآية: ٦٠.

(٣) الآية: ٤٣.

(٤) الآية: ٢٣.

(٥) الآية: ٤٧.

(٦) تفسير المنار: ٩، ٥٦.

ولو أنه صارح بجامع كلامه وملاك صحته واستقامته - وهو ما قدمنا من تعبد العباد بالتعلق بمن يراه العابد إلهاً - لما عادت جملة فلا متدافعة، يشلها الانتقاد، وإن اعتمد بعد ذلك بصائب قوله: للعبادة صور كثيرة في كل دين، شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى^(١). فإنه لا يتسق قوله هذا إلا أن يعتبر في معنى العبادة كونها ناظرة إلى توفية من يتخذها إلهاً حقاً من التعظيم والخضوع، وأي شعور مذكّر فيها لولا ذلك الاعتبار؟

وإن لم يعتبر ما ذكرناه فلا مفرّ لجملة المتقدمة عن النقد، فإن صور كثير من العبادات لا تبلغ حدّ النهاية من الخضوع ولا تقاربه، كما ذكر في عبادة المتحنّين القانتين بالنسبة لخضوع ذلك العاشق لمعشوقه، وخضوع أولئك في تعظيم الملوك والرعاة.

وأيضاً إن عابد الله يعرف أن منشأ العظمة وملاكها هي السلطة الإلهية، ولئن كانت فوق إدراكه فباعتبار عمومها لما لا يعد ولا يحُد من الممكنات، لا بها هي سلطة إلهية عظيمة، يمكن عرفانها ونيلها بالإدراك من هذه الوجهة.

وفي مقام الفرق بين العبادة والعبودية قال: ومن هنا قال بعض العلماء: إن العبادة لا تكون في اللغة إلا لله (عالي)^(٢).

أقول: يريد أن العبادة من حيث إن معناها الحقيقي في اللغة مأخوذ فيه التعلق بالإلهية والإله، لا يصحّ تعلّقها إلا بالله الذي لا إله إلا هو، ولا يريد أنها لم تنسب في اللغة إلا لله، وكيف يخفى عليه أنها جاءت في نفس محاورات القرآن منسوبة لغير الله في أكثر من سبعين مورداً؟ فالظاهر أنه لا وقع لاعتراضه عليه بقوله: ولكن استعمال القرآن يخالفه^(٣)، نعم يرد على من قال: إن لفظ العباد مأخوذ من العبادة، أنه غفل عن قوله (عالي) في سورة النور: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ

(١) تفسير المنار ٩: ٥٧.

(٢) تفسير المنار ٩: ٥٦.

(٣) تفسير المنار ٩: ٥٦.

وَمَا يَنْكُمْ^(١).

حصر الاستعانة بالله (جل اسمه)

قال الله تعالى: في سورة المائدة: ﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾^(٢) وأما المعاونة في المباحات فهي إحسان أمر الله به أيضاً في كتابه بقوله تعالى: في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣) وفي سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

والمعلوم بالضرورة من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه والأئمة والمسلمين أنهم يستعينون في غالب أمورهم بالمحاجة بالآلات والدابة، والخدام والزوجة، والصاحب والرسول والأجراء وغيرهم، وفي سورة البقرة: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٥). وفي سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(٦) فقد لامهم الله على عدم مجيئهم للاستعانة على المغفرة باستغفار الرسول، وهذا يكفي في الحجة والدلالة على أن الإعانة ليست بجميع أقسامها منحصرة بالله، وعلى أنه لا يلزمنا أن نُقصر استعانتنا بقول مطلق على الله.

وتفصيل ذلك هو أننا ننظر إلى استعانات البشر قولاً وعملاً، فنراها تكون على

نحوين:

النحو الأول: هو الاستعانة بالوسائل المجهولة من الله لنيل المقصود، التي هي

(١) الآية: ٣٢.

(٢) الآية: ٢.

(٣) الآية: ٩٠.

(٤) البقرة: ٢: ١٩٥، آل عمران ٣: ١٣٤، والمائدة ٥: ١٣ وفي سورة آل عمران: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٥) الآية ٤٥ و٤٣.

(٦) الآية: ٦٤.

وما فيها من التسبب من جعل الله وخلقه.
والنحو الثاني: هو الاستعانة بالإله بها هو إله مُعين بإلهيته وقدرته الذاتية المطلقة الفائقة.

ولا ريب في أن النحو الثاني من الاستعانة هو المتيقن في قصره على الله، لأن الاستعانة بهذا النحو، إذا كانت بغير الله، كانت تأليهاً لذلك الغير وإشراكاً بالله. وبما ذكرنا من الآية والسيرة واقتران ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في سياق توحيد الله وتمجيده بالمجد الإلهي، تقوم الحاجة وتتضح الدلالة على أن هذا النحو من الاستعانة هو تمام المقصور على الله دون النحو الأول.

الإستشفاع إلى الله

ولاريب في أن الاستشفاع إلى الله في دُعائه والتوسل إليه بالنبِيِّ (سَلَّمَ) عليه وآله وسلم، والأئمة والأولياء في الموانج، إنها هو من الاستعانة بالنحو الأول، وإنك إذا سألت حتى من المَهِج عما يفعلون في توسلهم بالنبِيِّ (سَلَّمَ) عليه وآله وسلم، والأئمة والأولياء قالوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَنُقَدِّمُهُمْ أَمَامَ تَضَرَّعَاتِنَا إِلَيْهِ، لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَوَجَاهَتِهِمْ عِنْدَهُ، لِأَنَّهُمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ.
فإن قلت لهم: إنكم ربما تخاطبونهم بالتضرع والتمجيد وطلب الحاجة منهم، فما هذا؟

قالوا لك: نخاطبهم بالضراعة ليشفعوا، وبالتمجيد بها هم أهل له احتراماً لمقامهم عند الله، ويطلب الحاجة منهم إلحاحاً عليهم وتأكيذاً في الاستشفاع. وبياناً، لأن شفاعتهم وسيلة ناجحة، كما تقول لمقرب الملك فيما يرجع أمره إلى الملك: أريد هذا الأمر منك.

فإن قلت لهم: هلا تسألون طلباتكم منهم؟

قالوا لك: كيف، وإتهم بشر لا يقدر على ما يختص الله بالقُدرة عليه من حيث الإلهية، ولا إله إلا الله.

فإن قيل: إن الله أرحم الراحمين، فما هي الحاجة إلى الاستشفاع؟ قلنا شُرِعَ الاستشفاع لأجل الحكمة التي شُرِعَ لأجلها الدعاء، كما قال الله وهو أرحم الراحمين، عالم الغيب والشهادة في سورة المؤمن: ﴿وَأَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)؛ و﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢).

وفي سورة الأعراف: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٣)؛ و﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٤) فإن دعاء الله تمرين على عبادته والالتجاء إليه، والفرج إلى إلهيته وقدرته... فإن قيل: أين شُرِعَ الاستشفاع؟

قلنا: يكفي في الدلالة على مشروعيته من الكتاب المجيد ما ذكرنا من الآية الرابعة والستين من سورة النساء، في لومهم على عدم مجيئهم ليقتنموا شفاعة الرسول باستغفاره لهم^(٥)، وإنَّ العدول والالتفات من خطاب الله لرسوله في الآية المشار إليها إلى قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ إنما هو للإشارة إلى أنَّ الحكمة في ذلك هو تمرينهم على الانقياد إلى الرسول ومقام الرسالة بالمجيء إلى حضرته، والخضوع لكرامته، بالاحتياج وطلب الاستغفار وشفاعته لهم، كل ذلك لكي ينقادوا مستوسقين إلى طاعته في أمور الدين والإيمان.

وهذه المشروعية يجري وجهها وحكمتها وعلتها في شفاعة الأئمة والأولياء، وليتنبه المستشفع من استشفاعه إلى كرامة المطيع لله لطاعته، فيحركه ذلك إلى الرغبة في الطاعة، وهذا أمر معروف المشروعية، معمول عليه في الأديان الحقّة، كما حكى القرآن الكريم أنَّ أولاد يعقوب نبي الله استشفعوا بأبيهم إلى الله، وطلبوا استغفاره لهم، فوعدهم يعقوب بذلك، كما في سورة يوسف: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾ قال

(١) الآية: ٦٠.

(٢) الآية: ٦٥.

(٣) الآية: ٢٩.

(٤) الآية: ٥٦.

(٥) قوله (٥١): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِنُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴿١﴾.

الاستشفاع بالمقربين من الأموات

وما ذكرناه من الحكمة يجري أيضاً على رسله في الاستشفاع بهم بعد وفاتهم، لكي يحفظ انقياد الناس إليهم فيها علّموه وأمرؤا به وأرشدوا إليه من أمر الدين وصلاح الدارين، وللتنبه أيضاً إلى كرامة الطاعة لله. فإن قال قائل: كيف يُستشفع بالأموات، وأين هم بعد موتهم من مقام الشفاعة؟

بقاء النفس بعد الموت

قلنا: قد عرفنا الله في كتابه المجيد أن النفوس تبقى بعد الموت على ما هي عليه من المقام النفساني، إمّا متمتعة بمقام الكرامة، وإمّا مبتلاةً بالهوان والسخط، وقرب لأفهامنا القاصرة حالة النفس بعد الموت وبقائها بمقارنة حالتها في الموت والنوم، فقال (جذاه) في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ يَتَوَفَّ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

وفي سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (٢).

وآل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل * وأن الله

(١) الآية: ١٧، ١٨.

(٢) الآية: ١٢.

(٣) الآية: ١٥٤.

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

وإن قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقَالَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أن يقول: لا يُضِيعُ أَجْرَ المجاهدين في سبيله، ليدل على أَنَّ ذلك من آثار الإيمان الجارية لكل مؤمن، لا آثار خصوص القتل في سبيل الله ومن خواصه.

وقال (جذابه) في سورة المؤمن: ﴿فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ النار يَرْضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ^(٢) فانظم البيان لبقاء النفوس بعد الموت هذه على كرامتها، وهذه في هوانها.

الشفاعة

فإن قال قائل: إن الله قد نفى الشفاعة في القرآن الكريم، ففي سورة البقرة: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾^(٣). والسنجدة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾^(٤) إلى غير ذلك من الآيات. قلنا: إن الشفاعة قد نفاه القرآن من جهة، وهي الشفاعة للمشركين أو الشفاعة التي يزعمها المشركون للذين يتخذونهم آلهة مع الله، يزعم أنهم آلهة قادرون بالهيتهم بحيث تنفذ شفاعتهم طبعاً وحتماً، أو شفاعة الشافع الذي يطاع حتماً، كما في سورة يس: ٢٣^(٥)، والمؤمن: ١٨^(٦)، والزمر: ٤٤^(٧)، والمؤثر: ٤٨^(٨).

(١) الآية: ١٦٩ - ١٧٩.

(٢) الآية: ٤٥ و ٤٦.

(٣) الآية: ٢٥٤.

(٤) الآية: ٤.

(٥) قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنُ غَنَى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقَدُونَ﴾.

(٦) قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

(٧) قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾.

(٨) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَتَّقُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

وأثبتها من جهة أخرى بالاستثناء، بل بالاستدراك الدافع لإيهام نفيها المطلق عن كل أحد، فقال (صار): ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١) ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٢) ﴿إِلَّا مَنْ أَعِزَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(٣) ﴿إِلَّا مَنْ أِذْنٌ لَهُ الرَّحْمَنُ يَرْضَى لَهُ قَوْلًا﴾^(٤) ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرِضْنِي﴾^(٥) ﴿إِلَّا لِمَنْ أِذْنٌ لَهُ﴾^(٦) ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾^(٧) ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٨).

وإن الشفاعة المستثناة والمستدركة في آيات البقرة، ويونس، وسبأ، مطلقه غير مختصة بيوم القيامة، ولا بما قبل وفاة الشافع في الدنيا.

ولكن لو أُعطي القرآن حقه من التدبير، وسلمت النفوس من وباء الأهواء والتحزب، وبوادر التعصب والنصب، لما ثار الهياج من بعض الناس على استشفاع المسلمين بالرسول والأئمة والأولياء، لأنهم عباد مكرمون، وأولى عباد الله بأن نعتقد إذنه (جنت آدم)، لهم بالشفاعة إكراماً لهم، لأجل الحكمة التي ذكرناها، وقد اكتفيتنا هاهنا بدلالة الكتاب المجيد عن الإشارة إلى ما تواتر معناه من أحاديث المسلمين في هذه الشؤون، وفي كتبهم في الحديث من ذلك شيء كثير^(٩)، والأمر فيه جلي، ولكن «لأمرٍ ما جَدَّحَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ»^(١٠).

(١) البقرة: ٢: ٢٥٥.

(٢) يونس: ١٠: ٣.

(٣) مريم: ١٩: ٨٧.

(٤) طه: ٤٠: ١٠٩.

(٥) الأنبياء: ٢١: ٢٨.

(٦) سبأ: ٣٤: ٢٣.

(٧) الزخرف: ٤٣: ٨٦.

(٨) النجم: ٥٣: ٢٦.

(٩) تفسير فرائد: ١١١، تفسير القمي ٢: ٦٤، عيون أخبار الرضا (ع) ٢: ٣١٣/٦٨، أمالي الطوسي

١: ٦٥، الدر المنثور ٥: ٣٢٤ - ٣٢٨.

(١٠) مثل يضرب لمن يلحق الضرر بنفسه بدافع المكر والهدية. وقيل: إن النمل قالته الزبابة لما رأت قصير بن سعد

قد جَدَّحَ أَنْفَهُ وتفصيل القصة في مجمع الأمثال ١: ٢٣٣/١٢٥٠ وأنظر أيضاً ٢: ٣٣٦/١٩٦، المستقصى ٢:

٨١٣/٢٤٠.

وللشيخ محمد عبده على ما حكاه تلميذه في سورة الفاتحة صفحة: ٤٦ و ٤٧ من الطبعة الثالثة^(١)، كلام ألقاه على عواهنه^(٢) في زبوة الهياج المذكور وهو غريب من تحريره تهذيب كلامه، وتدبر القرآن الكريم وتفسيره، والتحرز من عبودية الأهواء، ولم يحضر في كتاب تفسيره لأرى ما فيه في هذا المقام.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية تُستعمل في الإرشاد إلى الطريق، والدلالة على الخير، كقوله (نار) في سورتي فصلت: ﴿وَأَمَّا تَعَوَّذُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى﴾^(٣) والشورى: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤). وتُستعمل في الايصال بالتوفيق والتسديد، كقوله (نار) في سورة القصص: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

و: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦). والنساء: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٧).

والأنعام بعد ذكر عدة من الأنبياء: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٨). وهذا المعنى هو الظاهر والمراد من الآية حتى إذا كانت سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن الكريم، والهداية تتمدد إلى المهدي إليه بنفسها وبإلى، والصراط: هو الطريق، والمستقيم: ما لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وهو أقرب نهج موصل إلى

(١) يعادل في تفسير المنار ١: ٥٩ من الطبعة الثانية. دار المعرفة، بيروت ومن جملة ما قاله: من هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم، وتيسير أمورهم، وشفاة أمراضهم، ونباء حزنهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم، وغير ذلك من المصالح، هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله مُعرضون.

(٢) ألقى الكلام على عواهنه: إذا لم يُبالِ أصاب أم أخطأ «الصحاح - عه - ٦: ٢٦٦٩».

(٣) الآية ١٧.

(٤) الآية ٥٢.

(٥) الآية ٥٠.

(٦) الآية ٥٦.

(٧) الآية ٦٨.

(٨) الآية ٨٧.

المقصود، ويكون سالكه أبعد من الضلال وخوفه، وعلى بصيرة من أمره من أول سلوكه، إذ يتضح منه منار الحق وبشائر الوصول من أول الإقبال إليه. وفي حديث الجمهور، كما في (الدر المنثور) أنه في الآية كتاب الله، أو الإسلام، أو رسول الله وصاحبه بعده^(١).

وفي (تفسير البرهان) عن (تفسير وكيع بن الجراح) مسنداً عن ابن عباس، في قوله (تبارك): ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: قولوا - يا معاشرة العباد - ارشدنا إلى حب محمد وأهل بيته^(٢).

وعن (تفسير الثعلبي) مسنداً عن أبي بريدة، قال: صراط محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته^(٣).

وفي روايات الإمامية: أنه أمير المؤمنين^(٤)، أو أنه الأئمة. وكلها صح من ذلك فهو من باب النص على أحد المصاديق أو أظهرها.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق والسداد، فنعّموا بالوصول وفازوا بالزلفى.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم عاندوا الحق بعد ما استنار صبح الإرشاد، ووضحت الدلالة، وقامت الحجة، فاستوجبوا بذلك غضب الله، وكلمة «غير» مجرورة على أنها صفة له «الذين».

وفي الحديث والروايات: أن المغضوب عليهم هم اليهود أو النواصب^(٥). وما صح من ذلك فهو من باب النص على بعض المصاديق.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بجهلهم وتقصيرهم عن طلب الحق ومعرفة مع وضوح

(١) الدر المنثور ١: ٣٨-٤٠.

(٢) البرهان ١: ٣٨/٥٢.

(٣) البرهان ١: ٣٩/٥٢.

(٤) تفسير المصباح ٩: ٢٤/٢٥، معاني الاختيار: ٢/٣٢.

(٥) تفسير العياشي ١: ١٧/٢٢ و ٢٨/٢٤.

الدلالة وقيام الحُجَّة، وحيء بكلمة «لا» مع «الضالِّين» لأجل الاستقصاء في التعمُّد من الفريقين: المفضوب عليهم، والضالِّين.



مرکز تحقیقات کلام و علوم اسلامی

سُورَةُ النَّازِعَاتِ



مرکز تحقیقات و توسعه در علوم اسلامی

۱۴۰۲

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مَدَنِيَّةٌ وَهِيَ مَائَتَانِ وَبَسْتٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: مَرَّرَ تَفْسِيرَهَا فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.
﴿الْمَ﴾: عِلْمُ مَعْنَاهَا عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمُسْتَوْدَعِي عِلْمِهِ وَأَمْنَانِهِ عَلَى وَحْيِهِ، وَلَا
غَرَوْ فِي أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ مُحَاوَرَةٌ بِأَسْرَارٍ خَاصَّةٍ مَعَ الرَّسُولِ وَأَمْنَاءِ الْوَحْيِ.
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: الْقُرْآنُ، أُشِيرَ إِلَيْهِ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ لِرَفْعَةِ مَقَامِهِ، وَعُضِّلَ شَأْنُهُ،
وَذَلِكَ مُتَعَارَفٌ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى الْعَظِيمِ الرَّفِيعِ الشَّانِ.
﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لَيْسَ فِيهِ مَحَلٌّ لِلرَّيْبِ، وَلَا يَنْبَغِي الرَّيْبُ فِي أَمْرِهِ، أَوْ لَيْسَ فِيهِ
شَيْءٌ مَرِيبٌ، بَلْ هُوَ ﴿هُدًى﴾ بِالْفِعْلِ، وَمَوْصِلٌ إِلَى حَقِيقَةِ الدِّينِ وَشَرِيعَةِ الْحَقِّ وَأَرْكَانِ
الْإِيمَانِ. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اللَّهُ، الَّذِينَ مِنْ تَقْوَاهُمْ يُقْبَلُونَ عَلَى الْقُرْآنِ وَيَتَّبِعُونَهُ حَقَّ الْإِتِّبَاعِ،
وَيَأْتِرُونَ بِأَوَامِرِهِ، وَيَتَّقُونَ بَنَوَاهِ، وَيَتَأَدَّبُونَ بِآدَابِهِ، وَيَسْتَرِشِدُونَ بِمَعَارِفِهِ.

والإتقاء مأخوذ من الوقاية، يقال: اتقى السيف بالدرقة، أي اتقى ما يخاف منه، وفي الآية الرابعة والعشرين: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والثامنة والأربعين: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ وتقوى الله: عبارة عن إتقاء ما يخاف منه، كفضبه وعذابه، فيتقى ذلك بطلب رضا، وطاعته في أوامره ونواهيه.

وإطلاق التقوى في وصفهم يدل على أنها صفة عامة ثابتة لهم، وملكية راسخة، كالعالم والفقير.

﴿الَّذِينَ﴾ في الآية الآتية، وكذا التي بعدها، ليست مبتدأ وخبره جملة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ كما احتمل في بعض التفاسير^(١)، بل هي صفة للمتقين الذين من قوتهم في التقوى والإيمان بالحق، واتباع الدليل والهداية ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ مما لم يروه، ولم يحسوا به، بل يحصل لهم يقين الإيمان بالحجة من كتاب الله، وقول من قامت الحجة على عصمته، وذلك كالبعث والنشور، والوعد والوعيد، والجنة والنار وأحوال القيامة، والنعيم والعذاب.

ومن مصاديق المؤمنين بالغيب، المؤمنون بقيام المهدي المنتظر (مبلى له رزقه)، كما في الرواية عن أهل البيت (عليهم السلام)^(٢).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِالْصَّلَاةِ﴾ يواظبون عليها في أوقاتها، قائمة على حدودها وشروطها، وإخلاصها في العبادة، والرغبة إلى الله في مناجاته، والمثول في طاعته بحضرته.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من مال، بل وعلم، كما في رواية أهل البيت (عليهم السلام)^(٣). ﴿يُنْفِقُونَ﴾ كما فرضه الله عليهم، أو نذبهم إليه، من البر والإحسان بالتعليم والبيان، وينفقونه على حين معرفة منهم واعتراف بأنه رزق الله ونعمته عليهم، فيكون إنفاقهم أدخل في الطاعة المقرونة بالشكر، وأقرب إلى المعرفة والإحسان والدوام.

(١) تفسير الكشاف ١: ٣٧، جوامع الجامع: ٥.

(٢) كمال الدين وقام النعمة: ١٧ و١٨.

(٣) تفسير المباشي ١: ٢٥/١، معاني الاخبار: ٢/٢٣.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

﴿وَالَّذِينَ﴾ صفة أخرى للمتقين، وجيء بواو العطف استلفاتاً إلى فضيلة هذه الصفة، فإن التعداد بالعطف يمثل للذهن كلاً من الصفات مستقلةً بجزايها، لا كما إذا طُرِدَتْ من غير عطف، ألا ترى أن الذهن يجد من الروق للصفات في قولهم: جاء الرجل العالم والصالح والكريم والشجاع. ما لا يجده في قولهم: جاء الرجل العالم الصالح الكريم الشجاع؟.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الوحي من الكتاب وغيره، ويدعون بأنّه منزل من الله على رسوله رحمةً للعباد ولطفاً منه، فيظهر عليهم بذلك شعار الإيمان به. ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الرسل والأنبياء، حسب ما يحصل لهم من أسباب العلم بإنزاله، وأظهر الأسباب في ذلك إخبار القرآن الكريم والرسول المصطفى به، وذلك من الإيمان بالغيب لأنهم لم يشاهدوا آيةً ومعجزةً من أولئك الأنبياء الماضين. ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ التي ذكرها القرآن وما فيها، وعرفتهم أنت بذلك في بشراك وإنذارك ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وirony بإيمانهم بالغيب حقّ اليقين، كأن ذلك رأي العين. وصيغة المضارع في «يوقنون» تدلّ على ثبات اليقين ودوامه، وهو الذي تظهر سيّاه في دوام الطاعة والرهبة من سخط الله وعقابه، والرغبة في رضا الله وثوابه الذي أعدّه في الآخرة للصالحين.

وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات، بالآخرة هم يوقنون، لا من يكتنّبها بإعتقاده وقوله، أو يصوّرها بتكلّف اعتقاده بها على خلاف ما جاءت به رسل الله وكتبه، أو من كانت سيرته في أعماله السيئة وتفريطه في الطاعات تمثّل ضعف إيمانه بالآخرة، وإن غفلاته عنها في أعماله وتروكه، تكاد أن تأتي على ما يتكلّفه من الاعتقاد بها والعيّاذ بالله.

وبعد التنويه بصفات المتقين المهتدين بالكتاب، جاءت البُشرى بكرامة مقامهم، وريح تجارتهم، فقال الله في شأنهم: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مستقرون ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وتوفيق وتسديد، إذ كانوا بإيمانهم وإقبالهم على الطاعة أهلاً لذلك. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دون غيرهم، أما في الدنيا فبراحة ما استشعروه من القناعة، وتقدير النعم وشكرها، وفضيلة الرضا بأمر الله والتسليم لحكمته، وراحة الهدوء والصلاح وحسن الأخلاق. وأما في الآخرة فبفلاح النعيم المقيم. وبمناسبة حال الكتاب في هداة مع المتقين الموصوفين، وما لهم من الاهتداء والفلاح، ذَكَرَ الله لرسوله حال بعض الكافرين، بأنهم في تماديهم بالغي على الكفر والتمرد، لا يُجدي معهم إنذارك، ولا يؤمنون بالله ورسوله وكتابه. هذا ما يقتضيه سياق القرآن الكريم، خصوصاً مع ابتداء الإخبار عن الذين كفروا بدون عطف بالواو.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قِسماً خاصاً ممن ينتحل الكفر، والمعهودين عند الرسول، أو هم مطلق الطواغيت الذين يعلم الله أنهم من قمردهم يعوتون على التهاذي على ضلال الشرك والكفر بالله ورسوله وكتابه، وما جاء به في دعوة الحق مع الحُجج القيِّمة والدلالة الواضحة.

هؤلاء ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يختارون الإيمان لأنهم بطغيانهم وانهماكهم بضلال الكفر، قد أَرْتَجُوا^(١) قلوبهم وأساعهم وأحكموا سداها

عن أن يَلْجِئَهَا شيء من دعوة الإيَّان ودلائل آياتها، ولا شيء من نور الحق وشافي البيان، فاستحقوا بذلك حرمانهم من توفيق الله وتسديده لهم.

وإن توفيقه وتسديده (جنت الآب)، من أقوى ما يُعين العبد في اختياره للطاعة والإيَّان، إذ يرفع عنه من طريقهما ما يُعرقله ويزل أقدامه من نزغات الشيطان وهفوات الهوى وطموح النفس الآمرة إلى شهواتها ونزغاتها الرديئة ومألوفاتها، فكان حرمان المتمردين من التوفيق والتسديد بمنزلة الختم على ما سَدَّوه بسوء اختيارهم وطغيانهم.

ولأجل أن ذلك الحرمان من الله لخروجهم عن الأهلية، نسب الختم الذي سَمَّى به إلى الله (عز وجل)، لأنَّ الله هو الذي بيده أُمِرُ التوفيق منحةً وحرماناً، وعلى هذا قال (جزاسه): ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ من التمرّد، حيث استحبوا العمى على الهدى، فلا يُبْصرون أنوار الحق والعرفان مع إشراقها كالشمس رأد الضحى^(١).

﴿وَلَقَدْ﴾ بما جنّوه من التمرّد في الكُفر والطُغيان ومحادّة الله ورسوله ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وغير خفي أن مذهب العدلية من الإمامية والمعتزلة، هو أنه يتمتع على جلال الله القدّوس الكامل الغني أن يمنع الإنسان بالإلْجاء عن قبول الإيَّان، أو يُلْجئه إلى الكفر، أو يكون هو الخالق للكفر فيه، فضلاً عن أن يلومه ويعاقبه مع ذلك عليه، فإن ذلك كلّه قبيح عقلاً كما هو من البديهيّات الفطرية، ومن البديهي أن القبيح مُمتنع الصدور من الله الغني القدّوس.

وقد ذكرنا في أخريات شواهد المقام الثاني من الفصل الرابع في المقدمة أن الله (عز وجل) قد مجدّد قدّسه في القرآن الكريم بالنزاهة عمّا هو دون ذلك في القبح، ووثّق الناس على أعمال السوء، ولكن ابن المنير في تعليقه على (الكشاف) تحامل على الرّمحشري في هذا المقام، وأورد لمذهبه وجوهاً طالما هُج بها الأشاعرة:

أولها: أن مذهب العدلية في المسألة مخالف لدليل العقل على وحدانيّة الله، فإنّ

مقتضاه أن لا حادث إلا بقُدرة الله.

ويدفعه أن مسألة القُدرة غير مسألة التوحيد، وغاية ما يقال في قُدرة الله أنها لا تقصر ولا تضعف عن الممكن، وإن صار لِقُبْحه مُمتنع الصدور منه لجلال شأنه وقُدسه وكماله وغناه، وليس مقتضى دليل العقل على الوجدانية أن يكون الزنا واللواط والكفر ومنع الكافرين عن الإيمان وأمثالها من القبائح، تقع بفعل الله وخلقه وقُدْرته. وأما قولهم: إن نسبة الفاعلية للناس وإيجادهم لأفعالهم وخلْقهم لها، يقضي بالشرك والإشراك مع الله في صفته، وهو خلاف الوجدانية والتوحيد، فهو مردود بأن التوحيد الواجب في الإيمان هو توحيد الله، ونفي الشريك له في الإلهية وما يعود إليها. وأما في غير ذلك فإن القرآن الكريم نفسه قد شرَّك بين الله وعباده في نوع صفة الحياة والعلم والرحمة والرأفة والخلق وغير ذلك، وإن كانت صفات الله متميزة عن نوعها بكماله ومميزاتها.

ثانيها: دليل النقل كقوله (ص): ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾^(١).

ويردّه أن ابن المنير ومن يحتجّ بهذا، كأنهم لم يقرءوا ولم يسمعوا من سورة العنكبوت قول إبراهيم خليل الله لقومه: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾^(٢).

وقول الله لعيسى كما في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾^(٣).
وقول عيسى رسول الله كما في سورة آل عمران: ﴿أَنْتَ أَخْلَقْتَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾^(٤).

وقوله (ص): من هذا الباب في سورة المؤمنون: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٥).

(١) فاطر ٣٥: ٣.

(٢) الآية ١٧.

(٣) الآية ١١٠.

(٤) الآية ٤٩.

(٥) الآية ١٤.

ولماذا لم يلتفتوا من ذلك إلى أَنَّ الخلق المقصور على الله إِنَّا هو خلق الإله وإيجاده ممَّا هو من أعمال الإلهية، وعلى ذلك جاء قوله (نار) في سورة الرعد: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

ثالثها: أَنَّهُ وَإِنْ قُبِحَ صدور بعض الأفعال من الناس بحسب الشاهد، لكن الحكم بقبح صدورها من الله قياس للغائب على الشاهد، وهو باطل.

ويردُّهم أولاً: إِنَّهُ مَا أَسْمَحَ التعبير عن الله وشؤونه بالغائب، وهو على كل شيء شهيد، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد!

وثانياً: إِنَّ الحكم على بعض أفعال الناس بالقبح ليس من الحواس الخمس، لكي يقال: إِنَّ الحواس لا تدرك الله، وَأَنَّ الناس ليعلمون أَنَّ العدلية يُعنونون هذه المسألة وحمل نزاعها بالحسَّ والقبح العقليين، ويتأدون بأنَّ الحاكم بالحسَّ أو القبح إِنَّا هو العقل بنفسه وإدراكه من دون مداخله للحسَّ أو وجود الفعل في الخارج. وليت شعري هل عند العقل شاهد وغائب؟!

وثالثاً: إِنَّ حكم العقل الفطري بقبح صدور القبيح من فاعله، إِنَّا هو بالنظر إلى عقل الفاعل، وجهة كماله وعلمه بالفعل، وبجهة قبحه، ولذا لا يحكم بالقبح الفاعلي على الفاعل من الأطفال والمجانين الذين لا يميزون، ولا على الغافل عن الفعل أو جهة قبحه، وَإِنَّ الله هو الكامل العليم الخبير، فهو (جزئى) أول من ينظر العقل إلى فعله، ويحكم بامتناع صدور القبيح منه (جزئى).

رابعها: أَنَّهُ يقبح من الإنسان أن يَمَكَّن عبده من القابض والفواش برأى منه ومسمع، ثم يعاقبه على ذلك، مع أَنَّ القُدرة التي يفعل بها الناس الفواش هي من الله على علم منه بمن سيفعل الفواش منهم.

ويردُّهم أَنَّ التمكين القبيح هو ما كان مختصاً بفعل الفواش، ولكنَّ الله (جزئى) أعطى القوى للإنسان ليتَمَتَّع بها في المباح والراجع نعمة منه لإبقاء نوعه وانتظام اجتماعه، غاية الأمر أَنَّ الإنسان يتمكن من أن يعملها في المحرم الذي أرشده إلى

تركه بالعقل وزجر الأنبياء ونواهيه في وحيه وإنذارهم لهم بالوعيد، فهذه القوى نعمة مسندة لا مساس لها بها ذكروهم من المثال. ولم يخلق الله قوة مختصة بأعمال الشر، لكي تكون نقضاً على ما نقول به من مسألة القبح.

خامسها: أن ما يكون ظلماً قبيحاً، إنما هو التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والله مالك العباد وكل شيء، فكل ما يفعله بالعباد ليس بظلم.

ويردّه أولاً: إن العقل لا يتوقف في أحكامه وموضوعاتها على ما يُذكر في بعض المتون الفقهيّة أو معاجم اللغة في معنى الظلم تساهلاً أو قصوراً أو اقتصاراً على محلّ الحاجة في البيان، فإن كلّ ذي شعور إذا رأى مالك العبد قد سدّ فمه ومنعه بالقهر عن شرب الماء، واستمرّ على المنع، وهو يقول له: اشرب الماء، اشرب. حتّى إذا أضّر به العطش، وهو ممنوع عن الشرب، استشاط ماله غضباً عليه، وصار يعتقه وينكّل به لأنّه لم يشرب الماء، وكذا لو فعل مثل ذلك فيها يملكه من الحيوان، فإنّ الرائي لذلك الحال، وكلّ من علم به يحكم بالبداهة أنّ العبد والحيوان المذكورين مظلومان، وأنّ المالك المذكور ظالم قد فعل قبيحاً.

وثانياً: إنّ مقتضى ما زعموه أنّ الأنبياء والرسل الذين أفنوا أعمارهم في طاعة الله وعبادته والدعوة إليه، وصبروا في ذلك على الشدائد، هؤلاء الكرام يجوز أن يعذبهم الله يوم القيامة في جهنّم خالدين فيها بعذاب إبليس وفرعون برزعمهم، وإنّه ليس بظلم ولا قبيح، فإنّهم عبيد الله وملكه.

سادسها: أنّه يجوز أن تكون هناك حكمة تُسوِّغ أن يلجئ الله عباده على الكفر وأعمال الشرّ، ثمّ يعاقبهم على ذلك، فلا سبيل للعقل مع هذا الجواز إلى حكمه بقبح هذا الإلجاء وهذا العقاب^(١).

ويردّهم أنّ العقل يحكم بالقبح والامتناع في هذا وأمثاله، لأنّه يجد أنّ لا حكمة ترفع قبحه وامتناعه من الله، ولا يصلح لأن ترفع حكمة قبحه، ولو حاول أحد أن يسدّ على العقل باب هذا الوجدان، كان ذلك منه سفسطة سخيفة تسدّ على العقل باب أحكامه، وذلك باطل بالضرورة.

على أن هذا الاحتمال والتجوز للحكمة يردّ عليهم بنحو لا مخلص لهم منه أبداً، فإنهم بإنكارهم للتبجح العقلي وامتناع صدور القبيح من الله، قد سدّوا على أنفسهم باب العلم بصدق النبوءات، وبأن الله لا يُظهر المعجز على يد الكاذب، وبصدق الكتب الإلهية، وما فيها من تقديس الله، وأمر القيامة، والنميم والعذاب، واللجنة والنار.

فإن قالوا: إنا نعرف من عادة الله أنه لا يكذب (جذلاً)، ولا يُظهر المعجز على يد الكاذب.

قلنا [في الردّ] عليهم: أولاً: لماذا لا تجوّزون أن تكون هناك حكمة تُسوِّغ مخالفة العادة؟ وإذ قد عزلتم العقل في هذا المقام، لم يكن لكم أن تقولوا: إنّ العقل يجيّد أن لا حكمة تجوّز مخالفة العادة، مع أنّ مخالفة العادة ليس فيها محذور لا تعارضه حكمة بخلاف القبيح، كما قلناه.

وثانياً: إنّ دعوى العلم بعادة الله لا تليق إلّا من قديم أزلي مطّلع على جميع أعمال الله منذ الأزل نفيّاً وثبوتاً، لكي يعرف ما صار عادةً لله وما لم يصّر. ومن ذا الذي يزعم أنّه ذلك الأزلي المطّلع على جميع أعمال الله منذ الأزل، وما هو المانع من مخالفة العادة حتّى مع عدم الحكمة؟ سبحانهك اللهمّ ما أجل قُدسك وكمالك للعقول التي وهبتها لعبادك، وأقمت بأحكامها عليهم الحجة!

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٨١﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي قوم منهم وهم المنافقون ﴿مَن يَقُولُ﴾ أفرد الضمير

باعتبار لفظ «مَنْ» ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والظاهر كما حُكي عليه الاتفاق أن المراد منهم الذين يُظهرون الإيمان ويُطِنون النفاق، ومن الشواهد لذلك قوله (نا)، فيها بعد: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ﴾ ذكروا إيمانهم بالله واليوم الآخر جمعاً لأطراف الإيمان، لأن إيمانهم باليوم الآخر متفرّع على الإيمان بالرسول والقرآن، ولأجل أن يظهروا في مخادعتهم أنهم يخافون الله وعذاب الآخرة، ويرجون نعيم الثواب، فهم مُلازمون للتقوى من أجل ذلك.

ومرادهم من قولهم: آمنا. أنهم ثبتت لهم صفة الإيمان، فهم من زُمرة المؤمنين، ولا يريدون الإخبار بمجرد صدور الإيمان منهم في الماضي، والذي يجتمع مع الثبات عليه ومع الارتداد والنفاق بعده، ولذا قال الله (ج ١٢٨): ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل منافقون ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والمخادعة: هو ما يُسبب الخديعة ويولدها من قول أو فعل، والخديعة: هو ما يُسبب ويتولد من ذلك، إذا لم يمنع منه علم من طلبت خديعته، أو تسديده من الله، أو حذره.

و«المُفَاعَلَة» قد تحيي من طرف واحد، كما في: عافاه الله، وعاقب المجرم، وعابنت الشيء، وحاولت الأمر وزاولته، ولكن مخادعتهم هذه لا تُسبب ولا يتولد منها خديعة إلا لهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بها ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لما يعود عليهم في الدنيا والآخرة من وبال مخادعتهم هذه ونفاقهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

فإن قيل: إن هؤلاء المنافقين إن كانوا في الحقيقة ذهريين، ينكرون وجود الإله، فكيف يتوجهون إليه بالمخادعة، وإن كانوا وثنيين، يعترفون بالله وإلهيته وعلمه، ولكنهم يُشركون الأوثان معه في الإلهية، فكيف يُتصور إقدامهم على مخادعته، فيحاولون منه الفرّ والاندفاع؟

قلنا: إذا لم يُتصور ذلك في تذبذبهم في النفاق وخبطهم في ضلالات الأهواء والكفر، فقد قال بعض المفسرين: إن المخادعة جاءت هنا على نحو التجوّر والاستعارة، باعتبار أن قولهم ذلك يشبه المخادعة وإن لم يُريدوها.

ولكن الذي يظهر من المقام أنهم بقولهم ذلك يخادعون الرسول والذين آمنوا

على حقيقة المخادعة، ولا يجوز استعمال اللفظ في المعنى الحقيقي والمعنى المجازي معاً، ولذا أبقى المخادعة بعضهم على حقيقتها، وقال: إِنَّ التَّجَوُّزَ إِنَّمَا هُوَ بِإِضَافَتِهَا إِلَى اللَّهِ دُونَ إِضَافَتِهَا إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا، والتَّجَوُّزُ بِاعتبار أن الجرأة على مخادعة الرسول - في مقدمة الذين آمنوا من حيث إنه رسول الله - بمنزلة الجرأة على مخادعة الله، فأضيفت المخادعة إلى الله على النهج الذي جاء عليه قوله (تبارك) في سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(١) وهذا أظهر القولين.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مرض النفاق والتلون، واستعير اسم المرض هنا لأن فيه خروجاً عن الصِّحَّة العادية، والنفاق خروج عن الاستقامة الفطرية للبشر وجرِّيم على ما توضحه الدلائل النيرة.

ولأجل تمردهم في نفاقهم خرجوا عن أهلية التوفيق للاستقامة، فأعرض الله بوجهه الكريم عنهم، وحرَّمهم الله بركات لطفه ﴿فَرَّادَهُمُ اللَّهُ﴾ بحرمانهم التوفيق ﴿مَرَضًا﴾ على وتيرة من تمرَّد بالطغيان، فَوَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ المتهككة بالقمح منذ أَسْلَسَتْ قِيَادَهَا لِلْهَوَى وَالشَّيْطَانِ.

وقيل: المرض هو غمُّ الحَسَدِ والعداوة للمؤمنين، وحرمان الله لهم من توفيقه زاد مرضهم، وبهذا الاعتبار نُسِبت الزيادة إلى الله.

وقيل: إِنَّ فَرَادَهُمْ دَعَاءٌ عليهم، ولكن الفاء لا تناسبه. وقيل غير ذلك. ﴿وَلَمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ شديد الألم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في نفاقهم ومخادعتهم وقولهم آمنا وما هم بمؤمنين، وما ظنك بعذابهم على كفرهم وسوء أفعالهم وفسادهم؟

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
 ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قُلُوا
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَارِ يَحْتِ يَجْرَتْهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بنفاقكم وسوء أعمالكم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ﴾ وما أكذبه من قول يقوله مريض القلب والمتحكم بجهله أو نفاقه على
الحقائق والدين وشؤون الناس! فَيَسْمِيهِ أَذْنَابَهُ بِالْمُصْلِحِ الْكَبِيرِ.
﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنقصهم وبما يلحقهم من ذلك
من وَضْعَةِ الضلال وظهور الحال ووخامة السمعة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ بالإيمان المهود وثبتوا على حقيقة
الإيمان وتعاليمه الصالحة وأخلاقه الفاضلة والطاعة في نصرهم لدين الحق ﴿قَالُوا﴾
من غيبيهم ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الذين آمنوا، وخضعوا للإسلام وأحكام دينه،
والجهاد في سبيل الله، وإظهار الحق.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ هم الذين اختاروا سفاهة النفاق
ورذيلته، وأضاعوا رشدهم في المعارف ودين الحق وسعادة الدارين والعاقبة الحسنی
﴿وَلَكِنْ﴾ لأجل تماديهم في الغي ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما يكون العلم به فضيلة للإنسان
ووسيلة لسلامته من خسة السفاهة الموبقة.

وهؤلاء المنافقون زيادة على ما ذكر لهم من قبائح الكفر والأقوال والأفعال،
مُذَبِّذِينَ ذَوِي لِسَانَيْنِ وَوَجْهَيْنِ ﴿وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بحقيقة الإيمان الثابت عن
بصيرة ﴿قَالُوا﴾ بتزويرهم ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحن الآن من زمرة المؤمنين ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ

شَاطِطِيهِمْ ﴿الَّذِينَ يَغْرَوْنَهُمْ بِالْكَفْرِ وَمِحَادَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿قَالُوا﴾ لهم في خلوتهم بهم ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على ما أنتم عليه ومن زمرتكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ في حالنا مع المؤمنين وإظهارنا لهم أننا منهم ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بهم، فتعساً لأراء المناقين.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بأن يمهلهم ويخولهم من حطام الدنيا وحياتها شيئاً، ومصيرهم في عاقبة ذلك إلى أخسّ الهوان وأشدّ العذاب، فاستعير لذلك لفظ الاستهزاء لمشابته له في ابتهاجهم بظاهر الإهمال والتخويل، مع أنه مقرون بالاستهانة بهم وإعداد العذاب الأليم.

ويزداد حسن هذه الاستعارة في مقابلة قولهم: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. وأبين عنها قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ؟^(١)
﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يُمْلِي لهم ويُمهلهم في غمادهم على طغيانهم مع جرمانهم التوفيق، وهذا بمنزلة التفسير لما استعير له لفظ الاستهزاء ﴿بِقَمْعُونٍ﴾ العَمَة: هو العمى في الرأي والبصيرة والتردد في الضلال.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ إذ كانوا ممن هبّا الله بالطفاه لهم أسباب الاهتداء، وجعل بلادهم محطّ بركة الهجرة، ومشرق أنوار الوحي، ومنار الدلائل والحجج، قد أحاطت الألطاف بهم، وتوارد عليهم الإرشاد في مصيبتهم ومساعدتهم، وأجابوا دعوة الإسلام بلا إكراه حرب ولا إرهاب سيف.

ولكنّ هذا الهدى الذي سجدوا بالقرب من موارده العذبة ونثاره الجنة، قد اشتروا به الضلالة، وإنّ كلّ مشترٍ من العقلاء لا بدّ من أن يراعي منفعته بما اشتراه وغبطه بتجارته، وهذا أول ما يُطلب من الربح فيها، والربح نقیض الخسران، ومن لم

(١) قال الزوزني في شرح هذا البيت: أي لا يسهون أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفيهم، أي نجازهم بسفيهم جزاء يربو عليه. فسّى جزاء الجهل جهلاً لا نزاج الكلام وحسن تجانس اللفظ، كما قال الله «س»: ﴿وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقال الله «س»: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وقال ابن جرير: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ﴾ وقال ابن زيد: ﴿عَمَادٌ عَمِيدٌ﴾ وقال ابن جرير: ﴿وَقَدْ خَدَعْتَهُمْ﴾ سَمَى جزاء الاستهزاء والسينة والمكر والمخادع استهزاء وسينة ومكرًا وخداعًا لما ذكرنا «شرح المثلثات: ١٧٨».

يربح في تجارته، ولم يكن لما اشتراه منفعة، فهو خاسر.
ويكفي هؤلاء من النسف أنهم اشتروا وتاجروا ﴿فَلَمَّا رِبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ ولا نفع لهم فيها اشتروه، فضلاً عن وباله في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من أول الأمر لأنهم لم يظهروا الإسلام عن بصيرة وإيمان، وإنما أظهروه لأغراض أخرى. وقيل: وما كانوا مهتدين في تجارتهم، والأول أظهر وأوفق بمقتضى الحال.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ
بِكُمُ عَمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

﴿مَثَلُهُمْ﴾ في حالهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وطلب وقودها لحاجته إلى الضياء ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ من النواحي، وحان انتفاعه بنورها فيها يعنيه من أموره، ذهب ذلك النور، وعاد هذا المستوقد في ظلام دامس لا يبصر فيه شيئاً، وغبط عشواء لا يتدي فيه سبيلاً.

وهؤلاء المنافقون المذكورون كانوا يتشرفون بحضرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويستمعون إلى كلامه وحُججه في بيانه ودلائله في إرشاده وتلاوته لكتاب الله، فهم بذلك كمن استوقد ناراً لهدى، فلما أضاءت لهم بلطف الله مناهج الرشد ومغاني الحق، تَرَدُّدوا على الله بنفاقهم، فخرجوا عن كونهم أهلاً للتوفيق والتسديد، ووكلمهم الله إلى أنفسهم الأمارة وأهوائهم الخبيثة، فأسدلاً عليهم ظلمات الضلال بسوء اختيارهم، ولأجل أن يُنَوِّه الله بها للتوفيق والتسديد من الأثر الشريف في تأييد العقل على مكافحته لوساوس الشيطان ونزغات النفس الأمارة وأهوائها عبر عن حالهم في غيهم على سبيل المجاز واستعارة التشبيه بأنهم حينئذ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وأشار إلى معنى ذلك بقوله (ص): ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي خلى الله بينهم وبين أهوائهم

وسوء اختيارهم، وصاروا يخطون في ظلمات الضلال لا يبصرون فيها طريق الهدى والرشاد.

وقد سلك القرآن الكريم أحسن منهاج البلاغة في بيان مثلهم ونتيجتهم السيئة، فذكر مجرى المثل ومفراه، واكتفى بذكر نتيجته بدلالة النتيجة السيئة لحال الذين ضرب المثل في شأنهم، فناول السامع تنمية المثل ونتيجة حال المنافقين بأوجز بيان مفهم، كما اكتفى بمقدمات المثل عن ذكر المنافقين في استيقادهم لنار الهدى وإضاءتها لما حولهم كما ذكرناه، وربما تصوّر جوده الفهم أحسن مما ذكرناه.

ولو بسط القرآن الكلام كما شرحناه للزم التطويل، ولو أهلك ما ذكره لحال المنافقين لما تثلث من ضرب المثل فائدة لها قيمة، بل لو ذكر قبلها نتيجة المستورد المذكور لأنس الذهن بها، ولم يرعه ما ذكر من نتيجة المنافقين السيئة المهولة، وذلك خلاف المقصود وحسن البيان.

ومما ينهي التنبيه عليه هو أن بعض التفاسير المعروفة بالفضيلة ذكرت تفسير الآية على غير ما ذكرناه، فنشأ من ذلك أمور:

أحدها: جراءة غير المسلمين على الاعتراض على القرآن الكريم.

ثانيها: التجاوز إلى أن يجعل «الذي» بمعنى «الذين» وهذا مع وهنه منافي لإفراد الضمير في «استوقد» وما حوله.

ثالثها: استشهاده بقوله (نار) في سورة التوبة: ﴿وَحُضِّنْتُمْ كَأَلْدَى خَاصُوءًا﴾^(١) مع أن كلمة «الذي» في الآية للمفرد لا بمعنى الذين.

رابعها: عدم ذكر النتيجة السيئة لحال المنافقين^(٢) وفي ذلك ما فيه.

مع أن قوله (نار) ﴿حُصْمٌ هُمْ عُصَى﴾ إنما هي من صفات المنافقين لا من تنمية المثل، وعلى ما ذكره يستلزم ربطها بالمنافقين طفرة كبيرة وفصلاً بالأجنبي الطويل.

وهؤلاء المنافقون الذين ذهب الله بنورهم على ما ذكرناه هم في ضلالهم

(١) الآية: ٦٩.

(٢) الكشف: ١: ٧٢، جوامع الجامع: ٨.

﴿صَمَّ﴾ جمع أَصَمَّ، وهو الفاقِد لحاسة السمع، وقيل: هو من وُلِد كذلك.
 ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أَبْكَم، قيل: هو الأخرس، وقيل: من وُلِد كذلك، وقيل: هو الأخرس مع عِيٍّ وَبَلَةٍ.
 ﴿عُمَى﴾ جمع أَعْمَى، شُبِّهوا بذلك لأنَّهم بإصرارهم على الغي قد أخرجوا أنفسهم عن الانتفاع والاهتداء بما يسمعون من الدلائل والوعظ والإنذار والتعليم، وعن الاهتداء بسؤالهم عن الحقِّ ومكالمتهم في ذلك، وعن الانتفاع بما يشاهدونه ممَّا يوضِّح لهم سبيل الرشَد ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى حقيقة الإيمان إذ قد استحوذَ عليهم الشيطان.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ
 فِيْءِ إِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾
 يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا
 أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ عطف بأول أجل التنبيه بالترديد بين المثلين على اختلاف مجراها ومغزاها، فكأنه قيل: إن شئت ضرب المثل لحال المنافقين مع الإسلام وهدهد بالذي استوقد ناراً إلى آخره، وإن شئت ضرب المثل لشأن الإسلام مع المنافقين، فإنَّ مثله كمثل صَيْبٍ من السماء، وحذف لفظ المثل لدلالة ما سبق وسياق الكلام عليه.

والصَّيْبُ: هو المُنْهَمِلُ النازل من السَّمَوَاتِ، والسَّهَاءُ جهة العلُو فوق الأرض، فالمراد من الصَّيْب هو المطر الغزير المنصب، والذي تحيا به الأرض وتزهر نباتها،

وينمو به الزرع والضرع، وهو قوام المعيشة للناس وخصوص العرب، وأهل البوادي والأنعام، ولكنه مع ذلك لا يخلو من أن تُقارنه ظلمات تتابع كلاً اكْفَهَرَ السحاب الهاطل وادلهمت به الآفاق خصوصاً إذا كان بالليل، ولذا وصف المطر الصَّيْب بالتوسّع في الظرفية بأنه ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَّرَعْدٌ وَنَرَقٌ﴾ إذ لا ينفك عن الرعد والبرق والصواعق، وهي الرعود القاصفة المخيفة بصوتها، وهي المرادة في الآية، وإن كانت الصاعقة أيضاً اسماً للنار النازلة مع ذلك الرعد المخيف.

فالإسلام للناس ونظام اجتماعهم كالمطر الصَّيْب فيه حياتهم وسعادتهم في الدارين، وزهرة الأرض بالعدل والصلاح والأمن وحسن الاجتماع، ولكن معاندة المعاندين للحق وأهله جعلت الإسلام كالمطر لا يخلو من ظلمات شدائد وحروب، ومعاناة من المشركين ورعود، قتل وقتال وتهديدات مُزعجات لغير الصابرين من ذوي البصائر والذين أرخصوا نفوسهم في سبيل الله ونيل السعادة، وفيه بروق من النصر وآمال الظفر واغتنام الغنائم وعزّ الانتصار والمنعة والمهبة.

فهم إذا سمعوا صواعق الحرب أخذهم الهلع والحذر من القتل، وشبهت حالهم في ذلك بأنهم ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ﴾ أجل ﴿الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وخوفاً من أن تخلع قلوبهم من هول أصواتها.

وسفهاً لعقولهم أين يفرون عن الموت وماذا يُجديهم حذرهم ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ المنافقين لا مفر لهم من قضائه؟ ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾^(١) ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^(٢) أو أن المراد ما هذا الخوف والهلع والتحذر والحال أن الله محيط بالكافرين المحاربين للإسلام وخاذلهم ومهلكهم. وقد ظهرت آيات ذلك في غزوة بدر وما قبلها ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ أي ما ذكرناه من برق الإسلام وأنوار عزّه وسعادته ﴿يَغْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ بشدة أنواره، فهم ﴿كُلَّمَا أَوْهَضَ لُهُمْ﴾ وارتاحوا لبهجته وعُلقت آمالهم بسعادة الدنيا ﴿مُشَوِّاً فِيهِ﴾ وجاروا

المسلمين وأظهروا موافقتهم ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن انقطع عنهم ضوء الآمال لما يرونه أحياناً من ظلمات الشدائد ﴿فَأَمُّوا﴾ ووقفوا في مكانهم في النفاق، وثبتوا على حيرة ضلالهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يسمعون بها حصل من المبشرات في الإسلام، ولا بها يرد أحياناً على المسلمين من الشدائد، ولا يبصرون ذلك فلا يترددون في ضلال النفاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا أَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾ الله ﴿رَبَّكُمْ﴾ واخضعوا له حقّ الخضوع للإله، وأطيعوه فإنه هو ربكم ومالككم ومدبركم ومربيكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لم تجئ لعل للترجي، بل ليبيان أنه لا يلزم من عبادتهم أنه أنهم يتقونه حق تقانه، بل يجوز أن تقع منهم التقوى المذكورة بحسن اختيارهم، ويجوز أن لا تقع لسوء اختيارهم.

ولأجل الاحتجاج بآلاء الربوبية وآثار القدرة، ذكر من صفات الرب أيضاً أنه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ممهداً يتيسر لكم الانتفاع بها في السكنى ونحوها والزرع والغرس ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ لا تخشون سقوط أجرامها عليكم.

وليس في ذلك صراحة بموافقة الهيئة القديمة، ولا صراحة بمخالفة الهيئة

الجديدة، فإن حقيقة الأمر لا يعلمها إلا الله، وإن الأوضاع المذكورة في الهيئتين لا منى لها إلا الحدس الذي تدافعه الشكوك والردود، والمحسوس إنها هي حركات الكواكب.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من جهتها، أو أن المراد من الساء هنا جهة العلو ﴿مَاءً﴾ وهو المطر الذي يحيى به الأرض بعد موتها ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بما خلقه فيه وقدره من الخواص ﴿مِنَ الشَّجَرَاتِ﴾ يجوز أن يراد بها ما يعم الحبوب والأطعمة ﴿وَرِزْقًا لِّكُلِّ﴾ وهل يكون ذلك من غير الإله القادر العليم الحكيم؟

وإنكم لتعترفون بالإله، وإن هذا كله من خلقه وإنعامه، فما بالكم تجعلون معه آلهة؟ ولو بزعم أنها من تنزلات الإلهية، أو أنها منبثقة من الإله، أو أنها مظاهره، أو بناء على مزاعم العقول العشرة، وإنه لا يمكن أن يصدر من الله إلا العقل الأول، تعالى الله عما يصفون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ جمع ند بكسر النون، قيل: إن الند المثل، وقيل: الضد.

وفي (النهاية): هو مثل الشيء الذي يضاده في أموره وثنائه أي يخالفه^(١).

وفي (المصباح): لا يكون الند إلا مخالفاً^(٢).

وفي (التيهان) و(مجمع البيان) في الآية المائة والخامسة والستين^(٣): وأصل الند المثل المتناوب^(٤).

وفي (الكشاف) في هذه الآية: ولا يقال إلا للمثل المخالف المتناوب^(٥)، ومثله في (جوامع الجامع)^(٦).

(١) النهاية ٥: ٣٥.

(٢) المصباح المنير ٢: ٣٠١.

(٣) قوله الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾.

(٤) تفسير التيهان ٢: ٦٢، مجمع البيان ١: ٤٥٣.

(٥) الكشاف ١: ٩٥.

(٦) جوامع الجامع ٩.

وفي (المصباح): ناويته: عاديته، أو فعلت مثل فعله مماثلة^(١).

وفي (القاموس): فاخره وعاداه^(٢)، ونحوه في (النهاية)^(٣).

والمشركون يجعلون لأوثانهم وما يُؤلهونه صفة الإلهية وأعمالها: وبذلك يجعلون كلاً ممّا يشركون به ندّاً لله، ومثلاً معارضاً له في إلهيته وأعمالها.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ إِلَٰهَ الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَالْمَطَاعِ هُوَ اللَّهُ، فَمَا هَذِهِ الْمَزَاجُ، وَمَا هَذَا الشَّرْكُ الْمُنَاقِضُ لِعِلْمِكُمْ وَمَعْرِفَتِكُمْ؟ وَلَوْ تَدَبَّرْتُمُ الْحُجْجَ السَّاطِعَةَ لَعَرَفْتُمْ كَيْفَ لَبَسْتُ عَلَيْكُمُ الْأَوْهَامَ وَدَلَّسْتُ عَلَى عَقُولِكُمُ الْأَهْوَاءَ، فَوَحَّدُوا اللَّهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - كَمَا هُوَ حَقُّهُ، وَأَمَنُوا بِعِبَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي جَاءَ بِالْحُجْجِ الْبَاهِرَةِ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وشككتكم في أنه كلام الله ووحيه المنزل من عنده، وجوّزتم أن يأتي به بشر من عند نفسه بلا وحي من الله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن، فإنه نزل بلسانكم العربي، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة، وقد بلغت أوج الرُّفْي في الأدب العربي بما تناله القدرة البشرية، ولكم المهلة والأناة.

(١) المصباح المنير ٢: ٣٤٤.

(٢) القاموس المحيط ١: ٣٢.

(٣) النهاية ٥: ١٢٣.

﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذين ينصرونكم ويشهدون لكم، لكي تستظهروا بشهادتهم، فإن الله لا يشهد لكم فإنه يعلم أنكم لا تقدرُونَ على ذلك، أو وادعوا رجالاً بلغتكم الذين يشهدون المواسم وأسواق العرب لأجل المفاخرة في البلاغة والمسابقة في ميادينها، فاستعينوا بهم على ذلك من دون الله، فإن الاستعانة بالله على ذلك ودعاءه يجعل الإتيان بالسورة والأكثر ممكناً بواسطة إعانة الله ووجيه كإمكانه لرسول الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أن القرآن يمكن للإنسان بقدرته البشرية أن يأتي به، أو بمثله، أو بسورة من مثله.

وهؤلاء، وإن كان صدقهم في ذلك مُمتنعاً، يناسب أن يقال فيه: لو كنتم صادقين، لكن قيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ مجازة لهم وُلَّيْنَةُ في الخطاب. وأما قوله (سألي): ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ مع أن ظاهرهم المبحود لكون القرآن منزلاً من الله، فيجوز أن يكون لأجل علمه (سألي) بأن منهم من تأثر قليلاً بكثرة الشواهد على الرسالة وإنزال القرآن من الله، فيرجع أمره من المبحود إلى الشك والريب في ذلك، فاحتجَّ الله عليهم بالحجة القاطعة لإسباس الشك وعناد المبحود. أو أنه (سألي) احتجَّ على أدنى معارض للإيمان - وهو الريب - بالحجة الجارية فيه وفي المبحود.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تأتوا بسورة من مثله لعجزكم وقصور القدرة البشرية عن ذلك ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إخبارهم بأنهم لا يفعلون ذلك لخروجه عن القدرة البشرية معها برعوا وتقدموا في الفصاحة والبلاغة، ومهما تعاونوا واستعانوا بالبشر.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي فإن عجزتم ولم تفعلوا لزمكم أن تعرفوا أن القرآن منزل من الله على رسوله، ولزمكم الإيمان بالكتاب وبالرسول، وإن لم يدعكم إلى الإيمان شرف الإنسانية والعقل والرغبة في السعادة على نهج إيمان الأحرار، فلا أقل من أن يدعوكم الخوف كما في طاعة العبيد، فإن من ورائكم النار التي أنذركم بها القرآن ﴿أَلَمْ يَأْتِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ الوقود بفتح الواو: ما توقد به النار، فما ظنكم بنار يكون وقودها الناس بلحومهم ودمانهم وفضلاتهم، ووقودها مطلق الحجارة؟ فاتقوها بإيمانكم وطاعتكم لله ورسوله ﴿أَعِدَّتْ﴾ وهيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يموتون على الكفر.

وَيَبْشِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

ثُمَّ قَرَنَ (جُرْثَانَهُ) وعيده للكافرين ببشرائه للمؤمنين، بقوله (جُرْثَانَهُ) ﴿وَيَبْشِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ ينتعمون بها، ومن كمال بهجتها وروحها وجمال منظرها أنها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ على عادة الجنان ذوات البهجة والرونق، من أَنَّ الماء لا ينقطع عنها ولا يعلوها فتكون كالمستنقعات، بل تكون مجاري مياهها أوطأ من أرضها ينتعمون بشاهاها، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزْقًا﴾ رأوا ذلك من جنس ثمار الدنيا ﴿وَقَالُوا﴾ عند ذلك ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا.

والحكمة في كون ثمار الجنة من جنس ثمار الدنيا، هو أَنَّ ذلك أدعى للرجية إلى نعيم الجنة، وأحسن وقعاً في البُشرى، فإنَّ النفوس تهشُّ إلى مألوفاتها، ولو ذكر للناس ما لم يروا له نموذجاً في الدنيا لما رغبوا فيه رغبتهم فيها يعرفونه.

﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ الظاهر أنه رزق الجنة ﴿مُتَشَابِهًا﴾ فيما بينه في الحسن والجودة، لم يختلط مع جيده ردي.

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ طهرهن الله في خلقه لهن، وناهيك بذلك وصفاً ثابتاً، ومقتضى إطلاق التطهير أنهن منزهات من كل ما يُستقنر في خلقهن وأخلاقهن.

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ مدى الأبد.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا
وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي مثل يكون بحسب المناسبة في التمثيل، سواء كان بالحقير أو بالخطيئ والآية تُشعر بأنّها توبيخ لمن استنكر ضرب الله للأمثال، ويجوز أن يكون لمنع الاعتراض على ضرب الله للمثليين المتقدمين وغيرها، وإن لم يسبق من أحد اعتراض.

ورويت في نزولها أسباب ولم تصح ولا تسلم من وجوه الشك والחדشة، ولا يخفى أنّ في ضرب المثل فوائد كبيرة في التلقين والفهم لا تحصل بدونه، فإنّه يتمثله بالمحسوسات والمعهودات والمألوفات يشتدّ تأثر النفس بها، ويستلفت الذهن إلى الإقبال على فهم الأمر الممثل له فيستحكم تأثر النفس به.

ومعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ هو أنّ ضرب المثل مع ما فيه من الحكمة واللفظ في البيان، لا يتركه الله لأجل حقارة الممثل به، أو أن الممثل له أعظم منه بكثير، وقد اقتضت المناسبة والتشبيه أن يُستعار للترك المذكور لفظ الاستحياء، الذي هو انفعال في النفس، وتَجَلُّل يمنع عن إبداء الشيء وإن تعلّق به غرض.

﴿بَعُوضَةً﴾ من هذا البعوض المستحقّر لصغره ﴿فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والجاري على الحكمة في بيان الحقيقة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ﴾ على سبيل الاستنكار والاستخفاف ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. والظاهر أنّهم يقولون: «أراد الله» على سبيل الاستهزاء بدعوى الرسول أنّ

المثل وحي مُنزل من الله، فَإِنَّ الكافرين بل والمنافقين يُنكرون الوحي المذكور، ولو اعترفوا به لما قالوا قولهم هذا.

وقد أعرض الله عن بيان ما أراد بالمثل، فَإِنَّ بيانه مقرون به، وعن ذكر فائدته، فَإِنَّ حكمته ومفراه ونتيجته واضحة لا يتجاهل فيها إِلَّا السفیه المعاند، ولكنه (جذاته) أجابهم بعاقبته السيئة بالنسبة إليهم فيها هم عليه من العناد، وبأثره الحميد بالنسبة للمؤمنين، فقال (جذاس): ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ من الناس الْمُتَكِرِينَ على المثل أو المستهزئين، أي تكون عاقبتهم في ذلك الضلال، وإن أراد الله به تفهيمهم وهدايتهم، وذلك كما قيل: فلان قتل فلاناً بحلمه، فإنه لم يُرد بحلمه إِلَّا فضيلته، ولكن صارت عاقبته أَنَّ فلان الآخر اغترَّ بجهله واجترأ على آخر فقتله، فُنُسِبَ القتل إلى فلان الأول، باعتبار أَنَّ حلمه كانت عاقبته قتل ذلك المغترَّ بسوء اختياره.

﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ وهم المؤمنون إذ يتدبرونه ويهتدون بحفاده ويعرفون حكمته.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ بالمعنى المذكور ﴿إِلَّا أَفَاسِقِينَ﴾ وهم الكافرون والمنافقون الهاتكون للحجاب، فَإِنَّ الفسق في اللغة: هو خروج الشيء من حجابه، يقال: فَسَقَتِ النمرة إذا خرجت من قشرها، ولا يضرّ بعمومه للكافرين والمنافقين كونه في الاصطلاح المتأخر مختصاً بالمسلم العامل بالمعاصي.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ
أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ ﴿٨﴾

﴿الَّذِينَ﴾ الأظهر أن ذلك بيان لصفات مطلق الفاسقين لا خصوص من يُضْلَهُمْ ضرب المثل ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ نقض البناء: هدمه، ونقض الحبل: حلّ قتله، فهو ضدّ إبرامه.

والعهد يستعمل في الوصية، نحو قوله (ص): ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾^(١) وفي الوعد المقرون بإظهار الالتزام به.

والميثاق مصدر من الوثوق، مثل الميعاد من الوعد، والميلاد من الولادة، أي يَنْقُضُونَ وصية الله لهم أو ما أعطوه الله من العهد مع توثيقه بالمؤكدات، وشبهه عهد الله في توثيقه وربطه ما بين العبد وربّه بالحبل وإبرامه، فاستعير لمخالفته لفظ النقض. والأظهر أن المراد ما عهده الله إلى الناس ووثقه، سواء كان بدلالة العقل أم بتبليغ الرسل والكتب المنزلّة، وسواء كان في التوحيد والمعرفة أم في النبوة أم في الإمامة أم في الدين والشريعة.

﴿وَيَنْقُضُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ومن ذلك صلة الأرحام، وصلة الرسول والإمام بالطاعة، كما أمر الله، وصلة قُربى الرسول بالمودة ونحوها. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في فسقهم وما ذكر من سوء أعمالهم.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ يجوز أن يكون الخطاب المتكرّر في الآية للكافرين، وتكون «كيف» لتوبيخهم على كفرهم مع ما يذكر من الحجة. ويجوز أن يكون ذلك خطاباً لجميع الناس وبياناً لأنّه لا يليق أن يختار الكفر إنسان له شعور مع قيام الحجج في نفس وجوده وأحواله على حقيقة العرفان لله.

أفيكفر بالله ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾! الواو حالية، ولا حاجة إلى إضمار «قد»، بل لا يصحّ لأنّه يستلزم أن تكون الحال جملة «وكنتم أمواتاً» وليس كذلك، لأنّها لا تفى بالحجة، بل الجملة الحالية مجموع «وكنتم أمواتاً فأحياكم» أو هو وما بعده، ولا ينتظم ذلك بمعنى واحد يكون حالاً إلا إذا جعل الجميع خبراً لأنتم محذوفة، أي وأنتم

تَعْتَوِرُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْكَافِيَةُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى وَجُودِ إِلَهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.
والمراد من كونهم أمواتاً أنهم كانوا أشیاءً فاقدةً للحياة، ومن أقرب عهودهم
بذلك أنهم كانوا نُطْفًا في الأضلاب أو كانوا في الأرحام عُلَقَةً أو مُضْغَةً أو عِظَامًا وَلَحْيًا،
ولا حياة في شيء من ذلك، فجعل فيهم الحياة، ولا يكون ذلك بلا مؤثر، ولا من لا
شيء، ولا من فاقد العلم والحكمة والإرادة، فليعتبر الإنسان بها في تركيب بدنه وأجزائه
وأوضاعها وأسباب حياته من بواهر الحكم وعجائب الصنع، ثم ليعتبر بها وهب له من
الحياة والحواس والإدراك، وقد أوضح وجه الاعتبار بذلك بالنحو العُرْفِي والعَقْلِي في
رسالة (البلاغ المبين)^(١).

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ في آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ إن كان هذا من تَمَتَّةِ الاحتجاج
فلا بد من أن يُحْمَلَ على أمر معلوم محسوس لجميع الناس، ومعناه حينئذ أنه يحيي
نوعكم بإحياء أمثالكُم من الناس، وفي هذه القدرة التامة الدائمة عبرة وَحُجَّةٌ لأولي
الألباب.

وإن لم يكن من تَمَتَّةِ الاحتجاج كما هو المناسب لقوله (قال): ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾ بل كان إخباراً بمواقع قدرته وآثار حكمته، فإنه يكون المراد يحييكم في
القبر، ويجوز أن يكون المراد يحيي بعضكم في الرحمة التي يقول بها الإمامية، ونُسبت
الحياة إلى النوع مجازاً.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، وليس رجوعهم بعد غيبتهم أو انفصالهم
عنه (جزء)، بل كما تقول للحاضر عندك: إليّ مرجعك، أي لا مهرب لك، ولا بد من
أن تُنفذ فيك حكمي وعدلي، وإن أمهلتك زماناً.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿١٦٨﴾
وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

ومن تأكيد الاحتجاج المسوق بسباق الامتنان لله والشكر، قوله (تعالى): ﴿هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ لنافعكم التي تعرفونها والتي لا تعرفونها، ومن منافعكم اعتباركم
بخلقتها ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من نبات ومياه وحيوان ومعادن، فتبصروا واعتبروا
والتفتوا إلى ما في الأرض والبحار والنبات والحيوان من مظاهر قدرة الإله وإرادته
وحكمته ورحمته.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي جهة العلو، والتعبير بالاستواء مجاز، باعتبار
توجه إرادته وحكمته إلى خلق السماوات في العلو بعد أن خلق الأرض وقدر فيها
أقواتها. في أربعة أيام ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ وفسر إيهام الضمير بقوله (تعالى): ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما خلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ كما يظهر على المخلوقات دلائل علمه وخلق
بالإرادة على مقتضى حكمته.

وذكر (جل الله) من السماوات سبعة باعتبار ما يروونه ويعرفونه في تلك العصور من
السيارات السبع، وكشف بعضها لبعض، وإن كانت السماوات في الهيئة القديمة تسعاً،
لأن فلك الثوابت والأطلس كما يزعمون سماءان أيضاً، وفي الهيئة الجديدة باعتبار
المدارات للسيارات أكثر من ذلك ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تنبيه

لا يخفى أن الحذف لما يدل عليه المقام ويرشد وجه الكلام إلى حذفه باب من
أبواب البلاغة عند العرب، وهو في تترهم وشعرهم كثير، ولنذكر له شيئاً من شعرهم
لمناسبة المقام، وتوطئة لما يأتي في بلاغة القرآن الكريم من نوع الحذف، قال لبيد بن

ربيعة العامري^(١):

قَالَتْ غَدَاةً أَتَجَنَّبُهَا^(٢) عِنْدَ حِجَازِهَا
أَنْتَ الَّذِي كُنْتُ لَوْلَا الْقَيْبُ وَالْكَبِيرُ
فَحَذَفَ خُبْرَ «كُنْتُ» أَيْ «جِيئًا» وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَغَيْرَكَ الشَّيْبَ وَالْكَبَرُ.
وَقَالَ مُسَاوِرُ بْنُ هَنْدٍ بْنُ قَيْسٍ^(٣):

زَعَنَنْتُمْ أَنْ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشُ لَمْ إِلْفَ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّافٌ
أَوْلَسْكَ أَوْمِنُوا خَوْفًا وَجُوعًا وَقَدْ جَاعَتْ بَنُو أَسَدٍ وَخَافُوا^(٤)
فَحَذَفَ تَكْذِيبَهُمْ لِدَلَالَةِ حُجَّتِهِ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَالَ عَبْدُ مَنَافِ الْهُدَلِيُّ^(٥) فِي آخِرِ قَصِيدَتِهِ:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَنَائِدِهِ سَلًا، كَمَا تَطَرَّدُ الْجَاهِلَةُ الشُّرَدَا^(٦)
فَحَذَفَ جَوَابَ إِذَا وَعَامِلُهَا لِدَلَالَةِ الْمَقَامِ وَقَوْلِهِ: «سَلًا».
وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ جِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ^(٧) فِي مَعْلَقَتِهِ:

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، من شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام، وهو أحد أصحاب المعلقة، وذكّر الشعر في الإسلام، وقول لم يقل إلا بيتاً واحداً. وتوفي في (٤١١هـ) «شرح المعلقة السبع: ١٢٤، خزنة الأدب ١: ٣٣٧ - ٣٣٩ و٤: ١٧١ - ١٧٦هـ».

(٢) التَّجَوُّ: السَّرب بين اثنين، والاسم: التجوى «لسان العرب - نجا - ١٥: ٣٠٨هـ».

(٣) هو مساور بن هند بن قيس بن زهير العيصي، أبو الصمءاء، جدّه صاحب حرب داحس والغبراء التي وقعت قبل الإسلام بنحو خمسين عاماً، وولد مساور خلالها، وعاش إلى أيام المهجاء، قيل: هو من المتقدمين في الإسلام، وتوفي نحو (٧٥هـ) «الاصابة ٦: ١٧١/٨٣٩٧، شرح ديوان المهاسنة ١: ١٦٤ و١٧٥ و٢: ١٨٦، خزنة الأدب ٤: ٥٧٣هـ».

(٤) ديوان المهاسنة ٢: ١٨٦هـ.

(٥) هو عبد مناف بن بَغِ الجُرَيْبِيّ، شاعر جاهلي من شعراء هذيل، والبيت من قصيدة ذكر قصتها البغدادي في (المغازاة) «خزنة الأدب ٣: ١٧٠ - ١٧٣هـ».

(٦) أَسْلَكُوهُمْ: أدخلوهم، والقَنَائِدُ: الشَّيْبَةُ الضَّيْقَةُ، وقيل: اسم عقبة، الشَّلُّ: الطَّرْدُ، الْجَاهِلَةُ: أصحاب الجاهل، والشُّرَدُ: جمع شُرود، وهي من الإبل التي نَفَرَ من الشيء إذا رَأَتْه، فإذا طَرَدَتْ كان أشدَّ لفرارها، ويروى «الشُّرْدَةُ بفتح السين على أنه جمع «شاردة»، «لسان العرب - شرد - ٢: ٢٣٧، خزنة الأدب ٢: ١٧٠هـ».

(٧) هو الحارث بن جِلْزَةَ بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقة، كان فخوراً بشعره حتى شُرِبَ به المثل، معلقة مرثلة بين يدي عمرو بن هند ملك الحيرة،

لَا تَحْتَلُّنَا عَلَى غَرَائِكَ أَنَا قَبْلَ مَا قَدْ وَشَىٰ بِنَا الْأَعْدَاءُ^(١)
 فحذف المفعول الثاني وهو «نهاب الملك، أو نبالي به» ونحو ذلك، أو حذف خبر
 «أنا» بهذا المعنى، أو كليهما: فحذف المفعول الثاني بالمعنى المتقدم، وخبر «أنا» بما يريد
 أن يتصوره السامع من التهويل بالتحمس.

وقال آخر:

إِذَا قِيلَ سِيرُوا إِنَّ نَيْلِي لَسَلْهَا جَرَىٰ دُونَ لَيْلِي مَائِلُ الْقَرْنِ أُعْصِبُ^(٢)
 فحذف خبر «لعل» لنكتة أثرها فيها يتمناه من ليل.

وقال عبيد بن الأبرص^(٣) يخاطب امرأ القيس:

نَحْنُ الْأُولَىٰ فَاجْمَعْ جُوءَ عَكَ تَمَّ وَجْهَهُم إِلَيْنَا
 فحذف الصلة ليحضر في ذهن السامع ما يريده الشاعر من وجوه الحماسة
 والتهويل.

وقد جمعنا في هذه المقدمة بعض الشواهد للحذف وأغراضه السامية، لنحيل
 عليه في الاستشهاد لما يأتي من فرائد القرآن الكريم في وجوه البلاغة وبراعة البيان.
 هذا وقد استفاضت الرواية عن أهل البيت (عليهم السلام) في أنه كان قبل آدم في
 الأرض نوع من الخلق، قد أفسدوا وأهلكوا^(٤)، كما في رواية علي بن إبراهيم في

→ توتّي نحو (٥٠ق.هـ)، «شرح المعلقات السبع: ٢١٥، خزنة الأدب ١: ١٥٨».

(١) قال الزوزني في شرحه: يقول: لا نظننا متذللين متخاضعين لأغرائك الملك بنا، فقد وشى بنا أعدائنا إلى الملوك
 فيلك، وتحير المعنى: أن أغرائك الملك بنا لا يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه، قوله: على غرائك، أي
 على امتداد غرائك، والمفعول الثاني لنحلتنا محذوف تقديره: لا تحلتنا متخاضعين، وما أشبه ذلك «شرح المعلقات
 السبع: ٢٢٢».

(٢) مفتي الليب ٢: ٨٢٦، والأعصب: المكسور القَرْن الداخل، وقد يكون القُصْب في الأذن أيضاً.

(٣) هو عبيد بن الأبرص بن غَوْف بن جُثَم الأسدي، من مُضَر، أبو زياد، شاعر، من دهاة الجاهلية وحكائها، وهو
 أحد أصحاب (الجمهرات) المدونة طبقة ثانية عن المعلقات، عاصر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات،
 وعمر طويلاً حتى قُتلته النعمان بن المنذر حين وفد عليه في يوم بؤسه، وذلك نحو (٢٥ق.هـ) «الأغاني ٩٩: ٨٤،
 خزنة الأدب ١: ٣٢٣، أعلام الزركلي ٤: ١٨٨».

(٤) تفسير العياشي ١: ٧/٣٠، ٨، مشارق أنوار اليقين: ٤١.

(تفسيره) في الصحيح عن أبي عبدالله (عليه السلام)، والقوي عن الباقر، عن آياته، عن أمير المؤمنين (عليهم السلام)^(١).

ورواه الصدوق أيضاً في (العلل)^(٢)

ورواية تفسير (البرهان) عن (العبّاسي) عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام)^(٣).

(والعبّاسي) عن علي بن الحسين، وعن عيسى بن حمزة، عن أبي عبدالله (عليه السلام)^(٤).

وروى ذلك الحاكم في (مستدرّكه) من طريق الجمهور وصحّحه، عن ابن عباس^(٥).

وأخرجه الطبري في تفسيره أيضاً^(٦).

ولما ذكر الله خلقه للأرض وما فيها لينتفع الإنسان بذلك، وذكر خلق السماوات، ذكر ابتداء خلقه للإنسان، وما جرى في ذلك من الشؤون، وما في خلق الإنسان من الحكمة والكرامة لبعض أفراد ذوي الفضل، فقال (عز وجل): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

إذ: ظرف، وعامله محذوف يفسره قوله (عالي): ﴿قَالُوا﴾ إلى آخر القصص، كما يأتي إن شاء الله. وجاعل: خالق من أجعله خليفة. والخليفة: من يخلف غيره، ويجوز أن يكون المراد من يخلف الخلق السابق المذكور في الروايات المشار إليها.

وقيل: إن «إذ» مفعول به، أي أذكر في القرآن ذلك الحين للناس، كقوله (عالي): ﴿وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرَّةً إِذْ أَنْتَبَذْتُ﴾^(٧) ولكن يلزم من هذا القول أن يكون الذكر

(١) تفسير القمي ١: ٣٦.

(٢) علل الشرائع: ١/١٠٤.

(٣) تفسير العبّاسي ١: ٤/٢٩، عنه البرهان ١: ٣/٧٤.

(٤) تفسير العبّاسي ١: ٧/٣٠ و ٨/٣١.

(٥) المستدرّك ٢: ٢٦١.

(٦) تفسير الطبري ١: ١٥٨.

(٧) مريم ١٩: ١٦.

مختصاً بقول الله تعالى: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** ويكون ما بعده أجنبياً، لأنه لم يُفَرَّغ عليه ليكون مرتبطاً به، كالارتباط الذي في قوله تعالى: **﴿فَأَنجَايَهَا الْمَخَاضُ﴾** ^(١) إلى آخره.

فالمناسب إذن هو أن تكون «إذ» ظرفاً متعلقاً بمحذوف يدل عليه سَوَى الكلام الذي يفسره، وذلك بأن يكون التقدير: **وحين قال ربك للملائكة: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**، جرت في ذلك محاورات وشؤون، يفسرها قوله تعالى: **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** قالوا ذلك حيث قد رأوا المخلوق السابق وإفسادهم وسفكهم للدماء، كما دلَّت عليه الروايات المشار إليها.

وروى العياشي، بسنده عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله (عليه السلام): ما علم الملائكة بقولهم: **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**؛ لولا أنهم قد رأوا فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ^(٢).

ولا يلزم أن يكون قولهم هذا اعتراضاً وذنباً منهم، بل قالوا ذلك لأن الله أخبرهم في هذا الخطاب بأن الخليفة هو بشر من طين كما في قوله تعالى: في سورة ص المكية: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾** ^(٣) فعرفوا من بشريته أنه ذو شهوة وغضب، وقد عهدوا من حال السابقين أن الشهوة والغضب ينشأ منها الفساد وسفك الدماء، ولأجل بغضهم للفساد ومعصية الله سألوا عن الحكمة في خلق هذا الخليفة مع أنه في الشهوة والغضب مثل السابقين الذين طهرت الأرض من فسادهم.

﴿وَنَحْنُ﴾ من لطفك في خلقنا بلا شهوة ولا غضب أنا دائماً **﴿نُسَبِّحُ﴾** والتسبيح **﴿بِحَمْدِكَ وَتَقْدِيرِكَ﴾** والتقديس **﴿لَكَ﴾** فإن شئت عُمران الأرض بصلاح عبادتك فاجعلنا فيها.

ولكن مع ذلك كان الأولى بهم أن لا يصدر منهم هذا السؤال في هذا المقام، وإن

(١) مريم: ٢٣.

(٢) تفسير العياشي: ١/٢٩٤.

(٣) الآية: ٧٦.

كان سؤالهم للتعلّم بل يفوضوا الأمر إلى الله وحكمته وعلمه بها هو الصالح.
﴿قَالَ﴾ الله لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَإِن في ذلك حكمة شريفة، وأطفاً خفياً، إذ يكون من البشر أنبياء ورسل وأئمة فيهم شهوة وغضب وهم مع ذلك في أعلى درجات الطهارة والعصمة الاختيارية، والطاعة والعبادة لله، والتفاني في هداية الناس وإصلاحهم.

وفياً أشرنا إليه في (تفسير القمي) و(علل الصدوق) عن أمير المؤمنين (عليه السلام): ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يكون حُجَّةً لي على خلقي. وفيه أيضاً: أجعل من ذريته أنبياء وعبيداً صالحين وأئمة مهديين، وأجعلهم خُلَفَاءَ، الحديث^(١).

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء هؤلاء الهداة، روى الصدوق بسندين معتبرين، عن الصادق عليه السلام: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ حُجَجِهِ كُلَّهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ وَهَمَ أَرْوَاحَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ^(١).

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهم أرواح طاهرة وأنوار قدسية، نُضِيءَ بالهدى والطهارة والعصمة الاختيارية ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ليعرفوا فضلهم الفائق، ويظهر لهم شيء من وجه الحكمة في خلق الله للبشر، وعلمه بالذين تُشرق الأرض بنورهم، وتقوم بهم الحجة على الملائكة ﴿فَقَالَ﴾ الله بعد أن عرضهم وعرف الملائكة حالهم من الفضل: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ الذين عرفتم فضلهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى العلم حتى قلتم قولكم ذلك.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ في أعمالك.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ الله للملائكة ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ فيها علمتكم من جلال الإلهية، أو في معنى القول السابق: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفوق ذلك أني أعلم ما في الضائر ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يدل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا كَتَمْتُمُوهُ الْمَلَائِكَةَ..

هذا، وقيل في هذه الآيات: إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ آدَمَ اسْمَ الصَّفْحَةِ وَالْقَدَرِ، وَكُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الْبَعِيرِ وَالْبَقَرِ وَالشَّاةِ.

وقيل: أسماء الأدوية والنبات والشجر والجبال ونحو ذلك.

ولكن هذا كله ليس فيه مناسبة لسؤال الملائكة، ولا للاحتجاج عليهم بالعلم بمواقع الحكمة في خلق الخليقة، بل ليس فيه جواب لسؤال أصلاً، مع أَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، ﴿هَؤُلَاءِ﴾، ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فَإِنَّ الْإِشَارَةَ وَهَذِهِ الضَّائِرَ مَخْتَصَّةٌ بِمَنْ يَعْقِلُ، ودعوى أَنَّ اللَّهَ غَلَبَ مِنْ يَعْقِلُ عَلَى سَائِرِ الْأَشْيَاءِ مَا هِيَ إِلَّا بِمَجَازَفَةٍ.

مضافاً إلى أن الله قال: ﴿الْأَنْشَاءَ كُلَّهَا﴾ ليظهر فضل العلم بهذا العموم خصوصاً على ما قيل، فلا يناسب أن يؤتى بلفظ مختص في اللغة بالعاقِلين على خلاف العموم لما ذكره، ولا ينطبق على ما يدعى من العموم لكل الأشياء إلا بعد التي واللتيا من دعوى التقلب الذي لا قرينة عليه في اللفظ، ولا في سياق الكلام، وليس هو كالتقلب في قوله (صار): ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الظاهر أن «إذ» هنا كسابقتها في المعنى والعامل، وأن قوله (صار) «فَسَجَدُوا» - إلى قوله (صار) - «يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ»^(٢) يكون تفسيراً وتفسيراً لما حدث في ذلك الحين، والأمر للملائكة بالسجود شامل لإبليس لاندماجه حينئذ في زميرهم وإن كان في الأصل من الجن، وقد علم إبليس بشمول الأمر له، ولذا لم يعتذر بأن الأمر لم يكن شاملاً له، بل التجأ في استكباره إلى القياس. والسجود يجوز أن يكون لآدم ابتداءً بعنوان التكريم لا العباد، فإن السجود الذي يختص بالله ويمنع العقل والشرع أن يؤتى به لغيره، إنما هو ما كان بعنوان العباد والخضوع بعنوان الإلهية، ويجوز أن يكون لله شكراً على خلقه لآدم وما له وليعض ذريته من الفضل، ومن ذلك يحصل لآدم نوع من التكريم والتعظيم، وبهذا الاعتبار قال الله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ والوجه الأول أظهر من اللفظ، وإن ثبت في شرعنا تحريم مطلق السجود لغير الله، فلم يثبت المنع منه حتى في ذلك الحين.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ عن السجود ﴿وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ يقال لامرأة الرجل: زوج وزوجة، والآخر هو اللغة العالية وبها جاء القرآن، والجنة: اسم للبهستان. وروى الكليني وابن بابويه مُسْنَدًا، والقُصِي مرفوعاً عن أبي عبد الله (عليه السلام):

(١) النور ٢٤: ٤٥.

(٢) البقرة ٢: ٣٤ - ٤٠.

أَنَّ جَنَّةَ آدَمَ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، تَطْلُعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ جَنَّاتِ الْآخِرَةِ أَوْ الْخُلْدِ لَمَا أُخْرِجَ مِنْهَا^(١). انتهى. وهذا لا يستلزم كونها في الأرض.

﴿وَكُلًّا مِّنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ الأمر بالأكل كالأمر بالسكوت في الجنة إنما هو للإباحة والإنعام، والرَّغَدُ: صفة للمصدر، أي أَكَلًا رَغَدًا رَافِهُاً ليس فيه عناء، وكلا من أي مكان شئتما مما يُؤْكَلُ منه بلا حَجَرٍ ولا نهي إرشادي.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لا يخفى من دلالة المقام والنظائر ورواية العياشي عن الباقر عليه السلام أَنَّ المراد هنا هو عدم الأكل منها لا مُطْلَقُ الْقُرْبِ^(٢)، ولكن صدر النهي بصورة النهي عن الْقُرْبِ لأجل بيان التحذّر من الأكل منها كقوله (سار): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾^(٣) و﴿وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(٤) ولم يصح ما روي في حقيقة الشجرة، والنهي هاهنا للإرشاد لا للتحريم، بدليل قوله (سار) في بيان الحال في سورة طه المكية: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُفْرِجَنَّكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٥) أي تقع في شقاء العيش ومَشَقَّتِهِ، ويؤكد دلالة السياق على ذلك أَنَّهُ نَسَبُ الشَّقَاءِ إِلَى آدَمَ دُونَ زَوْجَتِهِ، نظرًا إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ فِي الْأَرْضِ فِي أَنَّ الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي يَتَعَبُ فِي تَحْصِيلِ الْمَعِيشَةِ وَالْمَرْأَةُ عِيَالٌ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا﴾^(٦) أي في الجنة ﴿وَلَا تَعْرِى﴾ • وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(٧) ولا تحتاج لأن تتعب ففكرك وبدنك في تحصيل المأكول والملبوس والمشروب، والشيء الذي يظلك من حرارة الشمس.

فلم يرتب على إخراج إبليس لها إثم مصيبة وفسق خروج عن الطاعة، ولا حذر من ذلك كما يقتضيه اللطف، فالنهي لمحض الإرشاد إلى أن لا يقع في ورطة

(١) تفسير القمي ٩: ٤٣، الكافي ٣: ٢٤٧، علل الشرائع: ٥٥/٦٠٠.

(٢) تفسير العياشي ١: ٢٠/٣٥.

(٣) الانعام ٦: ١٥٢.

(٤) النساء ٤: ٤٣.

(٥) الآية: ١١٧.

(٦) طه ٢٠: ١١٨.

(٧) طه ٢٠: ١١٨ و ١١٩.

الأكل المستتبع بحسب الحكمة للخروج من نعيم الجنة إلى شقاء عيش الأرض وتعبه، وإن مخالفة النهي الإرشادي تسمى أيضاً معصية، وما كل معصية تساوي الذنب والإثم.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسكما بالخروج من النعيم إلى التعب، ومثل هذا الظلم لا يستوجب ذمًّا ولا يعدُّ ذنباً، والظلم في اللغة يساق وضع الشيء في غير محله، وضدَّ الإنصاف أو العدل، ومنه الحديث: لزموا الطريق فلم يظلموه، أي لم يعدلوا عنه^(١).

ولقد أغرب^(٢) من قال: إن الظلم اسم ذم لا يجوز أن يطلق على غير المستحقِّ للذن، لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أفلا يدري أن الآية المذكورة وردت في سورة الأعراف (٤٤)^(٣) وسورة هود (١٨) في الظالمين الذين يصّدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، وهم بالآخرة كافرون؟

فَازِلْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَعَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ
هُدَايَ فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿فَازِلْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ زَلَّتْ قدمه ورجله: لم تثبت في مكانها، وتحولت عنه،

(١) «لسان العرب - ظلم - ١٢: ٣٧٣».

(٢) أغرب: ابتعد، أو أتى بشيء غريب «أقرب الموارد - غرب - ٢: ٨٦٤».

(٣) وفيها: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وكذا الإنسان، وأزله: حمله أو ألجأه إلى الزلّة والزلزل، فأزلهما الشيطان بوسوسته وغوايته ومضادّعه باليمين الكاذبة عن الوصية المدلول عليها بقوله (قال): ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١) أو أزلهما عن الجنة ولم يتركهما ثابتين فيها، وقد رويت في كيفية وصوله إليهما بالوسوسة والمخاطبة بالإغواء روايات لم تصح. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ صار بإغوائه لهما سبباً لخروجهما من حيث تبدّل المصلحة في إسكانها الجنة، فنسب الإخراج إليه على سبيل المجاز في الإسناد ﴿عَمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم واللباس والعيش الرغيد.

﴿وَقُلْنَا أَقْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس، وإذا كان إبليس هابطاً إلى الأرض قبل ذلك جاز هذا الخطاب بمعنى تساوا في الهبوط منها ﴿بِعَصْنِكُمْ﴾ إبليس وآدم وحواء أو ذريتهما ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٍّ﴾ وعداوة البشر لإبليس باعتبار النوع، وإن أطاعه بعض الناس.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ اسم مكان أي موضع استقرار، ومصدر والاستقرار معروف ﴿وَمَتَاعٌ﴾ اسم لما ينتفع به ﴿إِنِّي حَقِيقٌ﴾ محدد لكلّ بموته، حتى إبليس عند الصّعقة الأخيرة قريب القيامة والبعث.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ التلقي هنا أخذ آدم للكلمات من الله باستقبال وقبول وتعلم وعمل، ومقتضى السياق هو أن آدم ندم على مخالفة الله في أمره الإرشادي، وأراد التوبة والرجوع إلى مقام الأولياء المتبعين لإرشاد الله في العمل والترك، وصار يحاول الوسائل التي يتوب الله بها عليه، فيعلمه الله كلمات توقّفه في مقام المنبيين، وتعرفه فضيلة ذوي الفضل.

وقد روي من طرق الفريقين أنه نحو من الدعاء^(٢)، وفي (الدر المنثور) ممّا أخرجه الدّيلمي في (الفردوس) مسنداً عن عليّ عليه السلام، دعاء فيه: اللهم إني أسألك بحقّ محمد وآل محمد، مكرراً^(٣).

(١) طه ٣٠: ١١٧.

(٢) تفسير المصباح ١: ٤٦/٢٥ و٢٦، تفسير الطبري ١: ٩٩٣، تفسير التعلوي ١: ٥٣، الدر المنثور ١: ١٤٥.

(٣) فردوس الأخبار ٣: ٤٤٠٩/١٥١، الدر المنثور ١: ١٤٧.

ومَّا أخرجهُ ابن النِّجَّار والبيهقي مسنداً عن ابن عباس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): سألتُهُ عن الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربِّهِ.

قال: سألَ بحقَّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وفاطمةَ والحسنَ والحسينَ (عليهم السلام) فتأبَّ عليه^(١). وروى من طريق الإمامية نحو ذلك، كما رواه الكليني والصدوق عن ابن عباس مرفوعاً^(٢)، والعياشي نحوه عن عبد الرحمن بن كثير، عن الصادق (عليه السلام)^(٣)، وعنه أيضاً مُرسلاً^(٤). ولا منافاة بين روايات الدعاء وروايات الاستشفاع بأهل البيت لجواز الجمع بينهما.

﴿فَتَأَبَّ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة ولطف الإرشاد وقرب المنزلة والزُّلْفَى ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ولأجل الاختصار لم تُذكر هنا توبة حواء، ولأنَّها معلومة مذكورة في سورة الأعراف المكيَّة (٢٣/٥).

﴿قُلْنَا أَقْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ كرَّر ذكر الأمر بالهبوط لأجل أن يذكر ما كان مرتبطاً به من الكلام، كما تدلُّ على ذلك سورة طه المكيَّة (١٢٢ و ١٢٣)^(٥) فقد جمع فيها ما بعد الأمرين بالهبوط هنا بعد أمر واحد، وجميعاً يراد منه أيضاً ذرية آدم باعتبار هبوط أبويهم.

﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مَنَىٰ هُدًى﴾ إمَّا: شرطية، والهُدَى: الرسالة والآيات ودلائل الحق.

﴿فَمَن يَبْتَغِ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وهذه الجملة جواب للشرط في ﴿إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

(١) الدر المنثور ١: ١٤٧.

(٢) الكافي ٨: ٣٠٥، معاني الأخبار: ١/١٢٥ و ٢.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٧/٤٦.

(٤) تفسير البرهان ٩: ١٧/٨٩.

(٥) قوله (س): ﴿فَلَا رَيْبَ لَنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(٦) قوله (س): ﴿وَمِمَّا أَجْتَبَاهُ رَبِّي قَبَابٌ عَلَيْهِ وَهُدًى﴾ قال أقبَطاً مِنِّهَا جَمِيعاً تَضَعُكُمْ بِمَقْصُودٍ عَدُوٌّ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مَنَىٰ هُدًى فَمَن ابْتَغَىٰ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ يٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازِهُبُونِ ﴿٣٧﴾ وَءَامِنُوا
 بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا
 تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَلْسِسُوا
 الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ خَشْيَةً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿وَالَّذِينَ﴾ لا يتبعون الهدى بل ﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ خطاب للموجودين منهم عند النزول، وإسرائيل: لقب
 يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، معرب «يسرائيل» في العبرانية.
 وروى أن معناه: عبد الله، أو قوة الله^(١).

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ فيها خص الله به آباءهم من التوفيق
 للتوحيد الموروث من إبراهيم وإرساله موسى والأنبياء منهم، ونجاتهم من فرعون
 وقومه، وظهور الآيات لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، وتوريثهم الأرض المقدسة
 وإهلاك أعدائهم وغير ذلك، وهذا النهج متعارف في الخطاب بأن يخاطب الموجودين
 من القبيلة والأمة بأسور أسلانتهم، لاسيما ما يعود أمره في الفخر والوَبال على
 الموجودين، وشواهد في النثر والنظم من العرب وغيرهم كثيرة جداً.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قد قطع الله العهد مع بني إسرائيل على العمل بما في التوراة من توحيده وعبادته، واتباع دين الحق، والعمل بالشرعية، واتباع النبي الذي يقيم الله لهم من إخوانهم بني إسرائيل، ويجعل كلامه في فمه، وأن يسمعوا له ويطيعوا. ومهما حُرِّفَت التوراة فقد بقي هذا العهد فيها، وإن قراءة اليهود لها والالتزام بها في جميع أجيالهم التزام بهذا العهد، وكذا المخاطبين بالآية من اليهود المعاصرين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من اللطف والتوفيق والتسديد وثواب الآخرة، ويؤخذ من الآية قاعدة كلية، وهي أن من لم يَفِ بعهد الله فيها أخذه من الدين والشرعية فهو بنفسه قد نقض عهد الله معه، وخرج عن كونه أهلاً لما وعد به من اللطف والرحمة واستجابة الدعاء، وعلى ذلك جاءت صحيحة القمي، عن جميل، عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في استجابة الدعاء^(١).

ومن عهود الله ومصاديق هذه القاعدة كما في (الكافي) في مُؤَقَّة سَاعَةٍ، عن الصادق (عليه السلام)، ورواية ابن بابويه عن ابن عباس: هو ما عقد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأُمير المؤمنين (عليه السلام) في غدير خُم، كما تواتر به الحديث بين المسلمين^(٢).

﴿وَأَيُّيَ قَارِهِيُونِ﴾ الرهبة: الخوف، والتقدير وإيائي ارهبوا، أي ولتكن رهبتكم مُنَحْصِرَةً بي، ولا يحملكم على نقض عهدي رهبةً من شيء، فارهبوني ولا تنقضوا عهدي، وحُذِفَت كلمة «ارهبوا» لدلالة «فارهبوني».

﴿وَمَا آمَنُوا بِهَا أَنزَلْتُ﴾ أي القرآن الذي أنزلته على رسولي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو النبي الذي وعدكم به الله وموسى، وأخذ الله عهدكم

(١) تفسير القمي ٩: ٤٦.

(٢) قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) في خطبة الغدير: «من كنت مولاً، فعلي مولاً، اللهم والي من والاه، وعاد من عاداه، وأخذل من خذله وانصر من نصره» وقد رواه أكثر من مائة راوٍ جُلُّهم من الثقات عند الفريقين، أنظر الكافي: ١/٢٥٧، ٨٩١/مناقب الأخبار: ١/٣٧٢، مسند أحمد: ٣٦٨، صحيح الترمذي: ٥/١٣٣/٢٧١٢، مصابيح السنة: ٤/١٧٢/٤٧٦٧.

أَتَيْنَاهُ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وبقي عندكم حتى في توراتكم المحرفة، وهو أن الله يجعل كلامه في فهم ذلك النبي، وقد دلّكم إعجاز القرآن على أنه كلام الله، أو مصدقاً لما معكم من الإيمان بالله واسم توحيده والاعتقاد بالنبوات ورسالة موسى وآياته، ولا يصحّ أن يقال: إنه مصدق لما معهم من التوراة، فإنّ ما معهم من التوراة محزّف بأشدّ التحريف المُشتمل على الكُفر والخُرافات، والقرآن صريح في مخالفتها في ذلك، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في الفصل الأوّل من المقدّمة في إعجاز القرآن من وجهة التاريخ.

﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ﴾ ﴿تَكُونُوا﴾ مع عهد توراتكم بالنبي، وجعل الله كلامه في فهمه ومع دلالة الوجوه المتعدّدة في إعجاز القرآن ﴿أَوَّلُ كَافِرٍ بِهِ﴾ أوّل من يعدّ من الكافرين به، وذلك لتفاحش كفرهم بعد قيام الحجّة عليكم من وجوه عديدة، يقال لكثير الكذب وشديد الفُسق: أوّل كاذب، وأوّل فاسق، أي أوّل من يعدّ من الكاذبين ومن الفاسقين.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ مع وضوح الحجّة عليكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن يشتره الإنسان في معاملته، كما أنّ الآخر يشتري السلعة، واستعير لاستبدالهم آيات الله بأهوائهم لفظ الشراء، لما فيه من استبدال شيء بشيء، كما قال أبو ذؤيب الهذلي^(١):

وَأَنْ تَرْعَمَنِي كُنْتُ أَجْهَلُ فَيْكُمْ فَإِنِّي شَرَيْتُ الْخَلْمَ بِعَدَكِ بِالْجَهْلِ^(٢)
والثمن القليل الحقير: هو خوفهم من أكابره، أو حرصهم على جامعهم
الإسرائيليّة أو حسدهم للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وغير ذلك من أباطيل الأهواء.

﴿وَإِيَّايَ﴾ اتقوا، أو احذروا نكالي وعذابي للكافرين المعاندين للحقّ

(١) هو خويلد بن خالد بن محمّد، شاعر فعل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفنوح، فشهد فتح إفريقية، ومات في مصر نحو (٢٧٧هـ) «طبقات الشعراء للّجّمي: ٢٩، ٤٢، الأغاني: ٦، ٥٦، الإصابة: ٧/٣٢٨، شرح شواهد المفني: ٢٩/٣٦، خزنة الأدب: ١/٢٠٣، ٢/٣٢٠، ٣/٥٩٧، ٤/٦٤٧.

(٢) كتاب سيبويه: ١/٩٨/٧٨، مغني اللبيب: ٢/٥٤٣/٧٦٨، شرح ابن عقيل: ١/٤٢٣/١٢٣.

بأهوانهم.

﴿فَاتَّقُوا﴾ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴿ وَلَا تَجْمَلُوا عَلَى الْحَقِّ الْمَعْرُوفِ لِبَاسِ
الْبَاطِلِ تَرْجَاءً لِبَاطِلِكُمْ ﴾ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ به، فأسلموا وفاءً بمعهد الله
وعملًا بالحق الذي تعلمون به ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ
الرَّاكِعِينَ ﴿ من المسلمين.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلْقَاوَرِيهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٨﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا
نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ من الصدق واتباع الحق وطاعة الله ﴿وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فَإِنَّ فِيهِ بَقِيَّةً من وصايا التوراة الحقيقية في الإرشاد
والتعليم باتباع الحق والعمل بالعلم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كيف لا يقبح من الإنسان أن
يترك عمل البر الذي يعلم به.

﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على ما يُراد منكم مما فيه سعادتهم في الدين والدنيا، وتوصلوا
إليه بالأسباب المروضة للنفس والموجهة لكم إلى الله في استعانته وطلب توفيقه
وتسديده ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الوفاء بمعهد الله والإيمان برسوله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما

أنزل إليه، وعلى طاعة الله في أوامره ونواهيه، وعلى مخالفة النفس الأمارة، وعلى مكافحة الكفر والضلال بنصر الدين ونشر الهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى نوائب الدنيا بالتسليم لأمر الله.

فإن الصبر في الآية الكريمة مُطلق، وأثره في جميع ما ذكرناه جليّ محمود، كما يدلّ عليه ما جاء في الكتاب والسُّنة في فضل الصبر، وفي بعض رواياتنا المعتبرة تفسير الصبر بالصوم^(١)، وذلك باعتبار كونه أحد المصاديق وله الأثر الكبير في ترويض النفس وتربيتها على الصبر وتصفيتها وتوجيهها إلى الله.

﴿وَالصَّلَاةَ﴾ فإن أقوالها وأحوالها تُعلّم بكلّ وجهة من تهذيب الأخلاق، وإن الإتيان بها بحقيقتها والتدبّر لمضامين آياتها وأذكارها، يهدي إلى كلّ خير، وهي باب الله في مناجاته والاستعانة به.

﴿وَأَنبَأَهَا لَكَبِيرَةً﴾ على نوع الناس، يرونها حملاً كبيراً يثقل عليهم، فيقوم إليها من يقوم على كسلٍ وتناقلٍ ﴿إِلَّا عَلَى الْفَاحِشِينَ﴾ الخُشوع فوق الخُضوع، لا يقبل التصنع، فيه نوع من الانكسار يظهر على الإنسان وعلى القلب وعلى البصر وعلى الصوت، كما جاء في القرآن الكريم، أي إلّا على الذين شعارهم الخُشوع من خوف الله، كأنهم أشرَفوا على الموت والمعاد والحساب، فخشعوا لذلك واستعدّوا للزاد وطلّب المغفرة ومناجاة الحقّ رغبةً ورهبةً ودُعَاءً وثناءً، لم يقلّ بهم طول الأمل لبروا الموت بعيداً فيطمئنّوا بالحياة ويسوّفوا الأعمال الصالحة والاستعداد للآخرة، بل غلبوا الأمل، وقرّبوا الموت إلى ظنّهم، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لهُم في صفة المتّقين: تراه قريباً أمله^(٢)، أي يرى آثار ذلك عليه، وحالهم كما قال الحسن (عليه السلام) في وصيّته لجُنّادة: واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً^(٣).

﴿الَّذِينَ﴾ نظروا إلى الدنيا وفنائها بعين البصيرة، واشتاقوا إلى نعيم الآخرة، فهم ﴿يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ ومستوفو أجالهم في ساعتهم، وما يقرب منها

(١) تفسير العياشي ١: ٤٣/٤٠.

(٢) نهج البلاغة: ٣٠٥/١٩٣.

(٣) كفاية الأثر: ٢٢٨.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ عن قريب ﴿إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ رجوع جزاء واستسلام.
 ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وقد مر شيء من بيان ذلك في الآية الثامنة والثلاثين، وكرر هنا تأكيداً في استلفاتهم إلى النعم، وإقامة للحجة بها عليهم.

﴿وَذُكِّرُوا﴾ اذكروا ﴿أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ بها ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمان أسلافكم.
 ﴿وَاتَّقُوا﴾ يوم القيامة، يوم الحساب والنكال ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تقضي ولا تؤذي مما عليها شيئاً، من جزى الدين: إذا قضاه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ من النفس الأولى ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من حيث إنها نفس لها نحو صلة بالمشفوع له.
 وقد تقدّم في تفسير سورة الفاتحة ما يدل من القرآن الكريم على تحقق الشفاعة بإذن الله - سبحانه، وأجمع المسلمون على أن لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شفاعة مقبولة، وإن جازفت المعتزلة بدعوى اختصاصها بمنافع المؤمنين، وأجمعت الإمامية على ثبوت الشفاعة للنبي الكريم وأهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين وصالحى المؤمنين، وبذلك جاءت أحاديث الفريقين^(١).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ من النفس الثانية ﴿عَذْلٌ﴾ عذْل الشيء بالفتح: ما يقوم مقامه من غير جنسه، بمعنى ولا يُقبل منها فداء معادل، واحتُمِلَ عود الضمير هنا إلى النفس الأولى أيضاً، بمعنى لا تُقبل شفاعتها ولا يُؤخذ منها فداء للنفس الثانية، والأول أظهر وأنسب بالاستقصاء، وأبعد عما يعود إلى التكرار المعنى لا تجزي.
 ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي أهل ذلك اليوم المدلول عليه بتعدد النفوس ليس لهم ناصر على الله وحسابه وعذابه، وناهيك بالتهديد بذلك اليوم ما ذكر فيه، فليتقّه ذوو الشعور.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ

مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿٤٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حال كونهم ﴿يَسُوءُونَكُمْ﴾ قريب من معنى يولونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَأَلَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ يُعْرَى الْخَسْفَ فِينَا^(١)
﴿يَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي يكثر ويعم ذبحهم لهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي
البنات اللاتي يولدن لكم، ولا يذبحونهن كالأبناء، فكأنهم بتركهن طلبوا حياتهن،
وسميت نساء باعتبار بقائهن نوعاً إلى زمان الكبر ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ نسب البلاء إلى الله باعتبار قدره وقدرته على رفعه وإملائه لآل فرعون.

﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ فصلنا البحر بعضه من بعض، ومن
قوله (عالي) في سورة الشعراء: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٢) يعرف أن أفراده
كانت متعددة، وطُرُق بني إسرائيل فيها بينها متعددة ﴿فَرَقْنَا بِكُمْ﴾ أي أنتم الفاصل
والفارق ما بين أجزائه في عبوركم فيه على اليابسة، وهذا أوضح في المعجز، وأوضح في
خَرْقِ العادة.

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من مُضايقة فرعون وجنوده ومن البحر ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ
فِرْعَوْنَ﴾ حين أتبعوكم في البحر ﴿وَأَنْتُمْ﴾ خارج البحر ﴿تَنْظُرُونَ﴾ إلى غرقهم.

(١) شرح المعلقات السبع: ٨٨٩، وفيه: أبينا أن نقرّ الذلّ فيها.

(٢) الآية: ٦٣.

والبحر: هو خليج السُّوَيْس من البحر الأحمر، وعرضه بحسب اختلاف مواقفه من نحو عشرة أميال إلى نحو عشرين ميلاً، واقتصر هنا في ذكر الفرق على آل فرعون باعتبار الامتنان بالنجاة من جيشهم بفرقه. وفي ذكر فرعون وعُتُوّه والانتقام منه، قال الله في سورة الإسراء: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾^(١).

﴿وَرِإْذْ وَاعْظِنَا مُوسَىٰ أَنْ يَحِينَ لَيْلَةً﴾ باعتبار مجموع الوعدين: الوعد الأول: وهو ثلاثون ليلةً، والثاني: وهو إقامتها بعشر، كما في سورة الأعراف (١٤٢)^(٢). ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ لها، كما في سورة طه المكية: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾^(٣) ولم نجد صراحةً يعول عليها في أن الذين عبدوا العجل هم كل بني إسرائيل الموجودين حينئذٍ ما عدا هارون أو بعضهم، لأن سوق الخطاب هنا وفي سورة النساء إنما هو باعتبار البعض من بني إسرائيل، فيجوز أن يكون باعتبار البعض من جيش موسى.

نعم في سورتي الأعراف وطه نسب اتخاذ العجل وإضلال السامري إلى قوم موسى^(٤)، ولكن يجوز أن يكون ذلك با اعتبار البعض الكثير، نعم ربما يُستظهر أنهم البعض من قول هارون، كما في سورة طه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٥) ولكن نزاحم الاحتمالات في مراده من التفريق يُزاحم ذلك الاستظهار، وغرض القرآن الكريم من قصصه إنما هو التذكير والموعظة، ولا يهيمه تاريخيتها لكي ينص على الكل أو البعض.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد أن غاب عنكم موسى في ميّاد ربه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

(١) الآية: ١٠٣.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَرِإْذْ وَاعْظِنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَقَامْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ بِمَقَاتِ رَبِّهِ أَنْ يَحِينَ لَيْلَةً﴾.

(٣) الآية: ٨٨.

(٤) الأعراف ٧: ١٤٨ قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُلُودِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خِرَافٌ وَطَهُ ٢٠: ٩٢ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾.

(٥) الآية: ٩٤.

لأنفسكم وللعقولكم وللحقائق.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ما وقعت عبادة العجل، والسياق في خطاب بني إسرائيل بأحوال بعضهم لا يترك في الآية ظهوراً في العفو عمن عبد العجل، ويجوز أن يكون حينئذ من لم يعبد العجل، ولكنهم تخاذلوا ولم ينصروا هارون بالنهي عن هذا المنكر العظيم فعفا عنهم بتوبتهم كما في الآية الآتية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جيء بلمل عوضاً عن لام الغاية للوجه الذي سنذكره إن شاء الله في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَهْتَدُوا إِلَيْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُبُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ ترتيب القصة يقضي أنها الألواح التي جاء فيها في سورة الأعراف: ﴿وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُّوعِظَةً

وَنَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ»^(١) و: ﴿أَخَذَ الْآلُوزَاجَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً»^(٢) فتكون بهذا فارقة بين الحق والباطل، فُسِّمَتْ فرقاناً، ويجوز أن يراد بالكتاب والفرقان التوراة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لغاية أن تهتدوا، وحيء بلعل لما أشرنا إليه^(٣).
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾
إِلها ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ الله الذي خلقكم ويرأكم بعد عَذَمِكُمْ. وما ذكرناه من سياق الآيات في خطاب القبيلة بفعل بعضها لا يترك في الآية ظهوراً بأنهم كلهم عبدو العجل.

وإن أردتم التوبة الصادقة التي تمحو ما وقع فيكم من الشرك بالله بعبادة العجل ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الجملة بدل من «فتوبوا» لبيان أن الذي تتحقق به توبتكم هو أن تقدّموا على قتل بعضكم بعضاً، فكان ذلك نفس التوبة هنا، والظاهر أنه ليس المراد أن ينتحروا ويقتل كل إنسان نفسه، بل قتل النفوس المضافة إليهم بالقرابة والرَّحِمِ المأسة، فقد كانوا عبارة عن آباء وأبناء وإخوان وأعمام وبني أعمام، وكلهم مرتبطون بولاء القبيلة والقومية والجامعة الإسرائيلية.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي توبتكم بقتلكم نفوسكم، وإقدامكم على ذلك طاعة لله، وتكفيراً لما وقع من الشرك، وودعاً عن مثله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ وفي التعبير بقوله (تعالى) «بارئكم» في الآية إشارة إلى أن الله هو بارئكم والمنعم بخلقكم، فما أهون نفوس المشركين وقتلهم في جنب الحماية لتوحيده وقمع ضلال الإشراك به، وفي جنب رضا وتوبته عليكم!

ففعلاً شيئاً من ذلك كما يدل عليه السياق مع قوله (تعالى): ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو خطاب لبني إسرائيل الموجودين في عصر الرسول، بالنهج المتقدم من خطاب بعض القبيلة بأعمال بعضها، وباعتبار أن التوبة على قوم موسى في تلك الواقعة يعود نفعها على المخاطبين، وعلى كل بني إسرائيل في جميع أجيالهم، ببقاء جامعتهم القومية.

(١) الآية: ١٤٥.

(٢) الآية: ١٥٤.

(٣) في تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

وصورة الدين والتوحيد ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ خطبوا بذلك باعتبار قول الأسلاف من قبيلتهم ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصوت الشديد، وأخذها هو استيلائها عليهم، والمراد إمامتها لهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ توهماً منكم أنكم ترون الله (تعالى) شاءه.

روى ابن بابويه في (العيون) عن الرضا عليه السلام ما ملخصه: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: لن نؤمن لك بأن الله أرسلك وكلمك حتى نسمع كلام الله، فاختر منهم سبعين رجلاً فلما سمعوا كلام الله من الجهات الست، قالوا: لن نؤمن بأنه كلام الله حتى نرى الله جهرَةً، فأخذتهم الصاعقة فماتوا^(١).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ كل الخطاب باعتبار أحوال السلف ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لغاية أن تشكروا الله على الإحياء بعد الموت.

﴿وَوَلَّانَا عَلَيْكُمُ الظَّهَامَ﴾ الظاهر من الامتنان بالتظليل أنه غير السحاب الذي للمطر ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمُنَّ﴾ ويسمى بذلك أيضاً في التوراة العبرانية الدارجة^(٢)، أو يسمى «مان» بفتحة مشالة إلى الألف.

وقال بعض المفسرين: إنه الترنجبين^(٣)، وليس له مُستند يعمل عليه .

﴿وَأَلْسَلَوْنِي﴾ وتسمى في التوراة العبرانية أيضاً «سلو» أو «سلاو».

وفي السبعينية تُقرأ «سليو».

وفي كُتب اللغة: أنه طائر أو نحو الحماية^(٤).

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ حكاية لخطاب القدماء في عصر موسى.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بما صدر منهم من المعاصي، وكُفران النعم، وعبادة العجل،

وقولهم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرَةً فإن الله غني عن طاعتهم ولا تنصره

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ١: ٢٠٠.

(٢) سفر الخروج/الاصحاح: ١٦.

(٣) تفسير الطبري ٨: ٢٣٤، الكشف ١: ١٤٢.

(٤) الصحاح ٦: ٢٢٨٠، المصباح المنير ١: ٣٤٧، الفاموس المحيط ٤: ٣٤٦.

معصيتهم، بل هم الذين تنفعهم الطاعة، وتضرهم المعصية ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعاصيهم.

وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَنَزِيدَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ
أَثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ لا أعرف قرية في زمان موسى (عليه السلام) أمروا بدخولها ودخول بابها سُجَّدًا على ما هو مذكور في الآية في نَسَقِ هذه القصص، ومن البعيد جداً أن يُراد بها الخيمة التي نصبها موسى في البرِّ وَقَدَّسَهَا للعبادة^(١)، إذ لا يناسبها اسم القرية، ولا قوله (تأني): ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ نعم، يناسبها

(١) ذكرت في دعاء السَّابَّات بعنوان «قُبَّة الزمان» بالزاي المعجمة، وإن كان الناس يقرءونها «قُبَّة الرَّمَان» بالراء المهملة، وهذا ترجمة حرفية لاسمها في التوراة العبرانية الرائجة «أهل موعده أهل: قُبَّة. وموعده: الزمان، والمترجمون للتوراة يترجمونها تحريفاً بدخيمة الاجتهاد» إلا لطيفة قديمة يبروتية ترجمتها في بعض الموارد «قُبَّة الزمان». «متنشر مر».

أن تكون قرية بيت المقدس الذي بناه سليمان، وكان بنو إسرائيل يأتونها في مواسمهم للعبادة ويتمتعون فيها بالرغد والأمن.

ويمكن أن يكون هذا القول من الله قد جاء في الوحي إلى موسى (عليه السلام)، فإن التوراة الرائجة تذكر أن موسى (عليه السلام) كان يذكر لهم من وحي الله أحكام مجيئهم إلى المكان الذي يختاره الله بعد الخيمة، كما في سفر التثنية متفرقاً من الفصل الثاني عشر إلى الحادي والثلاثين، ولا بعد في أن يوجد في هذه التوراة المحرفة شيء من أنقاض التوراة الحقيقية، والله العالم بحقائق الأمور.

﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد، ولعل المراد باب بيت المقدس، والمعنى أن دخولكم يكون للسجود والعبادة والاستغفار، كما هو شأن المساجد.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ بالرفع خبر لمحذوف، أي سجدونا وعبادتنا حطة لذنوبنا، والجملة خبرية يراد بها الدعاء، أي اجعل سجدونا وعبادتنا سبباً لحط ذنوبنا عنا، يقال: حط الحمل من الدابة، أي أزاله وأنزله عنها ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعالمهم على المغفرة بالنواب.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وقالوا ما لا يرجع إلى الاستغفار وطلب الحط لأنقال ذنوبهم عنهم، ولعل من مصداق ذلك أنهم حذفوا الأمر بالعبادة والاستغفار ودوام السجود في بيت المقدس، وبدلوه بأن الله أمرهم في التوراة بأنهم إذا لم يقدرُوا أن يحملوا زكواتهم أن يبيعوها بفضة وينفقوها في بلد بيت المقدس، بما تشتهي نفوسهم في البقر والغنم والخمر والمسكر^(١)، كما في الفصل الرابع عشر من سفر التثنية، وهل يقبل ذو شعور أن الله يأمر بإنفاق الزكاة بشرب الخمر والمسكر في بيت عباده!

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ أي عذاباً، كثر ذكر الظالمين إفا لتخصيص الرجز بالظالمين، أو تسجيلاً لقبيح ظلمهم وبيئاً، لأن ظلمهم هو السبب في إنزال الرجز

(١) ذكروا ذلك بنحو لا يقبل التأويل ففي الأصل العبراني «هوبايين» وهو اسم الخمر الصريح «هوبكاره» وهو اسم صريح في المسكر «هتغفتر سر».

عليهم ﴿مَنْ السَّمَاءِ بِمَا﴾ أي بسبب ما ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ولم يستغفروا ويطلبوا حظ ذنوبهم عنهم، بل بدلوا ما قيل لهم.

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب من الله السقيا ﴿لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضرب به، وحذف ذلك لأن دلالة المقام عليه واضحة ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا﴾ يشربون من مائها.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ﴾ وإن عدد العيون وامتنياز الأناس بعضهم من بعض بالمشرب ليستفاد منه أن كل عين كانت مشرباً لسيط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الذي رزقكم إياه على سبيل المعجز وخارق العادة بدون شائبة من سعي أو تسبب منكم، وذلك هو المن والسوى، وهذا الماء المنفجر من الحجر، فاشكروا الله واطلبوا رحمته وأطيعوه وتوكلوا عليه.

﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ معناه قريب من لا تطغوا ونحوه ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال من الضمير في لا تعتوا.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْيطُوا بِمَضْرَإٍ فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا ۖ لَأْتُمَّ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ
اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُصِبرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ لانجد له بديلاً في بعض الآيات، وهو المن والسلوى ﴿فَأَذَعْنَا لَكَ نُكَاحًا تَتَبْتَ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا﴾ وهو النبات الذي تحضر به الأرض، ومنه التمتع والكراث والكرفس ونحوها مما يأكله الإنسان.

﴿وَفُتِنَاهَا﴾ وهو الخيار الطويل الأخضر.

﴿وَقَوْمِهَا﴾ روى في (مجمع البيان) مرسلاً عن الباقر (عليه السلام): أن القوم الحنطة^(١).

ورواه ابن جرير في (تفسيره) والسيوطي في (الدر المنثور) عن ابن عباس، مستشهداً بقول أبي عبيد بن جراح الثقفي^(٢) أو أحيحة بن الجلاح^(٣):
وَدَّ الْمَدِينَةُ عَنْ زَرَاةِ قَوْمٍ^(٤).

وروي في (الدر المنثور) عن ابن عباس أيضاً: أنه التوم^(٥)، وإنه استشهد له بشعر أمية بن أبي الصلت^(٦)، ولا شهادة فيه^(٧)، وكلام اللغويين غير كافٍ في البيان.

(١) مجمع البيان ١: ٢٥٢.

(٢) هو عبادة بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وكان مُدَمِّنًا على شرب الخمر، وأقيم عليه الحد مراراً، وتوفي في أذربيجان، وقيل في جرجان سنة (٣٠هـ) «طبقات الشعراء: ٩٧، ٩٨، الأغاني ٢١: ١٣٧ - ١٤٤، الإصابة ٧: ١٧٠/١٠٠٧، خزنة الأدب ٢: ٥٥٠، معجم الشعراء في لسان العرب: ٣١٧/١١٢٨».

(٣) هو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي، أبو عمرو: شاعر جاهلي، من دُعاة العرب وشُجعانهم، قيل: إنه سيد يثرب، وله فيها حصون ومزارع وبساتين ومال وفير، وكان مُرابياً شحيحاً، وفي شعره عنوة وحكم وقد عُني كثيراً، وتوفي في (٦١م) «الأغاني ١٣: ١١٩، خزنة الأدب ٢: ٢٣، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٣١، الأعلام ١: ٢٧٧».

(٤) الطبري ١: ٢٤٧، الدر المنثور ١: ١٧٧، وأول البيت:

فَدَكْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصًا وَاحِدًا.

(٥) الدر المنثور ١: ١٧٧.

(٦) هو أُمَيَّة بن عبادة أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، أدرك الإسلام ولم يُسلم، وتوفي في (٥٥هـ) «طبقات الشعراء: ٢٧ و٦٦ - ٦٨، خزنة الأدب ١: ١١٩، تاريخ آداب اللغة

﴿وَعَدَسَهَا وَصَلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ منه.
 ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ بالتنوين، يُحتمل أن يراد بها مصر المعروفة، ونوّنت لجواز صرفها بسبب سكون وسطها، كهند ودعد، وإن ذُكرت في غير هذا الموضع أربع مرّات غير مُنصرفة^(١)، أو أهبطوا مصرًا من الأمصار، كما هو أنسب بالتنوين، والأمر بالهبوط على كلا الوجهين إنّما هو للتعجيز، لأنّ مصر هي بلاد عبوديتهم وذلتهم وجمع عدوهم المنكوب، مضافاً إلى أنّهم كُتِبَ عليهم التّيه، فكيف يستطيعون الهبوط إلى مصر؟
 ﴿فَإِنْ لَّكُمْ﴾ هناك إن قدرتم ﴿مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الظاهر أنّ الضمير لا يختص بالذين طلبوا البصل وما ذُكر، فإنّهم لم يُعهد منهم قتل النّبيين، بل يعود الضمير على نوع بني إسرائيل، إذ ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ ﴿وَالْمُسْكِنَّةُ﴾ كما يعرف ذلك جلياً بعد انحلال مملكتهم في السامرة وقَمَّ ذلك بسبي بابل ﴿وَبَاءُوا﴾ يقارب معنى رجعوا ﴿بِقَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ضرب الذِّلَّةُ وَالْمُسْكِنَّةُ، ولزوم غضب الله عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ﴾ والصفة اللازمة لقتل النّبيين كونه ﴿بَغِيرِ الْحَقِّ﴾ كقوله (عليه السلام): ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ في قوله (عليه السلام) في سورة المؤمنون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾^(٢).
 ﴿ذَلِكَ﴾ يُحتمل أن يكون تأكيداً للإشارة الأولى، ويحتمل قريباً أنّه إشارة إلى قتلهم النّبيين ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ أي بعصيانهم الذي اعتادوه ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بحيث صار لهم الاعتداء عادةً.

→ العربية ١: ٨٢٢، شعراء النصرانية: ٢١٩.

(٧) استشهد بقوله:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً فيها الفرائس والفُرمات والبصل
 الفرائس: الباتين، واحدها فردوس.
 وقوله أيضاً:

أنفي السداس من الفوم الصحيح كما أنفي من الأرض ضوب السوايل البرد

(١) وذلك في سورة يونس ١٠: ٨٧ ويوسف ١٢: ٢١ و٩٩ والزخرف ٤٣: ٥١.

(٢) الآية: ١١٧.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ
 مِّنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَآذِكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أظهروا الإيمان من المسلمين.
 ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي انتحلوا اليهودية. يقال في التاريخ: إن بني إسرائيل من
 بعد سليمان ارتد أكثر أسباطهم إلى الشرك وعبادة الأوثان وعجّلوا الذهب للذين
 عملها ملكهم، ثم بادوا من بعد ذلك بالقتل والأسر، ولم يبق لهم اسم ولا رسم قومي
 في الإسرائيلية، والذين بقوا على صورة التوحيد والشريعة على قلب في الوثنية
 والإيمان بحسب الأزمنة والملوك وبقي اسمهم وعنوان الموسوية واحترام بيت المقدس
 في أكثر الأزمنة فيهم إلى اليوم، إنها هم سبط يهودا ومن تبعهم كسبط بنيامين، فصار
 العنوان لمن ينتمي إلى الملة الموسوية هم الذين هادوا. وذكر هذه الصفة وجوه أخر^(١).

(١) منها: قيل: سُمو بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل، هاد: تاب، والمائد: التائب، قال الشاعر: «إني امرو من حُبّه
 هاند» أي تائب.

وقيل: هادوا أي وادعوا، وسكنوا.

وقيل: هادوا أي صاروا يهوداً وادعوا باليهودية.

وقيل: هادوا أي مالوا عن الإسلام وعن دين موسى.

والله العالم.

﴿وَأَنْصَارِيَّ﴾ وهم المنتمون إلى أتباع الرسول عيسى، قيل: مُفْرَدَه نصران ونَصْرَانَة، واستشهدوا له بقول الشاعر:

وَيُضْحِي لَدَيْهِ وَهُوَ نَصْرَانُ شَامِسٍ^(١).

وقول الآخر: كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْتَفِ^(٢).

وقيل في وجه التسمية: إنه من النصرة، لقول المسيح: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ كما في سورتي آل عمران والصف^(٣).

وقيل: نسبة إلى الناصرة: قرية من بلاد الجليل في فلسطين، نشأ فيها المسيح، وكان يُسَمَّى الناصري، فلحق المنتمين إلى أتباعه هذا اللقب، والله العالم^(٤).

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قيل فيهم أقوال كثيرة، والظاهر أن منهم الصابئة الموجودين فيها بين البصرة وبغداد، ولعلهم شعبة من اليهود امتازوا بديانة سرية، وربما عُرف من بعضهم أنهم ينتمون إلى أتباع يحيى بن زكريا، ولهم في ديانتهم ولَع شديد بالماء وعناية بأمره.

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء ﴿بِاللَّهِ﴾ بحقيقة الإيمان به في الإخلاص بتوحيده في الإلهية، وما له (جزائه) من صفات الجلال والجمال ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ على حقيقة الإيمان بالمعاد الجسماني، والجنة والنار، والحساب والجزاء، وما ذكر في القرآن الكريم في شأن اليوم الآخر، ومن كان كذلك لم يتمرد على آيات الله ودلائله، ولم تأخذه نخوة

→ وقيل: هادوا أي تحركوا، سُعُوا بذلك لأنهم كانوا يتحركون عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السماوات والأرض تحركت حين أتى الله موسى (عليه السلام) التوراة «جمع البيان ١: ٢٥٨».

(١) البيت مجهول القائل وصدرة: «قَرَأَهُ إِذَا دَارَ الْعِشَاءُ مُتَحَنِّفًا» ورجل شامس: صعب الخلق «تفسير الطبري ١: ٢٥٢، الأضداد للانهاري: ١٨١، تفسير القرطبي ١: ٤٣٣».

(٢) البيت للأخضر الجهماني الراجز، وهو أحد بني عبد العزى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وصدرة: «فَكَلَنَاهَا حَرَّتْ وَأَسْبَدَ رَأْسُهَا» يصف ناقتين طأطأنا رأسيهما من الإعياء، مشبهًا رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته في الصلاة، «الصالح ٢: ٨٢٩، جمع البيان ١: ٢٥٩، لسان العرب ٥: ٢١١».

(٣) آل عمران ٣: ٥٢، الصف ٦١: ١٤.

(٤) تفسير الطبري ١: ٢٥٢، علل التراتج: ١/٨٠، جمع البيان ١: ٢٥٩، لسان العرب ٥: ٢١٢.

القرميّة، بل يتفانى في طلب الحقّ، ولا تأخذه فيه لومة لائم أو نزعة أهواء.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ على حقيقة الشريعة المقدّسة، ولا يخفى أنّ الإيمان برسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبما جاء به لازم لحقيقة الإيمان المذكور والعمل الصالح، ألا ترى أقلّ أنّ حقيقة الإيمان بالمعاد واليوم الآخر على ما جاء في القرآن الكريم لا توجد عند فِرقة من الفرق، فضلًا عن الإيمان بالله وما له من الجلال والقُدس والوحدانيّة حتّى الإيمان.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وجزاؤهم مُعَدُّ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وخبر «إن» إمّا جملة «من آمن» مع جزائها، وإمّا جملة «فلا خوف» ويكون من آمن بدلًا من اسم إنَّ والمعطوف عليه، ودخلت الفاء على الخبر لأجل تضمّن «من» معنى الشرط، ولعلّ الأوّل أظهر. وقد روعي في «من» لفظها في «آمن وعمل»، ومعناها في «لهم» وما بعدها.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ واذكروا - يا بني إسرائيل - إذ ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الموثق الذي أشير إليه في الآية الأربعين ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ جبل سيناء أو قطعة منه، وقد قيل في رفعه وتسميته ما لا يصلح حُجّة واقعه العالم.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ وهو التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾.

وفي مُؤثِّقة البرقي: سئل أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): أقوّة الأبدان أو قوّة القلب؟

قال: فيها جميعاً^(١).

وعن (المعاشي) عن الصادق (عليه السلام)، نحو ذلك^(٢)، أي لا تنهوا في أبدانكم وقلوبكم عن أخذ ما في التوراة.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي في التوراة ولا تنسوه، ومن ذلك وصّف النبيّ الذي يُقيمه الله لهم من إخوانهم ولد إسماعيل لا منهم، ويجعل كلامه - وهو القرآن الكريم -

(١) المعاشي: ٣٦٩/٢٦٦.

(٢) تفسير المعاشي: ١: ٥٢/٤٥.

في فمه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لأجل أن تتقوا الله، وجيء بـلعل في مقام الغاية، لأن حصول التقوى منهم غير لازم، بل هو راجع إلى حسن اختيارهم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولي بمعنى الاستدبار، واستعمل هنا كناية عن الإعراض عما أخذ عليهم من الميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الأخذ للميثاق.

﴿فَقُلُوا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بقبول التوبة ﴿لَكُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين ذهب رأس مالهم، كفى بالخسران عن هلكتهم بالضلال.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُؤْخِذُنَا
هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ
وَلَا يَكْرَهُونَ أُبَيِّنْ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ شأن ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ بعد أن نهاهم الله عن الصيد فيه، وهم أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، كما ذكرت قصتها قبل هذا^(١) في سورة الأعراف المكية من الآية الثالثة والستين بعد المائة إلى السابعة

(١) أي قبل نزول القول من سورة البقرة، إذ أن الأعراف مكية ونسب البقرة في ترتيب النزول، كما هو في أكثر الروايات، مع أنه روي عن قتادة والضحاك أن الآية (١٦٣) من الأعراف مدنية وباني البقرة مكية، أنظر «مجمع البيان» ٣: ٦٠٨ الدر المشهور ٣: ٤١٦.

وَالسَّيِّئِينَ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِيَةً﴾ على نحو قوله (ص): ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي حادثة المسخ، ولعل الأقرب أنها القرية المدلول عليها في سورة الأعراف ﴿نَكَالًا﴾ النكال اسم للعقوبة الظاهرة أو الباقية الأثر، أو لنفس الأثر، والمصدر هو التشكيل ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي ظاهر لما بين يديها من القرى والأمكنة باعتبار أهلها، كما يقال: أثر للناظرين.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وتزيد بالنسبة للمتقين أن تكون لهم موعظة تزيدهم بصيرة في الإيمان والمعرفة، وتُسَدِّدُهُمَ للثبات على التقوى، وهناك احتمالات أخرى، واحة العالم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وملخص القصة مما رواه القمي بسند معتبر، عن الصادق (عليه السلام)^(٢). وابن بابويه في (العيون) في الصحيح عن الرضا (عليه السلام): أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ غِيلَةً، وَأَتَاهُمْ بِقَتْلِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَصَارُوا يَتَدَاوُونَ وَيُدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ التَّهْمَةَ، فَرَجَعُوا فِي أَمْرِهِمْ إِلَى مُوسَى (عليه السلام)، فَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ بِنَحْوِ الْمُعْجَزِ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، فَاسْتَغْرَبُوا الْحَالَ^(٣)، وَ﴿قَالُوا﴾ بجهلهم ﴿أَتُخَذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ.﴾

وفي الصحيح، عن الرضا (عليه السلام): لو أنهم عمدوا إلى أي بقرة لأجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم^(٤). وروي ذلك في (الدر المنثور) من طرق متعددة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن عباس^(٥).

(١) يس ٣٦: ٨٢.

(٢) تفسير القمي ١: ٤٩.

(٣) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ٢: ٣٦/١٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الدر المنثور ١: ١٨٩ و ١٩٠.

وفي رواية القُصي: أن الله أشار بأوصاف البقرة إلى بقرة رجل بار بأبيه جزاءً
لبره، ليشروها بالثمن العالي^(١) ولا تنافي بين الروایتين، لجواز أن يكون ذلك نتيجة
علم الله بتشديدهم على أنفسهم.
﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا مِسِنَّةٌ وَلَا يَكْرَهُ فَنِيَّةٌ فِي أَوَائِلِ
سَنَاهَا، بَلْ هِيَ «عَوَانٌ» وَتَوَسُّطَةٌ فِي مَنَاصِفِ عَمَرِهَا «بَيْنَ ذَلِكَ» أَي مَا ذَكَرَ مِنَ
الْوَصْفَيْنِ «فَاعْمَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٦﴾
قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّدُولُ
تُشِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الَّذِينَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْهَا فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٩﴾
فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ

لُونُهَا ﴿ أَي شَدِيدِ الصُّفْرَةِ وَخَالِصِهَا ﴾ تَسْرُ النَّاطِرِينَ * قَالُوا أَذُعُ لَنَا رَبُّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴿ هَذِهِ الصِّفَاتُ ﴾ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴿ الذَّلُولُ: السَّهْلَةُ الْمُنْقَادَةُ بِالْتَذِيلِ وَالتَّعْلِيمِ لِلْأَعْمَالِ الَّتِي تُرَادُّ مِنْ نَوْعِهَا، وَهَذِهِ لَا تَنْقَادُ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْبَقَرِ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ بِأَنَّهَا ﴾ تُشِيرُ الْأَرْضَ ﴿ وَتَنْقَادُ لِكِرَابِهَا ﴾ وَ﴿ لَكِنَّهَا ﴾ لَا تَسْقَى الْخَرْثَ ﴿ أَي الْأَرْضَ الْمَزْرُوعَةَ، أَوِ الزَّرْعَ، وَلَا تُطَاوِعُ لِأَن يَدُلَّ عَلَيْهَا مِنَ الْآبَارِ وَالْأَنْهَارِ ﴾ مُسْلَمَةٌ ﴿ مِنَ الْعِيُوبِ ﴾ لَا شَيْئَةَ فِيهَا ﴿ لَيْسَ فِيهَا لُونٌ يَخَالِفُ مُعْظَمَ لَوْنِهَا.

﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي بِحَقِّ الْوَصْفِ الْمُبِينِ وَالْمُعَيَّنِ ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ إِمَّا لِفَلَاءِ نَمْنِهَا، كَمَا يَرُودُ، وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا ﴾ أَي قَتَلَهَا بَعْضُ مِنْكُمْ فَفَسَّرَتْ فِيكُمْ التَّهْمَةَ وَالْخُصُومَةَ، فَصَارَ كُلُّ مِنْكُمْ يَرِيدُ أَنْ يَدْفَعَهَا وَيُدْرَأَهَا عَنْهُ ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ بِقُدْرَتِهِ مِنْ سِرِّ الْخَفَاءِ إِلَى الْعِلْمِ وَالظُّهُورِ ﴿ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أَي يَكْتُمُهُ الْقَاتِلُ مِنْكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَسَبَبِهِ.

وقد كان الأمر بذبح البقرة وتعنُّتهم في السؤال عنها وشقاقهم عن ذبحها من متعلقات القتل وإتهام بعضهم بعضاً وتدارئهم لها فيها بينهم، ولكن أفرد الله تلك الأمور بالذكر تذكيراً لبني إسرائيل بتباطيئ أسلافهم عن امتثال أمر الله، ونسبة موسى إلى الاستهزاء لما بلغهم أمر الله بما يزيح علتهم، وشقاقهم بكثرة السؤال حتى أنهم ما كادوا يفعلون، وامتناناً عليهم بالمجاراة لهم في شقاقهم وتباطئهم عن أوامره، لكي يرفع نقائصهم، وينجي البريء، ويظهر البراءة بعلم اليقين.

ثم شرع في تذكيرهم بمنته عليهم وإظهار الحق وفصل الخصومة بالنحو المُعْجَز الذي يوضح لهم قدرة الله، وربط أطراف القصة بقوله (بنت آوى): ﴿ قَتَلْنَا أَسْرِيَّوْهُ ﴾ أَي الْمُقْتُولَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿ بِيَعْضِهَا ﴾ أَي تِلْكَ الْبَقْرَةَ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا فَذَبَحُوهَا، فَضَرَبُوهُ بِيَعْضِهَا وَرَجَعُوا حَيًّا وَأَخْبَرُوا بِقَاتِلِهِ، وَظَهَرَ أَمْرُ الْقَتْلِ بِالْمُعْجَزِ حَقُّ الْيَقِينِ، وَارْتَفَعَتِ الْخُصُومَةُ.

وقد دلَّ على هذا كله سياق الكلام، والتذكير بما فيه من المنَّة عليهم، مع

قوله (بَئَتْ لَدُنَّ): ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمُؤْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بالتدبر والاعتبار بآيات الله وقدرته وإحيائه الميت ورحمته لكم، لكي تعرفوا رشدكم وتهتدوا إلى سواء السبيل، وإن تعقلهم أحد الغايات، وإن كان أشرفها وأكثرها لهم نفعاً، وجيء بلعل لأن تعقلهم غير لازم، بل هو راجع إلى حسن اختيارهم في التفكير وحسن الاعتبار والتبصر، وعدم التناسي والانقياد إلى وساوس الأهواء وضلالها.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا
يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا
لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾
وَإِذْ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى
بَعْضٍ قَالُوا أَتَأْتِيهِمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ
بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ
لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٨٠﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فراغت عن الاعتبار بآيات الله، والتعقل لدلائل الرشد

﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي من بعد كل ما ذكر من الآيات وأفرد كاف الخطاب في «ذلك» باعتبار الجمع أو القوم لا الجماعة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها، وناهيك بها قسوة ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ أي وإن شئت أن تصفها باعتبار الآثار فهي أشد قسوة من الحجارة.

﴿وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ومن ذلك العيون الجارية من الجبال الصخرية ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ومن ذلك ما يحدث عند الزلازل من الانشقاق والانفجار ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقد حدث هذا كله لبني إسرائيل وشاهدوه رأي العين في الحجر الذي انفجرت منه العيون، والجبل الذي تحبلى له الله فجعله دكاً.

وَأَمَّا أَنْتُمْ - يا بني إسرائيل - فلا تتأثر قلوبكم بالآيات ودلائل الحق، بل تعملون بها يغريكم به الهوى الردي والشیطان المضل، ويحكمكم عليه العناد للحق والتنادي على الطغيان ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل يمهلكم ويُملي لكم ثم إليه ترجعون.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ بالله ورسوله وقرآنه، ويحيبوا دعوتكم لهم إلى حقيقة الإيمان، وهم أهل العناد والإصرار على الضلال على عمد ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ عند خطابه لموسى، أو من موسى والأنبياء مع اعترافهم بنبوتهم زيادة على دلالة المعجزات على ذلك ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يغيرونه ويبدّلونه، لا عن جهل، بل عن عمد وضلال ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وفهموه حق الفهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم محرفون كاذبون على الله، هذا حال سلفهم في النفي.

وَأَمَّا هؤلاء الذين تطمعون أن يؤمنوا لكم بالحق، فهم كما في هذه الآية: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِغُسْطِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من علم التوراة وتخبرونهم بما فيها من صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ورسالته والأمر باتباعه ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ فتكون الغاية من ذلك أن تقوم به الحجة عليكم، فيحاجوكم به ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما يترتب على ذلك من الغايات.

وفي (تبيان الشيخ الطوسي (نقس برز)) وروي عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين، إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فنهاهم كُبراًؤهم عن ذلك، وقالوا: لا نخبروهم بما في التوراة من صفة محمد فيحاجوكم به عند ربكم^(١)، انتهى.

فَتَنَسَّأُوا وَهَامَهُمْ ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ﴾ رَّبُّهُمْ الَّذِي يَكْتُمُونَ الْحَقَّ حَذْراً مِنْ حَاجَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ عِنْدَهُ^(٢)، هو الله الذي ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟!

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ الأُمِّي كما في (مجمع البيان): من لا يُحسن الكتابة ولا القراءة^(٣) ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِي﴾ استثناء منقطع بمعنى: ليس لهم إلا الأكاذيب والاختلاقات التي يسمعونها من المدلسين، أو ليس إلا أُماني العلم ﴿وَرَأَوْهُمْ﴾^(٤) ظناً بها يسمعون.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتَا مَتَعْدُودَةٌ قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْداً أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

(١) تفسير التبيان ١: ٣٦٦.

(٢) الضمير في «عنده» راجع إلى لفظ الجلالة، والظرف متعلق بـ«محتاجة».

(٣) مجمع البيان ١: ٢٨٨ و٤: ٧٤٩.

﴿قَوْلٌ﴾ مُبْتَدَأٌ لِأَنَّهُ نَكْرَةٌ مَفِيدَةٌ، «وَاللَّذِينَ» خبره، والويل: الحزن والهلاك، والمَشَقَّةُ من المَذَابِ ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حُطَامِ الدُّنْيَا والزُعَامَةِ الكَاذِبَةِ، أو تَرْوِيجِ الْبَاطِلِ.
قال في (مجمع البيان): إِنَّهُمْ عَمِدُوا إِلَى التَّوْرَةِ وَحَرَّفُوا صِفَةَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، لِيُوقِعُوا الشَّكَّ بِذَلِكَ لِلْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْيَهُودِ، وَهَذَا هُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ^(١).

﴿قَوْلٌ لَهُمْ تَمَّا كَتَبْتَ أَيْدِيهِمْ﴾ إِذْ يَحَرِّفُونَ ذَلِكَ، أَوْ لَا يَعْلَمُونَ بِمَا يُوْجِبُهُ
﴿وَقَوْلٌ لَهُمْ تَمَّا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْآثَامِ وَالْكَفْرِ وَأَعْمَالِ الضَّلَالِ، أَوْ التَّحْرِيفِ لِأَجْلِ
الْإِضْلَالِ، وَكَيْفَانِ الْحَقِّ.

﴿وَقَالُوا﴾ أَيِ الْيَهُودِ ﴿لَنْ نَقْسِنَا أَثَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أَيِ قَلِيلَةٍ.
﴿قُلْ﴾ لَهُمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿أَتُخَذْتُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ﴾ افْتِرَاءً أَوْ تَعَكُّبًا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فِي هَذَا الزَّعْمِ الْبَاطِلِ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٢

بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَحْطَطَ فِيهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا

لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾

﴿بَلَى﴾ رد لقولهم، وبيان لحقيقة الأمر، وهو أن ﴿مَنْ كَسَبَ﴾ بسوء اختياره ﴿سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي لزمته واستولت عليه استيلاء الشيء المحيط به، ولم يكفرها عنه الإيمان والتوبة بعد الكفر ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أشير بالجمع باعتبار الجمع في معنى من كَسَبَ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى الأبد. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ﴾ دون غيرهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي واذكروا إذ قلنا لهم أقوالاً وأوصيناهم بها، وأخذنا منهم العهد الموثق بالعمل بها ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده لا شريك له في العبادة والإلهية، والجملعة خبرية يراد بها النهي، والخبرية في مقام الطلب أبلغ من الإنشائية، وهي والجمل المعطوفة عليها معمولة للقول المدلول عليه بأخذ الميثاق ﴿وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا﴾ إحساناً: مصدر نائب عن الفعل، وهذا السبك أبلغ وأكد من أن يُقال: وأحسنوا ﴿وَوَدَى الْقُرْنَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ عطف على الوالدين في الأمر بالإحسان بهم ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهذه الوصايا غير مختصة ببني إسرائيل، بل هي من أهم ما يقتضيه اللطف بكل أمة أرسل إليها رسول.

روي في (الكافي) بسند معتبر، عن الصادق (عليه السلام): في قوله (تعالى): ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

قال: قولوا للناس حُسْنًا، ولا تقولوا إلا خيراً حتّى تعلموا ما هو^(١).

وروى ابن بابويه بسند معتبر، عن الباقر (عليه السلام): قولوا للناس أحسن ما

تَحِبُّونَ أَنْ يُقَالَ فِيكُمْ، الحديث^(١). ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأدبرتم في المخالفة لذلك الميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن الميثاق متمردون على أوامر الله ونواهيهِ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَوْحُومٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجُهُمْ أَفْثُو مِثْنُونَ بَعْضُ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ التفات إلى خطاب اليهود، إما باعتبار أخذ الميثاق على أسلافهم، أو باعتبار أن إيمانهم برسالة موسى وتوراتهم التزام بالوصية الشاملة لهم، وإعطاء للميثاق عليها كأسلافهم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لا يسفك بعضكم دم بعض ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من بلادكم، وعبر

بالأنفس تأكيداً في النهي، فإنهم أمة واحدة وبنو أب واحد، والكلام في الجملة الخيرية في مقام الطلب، ومحلها من الإعراب كما تقدم ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ﴾ بأخذ الميثاق.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ القوم الذين أخذ عليهم الميثاق وأقروا وشهدوا، ذكر ذلك للتغليظ في التوبيخ ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾ بغير حق، بل ﴿تَنْظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وهم قومكم ومنكم ﴿وَأِنْ يَأْتِوكُمُ أَسَارَى﴾ مستعينين بكم على فدائهم ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ وتبدلون فدائهم عملاً بكتابكم، فلماذا تخرجونهم من ديارهم ظلماً ﴿وَهُوَ﴾ والشأن أنه ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ في الكتاب ﴿إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْا مُنُونٌ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتُكْفَرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟! ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِّنْكُمْ﴾ أي القتل والإخراج، أو التقلب الأهواني في الإيمان والكفر ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ بيان لأن المراد من قوله: ﴿مَن يَفْعَلْ﴾ هو الجمع ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإنه لا تخفى عليه خافية، وقد أعد لكل عمل جزاءه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ
عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تُهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَفَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المناقضون لميثاق الله، هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ وما أقيح خسرانهم بهذا الشراء إذن! ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ومن ذا الذي ينصرهم على الله؟!
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي أتبعناه

بعد موته ﴿بِالرُّسُلِ﴾.

في (الكافي) في باب الفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول هو من يعاين الملك ويأتيه جبرئيل فيراه ويكلمه بالوحي، كما في صحيحتي زُرارة والأحول عن الباقر (عليه السلام)، وروايقي إسماعيل عن الرضا (عليه السلام)، ويُريد عن الباقر (عليه السلام) والصادق (عليه السلام).^(١)

والذين ذكرت أسماؤهم من الأنبياء بعد موسى، هم: داود، سليمان، وإلياس، واليسع، وذو الكفل - والظاهر أنه حزقيال - ويونس، وذكريّا، ويحيى، والمسيح، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). والذين نصّ القرآن على رسالتهم، هم: إلياس، ويونس، والمسيح، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من المعجزات ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبرئيل.

يا بني إسرائيل ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على دعوته إلى الحق وجهدتم في مضادته ومعاندة الحق ﴿فَقَرِيقًا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي في غلاف لا نفهم ما يقول الرسول في تبليغه، وغرضهم العيب لما يقوله في التبليغ، كما حكى الله عن المشركين في سورة حم السجدة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^(٢) وليسوا لا يفهمون ما يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنه

(١) الكافي ١: ١٣٤ - ٤.

(٢) الآية: ٥.

أتى في رسالته وتبليغه بها تقتضيه الفطرة وبداهة العقول، ولا يخفى صلاحه على أحد. ﴿بَلْ تَرَدُّوا عَلَى اللَّهِ، وَكُفَرُوا عَلَى عَمْدٍ، فَحَرَمْنَاهُمْ بِرُكَّةِ التَّوْفِيقِ وَ«لَعَنَهُمُ اللَّهُ» وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ «بِكُفْرِهِمْ» وَعَنَادِهِمْ «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» الْغَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى حُرْمَانِهِمْ مِنَ التَّوْفِيقِ، وَطَرْدِهِمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعَتُوِّهِمْ فِي كُفْرِهِمْ «وَقَلِيلًا» صِفَةٌ لِلْمَصْدَرِ، أَيْ إِيهَانًا قَلِيلًا، وَ«مَا» لَتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ بِزِيَادَةِ الْإِهَامِ فِي الْقَلِيلِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَلَّةِ إِيهَانِهِمْ قَلَّةَ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ
فَبَاءَ وَبِعَاصٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم بما فيه من دلائل الإعجاز والحُجج على أنه من الله ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوحيد وإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرعة ﴿وَكَانُوا﴾ أي هؤلاء المردة المعاندون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إنزال القرآن أو مجيء الرسول إلى المدينة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. رُوي في (الكافي) في الموتى عن الصادق (عليه السلام)، ما ملخصه: أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ تَجِدُ فِي كِتَابِهَا أَنَّ مَهَاجِرَةَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مَا بَيْنَ عَيْرٍ^(١) وَأُحُدٍ، فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَ

(١) عَيْرٌ: جبل بالمدينة، ويطلق أيضاً على جبل بمكة، والظاهر أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْمُرَادُ «الصَّحاح» - غير - ٢: ٧٦٣.

النهاية - نور - ١: ٢٢٩، معجم البلدان ٤: ١٧٢.

المرضع ونزله قوم منهم، ثم صاروا يقولون للأوس والخزرج: أما لو قد بُعث محمدٌ
لُنْخْرِجَنَّكُمْ من ديارنا، فلما بُعث الله محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) أمنت به الأنصار، وكفرت
به اليهود، وهو قول الله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾^(١).

وعن (تفسير العياشي) عن الصادق (عليه السلام)، مثله^(٢).

وفي صحيحة إسحاق بن عمار، عن الصادق (عليه السلام) ما يقرب من هذا^(٣).
وكذا الحديث الأول والسابع والثامن الذي صححه الحاكم مما رواه في (الدر
المنثور)^(٤).

فيكون معنى يستفتحون: يستنصرون بالتهديد، أو يطلبون في كلامهم ما
يأملون من الفتح والنصر في المستقبل.

وروي في (الدر المنثور) أيضاً: أَنَّ اليهود كانوا عند محاربتهم للعرب
يستنصرون الله في الدعاء باسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا
عَرَفُوا﴾ من أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورسالته، وَأَنَّ الله يجعل كلامه في فمه ﴿كَفَرُوا
بِهِ﴾ مع معرفتهم به، ككفر إبليس ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿يَتَسَاءَلُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في (جمع البيان): أكثر الكلام اشترت بمعنى
ابتعت، وربما استعمل اشترت بمعنى بعث^(٦). انتهى.

ولكن فيه هنا كما في (التيبان) و(الكشاف): اشترى بمعنى باعوا^(٧)، أقول:
ويجوز إبقاء الاشتراء على معناه المتعارف، وتكون الآية توبيخاً وتسفيهاً لليهود، فإنَّ
حق النفس أن تشتري بالإيمان والأخلاق الفاضلة والعمل الصالح في هذه الحياة

(١) الكافي ٨: ٣٠٨/٤٨١.

(٢) تفسير العياشي ١: ٤٩/٦٩.

(٣) الكافي ٨: ٣١٠/٤٨٢.

(٤) الدر المنثور ١: ٢١٥ - ٢١٧.

(٥) الدر المنثور ١: ٢١٦.

(٦) جمع البيان ١: ٣١٢.

(٧) تفسير التبيان ١: ٣٤٨، الكشاف ١: ١٦٥.

الدنيا، لتكون كاملة زكيةً فائزة بالسعادة الأبدية.

إذن، فما بال هؤلاء السفهاء قد حملهم الحسد الذميمة على أن يحفظوا لأنفسهم خرافات القومية والجامعة اليهودية، وجعلوا الثمن لاشرائها لهذا الغرض الوخيم، هو الكفر بآيات الله حسداً وبغياً؟

قبس ما فعلوا، وبس الذي اشتروا به أنفسهم، أو بس شيئاً اشتروا به ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ أي كفرهم بما أنزل الله، وهو المخصوص بالذم، مثل: «عمرو» في قولهم: بس الرجل عمرو، وتزداد شناعة كفرهم بما أنزل الله مع معرفتهم بأنه كلام الله المنزل الذي وعدوا به، بأن كفرهم هذا كان حسداً، و﴿بَغْيًا﴾ على أن يبعث الله من غيرهم رسلاً، و﴿أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ كلامه وآياته وحي إرساله ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويعلم أهليته للرسالة من ولد إسماعيل.

﴿فَبِمَا وَءَوْ﴾ نحو معنى رجعوا ﴿بِقَضْبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ غضب الله عليهم من أجل الكفر مع المعرفة وقيام الحجة، وغضبه من أجل حسدهم وبغيهم وعنادهم للرسول لكونه من غيرهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذلم وينهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُنْبِئَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ
ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
 بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾
 قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ
 دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ من القرآن بأنه كلام الله المنزل على رسوله الكريم، وانقادوا بإيهاكم إلى أتباعه، فقد عرفتم أنه من الله وقامت به الحجج عليكم.

﴿قَالُوا﴾ من غيهم وغيهم، وضلال عصبيتهم اليهودية ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ومفهوم قولهم الكفر بغير ما في كتبهم.
 ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي بما عداه مما أنزله الله على غيرهم كقوله (صا):
 ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾^(١) أو ما بعده.

﴿وَلَوْ﴾ الحال أن القرآن الذي يكفرون به إذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ من صفة الرسول، وإن الله يجعل كلامه في فمه، وإنه من إخوتهم ولد إسماعيل لا منهم، أي هو الحق الذي يكون به صدق تلك المواعيد.

ثم رد الله منطوق قولهم: «نؤمن بما أنزل إلينا» مبيناً كذبهم في هذه الدعوى، وتماذي اسلافهم على معاندة الإيثار، والقوم أبناء القوم وعلى تبرئهم، فقال (جواسه) لرسوله ﴿قُلْ﴾ لهم في ردعهم ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أنزل إليكم، فإن أنبياء الله لم يدعوكم إلا إلى الإيثار والعمل بما أنزل إليكم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والآيات الباهرة التي لا مجال بعدها للشك والانحراف عن الإيثار ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْمِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وارتددتم ذلك الارتداد

القبيح، وأشرككم ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ * ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على الإيمان والتوحيد والعمل بالتوراة ﴿وَوَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ وهو معنى قوله (ص) في الآية الثالثة والستين: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي أنهم بسبب كفرهم وغيبهم انهمكوا في حب العجل، حتى كأن العجل دخل في أعماق قلوبهم، كما يدخل المشروب الذي يقيل عليه الإنسان إلى أعماق بدنه، حتى صار العجل كالحيب الحاضر في القلب بحبه، والذي أشربهم إيّاه في قلوبهم هو الشيطان أو غواية الأهواء.

ثم عاد الكلام على توبيخهم وردّهم في قولهم الكاذب: «نؤمن بها أنزل إلينا» بما معناه أن الإيمان يأمر ويحمل على اتباع ما آمن الإنسان به والعمل به، والذي أنزل عليكم يأمركم بتوحيد الله وبجانبه الأوثان، وعبادته وحده، وطاعة الأنبياء واحترامهم، والإيمان برسول الله وكتابه.

أفتقولون: إن إيمانكم المزعوم الموهوم أمركم بما ذكر من أفعالكم القبيحة؟ إذن ﴿قُلْ بِنَسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ وأين منكم الإيمان؟ ولكن قيل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ للمجاراة في خطابهم، والتنازل من النفي إلى صورة التشكيك، وهذا من بديع الأساليب في التقرير والتوبيخ.

ومن إفحامهم بالحجة أنهم يدعون أنهم هم شعب الله، وهم الآخرة والنجاة والنعيم، وأنهم أبناء الله وأحبّاءه كما في سورة المائدة^(١)، ويذكرون في توراتهم أنهم ابن الله البكر، فقال الله لرسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ مختصة بكم ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ شوقاً لما أعد في الآخرة من النعيم العظيم الدائم والسعادة الكبرى لأهلها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم عارفين بصدقكم.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

(١) الآية: ١٨، قوله (ص): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

﴿٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من موبات الخطايا والضلال. وإن
جعلوا ذلك فإنه لا يخفى على الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿و﴾ زيادة على أنهم لا يتمنون الموت ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى
حَيَاتِهِ﴾ أي حياة ما، وإن كانت قليلة، ﴿و﴾ أحرص على الحياة ﴿مِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا﴾ الذين ينكرون المعاد والنعيم بعد الموت.

﴿يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ﴾ من حرصهم على الحياة ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾ الظاهر أن «لو» بعد «و»
«ويود» مصدرية، كما حكاه في المغني عن الفراء وأبي علي وأبي البقاء والتبريزي وابن
مالك^(١)، يؤتى بها بدل «أن» فيما كان مدخولها بعيد الحصول، أو ممتنعاً في نفسه، أو
بحسب العادة، أو يراد إبرازه بصورة البعيد أو الممتنع، وذلك كما في الآية، والآية
(١٠٣) وسور آل عمران^(٢)، والنساء^(٣)، والحجر^(٤)، والأحزاب^(٥)، والقلم^(٦)،
والمعارج^(٧).

وما لا يكون كذلك تأتي فيه مكان «لو» أن المفتوحة المشددة المصدرية، كما في

(١) مغني اللبيب: ٨٣٩.

(٢) الآية: ٣٠ و ٦٩.

(٣) الآية: ٤٢ و ٨٩ و ١٠٢.

(٤) الآية: ٢.

(٥) الآية: ٢٠.

(٦) الآية: ٩.

(٧) الآية: ١١.

سورتي الأنفال^(١)، وهود^(٢). أو «أن» الساكنة المصدرية، كما في هذه السورة (١٠٥) و٢٦٦). أو «ما» المصدرية، كما في سورة آل عمران^(٣).

وليس في «لو» هذه معنى التمني، كما هو ظاهر، وبديل أن ما يقع بعد الفاء مُتَفَرِّعاً على ما بعدها^(٤)، لم يجئ في القرآن إلا مرفوعاً، كقوله (سار) في سورة النساء: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾^(٥).

و: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾^(٦). وفي سورة القلم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ قَيْدَهُنَّ﴾^(٧).

والتي هي للتمني جاء ما بعد الفاء التي بعدها منصوباً، كما في قوله (سار): ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾^(٨).

وفي سورة الزمر: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ﴾^(٩) بنصب أكون.

فإن قيل: إن «لو» التي بعد «يود» و«ود» كيف تكون مصدرية مع أنها تقع بعدها أداة مصدرية، كما في قوله (سار) في سورة آل عمران: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾^(١٠) وفي سورة الأحزاب: ﴿يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ﴾^(١١).

قلت: إن «لو» كيفما كانت لا تدخل على الجملة الاسمية، بل لابد فيها من تقدير فعل، فالتقدير إذن «لو يمكن» أو «لو يتيسر» ونحوها، كما تقول: تود أن يتيسر

(١) الآية: ٧.

(٢) الآية: ٨٠.

(٣) الآية: ١١٨.

(٤) الماه في «بعد» راجع إلى «لو».

(٥) الآية: ٨٩.

(٦) الآية: ١٠٢.

(٧) الآية: ٩.

(٨) البقرة ٢: ١٦٧.

(٩) الآية: ٥٨.

(١٠) الآية: ٣٠.

(١١) الآية: ٢٠.

أن بينها وبينه أمداً، ويؤدوا أن يمكن أو يتيسر أنهم يادون، وعبر بذلك التعبير لخصوصية «لو» وظهور المقام، وخصوص الجملة الاسمية في مزايا الكلام، كما لا بد من هذا التقدير على قول القائل: إنها للتضمني.

﴿أَلَفَ سَنَةً﴾ وماذا ينفعه ذلك التعبير، هل يحط عنه شيئاً من ذنوبه، أو يدفع عنه العذاب ما لم يؤمن ويعمل صالحاً؟ كلاً ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي أحدهم ﴿بِمُزْجِرِهِ﴾ مُزْجِرُهُ خبر للضمير هو، والباء زائدة لتأكيد النفي ﴿مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ المصدر فاعل لمزجرحه، أي: وما هو مُزْجِرُهُ تعميره.

﴿وَاللَّهُ بِصِرَّاتِهِمَا يَعْلَمُونَ﴾ من السيئات، وإن طول أعمارهم في عمل السيئات هو الذي يركسهم في ترك العذاب.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾
 أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدُوا عَاهِدًا أَبَدَهُ، فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَهُمْ ظُهُورَهُمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿لَمَّا تَقَدَّمَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْحَقِيقَةِ وَمَعَارِفِ الْحَقِّ ﴿وَهُدًى﴾ حَالِ ثَانٍ مَعْطُوفٍ عَلَى مُصَدِّقًا ﴿وَبَشِّرِ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ إِنْ الَّذِي يَهْتَدِي وَيَصِلُ بِهِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَكُونُ الْقُرْآنُ لَهُ بَشْرَى إِنَّمَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَالآيَةُ تُشْعِرُ بَأَنَّ لَهَا شَأْنَ وَسَبَبَ نَزُولٍ، وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي ارْتِبَاظَهُ بِالْيَهُودِ.

وقد رُوِيَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ ذَكَرَهُ فِي (الدَّرُّ الْمُنْتَوِر) وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُتَّصِلِ الْإِسْنَادِ وَلَا سَالِمٍ مِنَ الْخَلَلِ^(١).

وروي في (تفسير البرهان) شيء، وفي مستنده ما فيه^(٢).

وذكر القمي شيئاً، ولم يذكر مأخذَه، والله هو العالم بحقيقة الحال^(٣).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيِ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا كَافِرٌ، وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، وَكَفَى بِذَلِكَ خِزْيَا لَهُمْ رَوَّيَالًا.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ لَا رَبَّ فِيهَا ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ طَاعَةِ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ وَاسْتَحْبَوُا الْكُفْرَ.

﴿أَوْ كُفُّوا﴾ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّفْرِيعِ عَلَى عَادَتِهِمُ الْقَبِيحَةِ مِنْ أَنَّهُمْ كَلَّمَا ﴿غَاهِدُوا﴾ اللَّهُ أَوْ رُسُلَهُ أَوْ أَنْبِيََاءَهُ ﴿عَهْدًا نَبَذَهُ﴾ وَالْقَاهُ، كُنَايَةٌ عَنْ نَقْضِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ لَيْسَ الْفَرِيقُ الْقَلِيلُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَا يَشْتَبُونَ

عَلَى عَهْدِهِمْ، وَمِنْهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ وَقَيْنَقَاعَ وَغَيْرَهُمْ، مِمَّنْ نَقَضَ عَهْدَهُ وَمِثَاقَهُ

لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَقْبَحَ نَقْضِ بَأَقْبَحِ غَدَرٍ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا

مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ وَصِفَاتِ الرُّسُولِ الَّذِي

وَعُدُّوا بِهِ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمَصْدَاقُ الْمَصْدَقُ، وَجَاءَهُمْ بِالْكِتَابِ كَلَامُ اللَّهِ الْمَذْكُورِ فِي

تَوَارِثِهِمْ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وَهُمْ الْأَكْثَرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.

(١) الدر المنثور ١: ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٣٤ ذيل حديث (١)

(٣) تفسير القمي ١: ٥٤.

﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ القرآن الذي قامت به عليهم الحجة، وعلموا بأنه كتاب الله ورواه ﴿وَرَأَوْهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كناية عن إعراضهم وكفرهم به ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله المبشّر به في كتبهم، وقامت به الحجج النيرة.

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَثُوبَتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وَاتَّبِعُوا﴾ من الأباطيل والكفر ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ أي على أهل مملكته ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.
روى ابن بابويه في (العيون) عن الرضا (عليه السلام): أَنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَلَيَا

الناس السُّحَر، ليحترزوا به عن سحر السحرة، ويُبطلوا كيدهم^(١). وذكر مضمون قوله (صالح): ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَجْدٍ حَتَّىٰ﴾ يُنذراه ﴿وَيَقُولَا إِنَّا نَخُنْ﴾ من جهة ﴿فَتَنْتَفِئْ﴾ وابتلاء وامتحان، نعلم الناس لغاية صحيحة ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ وَتَسْتَعْمِلْ مَا نَعْلَمُهُ فِي غَايَاتِ الضَّلَالِ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس ﴿مِنْهَا﴾ من هاروت وماروت ﴿مَا يَفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْكَرِّ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والمراد من الإذن عدم إبطال الله لأثر السحر، أي ليس أثر السحر أمر لازم لا يقدر الله على رفعه، ولكن لم يبطله، بل خلى بينه وبين الناس في سوء اختيارهم، كما خلى بينهم وبين سائر المعاصي وأنواع الظلم لحكمة قدرها في العالم.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ من السحر ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إذ لا يستعملونه في إبطال سحر السحرة ودفع كيدهم.

روى القُصِّي في (تفسيره): أَنَّ الْبَاقِرَ (عليه السلام) سَأَلَهُ عَطَاءٌ بِمَكَّةَ عَنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِمَا فِي الْمَعْصِيَةِ، نَحْوَ مَا يَذْكُرُ الْجُمْهُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عَمْرٍ، وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ، كَمَا تَرَاهُ مُجْمُوعاً فِي (الدَّر المنثور)^(٢).

وفيمَا ذَكَرْنَا رَوَايَتَهُ عَنِ الرِّضَا (عليه السلام) مَعَارِضَةً لِمَا رَوَى عَنِ الْبَاقِرِ (عليه السلام)، وَرَاوِيَهُ عَنِ الْبَاقِرِ مُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الضَّعِيفِ وَغَيْرِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْبَاقِرُ (عليه السلام) بِحَسَبِ حَالِ الْوَقْتِ، وَعَطَاءٌ حَكَمِي لَهُ مَا يَرُودُهُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبٍ مِنْ دُونِ مَا يُشْعُرُ بِتَصَدِيقِهِ، وَالشَّيْخُ فِي (التَّبْيَانِ) لَمْ يُشِرْ إِلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَيُتَّعَدُّ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا.

والقول بكونها منافية لعصمة الملائكة، يمكن دفعه بأن يقال: بَأَنَّ الْمُسْلِمَ مِنْ عَصَمَتِهِمْ هُوَ مَا دَامُوا مُجَرَّدِينَ عَنِ الشَّهْوَةِ وَالْهَرَصِ، لَا مَا إِذَا جُعِلَا فِيهِمْ كَمَا تَقُولُهُ الرِّوَايَةُ، وَاقَّهَ الْعَالَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ١: ٢٧٦/٢.

(٢) تفسير القمي ١: ٥٥. الدر المنثور ١: ٢٣٩.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ اللام للقسم، والجملة التي بعدها جوابه ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ اللام للابتداء، و«من» مبتدأ، والضمير يعود إلى «السحر وما تتلوه الشياطين».

وعبر عن اتباعه وتعلمه بالشراء، إشارة إلى أنهم بذلوا بآزانه وبدلاً عنه دينهم وأخبرتهم، فمن اتبعه واشتراه ﴿مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي نصيب، وذلك هو الخسران المبين، وجملة «ماله» خبر لـ«من» والجملة من المبتدأ والخبر معمولة لـ«علموا» لأن الأصل في أفعال القلوب أن تتعلق في العمل بالنسب الموجودة في الجمل.

﴿وَلَيْتَسَ مَا شَرَوْا﴾ أي باعوا، ويمكن أن يراد به معنى الاشتراء المتعارف على نحو ما ذكرناه في الآية التسمين ﴿بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فإنه أقبح الأثم وأخسها.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَخُوفٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لهم مما يريدونه بعمل السحر وتعلمه، فضلاً عن كمال الإيمان والتقوى وخسة السحر ونقصه، واللام رابطة لجواب «لو» ومثوبة بمعنى: ثواب، مبتدأ، وخبر: خبره، والجملة جواب لو، ونكرت «مثوبة» لبيان أن فرداً وأقل، مصداق مما عند الله من الثواب، خير لهم مما اتبعوه.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولو هنا بمعنى التمني جرياً على ما يستعمله الناس في المحاورات في مثل المقام، وانه يحل ويتقدس عن حقيقة التمني.

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
 انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾
 مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ
 أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أخرج أحمد في (مُسْنَدِهِ) عن ابن عباس، وفي (الدُرِّ المنثور) أخرج أبو نعيم في (الحلية) عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما أنزلت آية فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَّا وَعَلَى رَأْسِهَا وأميرها.

وفي (الحلية): أَنَّ النَّاسَ يَرَوْنَ هَذَا الْحَدِيثَ^(١)

وفي (النيابيع) أخرجه موفق بن أحمد، عن مجاهد وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال موفق: رواه جماعة من الثقات، هم: الأعمش، والليث، وابن أبي ليلى وغيرهم، عن مجاهد وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢).

وفي (الصواعق): أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، واللفظ: إِلَّا وَعَلَى (عليه السلام) أميرها وشريفها^(٣).

وفي (كشف الغمّة) من نحو هذا كثير عن ابن مردويه بأسانيد، عن ابن عباس وحذيفة^(٤). ولا معنى للرواية إِلَّا أَنَّ عَلِيًّا (عليه السلام) رأس الذين آمنوا وأميرهم وشريفهم.

﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ جاء في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء أَنَّ الْيَهُودَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ويقولون: رَاعِنَا، لِيَأْ بَالْسُنْتَهُمْ، وطعننا في الدين.

وفي (تبيان الشيخ): قال أبو جعفر (عليه السلام)، يعني الباقر: هذه الكلمة - يعني راعنا - سبّ بالعبرانية، إليه كانوا يذهبون. قال الحسين بن علي المغربي: فبحثت عن ذلك أي عن السبّ الذي ذكره الباقر (عليه السلام)، فوجدتهم يقولون: «رَاعَ» على وزن

(١) الدر المنثور ١: ٢٥٤، حلية الاولياء ١: ٦٤.

(٢) مناقب الخوارزمي: ١٨٨ و ١٩٨، نابيع المودة: ١٢٥.

(٣) الصواعق المحرقة: ١٢٧.

(٤) كشف الغمة ١: ٣٠٢ و ٣١٤ و ٣١٧.

«قَالَ» بمعنى الفساد^(١). انتهى.

أقول: وقد تبيّنت العهد القديم العبراني فوجدت أن كلمة «داع» بفتحة مشالة إلى الألف، وتسمّى عندهم «قامص» تكون بمعنى الشرّ أو القبيح، ومن ذلك ما في الفصل الثاني والثالث من السفر الأول من توراتهم، وبمعنى الشرير واحد الأشرار، ومن ذلك ما في الفصل الأول من السفر الخامس، وفي الرابع والستين والثامن والسبعين من مزاميرهم، وفي ترجمة الأنجيل بالعبرانية، «ونا» ضمير المتكلم، وفي العبرانية يُبدّل ألفها واواً، أو تحال إلى الواو، فتكون راعنا في العبرانية بمعنى شريرنا، ونحو ذلك.

وراعنا في العربية فسرها في (التبيان): استمع منا ونسمع منك^(٢)، وفي (القاموس): استمع لمقالي^(٣)، وفي (النهاية): المراعاة: الملاحظة^(٤)، ونهي المؤمنون عن قولهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «راعنا» لئلا يتخذها اليهود في خطابهم لرسول الله وسيلة لسيئه والظعن في الدين.

«وَأَسْمَعُوا» ما يقول الرسول «وَالْكَافِرِينَ» الذين يسبون رسول الله، أو الذين لا يسمعون قوله «عَذَابٌ أَلِيمٌ».

«مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا» من «الشّركين» أن يُنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ من: زائدة لوقوعها في حيز النفي، وفائدتها بيان الاستغراق وتأكيده «مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ» ورسالته «مَنْ يَشَاءُ» على مقتضى المصلحة والأهلية، فإنه أعلم حيث يجعل رسالته «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» لا يمنع فضله عمن هو أهل من أي قوم كان.

(١) تفسير التبيان ١: ٣٨٩.

(٢) تفسير التبيان ١: ٣٨٨.

(٣) القاموس المحيط ٤: ٣٣٧.

(٤) النهاية ٢: ٢٣٦.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٦٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
 كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَانِ
 فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا رَاحِشُوا
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا
 وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِ قُضَىٰ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٩﴾

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قد سُمي القرآن ما جاء في الكتب الإلهية السابقة
 بالآية والآيات ومدح من يتلوها، ففي سورة آل عمران بعد ذم أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا
 سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(١)
 وفي سورة مريم بعد ذكر النبيين والصالحين من السلف: ﴿إِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾^(٢)
 الآية.

وفي سورة الزمر: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾^(٣).

(١) الآية: ٨٨٣.

(٢) الآية: ٥٨ و ٥٩.

(٣) الآية: ٧٨.

والتَّنْسخ والتبديل نظيران، والظاهر أنَّ المراد تبديلها لا تبديل حكمها بالنسخ الاصطلاحي، فإنَّ في الثاني تجوُّز لا قرينة عليه، بل قد يمنع منه السياق والظائر.

﴿أَوْ تَنْسِيَهَا﴾ بضمَّ النون الأولى وسكون الثانية وكسر السين وحذف الياء - حرف العلة - للجزم بالعطف على تَنسَخ، وهو من النسيان، وأنسى بالألف اللينة حرف العلة يُنسي بالياء في آخرها، لا من النسيء، وأنساً يُنسأ بالهمزة في الآخر، ولو كان من ذلك لكان جزمه بسكون الهمزة أو الياء إذا أبدلت ياءً، إذ لا يجوز حذفها لأنها ليست بحرف علة، وإنَّ مناسبة السياق في الآية التي قبلها لتشير إلى أنَّ المضمون هو أنه: وإن كبر على أهل الكتاب نسخ كتب الأنبياء وآياتها بالقرآن وآياته في مقام التلاوة والذكر والصلاة والشريعة والهداية وغير ذلك، فضلاً عن أنَّ تلك الكتب وآياتها قد حُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ حتَّى صارت حقيقتها نسياً منسياً، فإنَّ القرآن مُنزَّل من الله بحسب المصلحة التي اقتضت إزاله، وإنه ما تَنسَخ من آية أو تَنسِيها ﴿تَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ في الأثر ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾.

ونُسِبَ الإنساء إلى الله مجازاً، كما نُسِبَ الإضلال باعتبار تمرّد المنتسبين إلى كتبها، حتَّى خرجوا عن أهلية اللطف والتوفيق، فوكَّلهم الله إلى أنفسهم الأمانة فحرَّفوها وبَدَّلوها إلى أن صارت نسياً منسياً.

ولا مصداق لهذه الآية في آيات القرآن بعضها مع بعض، أمَّا نسخ نفس الآية القرآنية، بمعنى نسخ تلاوتها، فلا تكاد أن تعرف له مصلحة تقتضيه، فضلاً عما يَخْتلج من وجوه المفسدة، مضافاً إلى أنه لا دليل على وقوعه، ولئن رُوِيَ في ذلك شيء فقد مرَّ في الأمر الثاني والثالث من الفصل الثاني من المقدمة ما يُبطله ويكذِّبه.

وقد حكى عن (مقالات الشيخ المفيد) أنَّ عدم هذا النسخ مذهب الشيعة، وجماعة من أهل الحديث وغيرهم^(١).

وأما ما حُكي عن العلامة في (نهاية الأصول)، والكَركي في طهارة (جامعه) والطَّبْرسي، في أقسام النسخ من القول بوقوعه^(٢)، فقد استندوا له بما يُزعم من آية

(١) أوائل المقالات: ١٠٦.

(٢) مجمع البيان: ١، ٣٤٥، جامع المقاصد: ١، ٢٧٠.

الرجم، وقد أشرنا إلى ما فيها مضافاً إلى ما ذكر.

والظاهر أن نسخه بهذا المعنى منافٍ لقوله (صار): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) وأما إنساؤها ونسيانها فهو منافٍ لآية الحِفظ المذكورة، ولقوله (صار): ﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٢).

ولا تشبَّث بقوله (صار): ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٣) فإن حمل الكلام على الاستثناء بالمشيئة لا يبقِي وجهاً للامتنان، والوعد بقوله (صار): ﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ بل إن المقصود منه الاستدراك لبيان أن عدم النسيان إنَّما هو بقُدرة الله ومشيئته لا لأمر طبيعي لازم، بل لو اقتضت المصلحة وشاء الله أن يتركه وبشريته لنسي، كما في قوله (صار) في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾^(٤) وقد أطلنا الكلام في المقام لأنَّه لم يعطَ حقَّه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ خطاب وتوبيخ للإنسان بدليل ما يأتي ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يُنزل الخير ويُرسل الرسل ويرحم ويلطف بهم، ويأت بخير مما نَسَخ، ولا يخص بلطفه قوماً دون قوم وهم أهل له.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الإنسان ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكلَّ الناس عباده، يفعل ما يشاء وما يقتضيه لطفه ورحمته بمن هو أهل، ولا يفوته أحد ممن تمرَّد عليه وعصاه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ الذي أرسل إليكم كافة ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ من طلبهم رؤية الله وغير ذلك من اقتراحات العناد.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يقال ضلَّ الطريق وضلَّ عنه.

(١) الحجر: ٩٥.

(٢) الأعلى: ٨٧.

(٣) الأنعام: ١٢٨.

(٤) الآية: ١٠٨.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ قد تقدّم الكلام في «لو» بعد «ودّ» في الآية السادسة والتسعين ﴿حَسَدًا﴾ لكم ﴿مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأمانة الزائفة التي اختاروا غوايتها على هدى عقولهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْطَفُوا﴾ عن فَلَئِن حَسَدَهُمْ ومحاولتهم لإضلالكم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ من الأمر بمقاييم من الطرد والجلاء أو القتل، حينها يتظاهرون بالغدر والعداوة لكم وللدّين، فتقوم عليهم الحجة، ويمكنكم الله منهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها ومواقبتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فإن ذلك خير يعود لأنفسكم ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ في دار العمل والتكليف لدار الجزاء والنعيم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ بالأعمال الصالحة ﴿يَجِدُوهُ﴾ أي يجدوا جزاءه وثوابه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ إن الله بها تَعْمَلُونَ بصير ﴿وإن أسررتهم به﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي أهل الكتاب المذكورون فيما قبل ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ أي يهوديًا، قالت اليهود ذلك، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من

كان نصرانيًا، وأوجز الكلام بأحسن إيجاز بقوله (عازي): ﴿أَوْ نَصَارَى﴾ ومغزى كلام كل منهم أن المسلمين لا يدخلون الجنة.

﴿تِلْكَ﴾ أي دعوى كل فريق منهم أنهم يدخلون الجنة ﴿أَمَانِيَّتُهُم﴾ الكاذبة التي يعلّلون بها أنفسهم أنهم يدخلون الجنة.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وحجبتكم على هذه الدعاري وتلك الأمانى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها، فإن الصادق لا بد له من حجة وبرهان.

﴿بَلَى﴾ رد وإبطال للنفي الذي قالوه، على نحو قوله (عازي) في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَهُمْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾^(١).

﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ نحو أسلم أمره إلى الله: أي وكله وخلّاه، ولم يتداخل فيه بمعارضة المشيئة، فالمراد هنا كما في سورة آل عمران^(٢)، والنساء^(٣)، ولقمان^(٤)، أي وكلّ وخلّا ﴿وَجْهَهُ﴾ الوجه معروف، والمراد الكناية عن إقباله وتوجهه في سبيل المعرفة والعبادة والطاعة، وطلب التوفيق والهدى، وأسلمه ﴿لِلَّهِ﴾ ولم يتداخل فيه بزيغ الأهواء وتزعجات الضلال وتزعجات النفس الأمّارة، وإلى هذا تنحو أقوالهم في التفسير: أخلص نفسه لله، أو وجهه وجهه لطاعة الله، أو فوّض أمره لطاعة الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أفرد الضائر باعتبار لفظ «من»، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عقاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ﴾ من أجل استحقاقهم للعقاب.

قال في (الدر المنثور) في نزول الآية الآتية: أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس^(٥)، وذكر قصة ذكرت في (التيبان) و(مجمع البيان) بقولها: قال ابن عباس^(٦)، وأوردها الواحدي كالمعلومات بلا رواية^(٧).

(١) الآية: ٧.

(٢) الآية: ٢٠.

(٣) الآية: ١٢٥.

(٤) الآية: ٢٢.

(٥) الدر المنثور ١: ٢٦٣.

(٦) تفسير التيبان ١: ٤١٤، مجمع البيان ١: ٣٥٨.

(٧) أسباب النزول: ٢٣.

وفي القصة: أَنَّ واحداً من نصارى نجران قال لليهود: ما أنتم على شيء،
وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، ويوهن القصة أنه ليس في النصارى من يجحد نبوة
موسى ويكفر بالتوراة، بحيث ينسب الله كلامه إلى النصارى بقوله: ﴿وَقَالَتِ
النَّصَارَى﴾ وما آفة الأخبار إلا رواياتها.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ
اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهِ اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَلَا خَافِيَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ لأنهم ليسوا على نحلتهن
﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لأنهم ليسوا على نحلتهن، وكل من
الفريقين يوجه قوله المذكور إلى كل من لم يكن على نحلته، حتى إلى المسلمين يقولون
قولهم هذا ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي نوعه، وهي الكتب التي بأيديهم، وينسبونها إلى
الوحي والنبوة، مع أن في تلك الكتب كلمات حق وبقية من الوحي الحقيقي، بحيث
يدينون به، وفي تلك الكلمات التي يتلوها ما حاصله: أَنَّ الجنة والنجاة ودين الحق
مقرونة بتوحيد الله حق التوحيد، وعبادته وطاعته، والتصديق بأنبيائه وكتبه وآياته، وإن
في اليهود قبل زمان عيسى، وفي النصارى من خواص المسيح وأتباعه، من كان على

الصراط المستقيم من ذلك، فكيف يقول كل فريق قوله المذكور وهم يتلون كتبهم، ويعلمون ما هو الأساس في دين الحق؟
 ﴿كَذَلِكَ قَالَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما هو الأساس في دين الحق
 ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ويحكم لمن كان
 على حقيقة الدين الصحيح.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ﴾ المسجد: هو الذي تعتاد فيه عبادة الله
 والسجود له، وإن كان من المشاهد التي لا تُسمى في اصطلاح الفقهاء مسجداً ﴿أَنْ
 يُذَكَّرَ فِيهَا ٱسْمُهُ﴾ وتُعبَد فيها بالصلاة وتلاوة كتابه ﴿وَسَقَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾.
 وفي (التيبان) قيل: المراد به مشركو العرب من قُرَيْشٍ، لأنهم صدّوا رسول
 الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن المسجد الحرام. وهو المروي عن أبي عبد الله
 الصادق (عليه السلام).^(١)

قلت: وفي (الدر المنثور) أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم، عن ابن عباس
 ما هو من هذا النحو^(٢)، وعليه فمعنى خرابه أن يبقى للعبادة الباطلة كالمكاه،
 والتّصديّة، والسجود للأصنام، وطواف الرّواة من الرجال والنساء.

والظاهر أن ما روي بيان لمورد النزول الذي لا يجعل العامّ خاصاً، وفي المقام
 تفاسير عجيبة غريبة، منها ما ذكره الواحدي عن قتادة، وذكره غيره عن الحسن
 أيضاً، وهو: أن يختصّر خرب بيت المقدس، وأعانتة على ذلك النصارى^(٣). وليت
 شعري أين يختصّر من النصارى، وهو قبل المسيح بنحو ستّائة سنة! وقريب منه في
 الغرابة ما ذكره الواحدي^(٤)، وروي عن كعب الأحبار^(٥).

(١) تفسير البيان ١: ٤٦٦.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٦٤.

(٣) أسباب النزول: ٢٣، تفسير الرازي: ٩.

(٤) قال: الآية نزلت في ططولس الرومي وأصحابه من النصارى، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم،
 وسبوا ذراريهم، وحرّقوا التوراة، وخرّبوا بيت المقدس، وقذّفوا فيه الجيف. وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي.

(٥) الدر المنثور ١: ٢٦٥.

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي مساجد الله ﴿إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ على سبيل المثال، أي له جميع الجهات، وكلها في سلطانه، بدليل قوله (س)، فيها يأتي: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(١) في تحويل القبلة من بيت المقدس وجهة الشمال الغربي، إلى الكعبة وجهة الجنوب، أي: والله كل الجهات، ليس لجهة من الجهات دون الأخرى خصوصية ذاتية طبيعية تربطها بالتوجه إلى عبادة الله ودعائه.

﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وحاشا لله أن تختص به جهة أو مكان.

وفي صحيحة (الفقيه): عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام): ونزلت هذه الآية في المتحير - أي في صلاة الفريضة - ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا﴾ الآية^(٢). وروى أنه احتج الصادق (عليه السلام) بالآية لصحة سجود التلاوة لغير القبلة، كما في رواية الصدوق في (العلل) عن الحلبي، عنه (عليه السلام)^(٣)، ولعدم القضاء لصلاة الفريضة إذا ضللت خطأ لغير القبلة، كما في رواية (التهذيب) عن محمد بن الحُصَيْن الجعفي، عن العبد الصالح (عليه السلام)^(٤).

(١) البقرة ٢: ١٤٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٩/٨٤٦.

(٣) علل الشرائع: ١/٣٥٨.

(٤) التهذيب ٢: ٤٩/١٦٠.

وروى الجمهور في صحّة الصلاة في هذه الصورة أنّه أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بها أو سُئِلَ عنها فنزلت الآية^(١).

ذكر في (الدر المنثور) أسماء عشرة أخرجوا هذا عن عامر بن ربيعة، وأسماء ثلاثة أخرجوه عن جابر الأنصاري^(٢).

ورواها الواحدي في (أسباب النزول) بإسناده عن عامر وجابر^(٣). وفي (الدر المنثور): أن ابن مردويه أخرج نحوه بسند ضعيف عن ابن عباس^(٤).

وفي رواية الصدوق المتقدمة أن الصادق (عليه السلام) احتج بالآية لصحة صلاة النافلة على الدابة أينما توجهت^(٥).

وفي (الدر المنثور) ذكر أسماء عشرة منهم: مسلم والترمذي والنسائي أخرجوا ذلك عن ابن عمر، وأسماء أربعة منهم الحاكم، وصححه، عن ابن عمر أيضاً^(٦).

وفي (الدر المنثور) أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد، قال: لما نزلت ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٧) قالوا: إلى أين؟ فأنزلت: ﴿فَإِنبَأُوا قَوْمَهُمْ وَجْهَهُ﴾^(٨).

هذا، وإنّ النظر إلى مجموع هذا المروي، ودلالة الآية وحجتها، يرشد بأن رواية نزولها في مورد خاصّ إنّما هو باعتبار انطباقها عليه وإرادته في عموم تنزيلها، كما أنّ المرويّ ولسان الآية وسوقها تشهد بأن مفادها قاعدة عامّة مبيّنة بالحجّة التي يشهد

(١) سنن ابن ماجه: ١/٢٢٣/١٠١١ و: ٢/٢٢٦/١٠٢٠، سنن الترمذي: ٢/١٧٣/٣٤٤ و: ١/١٧٦/٣٤٥، حلية الأولياء: ١/١٧٩.

(٢) الدر المنثور: ١/٣٦٦.

(٣) أسباب النزول: ٢٤.

(٤) الدر المنثور: ١/٣٦٧.

(٥) علل الشرائع: ١/٣٥٨.

(٦) الدر المنثور: ١/٣٦٦.

(٧) غافر: ٤٠: ٦٠.

(٨) الدر المنثور: ١/٣٦٧.

بها العقل أيضاً، إلا أن الله خص بعض الأماكن تكريماً لها بأن يستقبلها من يُصلي الفريضة وقسماً من النافلة، ويوجه إليها الميت والذبيحة حسبها يدل عليه الكتاب والسنة، وما عدا ذلك يبقى لحكم العموم في الآية المحكمة وحُجَّتْها.

ويؤكد عمومها ويحكمه قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ في الرحمة واللفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يتوجه إلى حضرته بالطاعة.

ومن العجب قول الواحدي: ومذهب ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بقوله (تعالى): ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ^(١) أفلا يعلم كل مسلم أن آية: ﴿أَيْنَمَا تَوَلَّوْا﴾ إن كان نزولها قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فهي مخصصة من أول نزولها بالتوجه في الفريضة إلى جهة خاصة، وكانت إذ ذاك جهة بيت المقدس، لأن صلاة الرسول إليها كان من أول وروده إلى المدينة؟! وما عشت أراك الدهر عجباً، فقد نشأ في بدع قوم في عصورنا ينعون ويضربون من يتوجه في مسجد الرسول الأكرم عند دعائه واستشفاعه بالرسول إلى جهة قبره الشريف في ناحية المشرق، كأن الله لم ينزل الآية المتقدمة، ولم يعرفوا من العادة أن المستشفع يقدم شفيعه بين يديه، ويحكم الله وهو خير الحاكمين.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ ﴿١٣٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ

قَدَبَيْتَنَا الْآلَيْتَ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٧٩﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ والقائل بذلك النصارى، بل وغيرهم ممن أخذوا عنه
كالنوبان وغيرهم والبراهمة والبوذيين، إذ جعلوا زُعباء دياتهم آلهة مولودين من الله
﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزهاً وتعظيماً له عن ذلك.

﴿هَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والكل سواء في أنهم مخلوقون لله والله
وملكه ﴿كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ﴾ ذكروا من معاني القنوت الخشوع والطاعة، أي خاشعون
أو مطيعون بالانقياد لخالقيتهم وقدرته وإلهيته، فأين الولدية والإلهية من المخلوق! وجاء
قانتون بالجمع المذكر السالم تغليظاً.

﴿بَدِيعٌ﴾ مبالغة في مبدع، أي مُنشئ ومخترع ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا
باحتماء مثال قبلها.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي خلق وصنع، كقوله (تعالى) في سورة فصلت: ﴿فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١).

وقول أبي ذؤيب:

وَعَلَيْهَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ، أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغِ تَبَعٌ^(٢)
والأمر: الشيء أو الحادث ﴿فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ أي لا يحتاج إلى تمهيد
مقدمات ومعدات يحتاج إليها وجوده ويمتنع بدونها، بل الأشياء طوع إرادته، يريد
فيكون.

(١) الآية: ١٧٢.

(٢) المسرودة: الدرغ المتفوية، ويقال: صَنَعَ الْبَدِين: أي صانع حاذق، السوابغ: جمع سابعة، وهي الدرغ الواسعة.

«المخصص ٦: ٧١، ١٣: ٣٤».

ويروي: صَنَعَ السَّوَابِغِ. «لسان العرب - صنع - ٨: ٢٠٩، - قضي - ١٥: ١٨٦».

وقوله (هـ): ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ إنا هو كناية عن إرادته بها يظهر به الناس إرادتهم، وهو أمرهم.

﴿فَيَكُونُ﴾ تفريع على ﴿يقول﴾، وليس جزاء لقوله (هـ): ﴿كُنْ﴾ لأنَّ الكون بعد الفاء هو نفس الكون المأمور به لا جزاؤه المترتب عليه، وتوهم أنه جزاء لذات الطلب أو للكون مع الطلب مدفوع بأنه لو صحَّ لوجب أن يُنصب قوله (هـ): ﴿فيكون﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بمواقع حكمة الله وحُجَّته ودلالة آياته ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ لولا هنا بمعنى هلاً للعرض والطلب، والمراد تكليمه لهم بخصوصهم. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ خاصة بهم بحسب اقتراحهم عتواً واستكباراً، كما حكاها الله عنهم في سورة الإسراء المكية من قوله (هـ): ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله (هـ): ﴿حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً تَفْرُغُ﴾^(١).

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ في الاقتراح الفاسد، مع أنهم شاهدوا ما تقتضيه الحكمة من الآيات والدلائل، حيث قال اليهود: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٢) وذلك بعد ما رأوا الدلائل على رسالة موسى، كآية العصا وشق البحر.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الضلال والكفر بالآيات البينات، ولو جرت الآيات على حسب اقتراح المترحين من المنهمكين بالضلال والمهارة لخرجت عن كونها آيات، بل صارت بذلك أموراً عادية لا تقوم بها حجة، فضلاً عن أنَّ كثيراً منهم يطلب المستحيل عقلاً، كقول بني إسرائيل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهل الآيات إلّا ما تقتضيه الحكمة بحسب حال المدعوين إلى الإيمان، مما يفيد اليقين ويقوم بالحجة، وقد جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك على أحسن وجه.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بما يوجب اليقين بدلالته الكافية، ولا

يُبارون فيها بعناد الضلال وتحكم الأهواء، فقد نزل القرآن مُعْجِزاً على ما تقتضيه الحكمة من وجوه عديدة، فاستنار بيقينه الموقنون، وقطع المعاذير على الجاحدين والمرتابين، إذ تحداهم بالإتيان بعشر سُورٍ أو سورة من مثله.

قلت: وقد أُشير إلى شيء من ذلك في الفصل الأول من المقدمة.

ولا تأس - يا رسول الله - من قول هؤلاء ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾^{١١٦} للمؤمنين بها أعد لهم من النعيم ﴿وَنَذِيرًا﴾^{١١٧} بها أعد للكافرين والمعاندين من العذاب والموان ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾^{١١٨} الذين استحقوها بسوء اختيارهم.

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِاللَّهِ فَهُمْ يُبَوِّهُنَّ وَلَوْ هُوَ الْغَيْبُ ۖ فَتَتَّبِعُوا مَا يَكْفُرُ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٦﴾ يَتَّبِعِ إِسْرَاءَهُ يَلْ أذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١٨﴾

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ حتى تتبع ملتهم، وحذف ذلك لدلالة قوله (سار): ﴿وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ﴾ إني اتبع الهدى، وأين منه أهواؤكم وتقليدكم فيها! ﴿وَلَوْ هُوَ الْغَيْبُ﴾ ولئن اتبعت أهواءهم بغد الذي جاءك من العلم ﴿فَتَتَّبِعُوا مَا يَكْفُرُ بِهِ﴾ لا لكل أحد قامت عليه

الحجة من عقله وتبليغك ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متعلق بالمطلوب من الولي والنصير، وهو الإنقاذ والتخليص ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مِنْ: زائدة، ولي: مبتدأ، ومالك: خبره.

﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ الجملة حال لـ «آتيناهم» لا خبر فإن ما كُلُّ من أوتي القرآن تلاه حق تلاوته.

وفي (مجمع البيان) وعن العياشي، عن أبي عبدالله (عليه السلام): أن حق تلاوته هو الوقوف عند ذكر الجنة والنار، يسأل في الأولى، ويستعيز من الأخرى^(١).

وهذا ملازم في المعنى لما عن الذيلمي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) أيضاً، قال: يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعلمون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأثرون بأوامره، ويستنهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته ودرس حرفه وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حرفه وأضاعوا أحكامه، وإنها هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال (عليه السلام): ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٢).

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ جملة «أولئك» خبر للذين ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وذلك هو الخسران المبين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قد مر الكلام في الآيتين بعد الآية السادسة والأربعين، وقد كررت الآيتان هاهنا تسجيلاً لمعناها على اليهود.

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالِ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

(١) تفسير العياشي ١: ٨٤/٥٧، مجمع البيان ١: ٣٧٥.

(٢) إرشاد القلوب: ٧٨، الآية في سورة ص ٣٨: ٢٩.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ سياق الآيات الثلاث التي بعد هذه الآية وعطفهن عليها يقتضي أن تكون كلمة «إِذ» مفعولاً له «أُذْكَر» القولية المقدرة، فتكون الآية وارتباط كلماتها ومعانيها تستلزم أن يكون قوله (عنه) : «إِنِّي جَاعِلُكَ» إلى آخره تفسيراً للكلمات، والفاعل في «أَتَمَّهُنَّ» هو الله، ويشهد لذلك رواية ابن بابويه في كتاب (النبوة) عن الْمُفَضَّل بن عمر، عن الصادق (عليه السلام) ^(١).

وعليه جرى ما حكاه في (مجمع البيان) عن قتادة وأبي القاسم البلخي واختيار الحسين بن علي المغربي ^(٢).

وفي (الدر المنثور) أخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: الكلمات ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والآيات التي بعدها ^(٣).

وأخرج ابن جرير وابن أبي شيبه، عن مجاهد نحوه ^(٤).
وإن كانت كلمة «إِذ» ظرفاً معمولاً له «إِنِّي جَاعِلُكَ» كانت الكلمات شيئاً آخر، فيظن أن يكون الفاعل في «أَتَمَّهُنَّ» هو إبراهيم.

وفي (تفسير القمي) قال: هو ما ابتلاه الله بها أراه في نومه من ذبح ولده، فأتمها إبراهيم ^(٥)، إلخ. ولم يعلم أن القائل هو القمي أو الإمام.

وروي في (الدر المنثور) عن ابن عباس في هذا النحو خمس روايات متداخلة ^(٦)، نحو ما ذكره في (مجمع البيان)، وعلى ما ذكرناه أولاً يكون المعنى ابتلى إبراهيم بكلمات إمامته وإمامة الأئمة وتحمل أعبائها وأداء شكرها ^(٧).

(١) مجمع البيان ١: ٣٧٨ عن كتاب النبوة.

(٢) مجمع البيان ١: ٣٧٩ و ٣٨٠.

(٣) تفسير الطبري ١: ٤٦٥، الدر المنثور ١: ٢٧٤.

(٤) تفسير الطبري ١: ٤٦٥.

(٥) تفسير القمي ١: ٥٩.

(٦) الدر المنثور ١: ٢٧٣ و ٢٧٤.

(٧) مجمع البيان ١: ٣٨٠.

﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ويرجعاً ومقصداً وزعيماً في أمور الدين والدنيا، وقد استفاض الحديث عن الأئمة (عليهم السلام) أنَّ إمامة إبراهيم كانت بعد نبوته ورسالته، كما في (الكافي) عن جابر، عن الباقر (عليه السلام)، وعن زيد الشحام، وعن هشام، ودرست، عن الصادق (عليه السلام)^(١).

وفي (العيون) عن عبدالعزيز بن مسلم، عن الرضا (عليه السلام)^(٢). ويدل على ذلك أيضاً: أنَّ نبوة إبراهيم كانت قبل أن يولد له ولد، وقبل شيخوخته، ومقتضى الآية أنَّ قول الله له بجعله إماماً كان بعد أن صار له أولاد يرجو أن يكون له منهم ذرية، وأما قبل ذلك فلم يكن له رجاء، فإنَّ القرآن في سورة الحجر يُعبر عنه لما بشر بإسحاق، قال: ﴿أُبَشِّرُكَ نَوِي عَلَى أَنْ تُسْنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُكَ﴾^(٣). ولا يكون جاعل هنا بمعنى جعلت في الماضي، لأنَّه عامل بالمفعول، وهو «إماماً» وقوله (صار): ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ«جاعل» وفيه إشارة إلى الامتتان على الناس، وأنَّ الإمامة لطيف من الله، ومن أكبر المصالح لأموهم، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿إِمَامًا﴾ وقدَّم للاهتمام بعموم الإمامة للناس، وارتباطها بمصالحهم العامة والخاصة.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ الظاهر أنَّ هذا عطف على «جاعل» في جاعلك، أي وجاعل من ذُرِّيَّتِي، ويكون بمنزلة الإستفهام التقريري لمزيد الاستبصار والابتهاج، ونحو من الشكر إذا علم من الكلمات والأساء أنَّ الأئمة من ذُرِّيَّتِهِ، أو للاستفهام إن لم يعرف أنهم من ذُرِّيَّتِهِ.

وقيل: إنَّ المعنى واجعل من ذُرِّيَّتِي^(٤)، وفيه تكلف في التقدير الزائد على دلالة السوق، خصوصاً مع النظر إلى رواية المفضل الدالة على معلومية أساء الأئمة في ضمن الكلمات، فإنَّه يبعد من مقام إبراهيم أن يطلب الزيادة على ما أخبره الله

(١) الكافي ١: ١٣٣/٢ أو ١٣٤/٤.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ١: ١/٢٦٦.

(٣) الآية: ٥٤.

(٤) تفسير النبيان ١: ٤٤٧، مجمع البيان ١: ٣٨٠.

بتقديره.

﴿قَالَ﴾ الله (جاءه) في بيان ما لهذه الإمامة من الفضل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بياناً لشرف الإمامة في فضيلتها العظمى وفضل الإمام، فإن الإمامة بجملي وعهدي في الدلالة على الإمام بحسب أهليته لهذه الكرامة في كماله وقيامه بمصلحة الناس، على ما يقتضيه اللطف في صلاحهم وأهليته لانقيادهم إليه، وهذا العهد الكريم من نحو الوصية والدلالة على التمين، ونظير ذلك قولهم وليّ العهد.

والظالم: يعم من ظلم نفسه بمخالفته للحق، وكيف يليق من لا رادع له من كماله عن الظلم لنفسه أو لغيره لأن يمهّد الله إليه بإمامة الناس وإصلاح أمورهم وإرشادهم ﴿أَقْمِنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾^(١)؟

وفي رواية (البرهان) عن (الكافي)، والمفيد عن هشام بن سالم وقرئت، عن الصادق (عليه السلام)، في تفسير الآية: مَنْ عَبْدَ صَنّاً أَوْ وَتّاً أَوْ مِثَالاً لَا يَكُونُ إِمَاماً^(٢).

وعن (أمالى الشيخ) مُسْتَدّاً، وابن المغازلي في (المناقب) مرفوعاً عن عبدالله بن مسعود، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، في الآية، عن قول الله لإبراهيم: مَنْ سَجَدَ لَصْنِمَ دُونِي لَا أَجْعَلْهُ إِمَاماً.

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): فانتَهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ لم يسجد أحدنا لَصْنِمَ قَطُّ^(٣).

وعن (الكافي) مُسْتَدّاً، والشيخ المفيد مرفوعاً عن الصادق (عليه السلام): لَا يَكُونُ السَفِيهَ إِمَامَ التَّقَى^(٤).

فيكون ذكر عبادة الصنم من باب النصّ على أحد المصاديق من موانع الإمامة، وهي ما تُنافي العصمة التي يدلّ العقل على اعتبارها في هذه الإمامة، ومن

(١) يونس ١٠: ٣٥.

(٢) الكافي ١: ١٣٣، الاختصاص: ٢٣، تفسير البرهان ١: ١٤٩/٢.

(٣) أمالي الطوسي ١: ٣٨٨، مناقب ابن المغازلي: ٢٧٦/٣٢٢.

(٤) الكافي ١: ١٣٣، الاختصاص: ٢٢.

شواهد ذلك ورشحاته أَنَّ الفطرة وحكم العقل بعثت جميع الحكومات المتعدّنة على أن تجعل من قوانينها الأساسية أَنَّ من حكم عليه بجريمة تُوجب العقوبة، ولو بسجن مدّة قليلة، يكون ساقطاً باصطلاحهم عن الحقوق المدنية، أي لا تكون له وظيفة في الحكومة يتسلّط فيها على غيره، ولا تنفعه في ذلك توبة، أليس الله بأحكم الحاكمين؟

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ
مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْمَكِينِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿وَإِذْ﴾ عطف على «إذ ابتل» في الآية السابقة ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الحرام وهو الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً لهم، والثناء للمبالغة، لأن مرجعيته للناس جعلت دائمة، فإنك ترى من يتحمّل المشاق في زيارته يشترق إلى الرجوع إليه مرّة بعد أخرى، وهذا سرّ غريب وآية من آيات الله ﴿وَأَمْنًا﴾ يأمن من حلّ في حماه من الناس مع وحشيّة الأعراب وتعاديتهم وعداوتهم، وهذا أيضاً من آيات البيت، ويأتي له إن شاء الله مزيد بيان في تفسير الآية السادسة والتسعين من سورة آل عمران.

﴿وَاتَّخِذُوا﴾ عطف على أذكر ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مقام إبراهيم يسمى به الآن محلّ يصلى فيه، باعتبار أَنَّ فيه الصخرة التي قام عليها إبراهيم (عليه السلام) فصار فيها أثر قدميه، وقال فيه أبو طالب:

وَسَوِّطِي إِبْرَاهِيمَ فِي الصُّخْرِ وَطَاءَةً عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِياً غَيْرَ نَاعِلٍ^(١)
وفي (الكافي) في الحسن كالصحيح، عن أبي عبد الله: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه^(٢).

وفي (مجمع البيان) عن ابن عباس، قصة فيها: أن المقام صخرة وضعتها زوجة إسماعيل تحت رجلي إبراهيم لما غسلت رأسه، فأنثرت فيها قدماءه، وفيه أيضاً أن علي بن إبراهيم روى مُسنداً عن أبان، عن الصادق (عليه السلام)، هذه القصة بعينها^(١).

وفي (الدر المنثور): أن الأزرقى أخرج عن المطلب بن أبي وداعة وآخر: أن سيل أم نهشل في أيام عمر احتمل المقام من محله، فسأل عمر عن محله، فزعم المطلب أن عنده مقياس محله فوضع في محله الآن^(٢).

وفيه: أخرج البيهقي في (سُننه) عن عائشة: أن المقام كان في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب^(٣).

وفي (الكافي) و(الفقيه) في الموثق كالصحيح، عن الباقر (عليه السلام): كان موضع المقام الذي وضعه إبراهيم عند جدار البيت، فلم يزل هناك حتى حوله أهل الجاهلية إلى المكان الذي هو فيه اليوم، فلما فتح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة رده إلى الموضع الذي وضعه إبراهيم (عليه السلام)، إلى أن ولي عمر بن الخطاب، فسأل الناس: من منكم يعرف المكان الذي كان فيه المقام؟

فقال بعض: أنا. قد كنت أخذت مقداره بنسج^(٤)، فهو عندي. فأتاه به فقاسه، ثم رده إلى ذلك المكان^(٥).

وذكر نحوه في (المسالك) عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، وذكر: أن المقام هو العمود من الصخر الذي كان إبراهيم يقف عليه حين بنائه للبيت، وكان في زمن إبراهيم ملاصقاً للبيت بهذا الموضع الذي هو فيه اليوم. وفي (تفسير القمي) في سورة الحج: أن المقام كان في زمن إبراهيم يلقى بالبيت، وعليه نادى إبراهيم بالحج^(٦).

(١) مجمع البيان ١: ٣٨٤.

(٢) الدر المنثور ١: ٢٩٢ و٢٩٣.

(٣) الدر المنثور ١: ٢٩٣.

(٤) النسج: سير عريض طويل تشد به الحفائب أو الرُحال أو نحوها «المعجم الوسيط» - نسج - ٢: ٩١٨.

(٥) الكافي ٤: ٢٢٣/٢، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٨/١٦٨١.

(٦) تفسير القمي ٢: ٨٣.

وفي مُضْمَرَةِ ابنِ مُسلم، وصحيفة إبراهيم بن أبي محمود، عن الرضا (عليه السلام)، المَرْوِيَّتَيْنِ في (الكافي) ^(١) ما يدلُّ على أَنَّ محلَّ المقام على عهد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) غير محلِّه في أَيَّامِ الأئمة إلى الآن.

أقول: والظاهر أَنَّ المراد من مقام إبراهيم في الآية، هو جهة موقفه ومحلَّ قيامه، لا خصوص موطنه في قيامه أو نفس الصخرة، فإنَّه لا يمكن أن يتَّخذ منه مُصلًى. وقد روي في (الوسائل) عن أئمتنا (عليهم السلام) أكثر من اثني عشر حديثاً في أَنَّ صلاة الطواف خلف المقام بحسب موضعه في زمانهم (عليهم السلام) والآن، خمس منها استشهد فيها بقوله (صلى): ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وَسَتَ نَصَّتْ عَلَى الخَلْفِ ^(٢)، وعلى ذلك يُحمَل ما كان لفظه عند المقام والتعبير بعند فيه أيضاً تقييد لإطلاق الخلف، وكذا ما كان لفظه: ارجع إلى المقام، أو اتيت المقام، وهذا ممَّا يشهد لإرادة الجهة ومقدار سعتها.

ولعلَّ وجوب تقديم المقام بحسب موضعه الثاني لأجل احترامه عن الاستدبار، أو لأجل السر على الشيعة، والحصص في رواية زُرارة بالمقام المعروف ظاهر في أَنه بالإضافة إلى الصلاة لطواف المتطوِّع في أَنها حيث شاء المتطوِّع من المسجد ^(٣)، ويمكن أن تنزل على ذلك مُرسَلة صَفوان ^(٤)، كما يمكن أن تنزل صحيفة إبراهيم بن أبي محمود ^(٥) وسائر الروايات على السر على الشيعة، فتجوز الصلاة ما بين موضعي

(١) الكافي ٤: ١٤١٣ و ١/٤٢٣.

(٢) الوسائل ٩: ٤٧٨ - ٤٨٥، الباب ٧١ - ٧٤.

(٣) في الوسائل ٩: ١/٤٨١ عن زُرارة، عن أحدهما (عليه السلام) قال: «لا ينبغي أن تصلي ركعتي طواف الفريضة إلا عند مقام إبراهيم (عليه السلام)، وأما التطوُّع فحيث شئت من المسجد».

(٤) في الوسائل ٩: ١/٤٨٠ عن صفوان بن يحيى، عَمَّن حَدَّثَهُ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) - في حديث - قال: «ليس لأحد أن يصلي ركعتي طواف الفريضة إلا خلف المقام لقول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فإن صليتها في غيره فعليك إعادة الصلاة».

(٥) في الوسائل ٩: ١/٤٧٨ عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا (عليه السلام) أصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الساعة، أو حيث كان على عهد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)؟ قال:

قال: «حيث هو الساعة».

المقام أولاً وثانياً، ولكن الاحتمال لاحترام ذات المقام يرجع ظاهر الروايات، ومنع عن اليقين بالفراغ إلا بالصلاة خلفه.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي الطائفين به لعبادة الله، والعكوف: اللبث حوله للعبادة ولو بذات اللبث بفنائهم، والرُّكع: جمع راكم، والسُّجود: جمع ساجد، والمراد المصلين حوله.

وعن الصدوق في (العلل) والشيخ في (التهذيب) بسندين صحيحين، عن عمران وعبيد الله الأخوين الحلبيين: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): أتغتسل النساء إذا أتيت البيت؟

قال: نعم، إن الله (عز وجل) يقول: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فينبغي للعبد أن لا يدخل إلا وهو طاهر قد غسل عنه العرق والأذى وتطهر^(١). والمراد من إتيان البيت التوجه إليه للطواف ونحوه.

وعن الكليني بسند معتبر، عن محمد الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، نحوه بإسقاط السؤال، وفيه: فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة إلا وهو طاهر^(٢). الرواية، وهذا يُفسر متعلق الدخول في روايتي أخويه.

ومن المعلوم أن طواف الناس وعكوفهم وركوعهم وسجودهم العاديين إنما هي خارج البيت وحوله، وهكذا يدل على أن المراد تطهير فناء البيت من حيث حرمة البيت المضاف إلى الله، والذي جعله يطاف حوله ويعكف ويركع ويسجد، ويكون بالاعتبار الثانوي العرضي مراعاةً لحال الناسكين حوله، وبه جرى التعليل بالآية الكريمة، لأنه يدل على الاعتبار الأولي الذاتي دلالة واضحة.

والمراد من التطهير هو ما يقتضيه إطلاقه بمعناه اللغوي، وهو التنزيه عن كل ما ينافي حرمة البيت من القذارات الصورية والمعنوية، عُرْفِيَّة كانت، أو بكشف الشارع، كما يشهد لها رواية الحلبيين، والأمر في طهراً بمنزلة الخبر لبيان الوظيفة

(١) علل الشرائع: ١/٤١١، التهذيب: ٥/٢٥١/٨٥٢.

(٢) الكافي: ٤/٣٠٠.

والنَّارُضْ، كقوله: اغتسل للجنابة والجمعة، كما يشير إلى ذلك قوله (ص): ﴿وَعَهْدَنَا﴾ فلا يتمتع شموله للواجب والندب، ويسري التكليف المفهوم منه إلى غير إبراهيم وإساعيل.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرَرِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنُفْسُ الْمَصِيرِ ﴿١٢٥﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٦﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٨﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي فناء البيت وحرمة الذي هو مكة ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي يأمن أهله ومن فيه من أذى الناس ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ سَكَانَهُ ﴿مِنَ الشُّرَرِ﴾ لا كل سَكَانِهِ بل ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾ ولم يقل بك، محافظة على تخصيص الإيذان بالله بالنص على اسمه العظيم ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله (جك آية) ما حاصله أني استجيت دعاءك ولا أخص رزقي في هذه الدنيا الفانية بالمتن، ما أَرَدَقَ فيها المؤمن والكافر ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وأصر على كفره

﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ في الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ أي مَدَّة حياته القصيرة بالنسبة إلى ما وراءه وأمهله، وأقيم عليه المحجة، وأُملي له ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي أخذه قهراً بالموت والحشر ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ التي أُعدَّت للكافرين ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ مصيره.

﴿وَر﴾ اذكر ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ قاعدة البيت: أساسه، ورفع القواعد هنا: هو البناء عليها، وجعله مرتفعاً ﴿مِنْ أَلْبَيْتٍ﴾ أي الكعبة ﴿وَأِسْمَاعِيلَ﴾ حال كونهما متقربين قائلين ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ طاعتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ للدعاء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنبأتنا في طاعتك.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾ بتوفيقك ﴿مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ الظاهر أن الإسلام في الأصل: هو الدخول في السُّلم بكسر السين وسكون اللام، مثل: الإنجاد والإتهام والإيقال، والسُّلم: هو عدم المحاربة والمحادَّة.

وبالنسبة لله يتحقق بالإذعان بالهَيْتة وتوحيده ورسالة رسله وكتبه، وقد اختص في الاستعمال بهذا المعنى فصار هو الظاهر من لفظ إسلام وأسلم وأسلم. ومُسلم.

وبعد رسالة خاتم النبيين مُحَمَّد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) صار المتداول في الاستعمال هو ما ذكرناه مع الإذعان برسالته، وَأَنَّ قُرْآنَهُ وَشَرِيعَتَهُ مِنْ أَفْهِ، والإسلام الحقيقي: هو الإذعان في النفس المساوق للإيمان، وهو المراد هنا، أي: اجعلنا مسلمين لك مَدَّة عمرنا، بمعنى: ثبتنا هدايتك وتوفيقك على الإسلام كما هديتنا له.

﴿وَر﴾ اجعل بتوفيقك ولطفك ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ لم يسألا ذلك لكل ذُرِّيَّتِهما لما سبق من قول الله لإبراهيم: ﴿لَا يَنْأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لما قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أو لما يعرفانه من حال البشر في اختيارهم للإيمان، وَأَنَّ الكثير منهم من يستحبُّ العمى على الهدى، فطلبوا أن تكون من ذُرِّيَّتِهما أُمَّة مسلمة لا خصوص الإمام.

﴿وَأَرْنَا﴾ يُحتمل أن يراد بالضمير ما يعمُّ الأُمَّة المسلمة من ذُرِّيَّتِها ﴿مَتَابِسَكْنَا﴾ النسك: العبادة، والناسك: هو العابد، والمتنَّسك: هو الموضع المُعدُّ للعبادة الخاصة، فتكون الرؤية المطلوبة على حقيقتها.

﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ طلب التوبة باعتبار دخول الأُمَّة المسلمة في الدعاء، ويحتمل

أن يختصّ الضمير بإبراهيم وإسماعيل، فإفراد من التوبة عليها الرجوع والعود عليها بالرحمة واللطف، فإن المعنى الأصلي للتوبة هو الرجوع والعود، ويحتمل أن يريدوا بالتوبة نحواً من معناها المعروف تصاغراًً لله واستصغاراً لأعمالها في جنب جلال الله، كما هو شعار الأولياء المخلصين ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي الأمة من ذريتها ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بإرشاده وجهاده في الدعوة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ في تنفيذ إرادتك ونصر رسولك في تبليغه وإجراء أحكامك وتعليمه وتزكيتهم لمبادك ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما تفعل.

ومصدق هذا الدعاء هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) برسائله العامة، فهو رسول الله في ذرية إبراهيم وإسماعيل، وهم ابتدأت دعوته، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً من ذريتهما.

وفي (تفسير القمي): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا دعوة أبي إبراهيم^(١).

وفي (البيان): روي أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال ذلك^(٢).

ورواه في (الدر المنثور) عن جماعة^(٣).

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
 اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٢﴾
 إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾
 وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنْ أَلَّهِ اصْطَفَى

(١) تفسير القمي: ١: ٦٢.

(٢) مجمع البيان: ١: ٣٩٥.

(٣) الدر المنثور: ١: ٣٣٤.

لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ
شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿١٧٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَأُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿وَمَنْ﴾ استفهام يرجع إلى الإنكار والنفي ﴿يَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ في التوحيد والمعرفة والاخلاق الفاضلة والحنيفية ﴿إِلَّا مَنْ﴾ الذي ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ السَّفَهَ والسفاهة والسفيه معروفة، وسفه بالضم من أفعال السجايا لا يتعدى، وسفه بالكسر متعد، والمعنى: إِلَّا مَنْ أَضَرَّ نَفْسَهُ بسفاهته، ونحو ذلك، فَإِنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ جارية في معارفها وأخلاقها على النهج الفطري الواضح المعقول، فلا يرغب عنه إِلَّا السفيه. ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ﴾ أي إبراهيم، واختارناه رسولا وإماما وهاديا ﴿فِي الدُّنْيَا وَرَأَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ أي معدود من الذين كانوا في الدنيا صالحين هادين.

﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفيناه ﴿لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ وهذا القول لمثل إبراهيم يكون قبل زمان البلوغ، وقد ذكرنا معنى الإسلام قريبا ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ وأشار إلى معرفته وَأَنَّ إِسْلَامَهُ عَنْ حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ بقوله ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا بِهِمَا إِبْرَاهِيمَ بِبَنِيهِ﴾ أي وصاهم بالملَّة الحنيفية، ملَّة إبراهيم ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ أي ووصى بها يعقوب بنيه، وقال كلُّ منهما لبنيه في مقام التوصية والتحريض على اتباع الملَّة حتَّى الممات، وأن لا تلعب بهم الأهواء فيغتنم إبليس منهم الفرصة عند الموت، فيردَّهم عن الحنيفية والإسلام.

﴿يَا بَنِي إِدْأَ اللَّهِ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ﴾ المعهود، دين الحنيفية والإسلام واختاره لكم صافياً مصقياً، فالزموه واثبتوا على أتباعه حق الاتباع ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ على الدين الحنيف.

﴿أَمْ كُنْتُمْ﴾ إضراب وإنكار، وهو يناسب أن يكون خطاباً لأهل الكتاب وإنكاراً على دعوى ليس لهم بها علم، ولا حضروا ولا شهدوا ما يستندون الدعوى إليه ﴿شُهَدَاءَ﴾ حضوراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ وذلك لم يمر فيه ما تزعمون، بل ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ قال: ما تعبدون؟ لأن معبودات أهل الضلال أكثرها مما لا يعقل كالحيوان والتمثيل ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وأدرج إسماعيل في تفسير الآباء بنحو من التغليب عليه، ولأنه عمّ ليعقوب، والعلم كالأب ﴿إِلَهُاً وَاحِداً﴾ لا شريك له ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت، والظاهر أن المراد من الأمة بنو إسرائيل ﴿وَمَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بل كل مسؤول عن تكليفه، وما قامت به الحجة عليه، فانظروا لأنفسكم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنَّمَا آمَنَوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن لَّوَلُوا فَاِئْمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي أهل الكتاب اليهود والنصارى كل من الفريقين يدعو إلى نحلته ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ أو لتقسيم قولي الفريقين ﴿تَهْتَدُوا﴾.
 ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ﴾ تتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ الحنيف: هو الموحد التابع لدين الحق، ولا حاجة إلى بيان المأخذ لاستعمال اللفظ في هذا المعنى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولعله تعريض باليهود والنصارى ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).
 وفي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخره، احتجاج لوجوب اتباعها، فإن قدرنا «تتبع» يكون مفاد الاحتجاج: وعليكم أن تتبعوا ذلك، وإن قدر «اتبعوا» يكون مفاد الاحتجاج: كما اتبعنا نحن.

يا أهل الكتاب، لا تأخذنكم أهواء القومية، وعصبية اليهودية أو النصرانية، فإن الحق أحق أن يتبع، بل ﴿قُولُوا﴾ عن إيمان حقيقي واعتقاد واتباع للحجة ﴿عَاشُوا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ باعتبار النزول على أنبيائهم ورسولهم، كالتوراة والإنجيل والزبور ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي صُحف إبراهيم التي جرى عليها بنوه إلى زمان موسى، وهذا الاعتبار قيل: ﴿وَأَسْمَاءُ عِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ إذ لم يُعهد نزول كتاب إلى خصوص المذكورين.

وعن (الكافي) بإسناده عن سدير، عن أبي جعفر: أن أولاد يعقوب - أي ما عدا يوسف - لم يكونوا أنبياء^(٢). ونحوه عن العياشي^(٣).

والأسباط جمع سبط، وهو ولد الولد، ومنه سُمي الحِستان (عنها السلام) بالسبطين، وسُميت قبائل الإسرائيليين باعتبار انتسابهم إلى أولاد يعقوب أسباطاً، والقبيلة الواحدة منهم سبط، وعليه استعمال القرآن الكريم، وقد سَمَوْا بذلك أيضاً فيما بأيديهم من التوراة العبرانية وكتاب يوشع وغيرها، وإن سَمَوْا فيها أيضاً بغير ذلك.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من المعجزات أو كرامة النبوة ﴿وَمَا أُوتِيَ

(١) النمل ٢٧: ٦٣.

(٢) الكافي ٨: ٢٤٦/٣٤٣.

(٣) تفسير العياشي ٩: ١٠٦/٦٢.

النَّبِيِّونَ ﴿ مِنْ كَرَامَةِ النَّبَوَّةِ وَالْوَحْيِ ﴾ ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ من أي قبيلة كان، إذا دلت الدلائل على نبوته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ ﴾ أي لله ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾.

→ ﴿ فَإِنْ ﴾ قالوا ذلك ﴿ ءَامَنُوا بِعَثَلٍ مَّا ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ أيها المسلمون ﴿ فَقَدْ أَفْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ بكفرهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ ومعاندة لا في طلب الحق ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ يا رسول الله، ويمنعك من كيد شقاقهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائك أو لما يقولون ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما في الضائر.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِعَافٍ لِمَنْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ منصوبة بدلاً من ملة إبراهيم.

وعن (الكافي) مُسْنَدًا عن الصادق، أو أحدهما (عليهما السلام) بأسانيد ثلاثة، اثنان منها من الموثق كالصحيح^(١).

وعن الصدوق في الصحيح، عن أبي عبد الله (عليه السلام) ^(١).
وعن العياشي بسند آخر: أَنَّ الصِّبْغَةَ هي الإسلام، وهي مِلَّةُ إبراهيم .
وفي (الدر المنثور): أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، قال:
دين الله ^(٢).

وسَمِّيت صِبْغَةً باعتبار الأثر الكريم الظاهر من التوحيد ومكارم الأخلاق
وزينة الشريعة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ بما يهدي إليه من الدين القيم، ويوفق لاتباعه
﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ وحده ﴿عَابِدُونَ﴾ لا نشرك في الإلهية والعبادة غيره.
﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ وتجادلوننا ﴿فِي اللَّهِ﴾ زاعمين أنكم الموحّدون وفيكم النبوة،
وكيف تحاجوننا بذلك مع أَنَّ الله لا يحايي بلطفه ورحمته الواسعة قبلاً دون قبيل، بل
يراعي بها الأهلية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يمنع لطفه وتوفيقه إلا عَمَّنْ تَمَرَّدَ
عليه بالشرك والعصيان، فكيف يحاييكم ويخصّ بكم ما تزعمون؟! ﴿وَالْحَالُ﴾ هو
رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ ﴿وَكَلَّنَا عِبَادَهُ﴾ ولطفه عامٌ ورحمته واسعة لكلّ عبادِهِ ﴿وَلَنَّا أَعْمَالُنَا﴾ فقد
آتانا بالله ووحّدناه وعبّدناه، وإنَّ الله لا يُضِيعُ أجر من أحسن عملاً ﴿وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ﴾ إن عملتم خيراً من الإيهان الخالص والعبادة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مَخْلُصُونَ﴾ في
عبادته وإلهيته لا نشرك به شيئاً، وفي ذلك حسن التعريض بهم ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يا أهل الكتاب، وتزعمون ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ أو: للتريديد بين قولي الفريقين: اليهود
يقلون: كانوا يهوداً، والنصارى يقولون: كانوا نصارى.

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ مع أنكم ادعيتهم المحال، أين كانت اليهودية والنصرانية
في زمان هؤلاء؟ ﴿أَمْ اللَّهُ﴾ الذي أخبر بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من

(١) معاني الأخبار: ١/١٨٨.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٠٨/٦٢.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٤٠.

المشركين، وأنه أسلم لرب العالمين، ووصى بها يعقوب بنيه، فقالوا: نعبُد الله إلهاً واحداً ونحن له مسلمون، كما تقدّم قريباً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أما بالنسبة إلى علمهم بأن هؤلاء الذين ذكروهم كانوا مسلمين على الدين الخفيف، أو الشهادة برسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلا ينحصر الأمر باليهودية ولا النصرانية، لو بقيتا على التوحيد والشرعية، وقد أخبرهم الله في التوراة أن الله يقيم لهم نبياً من إخوانهم ويجعل كلامه في فيه، وأخبرهم المسيح برسول يأتي من بعده اسمه أحمد.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ينفعكم زعمكم وكذبكم على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مع قيام الحجّة بإرسال الله رسله في زمانكم بالآيات الباهرات، فعليكم بأنفسكم فلا تتعلّلوا زوراً بمن مضى، فإن ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بل تُسألون عن أعمالكم ومعاملتكم مع رسول الله ودين الحق.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾

وهي بيت المقدس، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى إليه عند مقدمه إلى المدينة مدة.

وفي رواية (التهذيب) عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله: إلى ما بعد رجوعه من بئر^(١).

وعن (رسالة الفضل بن شاذان) كذلك، وفيها: وكان يصلي في المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً.

وعن (قرب الإسناد) عن الباقر: سبعة عشر شهراً^(٢). وهو الذي ذكره في الفقيه^(٣).

وعن الشيخ المفيد في (مسار الشيعة) في النصف من رجب سنة اثنتين من الهجرة، حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة^(٤). ونحو هذا ما رواه في (الدر المنثور) من روايات الجمهور^(٥).

وفي (الكافي) في الحسن كالصحيح، عن الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام): سأله هل كان رسول الله يصلي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم.

فقلت: أكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ قال: أما إذا كان بمكة فلا، وأما إذا هاجر إلى المدينة فنعم حتى حوّل إلى الكعبة^(٦). وربما تشعر الرواية بأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) صلى في مكة إلى بيت المقدس بدون أن يستدير الكعبة.

وعن النعماني بإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام): أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلي في أول مبعثه إلى بيت المقدس جميع أيام مقامه بمكة.

(١) التهذيب ٢: ٤٣/١٣٥.

(٢) قرب الإسناد: ٦٩.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٨/٨٤٣.

(٤) مسار الشيعة: ٧١.

(٥) الدر المنثور ١: ٣٤٢ و ٣٤٧.

(٦) الكافي ٣: ٢٨٦/١٢.

الرواية^(١).

وفي (الفيهي): وصلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت المقدس بعد النبوة ثلاث عشرة سنة بمكة، وتسعة عشر شهراً بالمدينة^(٢).

وفي (الدر المنثور): أخرج الطبراني عن عثمان بن حنيف، وفي الحديث: كان رسول الله قبل أن يقدم من مكة والقبلة إلى بيت المقدس^(٣)، ويمكن الجمع بأن رسول الله كان يجمع بين القبلتين في مكة كما يومي إليه الإشعار المتقدم في رواية الحلبي.

وفي (الدر المنثور): أخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود في (ناسخه) والنحاس، والبيهقي في (سننه) عن ابن عباس: أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكمبة بين يديه^(٤)، الحديث. والله العالم.

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي جميع الجهات، فإن تحويل القبلة كان من ناحية الشمال الغربي إلى نقطة الجنوب تقريباً، وليس اعتراضهم هذا إلا من السفه، فهل يزعمون أن الله يحويه جهة خاصة، أو أن الذي له وفي ملكه جهة خاصة، أو أن لبعض الجهات استحقاق للاستقبال لازم لا يعقل التخلف عنه، أفلا يعقلون أن الاستقبال أمر تعبد من الله يجريه بحسب الحكمة والمصلحة؟!

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مما تقتضيه الحكمة، ويوصل إلى الهدى والحق.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وكما هديناكم إلى صراط مستقيم ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الوسط: خيار الشيء لأنه محمي عن الفساد. وفي (تفسير القمي) وسطاً: أي عدلاً^(٥)، وهو المروي في روايات الجمهور كما في (الدر المنثور)^(٦).

(١) المحكم والمشايع: ٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٨/٨٤٣.

(٣) الدر المنثور ١: ٣٤٨.

(٤) سنن البيهقي ٣: ٧، الدر المنثور ١: ٣٤٣.

(٥) تفسير القمي ١: ٦٣.

(٦) الدر المنثور ١: ٣٤٨ و٣٤٩.

﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومن المعلوم أن الأمة كلها لا تتصف بالخيار والعدل وكونهم شهداء على الناس، فإن فيهم الكثير ممن لا يخفى حاله، فهذه الصفات إنَّما تكون باعتبار البعض والموجه إليه الخطاب هو ذلك البعض.

وقد روي في (أصول الكافي) عن بُرَيْد، عن أبي عبد الله (عليه السلام): نحن الأمة الوَسْط، ونحن شهداء الله على خلقه.

وفي الحسن كالصحيح، عن أبي جعفر (عليه السلام) مثله^(١).

وعن الصَّغَار بهذا السَّنَد، نحوه. وروى نحوه أيضاً بِسَنَدٍ آخر صحيح^(٢).

وعن الحسكاني في (شواهد التنزيل) عن سُلَيْم الهَلَالِي، عن علي (عليه السلام): نحن الذين قال الله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٣).

وعن العياشي، عن أبي عمرو الزَّيْرِي، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في هذه الآية: أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم^(٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ ظاهر قوله (نار) في الآية التي بعد هذه: ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ إنَّما نزلت قبل تحوُّله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الكعبة، وظاهر السوق أن هذه الآية نزلت قبل تلك، مع أن ظاهر قوله (نار) فيها: ﴿كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ كنت تتوجه إليها فيما مضى وصُرفت عنها، فتشكَّل هذه الظواهر، ولأجل ذلك قال بعضهم: إنَّ «كان» تامَّة بمعنى: أنت عليها^(٥).

وقال في (الكشاف): إنَّ «الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا» مفعول ثانٍ لجعلنا، والمقصود من الموصول مكَّة، أي: وما جعلنا القبلة مكَّة، وفيه تعقيد ومخالفة للاعتبار مع أن الإشكال

(١) الكافي ٨: ٢/١٤٦ و ٤/١٤٧.

(٢) جواهر الدرجات: ١١/٨٣ و ٥/١٠٣.

(٣) شواهد التنزيل ٨: ١٢٩/٩٢.

(٤) تفسير العياشي ٨: ١١٤/٦٣.

(٥) مجمع البيان ١: ٤١٦.

المذكور على حاله، ويرتفع من أصله بأنَّ قوله: ﴿كُنْتَ عَلَيَّهَا﴾ لا يختص بها بعد الانصراف عنها وانقطاع الكون، بل قيل باعتبار الكون الماضي وتوجهه (من الله عليه والله سلم) إلى بيت المقدس أشهراً عديدة، من دون نظر إلى الانقطاع، نحو: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(١) أي: وما جعلنا بيت المقدس قبلة لك هذه المدة.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ اللام للعاقبة والحصر، إنها هو باعتبار العاقبة لا حكمة التشريع ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِنْ﴾ متعلق بنعلم لما في العلم بأحد الفريقين من التمييز له عن الفريق الآخر ﴿يَنْقَلِبْ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ ومثل ذلك في القرآن كثير كما في قوله (ص): ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَوْا﴾^(٣)، ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٤)، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾^(٥)، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾^(٦)، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَالِ الْآخِرَةِ﴾^(٧)، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(٨).

والوجه في كل هذه الموارد وأمثالها واحد، وهو أنَّ علمه التابع (جزئانه)، وإن كان أزلياً أبدياً لكن لمقارنته لوجود المعلوم في الخارج أثر ووقع في الزجر والتوبيخ أو البشرى عند الناس، ولأجل هذا الأثر والوقع جرى مجرى التعبير بالفعل المستقبل في هذه الموارد باعتبار تلك المقارنة والعلم المقارن.

وعلى هذا النهج جرى التعبير في القرآن الكريم بقوله (ص): ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾^(٩) كما ورد في أكثر من عشرين مورداً، وإن كانت إرادته أزلية، وأيضاً لو قيل: ليقع ذلك،

(١) النساء ٤: ٩٦.

(٢) آل عمران ٣: ١٦٦.

(٣) آل عمران ٣: ١٦٧.

(٤) المائدة ٥: ٩٤.

(٥) الحديد ٥٧: ٢٥.

(٦) الكهف ١٨: ١٧٢.

(٧) سبأ ٣٤: ٢١.

(٨) محمد ٤٧: ٣٦.

(٩) البقرة ٢: ١٨٥.....

لأَوْهَم الجبر، مع أنه نفوت فائدة الإعلام بكون الله عالمًا به، ولو قيل: ليقع ما هو معلوم لله بالعلم الأزلي، لثارت شبهة الجبر، وقالوا: إذن إنَّ العبد لا يقدر على الترك، إذ يلزم منه أن يتقلب علم الله جهلاً، ولم يلتفتوا كما لم يلتفتوا إلى أنَّ هذا العلم تابع لا أثر له في قدرة العبد.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: إنَّ هي المخففة، وتلزمها اللام التي هي للتأكيد، وظاهر السُّوق يقتضي أنَّ الضمير في كانت يرجع إلى القبلة التي كان عليها، وهي بيت المقدس، وهو الظاهر أيضاً من معتبرة (التهذيب) عن أبي بصير عن أحدهما (عليه السلام)، قال: قلت له: أمره أن يصلي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، ألا ترى أنَّ الله (سار) يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ وتلا جميع الآية إلى قوله: ﴿رَجِيمٌ﴾^(١) وكبيرة: ثقيلة.

ومن اللازم أن يكون استقبال بيت المقدس ثقیلاً على قُريش والعرب إلَّا الذين هدهم الله إلى الإيمان برسول الله، فيعلمون أنَّ ذلك أمر من الله الحكيم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. في (الكافي) عن أبي عمرو الزُّبيري، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في الآية: أنَّ الله سمى الصلاة إيماناً^(٢).

وفي (الفقيه) قال المسلمون: صلاتنا إلى بيت المقدس تضيع، يا رسول الله؟ فأُنزل ذلك.

وذكر أنه أخرج حديثه في كتاب (النبوة)^(٣).

وفي رواية العياشي: أنه لما حُولت القبلة قالوا: ما حالنا - أي في صلاتنا الماضية - وما حال من مضى في صلاتهم إلى بيت المقدس؟ فأُنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٤).

(١) التهذيب ٢: ٤٣/١٣٨.

(٢) الكافي ٢: ٢٨/١.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٨/٨٤٣.

(٤) تفسير العياشي ١: ٦٣/١١٥.

وفي (الدر المنثور) عن ابن عباس، نحوه، وصححه الحاكم^(١).

قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ «قد» هنا للتكثير:

قَدْ أَتَرَكَ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَابِلُهُ كَأَنَّ أَتْيَابَهُ جُمْتُ بِفِرْصَادٍ^(٢)

وقول عمران الأنصاري، أو امرؤ القيس:

قَدْ أَشْهَدُ الْفَارَةَ الشَّعْوَاءَ تَحْمِلُنِي جَرْدَاءَ مَعْرُوقَةِ اللُّحَيْنِ سَرْحُوبٍ^(٣)

(١) مستدرک الحاكم ٢: ٢٦٩، الدر المنثور ١: ٣٥٣.

(٢) البيت منسوب لشئس المذلي وقيل: لعبيد بن الأبرص، القرن: المكافئ في الشجاعة، واصفرار الأنامل: كناية عن الموت، والفِرْصَاد: صبح أحمر، ويطلق على ماء الثور الأحمر، أنظر كتاب سيبويه ٢: ٣٦٩/٢٨٢، النكت في تفسير كتاب سيبويه ٢: ١١٢٨، تفسير الكشاف ١: ٧٠٢، لسان العرب - قد ٣: ٣٤٧، معنى اللبيب ١: ٣٦٦/٢٣١، شرح شواهد المعنى ١: ٢٧٩/٤٩٤، خزنة الأدب ٤: ٥٠٢.

(٣) الشعواء: المتفرقة، الجرداء: الفرس القصيرة الشعر، المعروقة: القليلة اللحم، وسَرْحُوب: طويلة شرفة، وقيل:

قال القمّي في (تفسيره): إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَعْبُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ، ويقولون: إِنَّهُ تَابِعٌ لَنَا، يَصْلِي إِلَى قِبَلَتِنَا، فَاغْتَمَّ رَسُولُ اللَّهِ وَخَرَجَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يَنْظُرُ أَفَاقَ السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ، الخ^(١).

وفي (مجمع البيان) نسبة إلى رواية القمّي، عن الصادق (عليه السلام)، مع كلام ذكره القمّي بعد ذلك^(٢).

نعم، ذكر في (الفقيه) نحو ما ذكره القمّي، وأحال روايته على كتاب (النبوة)^(٣)، فتدل الآية على أنه (سَمِعَ اللَّهَ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ) كَانَ لَهُ شَأْنٌ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ.

﴿فَلَنَزَلَيْنَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ لأنها مرضية بفضلها وسابقتها، وحكمة دعوة العرب، وهي أول بيت وُضِعَ للناس فيه آيات بينات.

﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي نحوه، والقِبْلَةُ هي الكعبة بالضرورة، كما يلهج بذلك المسلمون في تلقين موتاهم وفي تعقيباتهم وغير ذلك، وجاءت بذلك الأحاديث بنحو لا يقصر عن التواتر، ففي (جامع البخاري) وغيره، عن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فِي قُبُلِ الْكَعْبَةِ، وقال: هذه القِبْلَةُ^(٤).

وفي (جوامع البخاري)، ومسلم، وأبي داود، والنسائي، والموطأ) عن البراء وأُسَين وابن عمر، في حديث تحوّل القِبْلَةِ: أَنَّ تَحْوُلَ الْمُصَلِّينَ كَانَ إِلَى الْكَعْبَةِ^(٥).

وروى الفريقان: أَنَّ الْأَرْضَ رُؤِيَ^(٦) لِرَسُولِ اللَّهِ، ورأى الكعبة فجعل محرابه بإزاء الميزاب.

خفيفة، سُرُوحُ الْبَدِينِ فِي الْعُدُوِّ «شرح شواهد المغني» ١/ ٤٩٦/ ٢٨٠، مغني اللبيب ١/ ٢٣٩/ ٣١٧، خزانة الأدب ٥٠٢: ٤.

(١) تفسير القمي ١: ٦٣.

(٢) تفسير القمي ١: ٦٣، مجمع البيان ١: ٤١٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٨٤٣/ ١٧٨.

(٤) صحيح البخاري ١: ١٧٦/ ٨٢، تفسير الطبري ٢: ٥١.

(٥) الموطأ ١: ١٩٥/ ٦، صحيح البخاري ١: ١٧٦/ ٦٣، صحيح مسلم ١: ٢٧٤/ ١٢، و: ٣٧٥/ ١٣.

صحيح أبي داود ١: ٢٧٤/ ١٠٤٥، سنن النسائي ٢: ٦٠ و ٦١.

(٦) زويت: مُجِئَتْ «النهاية» ٢: ٣٢٠.

ومن طريق الإمامية: أورد في (الوسائل) نحو أربعة عشر حديثاً في أن الكعبة هي القبلة^(١).

وأكثر هذه الأحاديث تصرّح بأن الكعبة هي التي صُرف إليها رسول الله في هذه الآية، ولا مانع من أن تُسمّى الكعبة مسجداً باعتبار أنها يُسجد إليها، أو يقال: إن الآية نزلت في السنة الثانية من الهجرة، فكان الخطاب بجعل الكعبة قبلة عامةً ومتوجّهاً لرسول الله ومن معه من المسلمين وأهل المدينة وضواحيها، فجرى التعبير بالمسجد الحرام باعتبار سعة استقبالهم للكعبة باستقبال المواجهة والاحترام والتعظيم، ممّا يتحقّق به ذلك عند الناس كما هو الظاهر من الآية، وإنّ استقبالهم للمسجد بهذا النحو يلزمه استقبال الكعبة بهذا النحو أيضاً.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي نحوه بالنحو المتقدّم دون الاستقبال الهندسي، لأنّ تكليف النابن به حتّى مثل أهل المدينة، بل ما كان عن مكّة بمرحلة مثلاً، يستلزم التكليف بما لا يطاق، ولا شك في أنّه كلّما بعد المستقبل اتّسعت وجهة استقباله للكعبة بالمواجهة الاحترامية التعظيمية، وقد استقصينا الكلام في ذلك في رسالتنا في القبلة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل إلى الكعبة هو ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ إمّا لأنّهم يعلمون أنّ أمر القبلة والاستقبال منوط بتشريع الله وأمره، وإمّا لأنّهم يعلمون أنّ الكعبة هي بيت الله من زمان إبراهيم. وفي (مجمع البيان) لأنّه كان في بشارة الأنبياء لهم أنّه يكون نبيّ صفاته كذا وكذا، وأنّه يصلّي إلى القبلتين^(٢) ونحوه في (الكشاف)^(٣).

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من أقوالهم وأفعالهم عناداً على خلاف ما يعلمون.

(١) الوسائل ٣: ٢٦٥ - ٢٢٠ الباب (٢).

(٢) مجمع البيان ١: ٤٢٠.

(٣) الكشاف ١: ٢٠٣.

﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ولم يوفقوا للإيمان بك ﴿بِكُلِّ عَائِدَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي الكعبة ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ اتباعاً خصوصاً بعد ما أمرت بالتوجه شطر المسجد الحرام ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن النصارى تتوجه إلى المشرق واليهود إلى بيت المقدس.

﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا توبيخ لهم وتبيكت بآئهم أصحاب أهواء فاسدة لا يتبعها إلا الظالمون، وخو طب بذلك رسول الله لقطع أطعاهم، ولبيان فضله لأنه لا يتبع أهواءهم أبداً بدليل قوله (صلى): ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُومُومٌ لَهَا فَاسْتَسْقُوا الْحَيَرَاتِ آيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون رسول الله على الصفات التي وُصف بها في كتبهم، والاسم الذي سُمي به بنحو لا ينبغي الرب فيه، كما في (تفسير البرهان) عن محمد بن يعقوب الكليني بسند فيه رفع عن أمير

المؤمنين (عليه السلام)^(١). وعن علي بن إبراهيم في الحسن كالصحيح عن الصادق (عليه السلام)^(٢). وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿كَمَا يَعْزِفُونَ أَهْنَاءَهُمْ﴾ وإن غابوا عنهم مدة طويلة ﴿وإن قَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ به من كتبهم، وهذا الفريق هم من عدا الأوثان^(٣) الذين لا يعلمون شيئاً من كتبهم، ومن عدا الذين أسلموا أو شهدوا بالحق وأصرّوا على الغي.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيها تقوم عليه الحجة العلمية، والخطاب في النهي يراد به غير النبي، كما في قوله (ع) في سورة الإسراء: ﴿إِنَّمَا يَتْلَفُنْ عِنْدَكَ الْكِبَرُ... فَلَا تَقُلْ لَهَا أَفٍّ وَلَا تَهْرُهَا... وَقُلْ... وَأَخْفِضْ... وَقُلْ﴾^(٤).

﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ مِّنْهُ مَوْلًى﴾ لم أجد عن النبي وأهل البيت شيئاً في ذلك، ويمكن تفسير الآية بالنظر في سورة المائدة في قوله (ع) في قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(٥)، الآية .

فاللعن، والله العالم: ولكل من الأمم الذين شرع الله لهم أحكاماً شريعة، ولأه الله إياها، وأمره باتباعها ما لم تنسخها الشريعة والوجهة التي بعدها، فيولي الله الناس إياها.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وجاء قوله (ع) في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ متعبداً إلى المفعول بنفسه هاهنا، وفي آية المائدة^(٦)، وفي سورة يوسف: ﴿وَاسْتَبِقُوا الْيَابِ﴾^(٧) وفي سورة يس:

(١) الكافي ٢: ٢٦٤/١٦، تفسير البرهان ١: ١٦٦/١.

(٢) تفسير القمي ١: ٣٢.

(٣) الأوثان: الأخلاط، أي من قبائل شتى .

(٤) الآية: ٢٣ و٢٤.

(٥) الآية: ٤٨.

(٦) الآية: ٤٨. (٧) الآية: ٢٥.

﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ﴾^(١) ولو كانت بمعنى الاستباق وطلب السبق بفتح السين لوجب تعديتها بإلى، والنصب بنزع الخافض في مثل المقام بعيد من كرامة القرآن في عربيته وفصاحته.

فالوجه أنها في هذه الموارد من طلب السبق بفتح السين والباء وهو ما يحصله السابق بسبقه، ومنه السبق المجعول في رهان المسابقة، وفي جعل الخبرات والباب والصراط في الآيات سبقاً بفتح السين والباء كناية لطيفة عن أنه هو الغاية المطلوبة والفائدة المقصودة في المسابقة.

وحاصل المعنى، واه العالم: لكل أمة شريعة أمرت باتباعها، وقد نسخ بعض الشرائع فسارعوا إلى الحق، واطلبوا أن تكون خيرات الأحكام، وهي التي لم تُنسخ، وجاء بها الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم، هذه اطلبوها سبقاً لكم والغاية الشريفة من مسارعتكم، وما هي إلا شريعة رسول الله والقرآن الكريم، ومن ذلك وأهم مصاديق الخبرات هي الولاية، كما عن (الكافي) عن الباقر (عليه السلام)^(٢)، وكما في آية: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ﴾^(٣) وحديثي القدير والثقلين^(٤) وغير ذلك.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وباعتبار السياق يكون المعنى: أن يجمعكم يوم القيامة للحساب والجزاء من عذاب أو نعيم، ولا يُعجز الله حشركم وجمعكم، فإنه يأتي بكم أينما تكونوا.

وأما باعتبار عموم اللفظ وكثرة مصاديقه فقد روي في (تفسير البرهان) نحو اثنتي عشرة رواية عن الأئمة (عليهم السلام)، أنهم استشهدوا بالآية لجمع الله أصحاب الحجّة المنتظر من أطراف الأرض إلى النهوض مع الحجّة (عليه السلام)^(٥).

(١) الآية: ٦٦.

(٢) الكافي ٨: ٤٨٧/٣١٣.

(٣) قوله (سار) في سورة المائدة ٥: ٥٥: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ نزلت في علي (عليه السلام) حين تصدق بخافه وهو راكع «تفسير الطبري ٦: ١٨٦، شواهد التنزيل ١: ١٧٥، ترجمة الامام علي (عليه السلام) من تاريخ ابن عساکر ٢: ٤٠٩، الدر المنثور ٣: ٨٠٤».

(٤) ههنا في المقام الثالث في الفصل الرابع من المقدمة.

(٥) تفسير البرهان ٩: ١٦٢ - ١٦٥.

وللتأكيد في أمر استقبال الكعبة في الصلاة وعمومه في جميع الأحوال سفرًا وحضرًا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ سواء كان الخروج من مكة إلى المدينة، أو من المدينة إلى الشام، بحيث يكون الوجه في المسير إلى بيت المقدس على الانحراف اليسير أو الاستقامة، أم كان إلى جهة مكة أو المشرق أو المغرب ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ في جميع هذه الأحوال وجميع الجهات ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه.

﴿وَأَنَّهُ﴾ أي التوجه إلى المسجد الحرام في الصلاة على الإطلاق المنصوص عليه ﴿لَلْحَقِّ مِنْ﴾ أمر ﴿رَبِّكَ﴾ وشريعته الجارية على الحكمة وكرامة البيت، وإن الله لا يضيع أجركم في امتثال أمره ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِنَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهذا الخطاب للرسول، وإن كان كافياً في عموم الشرعية والتكليف للمسلمين، لكن الحكمة تقتضي

التأكيد بالنص وتأكيده فليل كما سبق ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ خطاب للرسول وأتمته ﴿فَقُولُوا وَجْوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وإن كنتم عند بيت المقدس وفي بلده ﴿لِنَلَّا﴾ أي شرع لكم ذلك بالأوامر المذكورة لئلا ﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وإن كانت داحضة^(١). هذا يقول: اتبع قبلتنا، وهذا يقول: تركوا كعبتهم مع افتخارهم بسابقتها وفضلها، وهذا يقول: تركوا قبلة إبراهيم وإسماعيل. أو وهذا يقول: مكتوب أن النبي يصلي إلى القبلتين، وهذا يقول: مكتوب أنه يصلي إلى الكعبة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، فإن هؤلاء الظالمين لا يقطعون جلدهم واحتجاجهم بالباطيل حسب ما تغريهم أهواؤهم وظلمهم ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي ولتكن خشيتكم لي.

﴿وَلَا يَمُوتُ يَفْعَلْ عَلَيْكُمْ﴾ بتسريع الاستقبال للقبلة المرضية، قبلة إبراهيم وحصره بها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي ولأجل أن تهتدوا إلى معرفة لطف الله بإتمام النعمة بذلك عليكم، وقطع حجج المجادلين لكم، أو وإلى إقامة الصلاة بحدودها إلى هذه القبلة. ولكن لما كان الاهتداء من أفعال الإنسان وناشئاً عن اختياره للتفكر وبجانبته لشكوك الأهواء وعنادها قيل في تعليقه: لعل، وكذا كل غاية في القرآن هي من أعمال العباد وراجعة إلى اختيارهم نعو: لعلكم تشكرون، تتفكرون، لم تخرج مخرج الجزم في التعليل، وقد لطف الله في أمر القبلة بعباده لهذه الغايات الشريفة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ وكونه منكم أقرب إلى انقيادكم للإسلام ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ بدينه وشريعته وتعاليمه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مما يهتكم وينذركم ويهديكم، وإن تعدوا نعمة الله في ذلك لا تحصوها.

﴿فَأَذْكُرُونِي﴾ بما فيه سعادتكم وكمالكم من العبادة والطاعة والشكر لنعمي أعد عليكم بالجزاء واللطف والنعمة والمزيد، ولأجل المقابلة اللفظية جرى التعبير عن

(١) في سورة الشورى ١٦: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً﴾ وفي المجانية ٢٥: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنبَغِينَ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَنَزَّلُ بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمقتضى قوله: داحضة.

ذلك بقوله (قال): ﴿أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي﴾ نعماني عارفين بها ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ لا تكفروني نعمتي: لا تتجحدوني نعمتي، كفره حقه: جحدته.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ
بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرْمِثِ
وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ في أمر دينكم وعبادتكم وطاعتكم لله واجتناب معاصيه وفي مصائبكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ فإنه نعم العطية ومفتاح الفرج ووسيلة البشرى بالصلوات من الله والرحمة ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ عطف على الصبر، فإنها باب الله في مناجاته والاستعانة به، وممرج السعادة، والنهاية عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وكفى بذلك بشرى.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم ﴿أَمُوتَ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم، لأن عالمهم غير عالمكم، وقد أخبر الله (جنت الآل)، عما لحياتهم السعيدة من الكرامة والحبور، كما في الآية التاسعة والستين بعد المائة واللتين بعدها من سورة آل عمران.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يا أيها الذين آمنوا، كما يقتضيه سياق الخطاب، أو يا أيها الناس

﴿بَشَىٰ مِنْ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشَىٰ الصَّابِرِينَ﴾ على ذلك، رضاً بما قضى الله، وتسليماً لحكمته، فلا يصدّهم ما ذكر عن شكر ما هم فيه من نعمة ولا عن عبادته وطاعته والجهاد في سبيله.

بل هم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ وكلّ ما هو لنا من حياة ونعمة، إنّما هو من عنده بدون استحقاق لنا في أقلّ شيء من ذلك، يفعل بحكمته ما يشاء ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فيعاملنا بصبرنا أو جزعنا الذي هو كفران لنعمه.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ثناء جميل ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالثواب والجزاء ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلى الحق بصبرهم وتسليمهم لله، وعلمهم واعترافهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَإِنَّ لَكَ أَتُوبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ موضحان معروفان بمكة ، يسمى بينهما في الحجّ والعمرة ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من معالم أعمال الطاعة التي جعلها الله في الحجّ والعمرة، وإن

عرض أن المشركين جعلوا عليها الأصنام، كما جعلوها على البيت الحرام، إلى أن ألغاه عنها رسول الله في فتح مكة إذ أصدد أمير المؤمنين على كتفيه، ورمى بها إلى الأرض.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ الحج والعمرة معروفان، والتطوف الطواف، وسمي السعي تطوفاً باعتبار تكرره، فيكون كالطواف الذي يرجع إلى مبتداه، وطاف به أعم من الطواف: حوله وجعله في وسط المطاف، كالطواف بالبيت. ومن المرور به في الطواف، كما تسمى الكثيرة الخروج من دارها: طوافه بالبيوت.

وقد اتفقت الرواية من المسلمين على أن قريشاً جعلوا من أصنامهم على الصفا والمروة فتوقف المسلمون من الطواف بها لمكان الأصنام، فرفع توهم التحريم بقوله: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ لأنها من شعائر الله. وذلك لا ينافي الوجوب، كما ثبت من السنة وعليه إجماع الإمامية وأكثر الجمهور.

ففي (تفسير البرهان) عنه - أي عن محمد بن يعقوب - في (الكافي) في الحسن كالصحيح، عن أبي عبد الله (عليه السلام) - في حديث حج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - وأن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله (عاش): ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾^(١) الآية.

قلت: ولم أجد هذا الكلام في مظانه في (الكافي)^(٢).

وعن العياشي: قال أبو عبد الله (عليه السلام)، في خبر حماد بن عثمان: إنه كان على الصفا والمروة أصنام، فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون، فأنزل الله هذه الآية، فلما حج النبي رعى بها^(٣).

وفي (الكافي) في باب السعي، في المرسل المعتبر عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن

(١) الكافي ٤: ٢٤٥، ٨/٤٣٥، البرهان ٩: ١٦٩/٤.

(٢) الظاهر أن المصنف لم يجد الحديث في الكافي، لأنه لم يرد في أبواب السعي بين الصفا والمروة. بل ورد في باب حج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو أيضاً قطعة من حديث طويل.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٣٥/٧٠.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شرط على قريش في عُمره القضاء أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فجاؤوا إليه وقالوا: يا رسول الله، إن فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة وقد أعيدت الأصنام، فأنزل الله (عز وجل): ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾^(١).

وذكر القُصي في تفسيره نحوه، وفيه أيضاً: أَنَّ عُمرة القضاء كانت سنة سبع من الهجرة^(٢). وذكر الآية من أولها، ولم ينسب شيئاً من ذلك إلى رواية.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ تجيء صيغة تَفَعَّلُ للتأخاذ والجعل، نحو: توسد الحجر، وقد يتجمل عليها معنى الطلب والرغبة والتحصيل، نحو: تعرفت، وتعلمت، وتبصرت من البصرة في غير المطاوعة، ومن ذلك قول امرئ القيس في معشوقته:

تَسَوَّرْتُهَا مِنْ أَدْرَعَاتٍ وَدَارَهَا بِبَثْرَبٍ أَدْنَى دَارَهَا نَظَرُ عَالِي^(٣)

فالمنعنى: وَمَنْ اتَّخَذَ الْخَيْرَ الْمَشْرُوعَ طَاعَةً بَطْلَبَ لَهَا وَرَغْبَةً، ولا دليل من اللغة ولا من هيئة التطوع أو مادته على اختصاصه بالمستحبات، بل إن المقام بأبى ذلك، فإن السعي حق في الحج والعمرة المندوبين يجب بالشروع فيها.

وحاصل الآية: أَنَّ التَطَوُّعَ بِالصَّفا وَالْمَرْوة خَيْرٌ، لأنه تعظيم لشعائر الله وطاعة له في ذلك، من تطوع خيراً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالطاعة لا يخفى عليه شيء منها، ويجاز عليها، وإن كان الشكر مختصاً بالنعمة والبد فنسبته إلى الله مجاز.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات في الإرشاد ﴿وَأَلْهَنُوا مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ وأوضحنا دلالة ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ والعموم في الكتاب للقرآن وغيره من كتب الله أنسب بعموم التوبيخ وقيام الحجّة واستحقاق اللعنة، ولذلك مصاديق كثيرة، ومنها ما رواه في (البرهان) عن العياشي^(٤).

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يطردهم عن رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ﴾ أي يدعو عليهم بالطرد عن الرحمة ﴿أَلَّا عَتُونَ﴾.

(١) الكافي ٤: ٤٣٥/أ.

(٢) تفسير القمي ١: ٦٤.

(٣) الديوان: ١٤٦ وأدركات: بلد في أطراف الشام «معجم البلدان» ١: ١٣٠.

(٤) تفسير العياشي ١: ١٣٦/٧١ و ١٣٧ و ١٣٩ و ١٤٠، تفسير البرهان ١: ١/١٧٠ و ٢ و ٤.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ أعلمهم ﴿وَيَتُوبُوا﴾ ما كانوا يكتمونه وغيره مما ينبغي بيانه من الحق ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ على من تاب حق التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٥٧﴾
وَاللَّهُ كُفَرُ إِلَهٍ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وطردهم عن رحمته ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ أي دعاؤهم باللعة ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بلعنهم للظالمين والجاحدين للحق، ومن طرده الله عن رحمته فهو معذَّب.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعة، فهم خالدون في العذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ من النظرة والإمهال في العذاب، والإمهال للاعتذار والتوبة.

﴿وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ﴾ في الإلهية وصفاتها، لا شريك له فيها ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذه العبارة في توحيد الله في الإلهية، ونفي ما عداه فيها أوضح من أن تشوش بقواعد الإعراب.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وقد مر تفسير الكلمتين في بسملة الفاتحة. ولعمري الحق إن مضمون هذه الآية الكريمة في وجود الإله ووحديته في الإلهية وإبداع العالم بحكمته وإرادته ورحمانيته ورحمته أمر تجلوه الفطرة للعقول الحرة بأوضح المجالي، ولكن الله (جك آوى)، شاء بلفظه أن يستلقت العقول إلى ذلك بالحجة القيمة، بنحو يكتفي منه العاظمي بنظرته البسيطة، ويستنبط العالم لها بحسب استعداده في العلوم من كل شيء يجلوه العلم برهاناً كافياً، فذكر هنا (جك الطه) بعض الآيات المشاهدة من خلقته، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ وما يرى فيها من الكواكب الثابتة والسيارات المرتفعة بعضها عن بعض على مدار مخصوص، والمستمرة كل على سيرة المنتظم على منطقة البروج، فضلاً عما يعرف بالعلم من فوائد سير السيار على تلك المنطقة.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما فيها من الجبال وحكمها الباهرة، ومنها تفجر العيون من أعاليها، وإخراج النار من براكينها، ومن أنواع المعادن، ومن البحار وتياراتها، وما في ذلك من الحكم.

﴿وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ على نظام موزون مستمر متبادل في أيام السنين، يزيد النهار في كل محل من نصف الأرض الشمالي بمقدار ما ينقص في ذلك اليوم من مثل ذلك المحل في العرض من النصف الجنوبي، وتجري نقيصة الليل وزيادته على عكس النهار في المحال المتأثلة في العرض من النصفين.

﴿وَالْفَلَكَ أَلْتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من تجارة البلدان النائية، والوصول إلى البلاد البعيدة، وكيف سخرت لها الرياح المسماة بالتجارية، فترى السفن تجري في زمان واحد وبحر واحد كل إلى مقصدها شالاً أو جنوباً أو شرقاً أو غرباً! ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات والشجر والنمو ﴿بِقَدَرٍ مَرَاتِباً﴾ بكونها قاحلة ماحلة، وأوجد فيها روح قوة الإنبات لا تحصل

بالدوام^(١) العادية ولا الماء الجاري، نعم قد يحصل من القوة شيء بأطيان الفيضان المتشعبة بروح المطر.

﴿وَبُثِّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتِ بَعْثٍ﴾ ببركة إحيائها ﴿وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ﴾ التي يسمونها استوائية، وقطبية وموسمية وتجارية، وما في استقامتها وهدرها في البحر المسمى بالمحيط الهادئ، أي الساكن، وهو الواقع ما بين آسيا وأمريكا، مع أن مساحة قطره من المشرق إلى المغرب تزيد على سبعة آلاف ميل، ومن الجنوب إلى الشمال أكثر من ذلك.

واستقامة أنواعها أيضاً في البحر المسمى بالمحيط الأطلسي، وهو الواقع بين أوروبا وأمريكا، وربما يبلغ عرضه أربعة آلاف ميل، فلا يكون في هذين المحيطين العظيمين والطريقين الموصلين ما بين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة خطر العواصف والأعاصير التي تكون في بحر الصين والهند وبحر أنتيلة المقابل لأمريكا الوسطى.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يجري حيث توجهه القدرة والحكمة تراه في محل واحد، ينزل مطره قطرات وسحاً، وهكذا، وتتخلل بين ذلك فترات وأحوال مختلفة في نزوله، وبينها هو واقف إذ أقبل مسرعاً أو على تأنُّ.

هذا وفي كل أمر من هذه الأمور، وكل حال من هذه الأحوال المنتظمة بأحسن نظام، يجد العقل الحر دلائل واضحة على أن كلًا من ذلك إنبا هو من إيجاد إله قادر عليم حكيم، وتدبيره بحسب إرادته وحكمته ورحمته، ودلالة جلية على أنه وحده لا شريك له في الإلهية، وهذا الخلق العجيب والتدبير المنتظم، ولو كان معه إله لاختل هذا النظام وفسدت المخلوقات، كما قال (جزءه) في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا أَقَّةٌ لَفَسَدَتَا﴾^(٢).

وفي سورة المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣).

(١) الدوامل: ما يُدأى بها ضعف الأرض في الإنبات من سباد ونحوه «منه» (نشر س).

(٢) الآية: ٢٢.

(٣) الآية: ٩١.

وقد جرى الكلام بأكثر من هذا الشرح في مضامين هذه الآيات في الجزء الثاني من (المدرسة السيارة)^(١)، وأتى يبلغ الشرح والبيان معشار ما في هذه الآيات من أسرار القدرة والحكم الدالة على الإله وتوحيده!

وعلى الاجمال أن فيها ذكر في الآية الكريمة ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ باهرات ودلالات نبيرة ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وكلها تفكروا فيها ذكر ظهرت لعقولهم من الآيات والدلالات أضعاف ما عرفوه.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٥٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَفَقَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
لَنَاقِرَةٌ فَنُنَبِّئُ أَمْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٥٧﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ قد مر الكلام في الند في الآية الثانية والعشرين، واتخاذ الأنداد أعم من تأليههم واتباعهم على ظلمهم، وباعتبار القسم الثاني جاءت الرواية عن الباقر (ع) كما في (التبيان) و(البيان)^(٢)، وعن

(١) وهو المسمى بـ (الرحلة المدرسية): ٣١٣ - ٣٤٤ و ٣٦٦ - ٣٧٢ و ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) مجمع البيان ١: ٤٥٤.

١! يَأْشِي مرفوعة عنه (عنه السلام)^(١)، وفي (البرهان) عن (الكافي) واختصاص الشيخ (المفيد) مسندة^(٢)، وقيل في هذه الآية: من دون الله، باعتبار أن اتّخاذ الأنداد حتّى بالمعنى العامّ المذكور إنّها هو نُكُوص عن معرفة الله وحقيقة إلهيته وقُدس توحيدهِ وعبادته، أو نُكُوص عن طاعته واتباع شريعته ومن أمر باتباعه.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لصدق عرفانهم له في إخلاصهم في توحيدهِ وبقينهم بأنّ الخلق والأمر بيده وهو الرحمن الرحيم.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتّخاذهم الأنداد وتعدّهم حدود الله في العدل ﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ ويشاهدون أهواله، وأنّه ليس من دونه نصير ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ جملة «أَنَّ الْقُوَّةَ» أي مصدرها مفعول ليرى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ عطف على مفعول يرى.

وفي الآية توبيخ شديد وتسفيه لهؤلاء بالإشارة إلى أنّهم لا يمتدّون بقولهم ودلالة العقل على وحدانيّة الله في الإلهيّة وانحصار القوّة الإلهيّة به، ولزوم اتباع أوامره فيمن أمر باتباعه، واتباع نواهيه فيمن نهى عن الضلال باتباعه، ولا يمتدّون إلى اليقين بما نوّع الله به من أنواع العذاب الأليم في يوم القيامة، وأنّه ليس من دونه وليّ ولا نصير، بل هؤلاء كالبهائم لا تلتفت إلّا إلى ما تراه وتحسّه.

فلو أنّ هؤلاء الظالمون حينما يرون بالحسّ عذاب القيامة وما تذكره الآيتان بعد هذه الآية من أهوالها، ويرون انحصار القوّة الإلهيّة بالله وشدّة عذابه، لأقلعوا عن غيهم واتّخذوا الأنداد وأنابوا إلى توحيد الله وطاعته.

وحذف جواب «لو» لدلالة المقام عليه اختصاراً، وليقدّر بكلّ نحوٍ يناسب المقام، قال امرؤ القيس:

قَلَوُا أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَكِنَّا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا^(٣)
وقد مرّ بعد الآية التاسعة والعشرين شيء من شواهد الحذف لدلالة المقام.

(١) تفسير العياشي ٩: ٧٢/١٤٢.

(٢) الكافي ١: ٣٠٥، الاختصاص: ٣٣٤، تفسير البرهان ٩: ١٧٢/١.

(٣) الديوان: ١١٨، وفيه: جملة بدل سوية.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ في (التيان) و(البيان): العامل في «إذته» قوله (ص): ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(١). والأظهر أنها بدل من «إذ يروا العذاب» أو عطف بيان، فالعامل فيها «لو يرى».

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ جميعاً: التابعون والمتبوعون ﴿وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْيَابُ﴾ السبب: هو الحبل الذي يتوصل به إلى الصعود، فإذا انقطع بالشخص المتعلق به أيس من نجاته من وورثته، كئى بذلك عن انقطاع آمالهم بوسائلهم التي كانوا يتوهمونها. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ﴾ لو: للتمني، والتقدير: لو يمكن أن لنا كربة، كما تقدمت الإشارة إليه في الآية السادسة والتسعين.

وقيل: إنها لا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط. وقال بعضهم: هي لو الشرطية أشربت معنى التمني، ومعناها أنها تحتاج إلى الجواب، ولكن الغالب حذفه لدلالة سياق الكلام عليه، واحتجوا بقول مهلهل بن ربيعة^(٢):

فَلَوْ نَبَشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كُلِّبٍ فَيُخْبِرَ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زَيْرٍ
يَوْمَ الشُّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنًا وَكَيْفَ لِقَاءُ مَنْ نَحَتْ الْقُبُورُ^(٣)

فجاء بجوابها مقروناً باللام، ولا بأس بهذه الحجة وقولها، وربما يكون بعض ما جيء بجوابها مع اللام في القرآن الكريم هي «لو» التي للتمني.

﴿فَتَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ﴾ من المتبوعين، بنصب «تتبرأ» لوقوعها في جواب التمني بعد الفاء ﴿كَمَاتَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي تبرأوا ينفعنا في العمل والجزاء في دار لا فيها عمل ولا

(١) تفسير التبيان ٢: ٦٥، جميع البيان ١: ٤٥٦.

(٢) وهو عدي بن ربيعة بن مرة بن هيرة، أبو ليلى المهلهل، من تغلب. شاعر جاهلي، من أهل نجد، وهو خال امرئ القيس الشاعر، وأخو كليب، قيل: إنه أول من هلهل - أي رقق - نسج الشعر، ولهذا لقب مهلهلاً، ومن ألقابه «الزير» لقبه به أخوه كليب، لكثرة زيارته النساء وبجاسته إياهن، وشعره عالي الطبقة. توفي نحو (١٠٠ق.هـ). «شرح شواهد المغني ٢: ٦٥٦، خزائن الأدب ١: ٣٠٠-٣٠٤، أعلام الزركلي ٤: ٢٢٠».

(٣) الذَّنَائِبُ: بفتح الذال المعجمة، ثلاث هضبات بنجد بها قبر كليب المذكور، والشُعْثَمَانُ: شعث وشعث ابنا معاوية بن عمرو بن عقل بن تغلب قتلها مهلهل ثاراً لأخيه كليب، وقيل: الشُعْثَمَانُ: موضع معروف «مغني اللبيب ١: ٤٧٢/٣٥٢، شرح شواهد المغني ٢: ٦٥٤/٤١٢».

~ سَاب.

﴿تَذَلُّكَ﴾ أي كما تبرأ بعضهم من بعض، وتقطعت بهم الأسباب، وخابت آمالهم ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿أَعْمَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي أسباب حسراتهم على أنفسهم فيها فرطوا فيها، وأقيم السبب مقام السبب مبالغة، ومن مصاديق ذلك ما في (التيبان) و(البيان): روي عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: الرجل يكسب المال ولا يعمل فيه خيراً، فيرثه من يعمل فيه عملاً صالحاً، فيرى الأول ما كسبه حسنات في ميزان غيره^(١).

ورواه أيضاً في (تفسير البرهان) عن (أمالى الشيخ المفيد) مسنداً عن أحدهما (عليهما السلام)^(٢).

وعن (الكافي) نحوه مسنداً أيضاً عن أبي عبد الله (عليه السلام)، كما رواه عن العياشي أيضاً^(٣).

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وذلك معنى الخلود فيها والعياذ بالله.

يَتَّيْهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِى الْاَرْضِ حَلٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوْا
خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ اِنَّهٗ بَكْمٌ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿١٧٤﴾ اِنَّمَا يٰمُرْكُمُ
بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَآءِ وَاَنْ تَقُوْلُوْا عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿١٧٥﴾
وَإِذْ قِيْلَ لَهُمْ اَتَّبِعُوْا مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ قَالُوْا بَلْ نَسْبِعُ مَا الْفَيْتٰنَا عَلَيْهِ
ءَاِبَآءًا اَوْ لَوْ كُنَّا ءَاِبَآءُهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُوْنَ ﴿١٧٦﴾

(١) تفسير التبيان ٢: ٦٩، مجمع البيان ١: ٤٥٨.

(٢) أمالي المفيد: ٣٥/٢٠٥، تفسير البرهان ١: ١٧٢/١.

(٣) تفسير المياشي ١: ١٤٤/٧٢، الكافي ٤: ٢/٤٢، تفسير البرهان ١: ١٧٣/٢ و ٣.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾ الأمر هنا للإباحة ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من بعضه، مما أحله الله ﴿حَلَالًا﴾ في نفسه ﴿طَيِّبًا﴾ في مأخذه، وفي ذلك بلاغ لكم تعيشون به من نعمة الله ورحمته في هناء وسلامة في الآخرة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وتقتفوا أثره في غوايته وطريق ضلاله ووسوسته لكم، فإنه لا يؤسوس لكم إلا بما يضركم ولا يدعوكم إلا إلى ما يؤبقكم في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لعداوته، ولو تبصرتهم فيما يغوي به الكفار والفساق لعرفتم أنه لا يتخفى بعداوته لكم، وإرادته مضرتكم في الدارين.

وروي في (الكافي) (والتهذيب) عن الصادق والباقر (عليهما السلام): أَنَّ الْحَلْفَ عَلَى ذِيحِ الْوَلَدِ، وَالْحَلْفَ بِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالنَّذْرِ، وَأَنْ يَقُولَ: عَلَيَّ أَلْفَ بَدَنَةٍ، وَأَنَا مُحْرَمٌ بِأَلْفِ حَبَّةٍ، أَوْ: إِنَّ جَمِيعَ مَالِي هَدْيٍ، وَكُلُّ مَمْلُوكِي حُرٌّ، إِنْ كَلَّمْتُ فَلَانًا، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ^(١). كما في (البرهان) مسنداً عن العياشي مرفوعاً^(٢).

وروي في (الدر المنثور) فيها أخرجه الرواة، وصححه بعضه الحاكم شيئاً من نحو هذا، عن ابن عباس وابن مسعود والحسن وجابر بن زيد^(٣).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ الشيطان بغوايته ووسوسته ﴿بِالسُّوءِ﴾ بحيث تعرفون إذا نظرتهم بعين البصيرة أنه سوء يزجر عنه العقل والشرع ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وهو ما يستعظم قبحه ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ كاذبين ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه منه.

﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي للضالين عن الحق ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الدين والشرعة ﴿قَالُوا﴾ لا نتبع ذلك ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من الاعتقاد والعمل، ويفقدون بذلك آباتهم على عمى وضلال، ففسهاهم ﴿أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وهم كذلك، إذ كانوا على غير ما يهدي إليه العقل والشرع.

(١) الكافي ٧: ٤٤٦، التهذيب ٨: ٢٨٧ و ١٠٥٨ و ٢٨٨ و ١٠٦٣.

(٢) تفسير العياشي ١: ٧٣/٤٦-١٤٩، تفسير البرهان ١: ١٧٣/٥ - ٨.

(٣) الدر المنثور ١: ٤٠٣ و ٤٠٤.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ
 إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
 ﴿١٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
 عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ
 لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أقوالهم هذه التي لا يتفكرون في فساد معانيها، ولا يعرفون غلطها وما يقولونه فيها ﴿كَمَثَلِ﴾ الأصمُّ ﴿الَّذِي يَنْعِقُ﴾ كنعاق الراعي في غنمه ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ ولا يميز من مداليل نعاقه معنى معقولا ﴿إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ وصوتا بلا معنى، وإنهم في ذلك ﴿صُمُّ بُكُمْ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كيف ينطقون.
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ نعمه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ليس المراد منه حقيقة الشرط وتعليق الشكر على عبادته، بل لبيان أن الشكر لنعمه ملازم لعبادته عن معرفة بأنه إله العالم وخالقه ومديره.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي الحيوان الذي عرض عليه الموت والمراد منها غير الحيوان المذكى بها شرعه الله له من أسباب التذكية المحللة للأكل ﴿وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ نص على لحم الخنزير الشامل هنا لشحمه عناية ببيان تحريمه، وإن كان من الميتة المحرمة ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ﴾ ورفع الصوت عند ذبحه أو نحره بالتسمية ﴿لغيرِ اللَّهِ﴾ كالذي يُذبح قربانا للصنم أو الوثن والشجر، أو الذي يُذكر عليه اسم الصنم

والتَّوَنُّ، وكلاهما مروى، فإنه من الميتة، والمحصَر في الآية إضافي بالنسبة إلى المأكول من الحيوان.

﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ﴾ إلى أكل شيء من ذلك بمقدار ما يحفظ به حياته حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ وقد جاء في القرآن «بَاغٍ» و«البغي» وما يُشْتَقُّ منه في أكثر من عشرين مورداً على معنى واحد، لا يتعدى بنفسه، وإنما يُعدى بهلى^(١).

واختلفت كلمات المفسرين واللغويين في تفسيره بحسب ما يترأى لهم من مناسبات الموارد لاستعماله، لا لاختلاف فيه أو اختلافه في تلك الموارد، فقالوا: إنه الحسد أو الظلم أو الاعتداء أو الفساد من بغى المجرح إذا فسد، أو مجاوزة الحد عن الحق أو عن القصد، كما في (تبيان الشينخ) و(النهاية) و(القاموس) و(المصباح) و(الكشاف) و(مجمع البيان)^(٢) وهذا غير معنى الباغى بمعنى الطالب.

ومنه في القرآن: ﴿وَيَقُولُوا عِوَجا﴾^(٣) وابتنى وابتغى وتبغى ونحوه مما يتعدى بنفسه.

وفي (الكافي) و(معاني الأخبار) عن البرزنطي، عمن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام): الباغى: الذي يخرج على الإمام، والعادي: الذي يقطع الطريق^(٤). وسندها صحيح باعتبار رواية الصدوق، وكون البرزنطي ممن أجمع على تصحيح ما يصح عنه، وبذلك فسره في (المبسوط) و(الشرائع) و(القواعد) و(الإرشاد) و(اللغة) وفي (الروضة) أنه الأشهر^(٥).

وفي (البرهان) عن (تفسير العياشي) عن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله (عليه السلام): الباغى: الخارج على الإمام.

(١) قوله تعالى: في يونس ١٠: ٢٣، القصص ٢٨: ٧٦، سورة ص ٢٨: ٢٢، المبرات ٤٩: ٩.....

(٢) تفسير التبيان ١: ٣١٨، تفسير الكشاف ٤: ٣٦٤، مجمع البيان ٩: ٣١٢، النهاية ٩: ١٤٣، المصباح المنير ١: ٧٢، القاموس المحيط ٤: ٣٠٦.

(٣) الاعراف ٧: ٤٥.....

(٤) الكافي ١/٢٦٥، معاني الأخبار: ١/٢١٣.

(٥) المبسوط ٦: ٢٨٧، شرائع الاسلام ٣: ١٨١، الروضة البهية ٧: ٣٥٠-٣٥١.

وعن محمد بن إسماعيل، يرفعه إلى أبي عبيد الله (عليه السلام): الباغي: الظالم، والعادي: الغاصب^(١).

وفي (التيبان): وقيل: غير باغٍ على إمام المسلمين، ولا عادي بالمصيبة طريق المحققين^(٢).

وفي (البيان): هو المروي عن أبي جعفر وأبي عبيد الله (عليهما السلام)^(٣)، وفيه نظر، فإن روايته عن الباقر (عليه السلام) غير مذكورة، والرواية عن أبي عبيد الله (عليه السلام) ليست منحصرة بذلك.

ففي (الكافي) و(التهذيب) عن حماد بن عثمان، عن أبي عبيد الله (عليه السلام)، قال: الباغي: باغي الصيد، والعادي: السارق^(٤).

وفي رواية (الفقيه) و(التهذيب) عن عبد العظيم الحسين، عن أبي جعفر الجواد (عليه السلام): الذي يبغي الصيد لهواً وطراً^(٥).

وتفسير الباغي في هذه الروايات باعتبار أن ما ذكر فيها من مصاديق البغي والباغي، أما الخارج على الإمام فظاهر، وأما طالب الصيد لهواً وطراً فباعتبار أن هذا النحو من التصيد مصادق من مصاديق البغي.

ففي (الكافي) و(التهذيب) عن أبي عبيد الله (عليه السلام): أن الخروج إلى الصيد - صيد اللهو - ليس بمسير حق^(٦).

وفي (الكافي) و(التهذيب) وعن (المحاسن): أنه مسير باطل^(٧).

وعن (الخصال) عن الكاظم (عليه السلام)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(١) تفسير العياشي ١: ٧٤/١٥٦، تفسير البرهان ١: ١٧٤/٣.

(٢) تفسير التبيان ٢: ٨٦.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٦٧.

(٤) الكافي ٣: ٤٣٨/٧، التهذيب ٣: ٢١٧/٥٣٩، ٧٨/٣٣٤.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١٧، ذيل الحديث (١٠٠٧)، التهذيب ٩: ٨٤، ذيل الحديث (٣٥٤).

(٦) الكافي ٣: ٤٣٨/٨، التهذيب ٣: ٢١٧/٥٣٧.

(٧) الكافي ٣: ٤٣٧/٤، التهذيب ٣: ٢١٧/٥٣٦، المحاسن: ٣٧١/١٢٩.

أربعة يُفسدن القلب ويُنبئن النفاق، وعدّ منها الصيد^(١).
ثم إنَّ كلاً من الروایتين في تفسير الباغي تكون قرينةً على أن لا ينحصر
تفسير الباغي بها ذكرته، بل هو أحد المصاديق، ولكن خرج في نقل الرواية والسؤال
والجواب بهذا الأسلوب، إذن فكل من صدق عليه أنه باغٍ أو عادٍ لم يجز له أن يتناول
من الميتة، وإن اضطرَّ إليها، أخذاً بإطلاق الكتاب المجيد.
﴿فَلَا تُثْمِرْ عَلَيْهِ﴾ إذا أكل ممَّا ذكر بمقدار ما يحفظ به نفسه، وما فوق هذا
المقدار محرَّم لأنَّه غير مضطرَّ إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَشْتَرُونَ بِهِ نَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا
أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ أي يستبدلون
به ﴿نَمَنًا﴾ ومهما بلغ ذلك الثمن كان ﴿قَلِيلًا﴾ بالنسبة لكتابهم لما أنزل الله
﴿أُولَٰئِكَ﴾ خبر إن ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ من هذا الثمن الخسيس ﴿إِلَّا النَّارَ﴾

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴿١٠١﴾ فَلَا يَفْتَرُوا بِأَنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْغَايَةِ
يَكْفُرُونَهُمْ وَيَزَكِّيهِمْ، فَإِنَّ لَهُمْ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴿١٠٢﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ في عملهم هذا قد ﴿أَشْرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابِ
بِالْغَفَرَةِ﴾ ففعلوا بذلك فعل الصابر على النار بصبر عظيم ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ وهو أَنَّ الله لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿بِأَنَ اللَّهُ نَزَّلَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ بِنَاءٌ هَذَا، كَافِيَةٌ دَلَالَتُهُ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ شَقَاقًا
وَنِفَاقًا ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَمَدٌ.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِهِ كَتَبَ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ، هُوَ ﴿أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ فِيهَا اعْتَدْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ
صُورِ عِبَادَاتِكُمْ الَّتِي لَا يَسْمَعُ تَرْكُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أَيُّ
نَحْوِهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَهْدَمْ إِيْمَانَهُ

باتباع الهوى والشيطان في مخالفة أوامره ونواهيه.
﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يوم القيامة، وحقيقة الإيمان به أن يظهر أثره على أفعاله وأقواله وأخلاقه.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ القرآن، ويلزمه الإيمان بما ذكر فيه من الكتب الإلهية.
﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ ورأس ذلك وأساسه هو الإيمان بخاتمهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنه بالإيمان به يفتح باب الإيمان بمن سبقه من الأنبياء، لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبر بهم وذكروا في القرآن المنزل عليه، ولولا ذلك لما وجد الطريق إلى معرفتهم، لأن نقل معجزاتهم وأدعاءهم النبوة منقطع مريب.
﴿وَمَا آتَى الْمَالُ عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ أي حب الله خالصاً لوجهه الكريم **﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾**.

قال في (التيبان) والبيان: أراد به قرابة المعطي^(١).
أقول: وهو أقرب من حيث اللفظ.
وفيها أيضاً: ويحتمل أن يكون أراد قرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).
أقول: وهو أقرب في العادة إلى إتياء المال على حب الله خالصاً لوجهه، فإنه أبعد عن الدواعي النفسانية وحب الأقرباء.
وفي (البيان): وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)، قلت: ولم أجد الرواية بالنسبة لهذه الآية^(٢).

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ المحتاجين **﴿وَالْمَسْكِينِ وَآئِنَ السَّبِيلِ﴾** المسافر المحتاج في سفره، وإن كان له مال لا يصل إليه **﴿وَالسَّائِلِينَ﴾** منه مالاً **﴿وَفِي﴾** غنى **﴿الرَّقَابِ وَأَقْسَامَ الصَّلَاةِ﴾** بحدودها **﴿وَمَا آتَى الزُّكُوةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾** ذكر الشرط لبيان هذا النحو من العهد، وهو الذي يصدر منهم، وجيء بصيغة الجمع للإشارة إلى العهود التي تقع بين الجماعات من الناس، وللتعريض بغدر بني النضير وقرظة وأمثالهم، ممن لم يرع في العهد إلا ولاذمة.

(١) تفسير التيبان ٢: ٩٧، مجمع البيان ١: ٤٧٧.

(٢) مجمع البيان ١: ٤٧٧.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْآسَاءِ﴾ الفقر ونحوه ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض ونحوه ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ الحرب وشدتها، ونصب الصابرين على المدح لما في صبر هؤلاء الصابرين من الفضيلة الكبرى، إذ عليه يبتني الثبات على الدين والطاعة لله وشكر نعمه والشدة والإقدام في نصره الحق، والسلامة من الضلال والارتداد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ومن المعلوم أنه لم يجمع هذه الصفات من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، واستقرأ الأحوال ومنها يوم أحد والأحزاب وخيبر وحنين يعرفك اختصاصه (عليه السلام) بهذه الفضيلة، فهو معنى بهذه الآية يقيناً، وأما غيره فلا أقل من الشك في جامعيتها لها.

وفي (مجمع البيان) عن الزجاج والفرأ: أنها - أي هذه الصفات وجامعيتها - مخصوصة بالأنبياء المعصومين^(١). وليت شعري ماذا نفعل من أبي الحسن!

وأما قوله (نار): ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ آمَنَ بِآلِهِ﴾ فهو أسلوب فائق من البلاغة، يخرج الكلام به من صورة الفرض الذي لا يهيم في البيان إلى صورة الوقوع والحجة بالبيان.

قال الحارث بن حِزَّة الشُّكْرِي:

وَالسَّيِّئُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النُّورِ لِكَ بِمَنْ عَاشَ كَذَا^(٢)

وقال النابغة الجعدي^(٣):

كَأَنَّ غَدِيرَهُمْ بِجَنُوبِ سُلَى نَعَامَ قَاتَى فِي بَلَدِ قِفَارِ^(٤)

(١) مجمع البيان ٩: ٤٧٨.

(٢) النُّورُ: جمع أنور، الأحمق، الأغاني ٩: ١٧٤.

(٣) وهو عبادة بن قيس - وقيل حسان، وقيل: قيس بن عبادة - بن جعدة بن كعب بن ربيعة، أبو ليل، شاعر مُلقب، مُضَرَّم، وسمي «النابغة» لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الحمر قبل ظهور الإسلام، ووفد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأسلم، وأدرك صفين فتشهدا مع علي (عليه السلام)، ثم سكن الكوفة، وسيره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، ومات بها مكفوفاً بعد أن عَمَّر طويلاً نحو (٥٠ هـ). طبقات الشعراء: ٢٦، أمالي المرتضى ١: ٢٦٣ - ٢٦٩، الأغاني ٤: ١٢٧، شرح شواهد الغني ٢: ٦١٤ - ٦١٦، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٥٢.

(٤) السُّلَى: موضع بالبادية، وبضم السين يطلق على بعض المواضع في بلاد عامر والأهواز وقرب هجر، وقَاتَى: التَّعَامَ:
 ←

وقال الحطّينة^(١):

وَسَرَّ الْمَنَاسِيَا مَيَّتَ وَسَطَ أَهْلِهِ كَهْلِكَ الْفَتَى قَدْ أَسْلَمَ الْحَمِيَّ حَاضِرُهُ^(٢)
فالفرض من الآية هي الإشارة إلى الذين أتصفوا بهذه الصفات وأشرقت الأرض بنورهم، والاحتجاج والمقابلة بهم لا بمجرد المقابلة بين تولية الوجه قبل المشرق والمغرب وبين حقيقة البر. ولو قيل: ولكن البار من آمن إلى آخره لخرج الكلام إلى الفرض لا الوقوع. وكذا لو قيل: ولكن البر بر من آمن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ
وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ
فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ في الشريعة رعاية لحق المقتول وأوليائه
﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ القصاص: أخذ الجاني بمثل جنايته وأتباع أثره فيها، وهذا
خاص بالعبد، لقوله تعالى: ﴿فِي سُورَةِ النِّسَاءِ﴾: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ

→ صوت. أراد غدير نعام فحذف الضاف وأقام الضاف إليه مقامه، وسماه كأن حاله في الهزيمة حال نعام تقصرو
مذعورة، معجم البلدان ٣: ٢٤٤، لسان العرب - فوق - ١٠: ٣٢٥.

(١) وهو جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة، شاعر مخضرم، كان هجاءً عنيفاً، لم يكذب بلسان أحد
حتى هجا أمه وأباه ونفسه، وتوفي نحو (٤٥هـ)، طبقات الشعراء: ٢١، الأغاني ٢: ٤٦، شرح شواهد المغني ٢:

٩٦٦، خزائن الأدب ٩: ٤٠٩.

(٢) أمالي المرتضى: ١٩.

وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ^(١) الآية. وعلى ذلك إجماع المسلمين وأحاديثهم.
وما كل المسلمين تتكافأ دماؤهم وتتساوى، بل ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾
ويقيد إطلاق جنسهما في شموله للذكر والأنثى بقوله (نار): ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ كما
يتقيد إطلاق هذا بقوله (نار): ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ فَإِنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ لَا تَكْفَى
المسلمة الحرة.

وفيا يتعلق بهذه الآية مبحثان:

الأول: فيا خرج من إطلاقها، وفيه مسائل:

الأولى: لا يقتل مسلم بكافر وإن كان ذمياً، وعليه إجماع الإمامية، وكثير من
الجمهور، ولم يعرف الخلاف فيه منهم إلا عن الشعبي والنخعي وأبي حنيفة وصاحبيه^(٢).
ويردّهم قوله (نار) في سورة النساء: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا﴾^(٣) نعم، ثبت الدية للذمي بنص الآية الثانية والتسعين من سورة النساء^(٤).
فإن كان ذلك منافياً لظاهر نفي السبيل كان تخصيصاً له ويبقى ما عداه لحكم العموم.
ويحتج عليهم أيضاً بما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي،
بأسانيدهم عن أبي جحيفة، عن علي (عليه السلام)، في الصحيفة التي عن رسول
الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يقتل مسلم بكافر^(٥).

وأخرج أحمد والنسائي وأبو داود، بأسانيد صحيحة عندهم، عن أبي حسان
تارة، وعن قيس بن عباد أخرى عن علي (عليه السلام)، في الصحيفة التي عهد بها رسول
الله: المؤمنون تتكافأ دماؤهم... لا يقتل مؤمن بكافر، الحديث^(٦).
والمراد من تكافؤ دماؤهم أن الصغير يكافئ الكبير، والوضيع الشريف.

(١) الآية: ٩٢.

(٢) الخلاف: ١: ٣٤١.

(٣) الآية: ٨٤١.

(٤) قوله (نار): ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

(٥) مسند أحمد: ٧٩، صحيح البخاري: ٩/٥٣٢٢، سنن الترمذي: ٤/١٤١٢/٢٤، سنن النسائي: ٨/٢٣.

(٦) مسند أحمد: ١/٢٢٢، سنن النسائي: ٨/٩٩، سنن أبي داود: ٤/١٨٠/٤٥٣٠.

وعن أحمد وابن ماجه، عن ابن عمر، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، مثله.
وفي (كنز العمال) في ذلك عدة أحاديث^(١).
نعم، المشهور عند الإمامية ولعله إجماع أن المسلم إذا اعتاد قتل أهل الذمة قتل تأديباً، ولا كرامة له، كما نطقت به أحاديثهم^(٢).
وفي (الكنز) عن عبدالرزاق في (جامعه)، ومسلم والبخاري، عن عمر، نحو ذلك.

الثانية: لا يقتل الأب بآبته بإجماع الإمامية وأحاديثهم الكثيرة^(٣)، وهو المعروف من فقهاء الجمهور.

ورواه في (كنز العمال) مما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجه، والطبراني في (الأوسط) وابن عساكر، وأحمد في (العلل) والدارقطني، وعبدالرزاق، في أحاديثهم عن عمر، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٤).

وأسنده الترمذي، عن عمر وسراقة بن مالك، عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).
وقال الترمذي: إن العمل على هذا عند أهل العلم^(٥).
وعن مالك: إن ذبحه ذبحاً أو شق بطنه فعليه القود^(٦)، وأما الأم فإنها تقتل بولدها على أصولنا، إذ لم يثبت المخرج لها^(٧).

الثالثة: لا يقتل حرّ بعبد، ولا حرّة بأمة، سواء كان المقتول ملكاً للقاتل أو لغيره، وعليه إجماع الإمامية وأحاديثهم^(٨)

(١) مستند أحمد: ١٨٠، كنز العمال: ١/٢٢٤ و ١٠٣/٩٣ و ١٣٩/٩٨ و ٤/١٢٨٩/١٣٥ و ١١/٣٢٧/٣٢٧.

(٢) التهذيب ١٠: ٧٤٤/١٨٩، الروضة البهية ١٠: ٥٥، جواهر الكلام ٤٢: ١٥١.

(٣) التهذيب ١٠: ٩٤٦/٢٣٦ و ٩٤٦/٩٤٦، الروضة البهية ١٠: ٦٤، جواهر الكلام ٢٢: ١٦٩.

(٤) سنن ابن ماجه ٢: ٢٦٦/٨٨٨، سنن الدارقطني ٣: ١٤١، كنز العمال ١٥: ٣٩٨١٢/٥ و ١٧٥/٧٧.

(٥) سنن الترمذي ٤: ١٨/١٣٩٩ و ١٤٠٠.

(٦) كتاب الخلاف ٢: ٩/٣٤٣، بداية المجتهد ٢: ٣٩٦.

(٧) كتاب الخلاف ٢: ٩/٣٤٣، كنز العرفان ٢: ٣٥٥.

(٨) الكافي ٧: ١/٣٠٤ - ٤، من لا يحضره الفقيه ٤: ١٣/٢٠١، التهذيب ١٠: ٧٥١/١٩٩ و ٧٥٥ - ٧٥٥، كتاب الخلاف

٢: ٣/٣٤٢، كنز العرفان ٢: ٣٥٥، جواهر الكلام ٤٢: ٩١.

قيل: وهو مذهب الصحابة^(١)، بل لم يعرف الخلاف من الجمهور إلا من النُحَعي حيث قال: يقتل بعبد وعبد غيره.
وقال أبو حنيفة: يقتل بعبدٍ غيره^(٢).
ويحتج عليهما من حديثهم بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يُقتل حرٌّ بعبد^(٣).
وما أخرجه عبد الرزاق في (جامعه) عن عمر: لا يقاد العبد من الحر^(٤).
وما أخرجه ابن أبي شيبه والبيهقي: أن أبا بكر وعمر يقولان: لا يُقتل المولى بعبد^(٥).

المبحث الثاني: أن الآية مسوقة لبيان التساوي والتكافؤ، فلا دلالة فيها على حصر القصاص وانحصاره بخصوصيات هذه المقارنات الثلاث بحيث لا يقتل كلٌ إلا بمن جعل في الآية مقارناً له، ولا بها إذا كان القاتل واحداً، ويشهد لذلك إجماع المسلمين وأحاديثهم على عدم الالتزام بهذه المقارنات، وفي ذلك مسائل:
الأولى: يعرف ما يحصل به التكافؤ والتساوي والجبران في القصاص بالنظر إلى السُّنة في التفرقة بين دية الرجل والمرأة.
الثانية: إذا قتلت المرأة رجلاً، أو قتل العبد حرّاً، كفى قتل الجاني بإجماع الإمامية وحديثهم بأنه لا يجني الجاني على أكثر من نفسه^(٦)، ولا يحضرنه نقل خلاف فيه من الجمهور.
الثالثة: إذا قتل جماعة واحداً بحيث لو انفرد كلٌ منهم بجنايته، كان بها التلّف.

(١) كتاب الخلاف ٢: ٤/٣٤٢.

(٢) كتاب الخلاف ٢: ٤/٣٤٢، بداية المجتهد ٢: ٣٩٤.

(٣) سنن البيهقي ٨: ٣٥.

(٤) كنز العمال ١٥: ٧٢/١٠٩١٤.

(٥) سنن البيهقي ٨: ٣٧، كنز العمال ١٥: ٧٠/١٠١٣٩.

(٦) الكافي ٧: ٢/٢٩٨، ٢/٢٩٩، من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٨٦/٨٩، التهذيب ١٠: ٧١٢/١٨٢، شرائع الإسلام ٤: ١٨٩، كنز العرفان ٢: ٣٦٤، جواهر الكلام ٤٢: ٨٣.

جاز أن يُقتلوا به جميعاً، إلّا من كان لو انفرد لا يُقتل به، كالأب بالنسبة للولد، والمسلم بالنسبة للذمي، والحرّ بالنسبة للعبد، وعلى كلّ المسألة إجماع الإمامية وأحاديثهم، والجمهور، ومنهم في (ملتقى الأنهر) نقلوا عليه إجماع الصحابة، وكأنّهم لم يعتنوا بما يحكي من خلاف ابن الزبير ومُعَاذ، بل لم يعرف الخلاف من فقهاءهم إلّا من ابن سيرين والزُّهري وربيعة وداود وأصحابه أهل الظاهر^(١).

والحجّة أيضاً على ما ذكرناه من القرآن الكريم إطلاق قوله (نار): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ والذي بعد ذلك إنّما ينظر إلى المساواة والمقابلة لا إلى التقييد، نعم كلّ واحد يرد عليه من دينه بقدر ما على أصحابه من الجنائية، وظاهر بعض الأصحاب أنّ قتل الولي لكل واحد يتوقّف على أداء ما يردّ عليه من دينه^(٢)، وفي المسألة فروع تتكلّف بها كتب الفقه.

الرابعة: إذا قتل الرجل امرأة جاز أن يقتل بها بعد أن يردّ أولياؤها ما يفضل به عليها. وهو نصف دينه، ومن ذلك والمسألة السابقة يعرف الحكم فيها لو اشترك أكثر من واحد.

هذا وإنّ كتابة القصاص وشرعيّته على المؤمنين بأن ينقادوا ويسلموا أنفسهم له إذا جنوا، ليدلّ بالألوّة على كتابته على غيرهم من أهل الذمة والمستأمنين إذا قتلوا محترم النفس ولو بالعرض، ولا ينافي ذلك سقوطه بعفو الولي كلّ العفو.

وجواز العفو ورجحانه بآيات العفو في القرآن الكريم، أو يعفو بعض العفو كأن يعفو عن خصوصيّة القتل ويصالحه على الدّية، كقوله (نار): ﴿فَمَنْ﴾ كان ممن عليهم القصاص ﴿عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وفي التعبير بالأخ ترغيب في العفو بالإشارة أنّ الجنائي من المسلمين أخ إسلامي للولي، والولي أخوه، وينبغي للأخ أن يرضى لأخيه أخوته ويسامحه ويقبله عثرته ﴿شَيْءٌ﴾ صفة للمفعول المطلق النائب عن الفاعل.

(١) الكافي ٧: ٢/٢٨٣ - ٤، من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٦٦/٨٢، التهذيب ١٠: ٢١٧/٨٥٤ - ٨٥٦، المبسوط ٧:

١٣، بداية المجتهد ٢: ٣٩٥، المغني لابن قدامة ٩: ٣٦٦، شرائع الإسلام ٤: ١٨٧، الروضة البهية ١٠: ٢٩.

جواهر الكلام ٤٢: ٦٦.

(٢) شرائع الإسلام ٤: ١٨٧، الروضة البهية ١٠: ٢٩، المبسوط ٧: ١٣.

أي بعض العفو وشيء منه بأن رضي منه بالدية كما يدل عليه باقي الكلام.
﴿فَاتَّبَاعٌ﴾ أي فالمعاملة المناسبة أن تكون بينها بعد العفو، والشأن الذي ينبغي أن يكون بينهما في هذا المقام هو اتباع من الولي للجاني الذي استقرت عليه الدية ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ كالنظرة إلى المسيرة ﴿وَأَدَاءٌ﴾ من الجاني ﴿إِلَيْهِ﴾ أي الولي ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ كما أحسن إليه بالعفو عن القصاص.

﴿ذَلِكَ﴾ أي شريعة العفو والانتقال إلى الدية بالاتباع بالمعروف ﴿تَخْفِيفٌ﴾ عليكم أيما الجانين ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ وعاد إلى القتل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ﴾ في الآخرة ﴿أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ المذكور ﴿حَيَاةٌ﴾ فإنه أحسن رادع للناس عن جرأتهم على قتل النفوس، الذي ربما يجني حرباً يفنى فيها كثير من الناس.

فإن القصاص قتل لا يقدم عليه لما فيه من ذلة الانتقياد إلى ما يعلمه من القتل صبراً حيث لا مانع ولا رادع، فهو فيه حياة للناس من حيث الأمن من القتل ظلماً، ومما يجنبه عواقبه، وحياة لمن يرتدع عنه بخوف القصاص، فهب أنه مات اتفاقاً بحق القصاص إنسان واحد ظالم، لكن تحفظ بذلك حياة كثيرين، كما لا يخفى ذلك عليكم ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ والعقول الذين يعرفون الغلط في قول بعض الناس: إن القصاص محض نقصان في حياة الإنسان، وقد كتب القصاص لغاية أن تتقوا قتل الناس خوفاً منه، أو تتقوا الله في ذلك، ولكن لأجل أن الاتقاء والتقوى أمر اختياري للإنسان لا إلهاء فيه قيل فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا
الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ

﴿إِنَّمَا فَاصِّلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١٨٢

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قرب منكم بأن ظهرت أماراته بالمرض ونحوه ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا ﴿الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ﴾ بها هما والدان لا بقيد اجتماعها في الحياة، والوصية نائب الفاعل لكتب ﴿وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أقرب الأقرباء، وقد يكونون اثنين أو جماعة في مرتبة واحدة من القرابة، وقد يكون الأقرب واحداً، وجرى الجمع في الآية باعتبار الناس لا للتقييد بالجمع ﴿حَقًّا﴾ الظاهر أنه حال من الوصية ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ لله، وفي هذا تأكيد لكتابتها. ولا يخفى أن المسلمين مجمعون على أن هذه الوصية غير واجبة بعد زمان من الهجرة إلى آخر الأمر، وأجمعت الإمامية على أن شرعية الوصية للوارث غير منسوخة وعلى ذلك أحاديثهم^(١).

ويمكن أن يكون الوجوب المذكور في الآية كان في بدء التغير بالشرعية لموارث الجاهلية، فإنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الأطفال ولا من يعجز عن حمل السلاح، فاقترضت الحكمة أن يكون التغير تدريجياً بنحو الوصية أولاً، ثم بأحكام الموارث، فإن تغير الميراث الجاهلي صعب على الناس، ولذا ترى كثيراً من القبائل حتى في هذه الأزمنة لا ينقادون للميراث الشرعي، بل يجرّون على النحو الجاهلي. ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي الإيضاء - مطلقاً - المدلول عليه بذكر الوصية، لا خصوص

(١) تفسير المصباحي: ١/٧٦، ١٦٤/١٦٦، الكافي: ٧/١٠، ٥، من لا يحضره الفقيه ٤: ١٤٤/١٩٢، التهذيب ٩: ٧٩٢/١٩٩، في (الكشاف) ١: ٢٢٤، والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فتُسخت بأية الموارث، ويقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَلَّهَ عَفُورٌ﴾ أي أعطى كل ذي حق حقه ألا وصية لوارث، وينبغي الأمة إياه بالقول حتى لحق بالتواتر... انتهى.

أما قول المصنف باجماع المسلمين على عدم وجوب هذه الوصية وإنها كانت في بدء الإسلام فبرده ما في (المخلاف) ٢: ٨٩ بذهب طائفة إلى وجوب الوصية بالنسبة إلى الأقارب الذين يورثون لكن معهم من يحجبهم، وما نقله في (المفني) ٦: ٤١٥ أيضاً عن طائفة، ونقل الرازي في (التفسير الكبير) ٥: ٦٦ والقرطبي في تفسيره ٢: ٢٥٩، والشيخ في (المبسوط) ٤: ٤ الخلاف في هذه المسألة.

الرحمة المتقدمة، كما يدل عليه التذكير المتكرر لضميره أربع مرّات، كما يشهد له ما استفاضت روايته عن الأئمة (عليهم السلام) بهذه الآية للوصية بالمال في سبيل الله والحج **﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾** وعلم به ولو بالبيّنة.

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي الذي يترتب على مخالفة الإيصاء **﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾** فإن الموصي إذا لم يكن مقصراً بتأخير ما أوصى به، خرج بالوصية عن عهده وإثمه، ديناً كان أو عيناً، وبقي الإثم كله على المبدّل **﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحق خطأ **﴿أَوْ إِثْمًا﴾** كالوصية بما لا يخفى كونه معصية، وظاهر الآية خوف ما وقع من الجنف أو الإثم، لا خوف وقوعها في المستقبل، أو الخوف في المستقبل، كما لو قيل: إن خاف، أو ومن يخاف، ومقتضى الخوف أن يكون ذلك في مقام الابتلاء والعمل، وهو ما بعد موت الموصي، وخوفها هو الخوف من تبعات العمل بها، أو ترك ردها إلى الحق، ولو من باب الأمر بالمعروف للقادِر عليه، كما تقول: خفت الأسد، إذا خفت من تبعات عاديته.

﴿فَأَصْلَحَ﴾ أصلح عمله وعمل الصالح برّد الوصية إلى الحق المشروع، كقوله (نار) في سورة المائدة: **﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾**^(١) ونحوه في سورة الانعام: (٤٨) و(٥٤)^(٢) وغير ذلك **﴿بَيْنَهُمْ﴾** ظرف لأصلح، والضمير يعود إلى الوارث والموصى لهم، كما يدل عليه المقام.

وفي (جمع البيان) أنشد الفراء^(٣) في مثله:

(١) الآية: ٣٩.

(٢) قوله (نار): **﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

وقوله (نار): **﴿مَنْ غِبِلَ مِنْكُمْ سُوءٌ أَوْ بَغْيَالَةٌ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

(٣) وهو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أبو زكريا، مولى بني أسد، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. ولد بالكوفة سنة (١٤٤هـ) وانتقل إلى بغداد وقطن بها، وتوفي في طريق مكة (٢٠٧هـ). تاريخ بغداد ١: ١٤٩، الفهرست لابن النديم: ٧٣، وفیات الأعيان ٦: ١٧٦، تهذيب التهذيب ١١: ١٨٦، النونية ١: ٣٩، أعلام الزركلي ٨: ١٤٥.

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجْتُ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخُذْرُ
وَيَقُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرْ^(١)
أَيَّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا.

وبها ذكرناه جاءت الرواية عن أهل البيت (عليهم السلام) كما في (الكافي) في مرسل
علي بن إبراهيم المضمر، وصحيح محمد بن سُوْفَةَ، عن الباقر (عليه السلام)^(٢).
وفي (الفتاوى) في مرفوعة يونس، عن الصادق (عليه السلام)^(٣).

ورواه ابن جرير من الجمهور في (تفسيره) عن ابن عباس وقتادة والربيع
وإبراهيم بن أبي السدي، ولم يذكر خلافاً صريحاً إلا عن مجاهد^(٤).

﴿فَلَا إِيَّاهُ عَلَيْهِ﴾ بيان للأمن من إثم التبديل المذكور في الآية وتخصيص
عمومه، واكتفى برفع توهم الخطر لأن جهة الوجوب في هذا الإصلاح واضحة، ولزيادة
التأمين قال (سأ): ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمذنبين، فكيف يخاف من أصلح ورد جور
الوصية إلى حق الشريعة؟

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ
عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ

(١) أمالي المرتضى ٩: ٤٤، تفسير النبيان ٢: ١١٣، مجمع البیان ٢: ٤٨٥، معجم الأدباء ١١: ١٣٢، والبيت لمسكين
الدارمي - دبعة بن عامر بن أنف التميمي - المتوفى سنة (٨٩هـ).

(٢) الكافي ٢: ١/٢٠ و ٢/٢٦.

(٣) لا يحضره الفقيه ٤: ٥٦٨/٥٦٥.

(٤) تفسير الطبري ٢: ٧٧.

لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ وهو في اللغة الإمساك والكف عن الشيء، قيل ومنه قول النابغة الذبياني^(١):
خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعِجَاجِ، وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجَبِ^(٢)
ويراد به في الشرائع إمساك مخصوص على حسب ما تقتضيه المصلحة في تخصيصه وحدوده في الشريعة، ولا يخرج بإرادة الخصوصية ولا يفهم الخاص بقرائن الشريعة عن كونه مصداقاً للمعنى اللغوي.
﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي ككتابه عليهم، وحظيتهم بفضلهم واللفظ به كما حفظوا.

وقيل: المراد تسلية المؤمنين بذلك، وقد دلت الآثار على أنه مختلف بحسب الشرائع في الحدود والوقت، ففي رواية (العلل) عن الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام)، عن جده (عليه السلام) أنه عليه وآله وسلم: أَنَّ الصَّوْمَ عَلَى الْأُمَمِ كَانَ أَكْثَرَ تَمَّاءَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ^(٣).

وفي رواية (الفقيه) عن حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، عَنِ الصَّادِقِ (عليه السلام): أَنَّ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ لَمْ يَفْرَضْ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلُنَا، وَإِنَّمَا فُرِضَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ^(٤).
وقد اختلفت روايات الجمهور في هذا المقام^(٥).

(١) وهو زياد بن معاوية بن حبيب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمانة: شاعر جاهلي، كان ناقداً يعرض عليه الشعر في عكاظ، مدح النعمان بن المنذر وكان حطياً عنده، وعثر عمر أوطيلاً وتوفي نحو (١٨٠ق.هـ)، طبقات الشعراء: ١٥، الأغاني ٩: ١٥٤، شرح شواهد الغني ١: ٧٨، خزانة الأدب ١: ٤٢٦ و ٤٢٧، أعلام الزركلي ٣: ٥٥.

(٢) لسان العرب - صوم - ٣٥١: ١٢.

(٣) علل الشرائع: ١/٣٧٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٦٧/٦١.

(٥) الدر المنثور ١: ٤٢٨ - ٤٣٠.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بمعنى لتتقوا، بلام الغاية، وأبدلت بعلل لكون التقوى اختيارية، وحصول التقوى بالصوم هي الغاية العامة للناس، وإن اشتمل على غايات أخر، لكسره للشهوات الباعنة على المعاصي.

﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ لا تتجاوز مقدار الشهر إلى الأشهر، وقوله (نار)، بعد آية شهر رمضان ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً﴾^(١) الآية، بين فيه مقدار الأيام ومحلها، والعامل في (أياماً) هو الصيام، وهو كافٍ في العمل في الظرف فلا حاجة إلى فضول التقدير.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَّرِيضاً﴾ يزيد الصوم مرضه، أو يبطئ بسببه برؤه ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ وبيان السفر ومقداره موكل إلى السنة ﴿فَعِدَّةٌ﴾ بالرفع كما عليه مصاحف المسلمين وقراءتهم المتداولة حتى القراءات السبع، والتقدير «فالذي كتب الصيام فيه في الحالين» كما يدل عليه اللفظ والسياق، ولا دلالة على تقدير غيره، هو عدة ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ في غير المرض والسفر، والعدة: هي بمقدار الفائت بالسفر والمرض كما يدل عليه قوله (نار): ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ وسوق الشرط والجزاء يدل على أن الصيام في المرض والسفر المذكورين غير مكتوب ولا مشروع، كما أنه في الأيام الأخر هو المكتوب والواجب المشروع، وعلى ذلك إجماع أهل البيت (عليهم السلام) وأحاديثهم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي يأتون به جهد طاقتهم.

قال في (النهاية): الطوق: اسم لمقدار ما يمكن أن يفعل بمشقة منه، ومنه حديث عامر بن قُهيبة: كل امرئ مجاهد بطوقه، أي أقصى غايته^(٢).

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ يتكففونه^(٣).

ومن طريق آخر، عنه: من لم يطق الصوم إلا على جهد^(٤).

وفيهما ورد من قراءته «يطوقونه».

(١) البقرة: ٢: ١٨٥.

(٢) النهاية: ٣: ١٤٤.

(٣) تفسير الطبري: ٢: ٨١.

(٤) تفسير الطبري: ٢: ٨١.

أخرج ابن جرير، كما عن الأنباري، عنه: يتجشّمونه ويتكلّفونه^(١).
وقد كثرت الرواية في الكتب: أن ابن عباس كان يقرأ «يطوّقونه» لهذا المعنى.
ورويت هذه القراءة عن عائشة وعكرمة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير^(٢).
وأخرج ابن جرير عن عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام): أن الآية نزلت في الشيخ
الكبير، وكثرت الرواية بذلك عن ابن عباس، وتصريحه بأنّها غير منسوخة.
وعن أنس بن مالك: أنّه ضعّف عن الصوم عاماً قبل موته فأفطر، فصنع جفنةً
من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم، كما ذكر كلّ ذلك ونحوه في (تفسير الطبري)
(والدر المنثور)^(٣).

وفي الصحيح عن الباقر (عليه السلام): قوله (تعالى): ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ﴾ قال: الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش^(٤).
ونحوها رسالة ابن بكير، عن أبي عبدالله^(٥).

ورواية العياشي عن أبي بصير، ورفاعة عن الصادق (عليه السلام)^(٦). والروايات في
نفس الحكم مستفيضة، وفيها: العجوز الكبيرة، والمرأة تخاف على ولدها^(٧).
وعليهم ﴿فِدْيَةٌ﴾ لكلّ يوم ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وقدّر في الروايات بمُدٍّ من
حنطة^(٨).

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ تقدّم تفسير ذلك في الآية الثامنة والخمسين بعد المائة
﴿فَهُوَ﴾ أي التطوّع ﴿خَيْرٌ﴾ حاصل ﴿لَهُ﴾ ولا دليل على اختصاصه بزيادة الإطعام،
بل هو عامٌّ، ومن موارد الصوم المكتوب.

(١) تفسير الطبري ٢: ٨١، مجمع البيان ٢: ٤٩٦، الدر المنثور ١: ٤٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٧٧، تفسير الكشاف ١: ٢٢٦، تفسير القرطبي ٢: ٢٨٦ و ٢٨٨، روح المعاني ٢: ٥٨.

(٣) تفسير الطبري ٢: ٧٧، الدر المنثور ١: ٤٣٢.

(٤) التهذيب ٤: ٢٣٧/٦٩٥.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٧٧/٨٤.

(٦) تفسير العياشي ١: ٧٨ و ١٧٧/١٨٠.

(٧) وسائل الشريعة ٧: ١٤٩ باب (١٥)، مستدرک الوسائل ٧: ٣٨٥ باب (١١) و ٣٨٧ باب (١٢).

(٨) الكافي ٤: ٢/١١٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٧٩/٨٥، التهذيب ٤: ٢٣٨/٦٩٦.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ مصدره في مقام المبتدأ، وعدل إلى الفعل ليتجلى منه الصدور من الفاعل والترغيب في اختياره في المستقبل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خبر المبتدأ، تعرفون أنه خير لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن التكليف لطف من الله بعبده، وأن الطاعة وامتثال الفرائض معراج للسعادة، وأن الصيام فيه فضل كبير وفوائد كثيرة.

وقد تكرر الترغيب والتأكيد في أمر الصيام بقوله (قال): ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ و﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ و﴿أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وذلك لأجل ما في الصيام من الفضل العظيم والكلفة في إمساكه.

وقال بعض: إن قوله (قال): ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ الآية راجع إلى من رخص له بالفدية.

ويدفعه أولاً: إنه لا معين لرجوعه إلى ما ذكر مع صلاحيته للرجوع إلى غيره. وثانياً: إن رجوعه إلى ما زعموا لا يناسب التأكيد بقوله (قال): ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وثالثاً: سياق الخطاب في الآية يقضي بأنه خطاب لمن خطبوا بأنهم كتب عليهم الصيام، والذي عليه الفدية إننا جاء بلفظ الغيبة. وقال بعض: إنه راجع إلى الصيام في السفر.

ويدفعه أولاً: إنه لا معين لرجوعه إلى ذلك مع صلاحيته للرجوع إلى غيره. وثانياً: إنه لا يناسب سوق الآية بأن المكتوب في السفر هو عدة من أيام أخر، وليس في حكم السفر ذكراً وإشارة إلى البدلية لكي يفضل أحد البدلين على الآخر، بل الذي ذكر هو أن صوم العدة من أيام أخر هو المكتوب، ولو أراد الله الرجوع إلى ما زعموا لما ساق كلامه المجيد بأسلوب يأباه.

وثالثاً: منافاته لما صحَّ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قوله: «ليس من البرِّ الصيام في السفر» كما رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، وعن ابن حبان في (صحيحه) عن جابر، عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١).

(١) مسند أحمد ٣: ٣٦٩ و ٣٩٩ و ٤٣٤، صحيح البخاري ٣: ٥٣/٧٧، سنن أبي داود ٢: ٣٩٧/٧-٢٤، سنن

النسائي ٤: ١٧٥، الاحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ١: ٣٥٦/٢٨٤.

وابن ماجه، عن ابن عمر، عنه (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ)، وأحمد والنسائي^(١).
وعن عبدالرزاق في (جامعه) والطبراني والبيهقي، عن كَعْب بن عاصم
الأشعري، عنه (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ)^(٢).

وما رواه ابن ماجه، عن عبدالرحمن بن عوف، عنه (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ)^(٣).
والنسائي عن عبدالرحمن موقوفاً: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر^(٤).
وما عن الذَّهَلِيِّ في (الفردوس) وعبدالرزاق في (جامعه) عن ابن عمر،
عنه (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ): أَنَّ اَبَاهُ تَصَدَّقَ بِإِفْطَارِ الصَّائِمِ عَلَى مَرَضَى أُمِّتِي وَمَسَافِرِهِمْ،
أَفِئْبَحَبَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَى أَحَدٍ بِصَدَقَةٍ ثُمَّ يَظَلَّ يَرُدُّهَا^(٥).
وروى نحوه في (الكافي) و(الغقيه) و(العلل) و(التهذيب) في الصحيح، عن
الصادق (عليه السلام)، عن رسول الله (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ)^(٦).

وما أخرجه النسائي والترمذي، ونصَّ على صحته، عن جابر: أَنَّ رَسُولَ
الله (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرِهِ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ دَعَا بِقَدَحِ مَاءٍ فَأَفْطَرَ، وَأَفْطَرَ بَعْضُ
النَّاسِ وَصَامَ بَعْضُ، فَبَلَغَهُ أَنَّ نَاساً صَامُوا، فَقَالَ: أُولَئِكَ الْعَصَا^(٧).
ورواه في (الكافي) و(الغقيه) في الصحيح، عن الصادق (عليه السلام)، قال: إِنَّ رَسُولَ
الله، الحديث^(٨).

وما أخرجه أحمد والأربعة وجماعة عن أنس الكعبي، عن
النبي (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ): أَنَّهُ دَعَاهُ إِلَى الطَّعَامِ فَاعْتَذَرَ بِالصَّيَامِ، فَقَالَ لَهُ (مَنْ اذَّعَ عَلَيْهِ رَأَاهُ وَسَلَّمَ):

(١) سنن ابن ماجه ١: ٥٣٢/١٦٦٤ و١٦٦٥، مسند أحمد ٥: ٤٣٤، سنن النسائي ٤: ١٧٦.

(٢) سنن البيهقي ٤: ٢٤٢، كنز العمال ٨: ٥٠٥/٢٣٨٥٥.

(٣) سنن ابن ماجه ١: ٥٣٢/١٦٦٦.

(٤) سنن النسائي ٤: ١٨٣، كنز العمال ٨: ٥٠٣/٢٣٨٤٢.

(٥) كنز العمال ٨: ٥٠٢/٢٣٨٣٨ و٦١١/٢٤٣٨٤.

(٦) الكافي ٤: ١٢٧/٣، من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٠٣/٩٠، علل الشرائع ٣/٣٨٢، التهذيب ٤: ٢١٦/٦٢٨.

(٧) سنن النسائي ٤: ١٧٧، سنن الترمذي ٣: ٨٩/٧١٠.

(٨) الكافي ٤: ١٢٧/٥، من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٠٧/٩١.

إِنَّ أَقَّةَ وَضْعٍ عَنِ الْمَسَافِرِ شَطْرَ الصَّلَاةِ، وَالصَّيَامِ^(١).
وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ أَيْضاً، عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، عَنْهُ (مَنْ أَقَّةَ عَلَيْهِ وَآلَهُ رَسَلَهُ،
نَحْوَهُ)^(٢).

وَمَا فِي (كَنْزِ الْعَمَالِ) عَنِ الشَّافِعِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي (الْمَعْرِفَةِ) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ
مُرْسَلاً، عَنْهُ (مَنْ أَقَّةَ عَلَيْهِ وَآلَهُ رَسَلَهُ: خِيَارَكُمْ الَّذِينَ إِذَا سَافَرُوا قَصَرُوا الصَّلَاةَ وَأَفْطَرُوا)^(٣).
وَرَوَاهُ فِي (الْكَافِيِّ) وَ(الْفَقِيهِ) فِي الصَّحِيحِ عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(٤).

وَمَا عَنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ فِي (جَامِعِهِ) وَابْنِ شَاهِينَ فِي (السُّنَنِ) وَجَعْفَرِ الْفَرِيَّابِيِّ فِي
(سُنَنِهِ): أَنَّ عَمْرَ بْنَ أُمَرَ رَجُلًا صَامَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَفَرِهِ أَنْ يَقْضِيَهُ^(٥).

وَمَا قَالَهُ التِّرْمِذِيُّ: رَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (مَنْ أَقَّةَ عَلَيْهِ وَآلَهُ رَسَلَهُ
أَنَّ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ، حَتَّى رَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِ الْإِعَادَةَ إِذَا صَامَ فِي السَّفَرِ)^(٦).
وَحَكَى غَيْرَ وَاحِدٍ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَمْرِو، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ^(٧).

هَذَا، وَأَمَّا مَا يَتَشَبَّهُونَ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ، فَمِنْهُ مَا هُوَ وَارِدٌ فِي الصَّوْمِ الْمُسْتَحَبِّ
لِحَدِيثِ حَمْرَةَ الْأَسْلَمِيِّ، فَإِنَّهُ فِيهِ: كُنْتُ أَسْرِدُ الصَّيَامَ^(٨) أَوْ كَانَ كَثِيرَ الصَّيَامِ، وَمِنْهُ مَا
هُوَ مُرَدَّدٌ بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ فَلَا تَشَبُّهُ بِذَلِكَ أَصْلاً^(٩).

وَأَمَّا مَا كَانَ التَّخْيِيرَ فِيهِ صَرِيحاً بِالصَّيَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَمَعَ غَضَّ النَّظَرِ عَنْ

(١) مسند أحمد ٤: ٣٤٧ و٥: ٢٩، سنن أبي داود ٢: ٣١٧/٨-٢٤٠، سنن ابن ماجه ١: ٥٣٣/٦٦٧، سنن النسائي ٤: ١٨١، سنن الترمذي ٣: ٧١٥/٩٤.

(٢) سنن النسائي ٤: ١٧٨.

(٣) كنز العمال ٧: ١١٧٦/٥٤٤.

(٤) الكافي ٤: ١٢٧/٤، من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٠٨/٩١.

(٥) كنز العمال ٨: ٦٠٧/٢٤٣٦٩.

(٦) سنن الترمذي ٣: ٧١٠/٩٠.

(٧) تفسير البحر المحيط ٢: ٣٤، الدر المنثور ١: ٤٦٠ و٤٦١.

(٨) سرد الصوم: وآلاء وتابعه «النهاية» ٢: ٣٥٨.

(٩) صحيح مسلم ٢: ٧٨٩/٣-١٠ و١٠٤، سنن أبي داود ٢: ٣٦٦/٢٤٠٢.

سَنَدَهُ ومخالفته لأهل البيت وكثير من الصحابة وإجماع الإمامية، وابتلائه بها ذكرناه من المعارضات، وعدم صلاحيته للتصرف بأسلوب الآية والتي بعدها، لا يخفى أَنَّهُ يلزم في التشبُّث بِهِ أَن يُثَبَّت أَنَّ مدلوله كان بعد نزول الآية الشريفة والتي بعدها، وأَنِّي بإثبات ذلك؟

وعن العياشي، عن محمد بن مسلم، عن الصادق (عليه السلام): أَنَّ الآية نزلت ورسول الله في كُرَاعِ القِيمِ^(١) عند صلاة الفجر، فأفطر وأمر الناس أَن يَفْطُرُوا، وسَمَى من أَرَادَ الصَّيَامَ بِـ«العَصَا»^(٢).

فإن قيل: إِنَّ سورة البقرة كان نزول آية القبلة منها في السنة الثانية من الهجرة، فكيف يتأخَّرُ النزول لبعض آياتها إلى عام الفتح؟ قلت: أي بعد في ذلك، وإنَّ سورة البقرة لم يحدِّد ختامها؟ وقد روي من طُرُقنا ما ذكر من أَنَّ آية الصفا والمروة نزلت في عمرة القضاء^(٣)، في السنة السابعة من الهجرة.

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، عن كعب بن عُجْرَةَ: أَنَّهُ نزل في شأنه في الحُدَيْبِيَّةِ قوله (ص)، من السورة: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَغَدِيَّةٌ﴾ الآية^(٤).

وكانت عمرة الحُدَيْبِيَّةِ في ذي القَعْدَةِ من السنة السادسة، ومن المعلوم أَنَّ التمتع بالعمرة إلى الحجِّ لم يكن مهوداً في الشريعة قبل حِجَّة الوداع، بل يعرف من أحاديثه أَنَّ أمره شيء نزل على رسول الله في ذلك الحين، فكلَّ ما نزل في سورة البقرة في شأن حجِّ التمتع وهدية نزل في حِجَّة الوداع، حتَّى قوله (ص): ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(٥)

(١) كُرَاعُ القِيمِ: موضع بتاحية الحجاز بين مكة والمدينة، معجم البلدان ٤: ٤٤٢.

(٢) تفسير العياشي ١: ٨٦/١٩٠.

(٣) تفسير العياشي ١: ٧٠/١٣٣، الكافي ٤: ٤٣٥/٨.

(٤) مسند أحمد ٤: ٢٤٦، صحيح البخاري ٣: ٣٠/٣٩٠، صحيح مسلم ٢: ٨٥٩/٨٠، ٨٢/٨٦٠، سنن الترمذي

٣: ٩٥٣/٢٨٨، الآية في سورة البقرة: ١٩٦.

(٥) الآية: ١٩٦.

كما هو في روايتنا عن الصادق (عليه السلام) ^(١).

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَيَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُحِّحْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا
هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ تفسير للأيام المحدودات، أي وهي شهر رمضان.

وفي (الكافي) والفقيه) وغيرها، عن الباقر (عليه السلام): لا تقولوا: جاء رمضان،
وذهب رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله، ولكن قولوا: شهر رمضان ^(٢).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ما يقرب من هذا ^(٣).

وفي (كنز العمال) مثل قول الباقر (عليه السلام)، عن ابن عمر وأبي هريرة ^(٤).

﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى البيت المعمور في السماء، ثم صار ينزله

(١) اعلام الوری: ١٣١.

(٢) الكافي ٤: ٦٩/٦٩. من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٧٩/١١٢.

(٣) الكافي ٤: ٦٩/١.

(٤) كنز العمال ٨: ٤٨٤/٢٣٧٤٢ و ٢٣٧٤٣.

جَبْرِئِيلُ نَجُومًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (سَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، كما في (الكافي) عن الصادق (عليه السلام)، وفي (تفسير ابن جرير) عن ابن عباس، وفي (الدر المنثور) فيها أخرجه جماعة، وصَحَّحَهُ الحاكم، عن ابن عباس، وفيه: إلى بيت العزة^(١).

﴿هُدًى﴾ حال من القرآن أي هادياً ﴿لِلنَّاسِ وَ﴾ دلائل ﴿بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾.

في (الكافي) وعن العياشي، عن أبي عبد الله (عليه السلام): القرآن جملة الكتاب، والفرقان المعكم الواجب العمل به^(٢).

ثم قَسَمَ الله (سَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) حال الناس في وقت صومهم ومشرعيته ووجوبه، تأكيداً لما سبق، ورفعاً للشكوك، فقال (عليه السلام): ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾ أي حضر ﴿مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ الشهر منصوب على الظرفية، أي حضر فيه وهو غير مريض ﴿فَلْيَصُمهْ﴾ فإنه الوقت الموقت لصيامه.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ فالمكتوب عليه وقت صيامه المكلف به عِدَّة، أي عدة ما لم يصمه في شهر رمضان ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لا يكون فيها مريضاً ولا مسافراً، ففصل الله بين الحكيمين، وميز بين الموضوعين، فجعل لصوم الحاضر وقتاً، ولصوم المسافر وقتاً، ولو كان صوم المسافر في شهر رمضان راجعاً عند الله لما أكد هذا التقسيم والتمييز بين الموضوعين والوقتين بهذا السياق البين، وكان ذكره في هذه الآية أولى من التي قبلها لما فيه من بيان الفضل لشهر رمضان وصومه، بل إن الله (سَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ذكر في هذه الآية ما يزيد في البيان ويعزز الإيضاح، فقال (عليه السلام): ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ النوعي بإفطار المريض والمسافر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ النوعي، فالصوم في السفر غير مراد (سَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، لأن فيه عسراً نوعياً.

وفي (الكافي) والفقهاء عن عبيد بن زُرارة، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): قوله (سَلَّمَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمهْ﴾؟

(١) الكافي ٤: ٦٦٠/٦، تفسير الطبري ٢: ٨٤، الدر المنثور ١: ٤٥٧.

(٢) الكافي ٢: ٦٦٦/١١، تفسير المصنعي ١: ١٨٥/٨٠.

قال (عليه السلام): ما أَيْبَنَّا من شهد فليصمه، ومن سافر فلا يصمه^(١).
وعن العياشي، عن زُرارة، عن الباقر (عليه السلام) ما أَيْبِنَّا لمن عقلها^(٢).
ولأن قوله (عليه السلام): ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ في مقام التعليل، وبيان بعض
الغايات في كتابة الصيام على النهج المذكور في الآيتين، فباعتبار جعل الصوم في
المرض والسفر في أيام آخر عُلِّلَ بالتيسير، كأنه قيل: ليتيسر عليكم ﴿وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ﴾ عطفًا على المقدّر، فتفوزوا بفضل صوم الأيام الممدودات كاملة العدد، بخلاف
ما لو لم يشرع ذلك واضطر المريض والمسافر إلى الإفطار كما هما مظنة للاضطراب إلى
ذلك نوعًا، وباعتبار الهداية إلى شريعة الحق قال (عليه السلام): ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا
هَذَاكُمْ﴾ على هدايتكم إلى الدين والشريعة، وهذا التكبير مستحب عندنا بالإجماع،
ولا يضر الخلاف النادر، وبذلك قال الشافعي وأحمد وأبو حنيفة على ما نقل عنه^(٣)،
ونسبه في (الخلاف) إلى الفقهاء^(٤).

ووقته عندنا بعد صلاة المغرب من ليلة شوال والعشاء والصبح والعيد بإجماع
الإمامية، ورواية (الكافي) والفقهاء عن سعيد النقاش، عن الصادق (عليه السلام)، ورواية
(الإقبال) بسنده عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام)^(٥).
ويقرب من مذهب الإمامية ما أخرجه ابن جرير في (تفسيره) بسنده عن زيد
بن أسلم، وابن عباس^(٦)، وصورة التكبير المذكورة في كتب الفقه^(٧).
﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا الله على نعمته عليكم بدين الحق، ولطفه
بتشريع الصيام، وما فيه من الفوائد، وتيسيره عليكم، وعلى نعمة الطعام والشراب إذ
تلتفتون إليها بجوعكم وعطشكم.

(١) الكافي ٤: ١/٢٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٠٤/٩١.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٨٧/٨١.

(٣) الأم ١: ٢٣٦، المفني لابن قدامة ٢: ٢٢٥، المجموع ٥: ٤٠.

(٤) كتاب الخلاف ١: ٢/٢٦٠.

(٥) الكافي ٤: ١/١٦٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٦٤/١٠٨، إقبال الأعمال: ٢٧١.

(٦) تفسير الطبري ٢: ٩٢.

(٧) الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ١: ٦٧٧.

ولا يخفى أن الشكر المطلوب ليس من الأفعال المؤقتة المنقطعة التي يسوق إليها التكليف كإكمال العدة والتكبير، بل هو عمل نفسي دائم كال تقوى والاهتداء يرجع إلى اختيار الإنسان أن يديم التفاته إلى نعم الله ومعرفة قدرها وفقره إليها وعجزه عنها، فيختار الشكر الثابت، وذلك يحتاج إلى قوة في الاختيار وثبات عليه، وعلى مجاهدة الأهوام المعارضة، ولأجل هذه النكتة جرى التعبير عن التعليل والغاية بقوله (س): ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكذا نظائره مما قيل في تعليله «لعلكم».

وأما مقدار السفر الذي لا يصام فيه وصفته، وصفة المرض، فبيانها موكول إلى معرفته من السنة والإجماع في كتب الفقه^(١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي﴾ أي فأخبرهم أنني ونحو ذلك، وهو العامل في إذا «قريب» باللفظ والرحمة والإجابة، لأنه يجلب عن المكان.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ذكر الشرط مع أنه معلوم مما قبله لأجل التنبيه على أنه ما كل من يدعو الله لحاجته هو داع الله بحقيقة الدعاء لله من حيث الانقطاع وصدق التوجه إلى الله ومعرفته، ومن معرفته الإذعان بحكمته وسعة رحمته لعباده.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ فيما دعوتهم إليه مما فيه صلاحهم وسعادتهم ورشدهم، وكأن هذه الجملة في مقام الشرط، أي إن أرادوا أن أُجيب دعوتهم فليستجيبوا لي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي ليرشدوا، وقد سبق الكلام على مثله^(٢).

أَجَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الْقِيَامِ أَلْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ
لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ

(١) كتاب الخلاف ١: ٢٢٠/٢، شرائع الإسلام ١: ١٢٢ و ١٩٠، كنز العرفان ١: ١٨٦، الروضة البهية ٢: ١٠٥.

(٢) البقرة ١٨٣.

وَأَسْفَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ
إِلَى الْإِيلِ وَلَا تَبَشِّرُوا هُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ أَلْفَتْ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الرُفْتُ هنا: هو الإفضاء إلى النساء بالجماع.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ كناية عن شدة ارتباط المرأة والرجل في التمتع.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتوقعونها في فعل الحرام ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مما فعلتم ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أي عن تحريم الجماع في ليلة الصيام من شهر رمضان.

﴿فَأَلْفَتْ بِأَشْرُوهُنَّ﴾ الأمر للإباحة والمباشرة إيصال بَشَرَةٍ إلى بَشَرَةٍ، وهي ظاهر الجلد، كتى بذلك عن الجماع، لأن المباشرة من مقدماته اللازمة، والمراد من الآن ما بعد نزول الآية.

والآية بنفسها تدل على أن الجماع كان محرماً في ليلة الصيام مطلقاً، أو في حال خاص، وأن بعض المسلمين فعلوا المحرم وجامعوا، فنسخ ذلك التحريم عفواً من الله. وفي (الكافي) في الصحيح، مسنداً عن الصادق (عليه السلام)، ما حاصله: كان الجماع والأكل والشرب محرمة في شهر رمضان على من نام - أي بعد العشاء - فاتفق لرجل أنه نام، فلما عمل في النهار في الخندق صار يُعْشَى عليه فنزلت الآية (١).

وفي (تفسير القمي) عن أبيه، مرفوعاً عن الصادق (عليه السلام)، نحوه. وزاد: وكان قوم من الشبان ينكسون بالليل سرّاً، فأنزل الله الآية^(١).

وروى نحو ذلك في (الدر المنثور) من طرق متعددة. وزاد: أنه أخرج ابن جرير وابن المنذر - في حديث - عن ثابت.

وابن جرير وابن أبي حاتم - في آخر - عن ابن عباس^(٢).

وأخرج ابن جرير - في ثالث - عن ثابت: أن من المجامعين بعد العشاء في زمان التحريم عمر بن الخطاب^(٣).

ونحوه عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعن كعب بن مالك، عن أبيه^(٤).

﴿وَأَتَقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي لنوعكم من الذرية.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الأمر فيها للإباحة، ويمتد أمدّها ﴿حَتَّى﴾ غاية الجواز ينقطع بها ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ يوجد في الأفق ويلزمه عادةً ونوعاً أن يتبين لنوع الناس، فالغاية أن يكون الصبح بحيث يراه الصائم لا استيلاؤه عليه كما يأتي في الليل، وهذه الغاية هي غاية الرُقُب أيضاً بإجماع المسلمين، لأنّ حلّه مقهّد بالليل، وهو ينقطع بالفجر ﴿الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ وهو الفجر الصادق المعترض، وفيه قوة التبين لا الكاذب المستطيل كذنب السرحان^(٥) المبتقي على الخفاء والاضمحلال، وعلى ذلك إجماع المسلمين وأحاديث الفريقين، وقد جمع شطر منها في (الوسائل) و(الدر المنثور)^(٦).

وسمي بالحيط إشارة إلى أنّ الغاية ما يتبين حينها هو كالحيط ﴿مِنْ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو ما حول الفجر من الليل ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ بيان للحيط الأبيض. ﴿ثُمَّ أَلْقُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ثم أوجدوا الصوم تاماً إلى الليل، وعطف بتم

(١) تفسير القمي: ١: ٦٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢: ٩٦، الدر المنثور: ١: ٤٧٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢: ٩٦، الدر المنثور: ١: ٤٧٧.

(٤) الدر المنثور: ١: ٤٧٥ و ٤٧٧.

(٥) السرحان: الذئب.

(٦) وسائل الشريعة: ٧: ٧٨ - ٨٠ و ٨٥، الدر المنثور: ١: ٤٨٠ و ٤٨١.

لجريان العادة بالفصل والتراخي بين انقطاع الأكل والشرب وبين الفجر محافظةً على حدود جوازها في الليل وحرمتها بأول الفجر.

والليل: هو السواد والظلام المعاقب للنهار، ولذا يقولون: ليل الليل، أي شديد الظلام أو السواد، والغاية للصيام أن يغشي الليل الصائم ويصل إليه، لا وجوده، فإنه موجود في كل زمان بحسب التناوب على البلاد، ولا رؤيته، وإلا لقل: حتى يتبين ونحو ذلك، كما قيل في الفجر.

فالغاية إذن أن تذهب الحمرة المشرقة، ويصل سواد الليل المعاقب لها إلى الصائم، أي إلى سمت رأسه، فإن المشرق في جهة السماء مظل على المغرب، فيكتسب من نور الشمس ما تظهر به الحمرة، ويبقى به النهار إلى أن تحتجب الشمس شيئاً فشيئاً، فيظهر الليل ويسري على وتيرة احتجابها حتى يصل إلى الرأس، فلا يذهب النهار عن الصائم إلا بنهاب الحمرة عن سمت رأسه.

وعلى ذلك من روايات الإمامية رواية أبان، عن الباقر (ع) السلام، وروايات أبان وعمار وابن شريح، ومُرسَلتا ابن أشيم وابن أبي عمير، ومرفوعة المفيد، عن الصادق (ع) السلام^(١).

ولا ينافيها ما عبر فيه بغيوبة الشمس وغروبها لما أشرنا إليه، وهذا هو الذي يفقه مما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن جرير، وعن ابن أبي شيبة والنسائي، عن عمر، قال: قال رسول الله (ص) عليه وآله وسلم: إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم^(٢).

وأخرج البخاري وأبو داود وابن جرير، عن عبدالله بن أبي أوفى بعدة أسانيد - في حديث - قال: قال رسول الله (ص) عليه وآله وسلم: إذا أقبل الليل من هاهنا - وضرب بيده نحو المشرق - أفطر الصائم^(٣).

(١) أمالي الصدوق ١٦/٧٥، المقتبة: ٤٨، التهذيب ٢: ٨٣/٢٩ و ١٠٢٤/٢٥٧ و ١٠٣٣/٢٥٩ و ٤: ٥١٦/١٨٥.

(٢) صحيح البخاري ٣: ٦٢/٨٠، صحيح مسلم ٢: ٥١/٧٧٢، سنن الترمذي ٣: ٦٩٨/٨١، سنن أبي داود ٢:

٢٣٠٤/٢٣٠٤، تفسير الطبري ٢: ١٠٣، الدر المنثور ١: ٤٨٢، عن ابن أبي شيبة والنسائي عن عمر.

(٣) صحيح البخاري ٣: ٦٢/٨١ و ٦٤، سنن أبي داود ٢: ٢٣٥١/٢ و ٥: ١٠٣، تفسير الطبري ٢: ١٠٣.

وفي (الثر المنتور): أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني - في حديث - عن بشير بن الحصاصية، قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا^(١). ولا يخفى أنه عند وجود الحمرة المشرقية لم يقبل الليل من ناحية المشرق، ولم يكن على الصائم ليل.

﴿وَلَا تُبَاسِرُوهُنَّ﴾ أي لا تمسّ بشرتكم بشرتهنّ باللمس والتقبيل بشهوة وبالجماع مطلقاً، وهذا مذهب الإمامية، وعليه إجماعهم لإطلاق المباشرة ودلالة المقام على أن المراد منها ما يرجع إلى التمتع والتلذذ^(٢).

﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ العكوف: الإقامة في المكان والملازمة له، واعتكف: قصد العكوف وجعل نفسه عاكفاً، وأمر هذا العكوف وصفاته وشروطه الشرعية موكل إلى السنة، ويعرف مدلولها من كتب الفقه.

﴿تِلْكَ﴾ أي ما عرف في هذه الآيات من حرمة، ما يجب الإمساك عنه في الصوم، وحرمة قبل الليل، وحرمة تضييع العدة من الأيام الأخر، وحرمة المباشرة للنساء على المعتكف ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ مهالفة في التحذير منها، وأمر بملازمة الواجبات المحدودة وعدم الميل عنها إلى جانب تلك الحدود.

﴿كَذَلِكَ﴾ البيان في هذه الأمور ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ودلالته ﴿لِلنَّاسِ﴾ فيها فيه صلاحهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ليتقوا، وحيء بعلل لما ذكرناه قريباً^(٣).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى
الْمُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ

(١) الدر المنثور: ١: ٤٨٢.

(٢) كتاب الخلاف: ١: ٤٠٣، المبسوط: ١: ٢٩٢، المتبر: ٢: ٧٤٠، قواعد الأحكام: ١: ٧١، جامع المقاصد: ٣: ١٠٠.

جواهر الكلام: ١٧: ١٩٩.

(٣) الآية: ١٨٥.

مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَيِّجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ
مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ
مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض ﴿يَبْنِيَكُمْ
بِالْبَاطِلِ﴾ وغير المشروع ومنه القمار كما رواه في (الكافي) في الصحيح، عن
الصادق (عليه السلام) ^(١).

وروي في (الكافي) أيضاً عن الصادق (عليه السلام): أنَّ من ذلك أن يكون عند
المديون مال فينتفقه على نفسه ولا يفي به دينه ^(٢).

ومنه ما في (مجمع البيان) مرفوعاً عن الباقر (عليه السلام): أكل المال باليمين
الكاذبة ^(٣).

﴿وَتَذَلُّوا بِهَا﴾ أي ترسلوها رشوة ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾ كمن يؤدي دلوه ليستخرج
الماء ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بأن ذلك محرَّم
عليكم.

﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَنِ الْأَهْلِ﴾ قيل: يسمي هلالاً أيضاً في ليلته
الثانية، وقيل: في الثالثة، وقيل: حتى يستدير بخطة دقيقة، وقيل: إلى الليلة السابعة.
﴿قُلْ﴾ لهم ما تدركه عقولهم من حكمتهما ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ﴾ تميز لهم ما
يحتاجون إليه في مهاتهم من مقادير الزمان وأوقاته بحسب الأشهر والسنين بتوقيت
محسوس للعامة، بل إنَّ الدور الذي تتكوَّن به الأهلة يعرف الناس منه ساعات الليل
بتدرُّج الهلال في الطلوع والغروب إلى أن يصير بدرًا ثم إلى أن يعود هلالاً ﴿وَالْحَيِّجُّ﴾

(١) الكافي ٥: ١٢٢/١.

(٢) الكافي ٥: ٢/٩٥.

(٣) مجمع البيان ٢: ٥٠٦.

أي مواقيت للحج.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ وعمل الخير ﴿بَلْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ كناية عن
تشريعاتهم الجاهلية الأهوائية، وزعمهم أن العمل بها برٌّ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾
فانظر إلى هؤلاء الذين اتقوا الله وأخلصوا له في طاعته واتباع شريعته، واعرفوا البرَّ
من أعمالهم، وفي الآية السابعة والسبعين بعد المائة ذكرنا الوجه والفائدة من جعل «من»
الموصولة خبراً للبرِّ.

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والأمر من وجوهها، وأعمال البرِّ من حيث أمر
الله وشرعه.

وعن (محاسن البرقي) مسنداً، والعباشي مرفوعاً عن جابر، عن
الباقر (عليه السلام)، في قوله (عز وجل): ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

قال (عليه السلام): أن يؤتى الأمر من وجهه، أي الأمور كان^(١).

ومن هذا الباب ما اتفقت عليه رواية الفريقين من قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

أنا مدينة العلم وعليّ بابها^(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه فيما شرعه من الدين القيم، وهذا هو البرُّ
﴿فَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لتفلحوا.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ
وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسَدِينَ ﴿٥٥﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُ جُوهِهِمْ مَنْ حَيْثُ آخَرُجُوكُمُ وَالْفَنَاءُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلَوكُمْ

(١) المحاسن: ٢٢٤/١٤٣، تفسير العبّاشي ٨/٢١١/٢١١.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ٢: ٢٩٨/٦٦، أنالي الصدوق: ١/٢٨٢، أنالي الطوسي ٢: ١٩٠ «نحوه». مستدرك
الحاكم ٣: ١٢٧، تاريخ بغداد ٢: ٣٧٧ و٣٤٨، مناقب ابن الغزالي: ١٢٢/٨١، إحقاق الحق ٥: ٤٦٩ - ٥٠٦.

فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصر دين الحق ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ عنادا للدين
﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ في القتال عن الحد المشروع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وما أشد
خسران الذي لا يحبه الله

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي ظفرتهم بهم ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ
أَخْرَجْتُمْ﴾ وهي مكة المعظمة، ولا يكبر في قلوب الضالين قتالهم، وقد عدوا على
المسلمين يقاتلونهم لأنهم أسلموا من قبل ذلك وأخرجوهم عن ديارهم في مكة، وفوق
ذلك أنهم لا زالوا يجهدون في أن يفتتوا المسلمين ويصرفوهم عن دينهم بالعذاب مرة
وبالقتال أخرى.

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ وصرف المؤمنين عن دينهم وإضلالهم ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ضرراً
على نوع الإنسان، فإن الضالَّ المضلَّ جرثومة فساد في الأرض، كما قال (عزاه) في
سورة البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ﴾^(١).

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ويشمل التحريم مكة وما هو حريم
للمسجد ﴿حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ﴾ أي في حرمه، بقريظة قوله (تبارك): ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ﴾.
﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمْ﴾ عند المسجد ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في
اعتدائهم وعتكهم لحرمه المسجد الحرام.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ قبل: انتهوا عن كفرهم بالتوبة والإسلام، ويحتمل أن يكون
المراد فإن انتهوا عن قتالكم فاغفروا لهم، نحو قوله (تبارك) في سورة الأنفال: ﴿وَإِنْ
جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٢)، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) الآية: ٨٠

(٢) الآية: ٦٨

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا
فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ
وَالْحَرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ في (التيبان): الفتنة: الشرك، وهو المروي
عن أبي جعفر (عنه السلام)^(١)، أقول: ولعله باعتبار أنه يسبب الافتتان، إذ يسبب الضلال
ويصرف عن الحق، كقوله (عالم) في سورة المائدة: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(٢)

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي على الحقيقة المعقولة منه، ليس فيه كفر ولا شرك،
ولا عبادات أوثانية، ولا شرائع أهواء جاهلية، فإن الدين في هذا المقام وأمثاله عبارة
عن روابط الإنسان مع مقام الإلهية من حيث الاعتقاد، بها يرجع للإله ورسله وكتبه
وعبادته والطاعة والشرعية.

﴿فَإِنْ آنَهَوْا﴾ في (التيبان) و(مجمع البيان): أي امتنعوا عن الكفر وأذعنوا
للإسلام^(٣)، ويحتمل الانتهاء عن قتال المسلمين. ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ عن حد السلم ﴿إِلَّا
عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ المعتدين.

وفي (التيبان) و(البيان): أن هذه الآية مؤكدة لمضمون الآية الأولى لا ناسخة

(١) تفسير النبيان ٢: ١٤٧.

(٢) الآية: ٤٩.

(٣) تفسير النبيان ٢: ١٤٨، مجمع البيان ٢: ٥١٣.

لقبونها في القتال^(١).

وهذا هو الظاهر من سياق الآيات مع قوله (من): ﴿الشُّهُرُ الْحُرَامُ بِالشُّهُرِ الْحُرَامِ﴾ فمن قاتل المسلمين في شهر حرام قاتله المسلمون في شهر حرام، كما أن من قاتلهم عند المسجد الحرام قاتلوه فيه.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فإذا كان المشركون في عداوتهم للتوحيد ودين الحق ومحادثهم لله ورسوله، لا يمنهم عن عداوتهم وقتالهم للمسلمين حرمة للشهر الحرام ولا حرمة البيت الحرام، فليس لهم أن يلوذوا بالحرمات، بل يحتج عليهم بقصاصهم بذلك، وأما نفس الحرمات فلم تسقط ولا يقتص منها بجناية المشركين، بل عارضتها حرمة الله في نصر توحيده ورسوله ودين الحق واحترام الحرمات.

والأشهر الحرم، هي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ولعل الأصل في حرمتها شريعة إبراهيم كحرمة البيت، فاستمر العرب على ذلك وأمضاه الإسلام. ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ حدود الحق ﴿فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ حدود السلم والمجارة، وأفرد الضمير في «عليه» باعتبار لفظ «من»، ﴿بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وناصرهم.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بأنفسكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وهذا النهي عام لكل اقتحام في أسباب التهلكة ومظانها، ولا بد من أن يكون النهي مقيداً بما إذا لم يكن في ذلك الاقتحام حياة الدين ونصرته، كما في نهضة رسول الله (ص) له عليه السلام في أول دعوته، وإقدام سيد الشهداء في امتناعه عنبيعة يزيد في مثل زمانه.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ اعملوا الحسن واطلبوه في أفعالكم وتر وكنكم على حد قوله (من): في سورة الكهف: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٢) وغير ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأعمالهم وتر وكنهم، وما أعظم هذا التعليم الجامع

(١) تفسير النبیان ٢: ١٤٧، مجمع البیان ٢: ٥١٣.

(٢) الآية: ٣٠.

للغير! فَإِنْ إِحْسَانَ الْعَمَلِ وَالْتَرَكْ غَيْرَ خَفِيٍّ، وَإِنْ غَالَطْتَ فِيهِ الْأَهْوَاءُ بِهَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعَقْلِ مِنَ التَّدْلِيلِ.

ومن مصاديق إحسان العمل ما جاءت فيه رواية (الكافي) وعن العياشي، عن أبي عبد الله (عليه السلام): لو أَنَّ رَجُلًا أَنْفَقَ مَا فِي يَدَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا كَانَ أَحْسَنَ وَلَا وَفَى، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ الْمُقْتَصِدِينَ^(١).

فإِنَّ الْمُقْتَصِدَ هُوَ الَّذِي عَمِلَ الْحَسَنَ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ، وَإِنْ مَعْنَى التَّهْلُكَةِ وَمَقَامُ الْإِمَامِ (عليه السلام) وَقَوْلُهُ: «مَا كَانَ أَحْسَنَ» وَتَفْسِيرُهُ الْمُحْسِنِينَ بِالْمُقْتَصِدِينَ، لَا يَدْعُ بَجَالًا لِلْقَوْلِ بِأَنَّ مَضْمُونِ الرَّوَايَةِ قَرِيبٌ مِنْ تَفْسِيرِ التَّهْلُكَةِ بِالْإِسْرَافِ.

وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ
وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا
أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا
أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ
ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦٦﴾

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ العُمرَةُ منصوبة بالعطف على الحج، والحجُّ والعُمرَةُ عبادتان معروفتان قد ذكرت أجزأؤهما وشروطهما في السُّنة، ونظمتها كتب الفقه،

وإقامهما لله دليل على أنها عبادتان يعتبر فيهما الإتيان بهما لله تقريباً إليه، والظاهر من مراجعة الحديث وسبك اللفظ أن قوله (نار): ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ أمر وإيجاب لإيجادهما تأمين بأجزائهما وشرطهما المشروعة، كقوله (نار): ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي أوجده حسناً، وكقوله: ضَيِّقَ فَمِ الرُّكْبَةَ^(١)، وأطل جَلْفَةَ القلم^(٢)، وأفرج بين سطورك، وكثير من ذلك.

فمن مدلول الآية إيجاب العُمرة، كما في صحيحة (التهذيب) عن زُرارة، عن الباقر (عليه السلام)، في قوله: العُمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج، وذكر الآية^(٣).

ونحو صحيحة (الكافي) عن معاوية بن عمار، عن الصادق (عليه السلام)^(٤).

وصحيحة (العلل) عن معاوية، عنه (عليه السلام)^(٥).

وصحيحة (التهذيب) عن الفضل أبي العباس، عنه (عليه السلام)^(٦).

وفي (الدر المنثور): أخرج ابن عُيَيْنَةَ والشافعي في (الأم) والبيهقي عن ابن عباس، وذكر نحوه^(٧).

وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أَنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ فَرِيضَتَانِ^(٨).

وفي (الكافي) في الصحيح، عن ابن أَدِيْنَةَ - في حديث - عن الصادق (عليه السلام)، في قوله (نار): ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾.

قال: يعني بتامهما أداهما، وأتقاء ما يتقي المحرم فيها^(٩).

(١) الرُّكْبَةُ: البر لم تنظر «المعجم الوسيط» ١: ٣٧١.

(٢) جَلْفَةُ القلم: ما بين مراء إلى سنه «المعجم الوسيط» ١: ١٣٠.

(٣) التهذيب ٥: ٤٣٣/٢، ١٥٠.

(٤) الكافي ٤: ٢٦٥.

(٥) علل الشرائع: ١/٤٠٨.

(٦) التهذيب ٥: ٤٥٩/٣، ١٥٩٣.

(٧) الأم ٢: ١٣٢ «نحوه»، سنن البيهقي ٤: ٣٥٦، الدر المنثور ١: ٥٠٤.

(٨) مستدرک الحاكم ١: ٤٧١.

(٩) الكافي ٤: ٢٦٤/١.

ونحوه عن العياشي، عن أبي بصير، عن الصادق (عليه السلام) ^(١)
 وقال في (الكشاف) في تفسير «أَتَوْا» اتوا بها تأمين ^(٢)، ثم بعد ذلك حمله على
 محض الأمر بإتمامها، أي بعد الشروع فيها، واختار كون العمرة غير واجبة، وأغرب
 في تأوله لحديثي ابن عباس وعمر ^(٣).
 ثم قال: بأن الأمر بالإتمام للوجوب والندب، كما تقول: صم شهر رمضان وستة
 من شوال، تأمر بفرض وتطوع ^(٤).
 وقال في سورة المائدة في آية الوضوء ما معناه أنه لا يجوز أن يكون الأمر
 للوجوب والندب لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الألفاظ والتعمية ^(٥).
 أقول: وفي هذا الذي نقلناه عنه من التذافع والغراية ما يعجب منه الناظر،
 وقد نبه عليه في (زبدة البيان) ^(٦).
 ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ﴾ في (المصباح): قال ابن السكيت وتعلب: حصره العدو في
 منزله: حبسه، وأحصره المرض بالآلف: منعه من السفر.
 وقال الفراء: هذا هو كلام العرب وعليه أهل اللغة، انتهى ^(٧).
 ونقل نحو ذلك أيضاً عن الكسائي، وأبي عبيدة، وعن الفراء أيضاً: أنه يجوز
 أن يقوم أحدهما مقام الآخر، وردّه المبرد والزجاج ^(٨).

(١) تفسير العياشي ١: ٨٧/٢٢٠.

(٢) تفسير الكشاف ١: ٢٣٨.

(٣) عن ابن عباس، قال: إن العمرة لقرينة الحج، وعن عمر أن رجلاً قال له: إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين
 علي، أهلكتهما جميعاً، فقال: حديث لسنة نبيك.

قال الزمخشري: العمرة قرينة الحج في الذكر، لا في الوجوب، أمّا في حديث عمر فقال: فسر الرجل كونها
 مكتوبين عليه بقوله: «أهلكتهما» وإذا أهلك بالعمرة وجبت عليه، كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة. تفسير

الكشاف ١: ٢٣٩.

(٤) الكشاف ١: ٢٣٩.

(٥) الكشاف ١: ٦١٠.

(٦) زبدة البيان: ٢٣٣.

(٧) المصباح المنير ١: ١٦٦.

(٨) تفسير التبيان ٢: ١٥٥.

وفي الخلاف عن الفراء: أحصره المرض لا غير وحصره العدو وأحصره معاً^(١).

وقد تكرر في رواياتنا الصحاح وغيرها أن المحصور غير المصدود، وإنهما يختلفان في بعض الأحكام، كما في روايات زرارة عن الباقر (عليه السلام)، وابن أبي نصر عن الرضا (عليه السلام)، ومعاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام)، وفيها: المحصور هو المريض، والمصدود: هو الذي يرده المشركون، كما ردوا رسول الله، ليس من مرض^(٢).

وفي (الدر المنثور): أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود - في الآية - يقول: إذا أهلك الرجل بالحج فأحصر - إلى أن قال - فإذا برئ، الحديث.

وقال إبراهيم ذكرت هذا الحديث لسعيد بن جبير، فقال: هكذا قال ابن عباس في هذا الحديث^(٣).

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي فإن أحصرتم ومنعكم المرض عن الإتمام فأرسلوا لأجل أن يسوغ لكم التحلل ما استيسر لكل بحسب حاله ووقته من الهدي من الإبل أو البقر أو الشاة، والمشهور عندنا أن من ساق الهدي ثم أحصر كفاه ذلك لأنه مما استيسر^(٤)، والهدي: هو ما يهدي من النعم للذبح في مكة أو منى.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أي لا تحلقوا، فإن الحلق أول الإحلال ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي المحل المقرر له بالسنة في نوع ذلك النسك، فإن كان حاجباً فمحل الهدي منى، وإن كان معتمراً بالعمرة المفردة فمحلها مكة أو بفناء الكعبة أو بالحزوة^(٥)، وأما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه في عمرة المدينة فقد كانوا مصدودين عن

(١) كتاب الخلاف ١: ٤٩٤.

(٢) الكافي ٤: ٣٦٩ و ٣ و ١/٣٧١.

(٣) الدر المنثور ١: ٥١٢.

(٤) البسيط ١: ٣٣٤، جامع المقاصد ٣: ٢٩٦، جواهر الكلام ٢٠: ١٢٦.

(٥) الحزوة: سوق مكة. ودخلت في المسجد لما زيد فيه، وباب الحزوة معروف من أبواب المسجد الحرام. مراد

المسجد الحرام لا محصورين.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ في حال الإحرام ﴿مَرِيضًا﴾ يحتاج في مرضه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

في (التهذيب) بسنده عن عمر بن يزيد، عن الصادق (عليه السلام): فمن عرض له أذى أو وجع، فتعاطى ما لا ينهي للمحرم إذا كان صحيحاً، فصيام ثلاثة أيام - إلى أن قال - والنسك شاة يذبحها، الرواية^(١).

والأذى: مايؤذي، ومنه القمل الكثير، فقد روي في (الكافي) في المعتبر (والتهذيبين) في الصحيح على الظاهر^(٢).

وعن العباسي، عن الصادق (عليه السلام): أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مرَّ على كعب بن عُجْرة الأنصاري والقُمَّل تننائر من رأسه، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أتؤذيك هوأمك؟ قال: نعم، فأُنزلت الآية. فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعل عليه الصيام ثلاثة أيام أو الصدقة على ستة مساكين، لكل مسكين مدان أو النسك شاة^(٣).

وذكر في (الفتاوى) و (المقنع) نحوه، بقوله: مرَّ رسول الله، الحديث^(٤).

وأخرج نحو ذلك من الجمهور أحمد^(٥)، وأصحاب الجوامع وغيرهم، وزادوا: أن ذلك كان في عام الحُدَيْبِيَّة^(٦).

﴿فَإِذَا أَمِتُمْ﴾ من الصد ونحوه ﴿فَمَنْ قَتَعَ﴾ أي أحل، وقَتَعَ بها يحرم المتمتع

(١) التهذيب ٥: ٣٣٢/١١٤٨.

(٢) الكافي ٤: ٢/٣٥٨، التهذيب ٥: ٣٣٣/١١٤٧، الاستبصار ٢: ٢/١٩٥.

(٣) تفسير العباسي ١: ٢٣٦/٩٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٢٨/١٠٨٣، المقنع: ٧٥.

(٥) مستند أحمد ٤: ٢٤٦.

(٦) صحيح البخاري ٣: ٣٩٣/٣١، صحيح مسلم ٢: ١٢٠١/٨٥٩، سنن ابن ماجه ٢: ١٠٢٨/٣٠٧٩، سنن أبي

داود ٢: ١٧٢/١٨٥٦، سنن الترمذي ٣: ٢٨٨/٩٥٣، سنن النسائي ٥: ١٩٥، الدر المنثور ١: ٥١٤، كنز العمال

٥: ١١٩٦٨/٤٦.

به على المحرم كالطيب والمَخِيط^(١) والنساء ونحو ذلك ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ بسبب الإتيان بالعمرة وإكمالها ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ أي إلى إحرام الحج. وقد شرع هذا التمتع في حجة الوداع، وهو أظهر من أن ينكر، ولا بأس بالإشارة إلى شيء من حديثه:

فعن (التهذيب) والعلل في الصحيح، عن الصادق (عليه السلام)، عن آبائه (عليهم السلام): لما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من سعيه بين الصفا والمروة أتاه جبرئيل عند فراغه من السعي، فقال: إِنَّ الله يأمرك أن تأمر الناس أن يحلوا إِلَّا من ساق الهدى.

^١ فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الناس بوجهه، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا جِبْرِيلُ - وَأشار بيده إلى خلفه - يَأْمُرُنِي عَنْ الله (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ أَمُرَ النَّاسَ بِأَنْ يُحَلُّوا إِلَّا مِنْ سَاقِ الْهَدْيِ، فَأَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَ اللهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَخْرُجُ مِنْ بَنِي رَوْوَسْنَا نَقْطُرُ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَالَ آخَرُونَ: يَا مَرْنَا بِشَيْءٍ وَيَصْنَعُ هُوَ غَيْرُهُ. فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَصَنَعْتُ كَمَا صَنَعَ النَّاسُ. وَلَكِنِّي سَقَتُ الْهَدْيَ فَلَا يَحِلُّ مِنْ سَاقِ الْهَدْيِ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ حِمْلَهُ، فَقَصَّرَ النَّاسُ وَأَحَلُّوا وَجَعَلُوهَا عُمْرَةً.

وقام إليه سُراقَةُ بْنُ مَالِكٍ الْمُدَلِّجِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الَّذِي أَمَرْتَنَا بِهِ لَعَانًا هَذَا أَمْ لِلْأَبْدِ؟

فقال: بَلْ لِلْأَبْدِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - وَأَنْزَلَ اللهُ بِذَلِكَ قِرْآنًا: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾^(٢).

وهذا الحديث جزء مما جاء في الرواية الطويلة، عن معاوية بن عمار، عن الصادق، عن الباقر (عليهما السلام)، كما في الصحيح في (الكافي) والتهذيب^(٣).

(١) الْمَخِيطُ: المغبوط من اللباس.

(٢) التهذيب ٥: ٧٤/٢٥، علل الشرائع: ١/٤١٢.

(٣) الكافي ٤: ٤/٢٤٦، التهذيب ٥: ١٥٨/١٥٨.

ورواها على طولها مُسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة في (جوامعهم) وأحمد في (مسنده) وغيرهم عن الصادق (عليه السلام)، عن الباقر (عليه السلام)، عن جابر^(١).
وأخرج أصحاب (الجوامع الست) وغيرهم: أَنَّ الناس قد كانوا أَهْلُوا بالحج لا يرون غيره، كما عن جابر وأنس وأبي سعيد والبراء بن عازب وابن عباس وأسماء بنت أبي بكر، بل وعائشة من طرق الأسود وعروة ومحمد بن القاسم^(٢).
وقد كثرت الرواية في أمر الإحلال والتمتع، لقوله (مَنْ رَأَى اللَّهَ وَرَأَى مَنَ اللَّهِ فَلَمْ يَأْكُلْ لَحْمَ بَيْعَةٍ) أو «كَمَا أَمَرْتَكُمْ» أو «أَحَلَّ كَمَا أَحَلُّوا».

وفي بعضها: أَنِّي لأُبْرِكُمْ وأصدقكم وأتقاكم، ولولا أَنِّي سَقَتُ الهدي، إلى آخره.
أخرجه مُسلم والنسائي والحاكم في (مستدرکه) وابن حبان في (صحيحه)^(٣).
وفي رواية الطبراني عن جابر: أَتَنَّهُمُونِي وَأَنَا أَمِينُ أَهْلِ السَّهَابَاتِ وَالْأَرْضِ، أَمَا إِنِّي لَوْ اسْتَقْبَلْتُ، الحديث...

ومَنْ رَوَى ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ جَابِرَ وَالْبَرَاءَ وَأَنَسَ وَعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ^(٤).
وروى جابر في حديث طويل في الحجّ وابن عباس وابن عمر وسُراقَة بن مالك وابن أخ لجُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ قوله (مَنْ رَأَى اللَّهَ وَرَأَى مَنَ اللَّهِ فَلَمْ يَأْكُلْ لَحْمَ بَيْعَةٍ) دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة، كما في جوامع مسلم وأبي داود والنسائي والترمذي ومسنّد أحمد وابن عدي والطبراني والبقوي^(٥).

(١) صحيح مسلم ٢: ١٤٧/٨٨٨، سنن أبي داود ٢: ١٨٤/١٩٠٥، سنن النسائي ٥: ١٧٨، سنن ابن ماجة ٢: ١٩٢/٢٩٨٠، مسند أحمد ٤: ١٧٥، كنز العمال ٥: ٤٣/١١٩٧٥.

(٢) تنويه في صحيح البخاري ٢: ٢٧٥/١١٩، صحيح مسلم ٢: ١٩١/٩٠٧، سنن ابن ماجة ٢: ١٩٢/٢٩٨٠، سنن أبي داود ٢: ١٥٤/١٧٨٣، سنن الترمذي ٣: ١٨٥/٨٢٢، ١٨٤، سنن النسائي ٥: ١٥١، كنز العمال ٥: ١٦٣/١٢٤٧٥.

(٣) صحيح مسلم ٢: ٨٨٣/١٤١، سنن النسائي ٥: ١٧٨، مستدرک الحاكم ١: ٤٧٤، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٦: ٨٩/٣٩١.

(٤) كنز العمال ٥: ٤٦/١١٩٩٢.

(٥) صحيح مسلم ٢: ٩١١/٢٠٣، سنن أبي داود ٢: ١٥٦/١٧٩٠، سنن النسائي ٥: ١٨١، سنن الترمذي ٣: ١٥٦.

وقد تكررَت هذه المضامين مجتمعة ومتفرقة في المسانيد و(جوامع الحديث الستة) وغيرها، مروية عن عدة كثيرة من الصحابة.

ولا يخفى أن شرعية هذا التمتع والإحلال المطلق، كما هو مدلول الأحاديث من الفريقين، عليها إجماع الصحابة وعامة المسلمين في جميع الأعصار، ولم يقل أحد بنسخها نسخاً شرعياً، وقد استمر العمل عليها بفتيا جميع العلماء في جميع الأعصار. نعم، وقعت في بعض الأحاديث بعض الشواذ، فينبغي التنبيه عليها في ضمن أمور:

الأول: أن هذه الآية التي شرع بها حج التمتع والإحلال مقيدة بالأمن، وأن المسلمين في حجة الوداع كانوا على أعز جانب من القوة والأمن، وكانت جزيرة العرب إذ ذاك خاضعة لسلطان الإسلام، متمتعة بأمنه العام وسلطة عدله القاهرة.

وأخرج البخاري، عن حارثة بن وهب الخزاعي: صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - ونحن أكثر ما كنا قط وأمنه - يعني ركعتين^(١).

فمن الشواذ ما يروى في (جوامع الجمهور) عن بعض الصحابة: أنه منع عثمان من متعة الحج، فاحتج عليه أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنها سنة رسول الله التي سنّها في حجة الوداع، فاعتذر وقال: نعم، ولكن كنا خائفين، كما أخرجه مسلم وأحمد وأبو عوانة والطحاوي والبيهقي^(٢).

الثاني: روي في (الجوامع الستة) وغيرها: أن أصحاب رسول الله كانوا في حجة

→ ٩٣٢/٢٧١، مسند أحمد ٤: ١٧٥.

(١) صحيح البخاري ٢: ٢٤٩/٣١٢.

قال ابن حجر في شرح الحديث: «وَأَمَّن» أقل تفضيل، أي حاله كونها آمن أوقاتها، وقيل: «ما» مصدرية، ومعناه الجمع لأن ما أضيف إليه أفضل يكون جمعاً. والمعنى «صلى بنا والحال أننا أكثر أكوأنا في سائر الأوقات أمناً».

قط: متعلقة بمحطوف تقديره: «ونحن ما كنا أكثر منا في ذلك الوقت ولا أكثر أمناً. وقد جاء قط بدون النفي». فتح الباري ٢: ٤٥١.

(٢) صحيح مسلم ٢: ١٥٨/٨٩٦، مسند أحمد ١: ٩٧، سنن البيهقي ٥: ٢٢.

الوداع جميعاً حتى عائشة، قد أهلوا بالحج لا يرون غيره، كما عن جابر وابن عباس وأبي سعيد وابن عمر وأنس وأسماه بنت أبي بكر، بل وعائشة من طرق الأسود وعروة ومحمد بن القاسم^(١)

فمن الشاذ ما تفردت به الرواية عن عروة، عن عائشة: من أن الناس أهل بعضهم بالحج، وبعضهم بالعمرة، وهؤلاء هم الذين أمروا بالإحلال والتمتع، وأن عائشة كانت مهلة بالعمرة^(٢)

الثالث: روي من طريق الإمامية، عن أهل البيت وجابر: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة^(٣) ورواه الجمهور في جوامعهم ومسانيدهم كما تقدم^(٤)

وروي الإمامية عن أهل البيت وجابر أيضاً: أن سراقه بن مالك قال: يا رسول الله، هذا الذي أمرتنا به - يعني الإحلال بعد العمرة إلى الحج - لماننا هذا أم إلى الأبد؟

فقال: بل للأبد، إلى يوم القيامة^(٥)

وروي الجمهور في (جوامعهم) و(مسند أحمد) وغيره نحوه، عن جابر وسراقه^(٦)، وعلى ذلك عمل المسلمين وفقهائهم. وأخرج مسلم وأحمد، عن ذكوان، عن عائشة: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخرج مسلم وأحمد، عن ذكوان، عن عائشة: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١) الموطأ: ١: ٣٣٧، صحيح البخاري ٢: ١٤٩/٢٧٥، صحيح مسلم ٢: ١١١/٨٧٠، سنن ابن ماجه ٢: ٩٨٨/٣٠٠، سنن أبي داود ٢: ١٧٧٨/١٥٢ و ١٧٨١/١٥٣، سنن الترمذي ٣: ٩٤٥/٢٨١، سنن النسائي ٥: ١٦٦.

(٢) سنن أبي داود ٢: ١٧٧٩/١٥٣، سنن النسائي ٥: ١٦٥، سنن البيهقي ٤: ٣٤٥ و ٣٥٥.

(٣) علل الشرائع: ١/٤١٣ و ٣/٤١٤، من لا يحضره الفقيه ٢: ٩٣٤/٢٠٤ من ابن عباس.

(٤) تقدمت تخريجاته آنفاً في: ٥/٣٢٣.

(٥) علل الشرائع: ١/٤١٢، التهذيب ٥: ٧٤/٢٥، إعلام الوري: ١٣١، وسائل الشيعه ٨: ٢٥/١٦٤.

(٦) صحيح البخاري ٣: ٣٦٢/١٩، صحيح مسلم ٢: ٢٠٢/٩١١، سنن ابن ماجه ٢: ٢٩٧٧/٩٩١، سنن أبي داود ٢: ١٧٩٠/١٥٦، سنن الترمذي ٣: ٩٣٢/٢٧١، سنن النسائي ٥: ١٨١، مسند أحمد ٤: ١٧٥، مصابيح السنة ٢: ١٨٤١/٢٣٨.

- دخل عليها، وقد كان غضبان، لأنه أمر الناس بالحلّ فتردّد بعضهم^(١).
وأخرج أحمد عن التّبراء، ورواه في (كنز العمال) عن النّسائي عن التّبراء نحوه^(٢).
وأخرج البخاري وأحمد والنّسائي وغيرهم، عن عليّ أمير المؤمنين: أنّ المتعة
سنة رسول الله، فلا يدعها لقول أحد من الناس^(٣).
وأخرج أحمد ومسلم: أنّه قيل لابن عباس في الإحلال بعد العمرة، فقال: سنة
نبيكم وإن رغمت^(٤).
وفي حديث أخرجه أحمد والبخاري ومسلم: الله أكبر، سنة أبي
القاسم (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٥).
وإذا أحطت بما ذكرنا، عرفت أنّه من الشواذ ما أخرجه مسلم وغيره عن أبي
ذر: أنّ المتعة في الحج كانت لأصحاب محمد خاصّة^(٦).
ونحو ذلك، كما أخرجه مسلم^(٧).
أو للركب الذي كان مع رسول الله، كما أخرجه أبو داود والنّسائي^(٨).
نعم، إن كان المراد من ذلك إخراج حاضري المسجد الحرام من مشروعيّة
المتعة جرت الرواية على مقتضى الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.
ومن الشواذ أيضاً ما أخرجه مسلم: أنّه كان ابن عباس يأمر بالمتعة، وكان ابن
الزبير ينهى عنها، فذكرت ذلك لجابر فقال: على يدي دار الحديث، تمتّعنا مع رسول
الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما قام عمر، قال: إنّ الله كان يحلّ لرسول الله ما شاء بها شاء،
- (١) صحيح مسلم ٤: ١٢٠/٨٧٩، سند أحد ٦: ١٧٥.
(٢) مسند أحمد ٤: ٢٨٦، كنز العمال ٥: ١٢٨٦٨/٢٧٥.
(٣) صحيح البخاري ٢: ١٥٦/٢٨٠، مسند أحمد ١: ١٣٦، سنن النّسائي ٥: ١٥٢، صحيح مسلم ٢: ٨٩٧/١٥٩.
(٤) كنز العمال ٥: ١٢٤٨٦/١٦٧.
(٥) مسند أحمد ١: ٣٤٢، صحيح مسلم ٧: ٢٠٦/٩١٢، سنن أبي داود ٧: ٢٠٧/٩١٣.
(٦) مسند أحمد ١: ٢٤١، صحيح البخاري ٤: ٢٧١/٣٢٢، صحيح مسلم ٢: ٢٠٤/٩١١.
(٧) صحيح مسلم ٢: ٨٩٧/١٦٠، سنن ابن ماجه ٤: ٢٩٨٤/٩٩٤، الدر المنثور ١: ٥٢٦.
(٨) صحيح مسلم ٢: ٨٩٧/١٦١ و١٦٣.
(٩) سنن أبي داود ٢: ١٨٠٧/١٦٦، سنن النّسائي ٥: ١٧٩ «نحوه».

زَيْنَ الْقَرآنِ قد نزل منازلُه، وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله كما أَمَرَكُمُ اللهُ، وابتنوا نكاح هذه النساء، فلن أُؤْتَى برجل نكح امرأةً إلى أجلٍ إِلَّا رَجَعْتَهُ بِالْحَبْأَةِ^(١).

وليت شعري، ما هو المراد بقول القائل: إِنَّ الله كان يحلّ لرسول الله ما شاء بها شاء، وهل كان الأمر بالإحلال نقضاً لأمر الله بإتمام الحجّ والعمرة ومخالفة له؟ ولئن كان نقضاً فلماذا لا يكون نسخاً بهذا النحو خصوصاً مع قوله (مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ) «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»^(٢)؟

وقوله: «دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة».

وقوله (مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ) لسراقة: «إلى الأبد»^(٣).

ومن الشواذ أيضاً، ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وغيرهم، عن سعيد بن المسيّب: أَنَّ عمر بن الخطاب نهى عن المتعة في أشهر الحجّ، وقال: فعلتها مع رسول الله، وأنا أنهى عنها، وذلك أَنَّ أحدكم يأتي^(٤)، إلى آخر الرواية، ولم تذكر فيها إِلَّا آراء لا تروّج في الاستحسان، فضلاً عن مقاومة الشريعة.

ومثل ذلك ما أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة وغيرهم، عن أبي موسى: أَنَّهُ سُئِلَ عمر عن نهيهِ عن التمتع، فقال: قد علمت أَنَّ رسول الله فعله، وأصحابه، ولكن كرهت أَن يَظْلَمُوا بَيْنَ مُعْرَسَيْنِ تَحْتَ الْأَرَاكِ^(٥) ثُمَّ يَرْوَحُونَ إِلَى الْحَجِّ تَقَطَّرَ رُؤُوسُهُمْ^(٦).

وما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، عن أبي موسى: أَنَّ عمر قال في ذلك: إِن نَأْخُذَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ قَهْرًا﴾ وَإِن أَخَذْنَا بِسُنَّةِ

(١) صحيح مسلم ٢: ١٤٥/٨٨٥.

(٢) تقدمت تخريجاته آنفاً في: ٣/٣٢٣.

(٣) تقدمت تخريجهما آنفاً في: ٢/٣٢٢ و ٥/٣٢٣.

(٤) كنز العمال ٥: ١٢١٧٧/١٦٤.

(٥) الضمير في «بَيْنَ» يعود إلى النساء، وأعرس: صار ذا عروس ودخل بامرأته، والمراد هنا الوطء، أي مقاربتين نساءهم، والأراك: موضع برفة.

(٦) مستند أحمد ١: ٥٠، صحيح مسلم ٢: ١٥٧/٨٩٦، سنن النسائي ٥: ١٥٣، سنن ابن ماجة ٢: ٢٩٧٩/٩٩٢.

كنز العمال ٥: ١٢٤٧٨/١٦٥.

رسول الله ^(١) - وفي رواية من روايات البخاري: وإن أخذنا بقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - فإنه لم يحل حتى بلغ الهدي محله، انتهى ^(٢).
وقد سبق الكلام في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأما السنة، فإيا سبحان الله! هل سن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأتمته إلا ما اتفق عليه حديث المسلمين وإجماعهم من التمتع والحل، وأنه سنة إلى الأبد، وأن العمرة دخلت في الحج إلى يوم القيامة، وهذا الدخول مع الإحلال يبين أن كلاً من العمرة والحج يقع تاماً في الشريعة بهذا الوجه، وأما فعله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد كان مؤقتاً مختصاً بمن ساق الهدي في تلك السنة، كما يحذره قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ^(٣)، دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة ^(٤)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لسراقة: بل إلى الأبد ^(٥).

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ من الهدنة أو البقرة أو الشاة، وهو نُسك لا جبران كما قال الشافعي ^(٦).

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متواليات ﴿فِي الْحَجِّ﴾ وهي يوم التروية، وما قبله، ويوم عرفة، وعليه إجماع الإمامية ورواية الفريقين ^(٧). ولو فاته ذلك لم يصمه أيام التشريق، وفي الخلاف) عليه إجماع الإمامية ^(٨)، انتهى.
وعلى ذلك روايات كثيرة، وفي صحيح ابن سنان: أن الصادق (عليه السلام) استشهد

(١) مسند أحمد ١: ٣٩، صحيح البخاري ٢: ٢٧٧/١٥٢، صحيح مسلم ٢: ٨٩٥/١٥٥، سنن النسائي ٥: ١٥٥.

(٢) صحيح البخاري ٣: ٢٣/٣٧٠.

(٣) تقدمت تخريجاته آنفاً في: ٣/٣٢٣.

(٤) تقدمت تخريجاته آنفاً في: ٥/٣٢٣.

(٥) تقدمت تخريجاته آنفاً في: ٥/٣٢٥.

(٦) مختصر المزني: ٧٣، كنز العرفان ١: ٢٩٦.

(٧) الكافي ٤: ١٠٥/١، التهذيب ٥: ٧٧٩/٢٣٠ و ٧٨٥/٢٣٢، الاستبصار ٢: ٢٧٨/٩٨٨ و ٩٩٥/٢٨٠، كتاب

الخلاف ١: ٤٧/٤٢٥، كنز العرفان ١: ٢٩٧، الدر المنثور ١: ٥١٧، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ٢:

٢٩٥، جواهر الكلام ١٩: ١٦٧.

(٨) الخلاف ١: ٤٢٥/١٨.

لذلك بأنَّ يُدْثِلَ بن زَوْقَاء أمره رسول الله بأنَّ ينادي بمنى في الناس أن لا يصوموا^(١).

ونحوه صحيح سليمان بن خالد بن مُسْكَان، عنه (عنه السلام)^(٢).

ونحوه في خبر عبد الرحمن بن الحجاج، عن الكاظم (عنه السلام)، كما في (التهذيبين) و(معاني الأخبار)^(٣).

وأخرج أحمد ومسلم عن نُبَيْشَةَ الهُدَلِي، قال: قال رسول الله: أيام التشريق أيام أكل وشرب^(٤).

وعن كعب بن مالك: أن رسول الله أرسله وأوس بن الحدثان أيام التشريق، فنادى: أيام منى أيام أكل وشرب^(٥).

وأخرج أحمد والنسائي، عن حمزة الأُسْلَمِي: أن منادي رسول الله ينادي بمنى ورسول الله شاهد: لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب^(٦).

وأخرج أحمد والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم، عن بُدَيْل بن زَوْقَاء: أن النبي بعثه على جبل أَوْزَق^(٧) وأمره أن يتخلل الفساطيط، وينادي في الناس أيام منى: ألا لا تصوموا، فإنها أيام أكل وشرب ويقال^(٨).

وعن الطيالسي، عن أنس، والبيهقي، عن أبي هريرة: نهى رسول الله عن صوم أيام التشريق^(٩).

وهؤلاء المنادون أعرف بما أمروا به وما نادوا به، فلا يعارضهم ما أخرجه البخاري وابن جرير، عن عائشة وابن عمر، من الرخصة في صيامها لمن لم يجد

(١) الاستبصار ٢: ٢٧٦/٩٨٣.

(٢) الاستبصار ٢: ٢٧٧.

(٣) التهذيب ٥: ٢٣٠/٧٧٩، الاستبصار ٢: ٢٧٨/٩٨٨، معاني الأخبار: ٣٠٠.

(٤) مسند أحمد ٥: ٧٥، صحيح مسلم ٢: ٨٠٠/١٤٤.

(٥) صحيح مسلم ٢: ٨٠٠/١٤٥.

(٦) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، سنن النسائي ٥: ٢٥٢.

(٧) جبل أَوْزَق: أسمر «النهاية» ٥: ١٧٥.

(٨) مسندك الحاكم ٢: ٢٥٠، كنز العمال ٦١/٢٤٤٢٥ - ٢٤٤٢٧، البذل: النكاح، وملاحة الرجل أهله «النهاية» ١: ٤١١.

(٩) سنن البيهقي ٤: ٢٩٧.

المهدي^(١)، مع أنّها لم يسندا الرخصة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل هو أشبه بالاجتهاد، كما أخرج البخاري: أنّ عائشة كانت تصومها، وكان أبوه أو أبوها يصومها^(٢).

﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهاليكم، والسّرّ في هذا التعبير دون قوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذا رجع، هو أنّ من أقام بمكة يقدّر له رجوع أصحابه إلى بلده، كما عليه فتوى الإمامية وأحاديثهم^(٣)، ومنها صحيحة (التهذيب) عن معاوية بن عمار، وفيها: أنّ الصادق (عليه السلام) روى ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٤).

ويحتمل أيضاً النظر إلى اعتبار الرجوع بالنّفر العامّ في الثالث عشر من ذي الحجة، بمعنى أنّ من رجع إلى أهله بالنّفر الأوّل لم يصحّ منه صوم الثالث عشر عند أهله.

﴿تِلْكَ﴾ أي الثلاثة في سفر الحجّ، والسبعة عند الرجوع ﴿عَشْرَةٌ﴾ تعدّ عند الله نُسْكَاً واحداً، لا يضرّ فيها الفاصل الطويل، ولا الإتيان بالسبعة في غير مناسك الحجّ وغير أشهره، ولا الصوم في السفر ﴿كَامِلَةٌ﴾ في النّسك، ككمال الأضحية والمهدي.

﴿ذَلِكَ﴾ أي التمتع بالعمرة إلى الحجّ ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ﴾ باعتبار وطنه ومسكنه ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ من الحضّر، بفتحين، والحضارة المخالفين للبدو والبدادة، أي من لم يكن من أهل مكة وقراها، وما ينسب عرفاً إليها، بحيث لا يعدّ القاطن هناك من البادين عن المسجد الحرام، بل من أهل حضره وحاضريه. وقد أجمع المسلمون على أنّ من كان في الحرم فهو من حاضري المسجد الحرام، وإن بلغ من جهة المشرق اثني عشر ميلاً^(٥).

(١) صحيح البخاري ٣: ١٠٥/٩٥، تفسير الطبري ٢: ١٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٣: ١٠٤/٩٤.

(٣) الاستبصار ٢: ١٠٠٢/٢٨٢، جواهر الكلام ١٩: ١٨٥.

(٤) التهذيب ٥: ٢٣٤/٧٩٠.

(٥) بداية المجتهد ١: ٣٤٥، كنز العرفان ١: ٢٩٩، جواهر الكلام ١٨: ٦.

والمظنون أن الميل منها ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع، بذراع اليد، لكن بعضاً من الإمامية قنن الحد لحاضر المسجد الحرام من كل جهة من جهاته بما لا يبلغ اثني عشر ميلاً، ولا دليل عليه، والروايات الصحيحة صريحة في خلافه، ومنها ما ذكر فيها أن أهل مر الظهران من حاضري المسجد، فإنه عن مكة بمرحلة^(١).

والروى الذي لا يقبل التأويل هو ما لا يبلغ ثمانية وأربعين ميلاً، للنص على أن أهل عُسْفَانَ وذات عَرْق من حاضري المسجد الحرام، وبُعد المكانين عن مكة أكثر من ثلاثين أو أربعين ميلاً^(٢).

وفي بعض الروايات: أن أقرب المواقيت خارج عن هذا الحد^(٣).
 وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن حاضراً المسجد الحرام من كان داخلًا في المواقيت، وينبغي أن يريدوا بها يَكَلِّمُ^(٤) وَقَرْنَ المنازل^(٥) وما ساواها في البعد، دون مسجد الشجرة أو الجُحْفَة^(٦).

وقال الشافعي: من لا يبلغ مسافة قصر الصلاة، نظرًا إلى أن مسافة القصر تكون سفرًا عن مكة لا حضراً^(٧).

قلت: لو أخذنا الحضر في اللغة مقابل السفر لكانت مسافة عشرة أميال ونحوها سفرًا لغويًا وعرفيًا، وضرباً في الأرض، وما التحديد في القصر إلاً تحديداً لبعض أقسام السفر، وقال بعضهم: من كان في الحرم^(٨).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته فيها أمرتم به أو نهيتم عنه في أمر الحج وأحكامه.

(١) التهذيب ٥: ٩٦/٢٢.

(٢) التهذيب ٥: ٩٨/٢٣.

(٣) التهذيب ٥: ٩٩/٢٣.

(٤) يَكَلِّمُ: نوضع على اليمين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن، معجم البلدان ٥: ٤٤١.

(٥) قَرْنَ المنازل: موضع على يوم وليلة من مكة، وهو ميقات أهل نجد، مراد الاطلاع ٣: ٨٢-١٠٨٢.

(٦) بداية المجتهد ١: ٣٤٥، كنز العرفان ١: ٢٩٩، مسجد الشجرة أو الجُحْفَة: موضع على أربع مراحل من مكة.

وهو ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، معجم البلدان ٢: ١١١.

(٧) كنز العرفان ١: ٢٩٩.

(٨) بداية المجتهد ١: ٣٤٦.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مخالفة الشريعة في ذلك، فإنه شرع الحج بهذه الحدود لطفاً بكم، فإنه غني عن عبادتكم، ومن لطفه أن يشدد عليكم بالوعيد على المخالفة لما يعلمه من عبث الأهواء بكم.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَاتَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿الْحَجُّ﴾ أي وقت الحج، والذي يصح فيه ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ معينة، ولئن كان المشركون يُنسئونها إلى أشهر آخر فإننا النسيء زيادة في الكفر، وهي: سؤال، وذو القعدة، وذو الحجة لا غيرها.
نعم، كل ذي الحجة وقت ببعض الاعتبارات لبعض الأجزاء، كشؤال وذو القعدة.

قال في (التذكرة): وعليه أكثر علمائنا.
وهو الظاهر مما روي في (الكافي) و(الفقيه) و(التهذيب) عن سعاة ومعاوية، عن الصادق (عليه السلام): أنها سؤال، وذو القعدة، وذو الحجة^(١).
ونحوه ما رواه في (الكافي) و(التهذيب) عن زرارة، عن الباقر (عليه السلام)^(٢).
وفي (السنن المثنى) وغيره كالبيهقي والبخاري - في أحاديث - مسنداً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أنها سؤال، وذو القعدة، وذو الحجة، كما في أحاديث أبي

(١) الكافي ٤: ٢/٢٨٩، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٣٥٧/٢٧٧، التهذيب ٥: ١٩٠/٦٠، و ١٥٥٠/١٤٥.

(٢) الكافي ٤: ٢/٢٨٩، التهذيب ٥: ١٥٥/٥١.

أُمامة وابن عباس وابن عمر^(١).

وصريح قول الكاظم (عليه السلام): كان جعفر - يعني الصادق (عليه السلام) - يقول: ذو الحجة كله من أشهر الحج، كما رواه في (التهذيب) في الصحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج^(٢).

وروي نحوه في (تفسير البرهان) أخذاً من (تفسير العياشي)^(٣).

وكذا صريح قول الصادق (عليه السلام) في شمولها لما بعد أيام التشريق في صوم الثلاثة في بدل الهدي حيثنذ: «إنا أهل بيت نقول ذلك لقوله (عليه السلام): ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ يقول: في ذي الحجة» كما رواه في (الكافي) و(التهذيب) في الحسن كالصحيح أو الصحيح، عن رفاعه، عنه (عليه السلام)^(٤).

ويؤيده ما رواه في (الوسائل) و(البرهان) أخذاً من (تفسير العياشي) عن حفص بن البختري، عن الصادق (عليه السلام)، وربي، عن الكاظم (عليه السلام)^(٥).

والمراد في الآية أن مجموع الوقت من الأشهر الثلاثة، وقت للمجموع من أفعال الحج، أي يصح بعض الأجزاء فيها كالإحرام الذي هو جزء من أحد النسكين: الحج، والعمرة، وإن اختصت بعض الأفعال بيوم عرفة وما بعده، فلا يجوز أن يقدم إحرام الحج على الأشهر المذكورة بإجماع الإمامية، وحديث أهل البيت، وبذلك قال عطاء ومجاهد وطائوس والشافعي^(٦).

وفي (الدر المنثور) ذكر جماعة رَوَوْا ذلك منهم: الشافعي، والحاكم وصححه، عن ابن عباس وابن مَرْقُويه، عن جابر، عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، والشافعي وغيره،

(١) الدر المنثور ١: ٥٢٤، سنن البيهقي ٤: ٣٤٢، صحيح البخاري ٢: ٢٧٧.

(٢) التهذيب ٥: ٧٧٩/٢٣٠.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٣٦/٩١، تفسير البرهان ١: ١٩٧/١٩٩.

(٤) الكافي ٤: ١٠٥٠٦، التهذيب ٥: ١١٤/٣٨ و ٧٨٥/٢٣٢.

(٥) تفسير العياشي ١: ٢٣٨/٩٢ و ٢٤٠/وسائل الشريعة ١٠: ١٥٨/١٥٥ و ٦/١٦٠، تفسير البرهان ١: ١٩٨/٢١.

٢٣.

(٦) الكافي ٤: ١/٣٢٦، تفسير التبيان ٢: ١٦٢، كتاب الخلاف ١: ٤١٨، المغني ٣: ٢٢٤.

عن جابر، موقوفاً^(١).

والإحرام جزء من الحجّ، والحجّ أشهر معلومات.

وحكى في (التذكرة) عن مالك والثوري والتخعي وأبي حنيفة وإسحاق وأحمد: أن الإحرام ينمقد قبل الأشهر المذكورة، فإذا بقي على إحرامه إلى أشهر الحجّ جاز للحجّ، تشبهاً منهم بقوله (صار): ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٢).

ويردّه أن كون الأهلة كلّها مواقيت للناس والحجّ، وإنّما هو باعتبار مجموع الحوادث للناس والحجّ، فإنّها إنّما تكون مواقيت للحجّ وللناس في حوادثهم وأمورهم، إذا امتازت بعض الأهلة عن بعض باعتبار الوقوع أو البداية أو النهاية، وإذا لم يمتز بعض الأهلة عن بعض في التوقيت كان الزمان كلّه ظرفاً، ليس فيه وقت ولا ميقات، فلا تكون الأهلة مواقيت، ولو تنزّلنا لكان قوله (صار): ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ نصّاً على التعمين، كنص السنّة على تعيين التاسع والعاشر من ذي الحجة على بعض أعياله. وعمره التمتع كالحجّ، لا يقع شيء منها في غير الأشهر المذكورة بإجماع الإماميّة، وحديث أهل البيت، وما روه عن جدّهم (سكنه الله وآله وسلّم) من قوله (سكن الله عليه وآله وسلّم): دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة، كما أسنده الجمهور في جوامعهم ومسانيدهم، عن خمسة من الصحابة، عن رسول الله (سكنه الله وآله وسلّم)، كما أشرنا إليه آنفاً^(٣).

فإذا كانت داخلة فيه كانت مؤقتة بوقته، وإنّ الإحرام الذي جعله للعمرة المتمتّع بها إلى الحجّ كان في ذي القعدة، ولم يرد ما يجوز تقديمه على سؤال. وقد أجمع المسلمون على أنّه لا يجوز أن تقدّم عمرة التمتع على أشهر الحجّ بجميع أعيالها^(٤)، لكن في (التذكرة) عن ثاني قولي الشافعي: إذا أحرم بالعمرة في

(١) الدر المنثور ١: ٥٢٦.

(٢) تذكرة الفقهاء ١: ٣١٩.

(٣) تقدمت تحريجاته آنفاً في: ٥/٣٢٣.

(٤) بداية المجتهد ١: ٣٤٥، جواهر الكلام ١٨: ١٢.

شهر رمضان وأتى بباقي أعيالها في سؤال وحج من سنته كان متمتعاً^(١).
وقال أبو حنيفة: ويجوز أيضاً أن يقدم من أعيالها على أشهر الحج إلى ثلاثة
أشواط من طوافها^(٢).

ولعل أبا حنيفة يتشبه بتقديم إحرامها بما يتشبه به لتقديم إحرام الحج، وقد
عرفت ما فيه، ويبقى قول الشافعي هنا، وتقديم الأشواط الثلاثة ونحوها ليس له ما
يتشبه به.

﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي جعل إتمامه فرضاً واجباً عليه بسبب عقده
للإحرام بالتلبية أو إشعار الهدي أو تقليده، كما في صحيحة (الكافي) عن معاوية، عن
الصادق (عليه السلام)^(٣)، ويدخل في ذلك الإحرام من المواقيت في حج التمتع لدخول
العمره في الحج.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي إن الحج بطبيعته ومصلحة
تشريعه بأبى هذه الأمور، وتقدير الكلام: «فمن فرض فيهم الحج، فلا يأت في حجه
برفث ولا فسوق ولا جدال، لأنه لا رفث ولا فسوق» إلى آخره، فحذف جواب
الشرط لدلالة هذه الجملة المذكورة عليه دلالة يكون ذكره معها من فضول الكلام،
وجيء بالجملة الخبرية، وصرح باسم الحج في قوله (جللته): «في الحج» لإيضاح أن
الحج بذاته ينافر هذه الأمور، وليعرف أن عدمها ليس تكليفاً محضاً يختص بمن فرض
الحج، بل هو غرض يريد الشارع تحصيله من المكلفين حتى في مورد لا يكون فيه
من غير هذه الجهة منكر يجب النهي عنه، وإثم تحرم المساعدة عليه، كما لو أكره المحل
بحق الزوجية زوجته على وطنها في حجها الواجب أو المستحب بإذنه، أو المولى أتمته
في حجها بإذنه، أو طاعت المحلة زوجها غير البالغ على وطنها في حجه وما أشبه ذلك.
فإنه بمفاد الآية والغرض يراد من كل مكلف عدم حصوله كمنعه إن كان لمنعه
أثر، وعلى ذلك جاءت صحيحة إسحاق بن عمار عن الكاظم (عليه السلام) في أن المولى

(١) تذكرة الفقهاء ٩: ٣٦٩.

(٢) بداية المجتهد ٩: ٣٤٧.

(٣) الكافي ٤: ٢/٢٨٩.

المحل إذا كان عالماً بأنه لا ينبغي له أن يظلم أمته في حجبها بإذنه كان عليه الكفارة^(١)، كما أفتى الأصحاب على إطلاقها سؤلاً وجواباً. بل الظاهر أنه لا يخفى عليه إن وظأها مع رضاها لا ينبغي له، لأنه إعانة على الإثم.

ولو قيل: ولا جدال فيه، لاحتمل عود الضمير إلى ذلك الحج المفروض من حيث أنه فرضه على نفسه وما يرجع إلى تكليفه الخاص به، لا من حيث منافرة ذات الحج لهذه الأمور، وإن كان بعضها حلالاً في غيره، كجناح الزوجين، وقول: لا واهه، وبلى واهه، في مقام الصدق.

هذا، وفي (التيبان) وغيره: الرقت عند أصحابنا كناية عن الجماع^(٢). قلت: وهو إحدى روايات الجمهور، عن ابن عباس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣).

ورواه أيضاً عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير موقوفاً^(٤). والحجة لأصحابنا فيه إجماعهم، وما في (الكافي) عن الصادق (عليه السلام): الرقت: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والمجدال: قول الرجل: لا واهه، وبلى واهه^(٥). ونحوه ما روي في (الفتاوى) عن الصادق (عليه السلام) إلا أنه لم يذكر السباب^(٦). ونحوه أيضاً ما روي في (التهذيب) عن الكاظم (عليه السلام) إلا أنه ذكر المفاخرة بدل السباب^(٧).

ولعل ذكر السباب والمفاخرة كان رعاية لبعض الوجوه باعتبار الغالب من اشتغالها على الكذب، ويشهد لذلك خلو رواية الفقيه منها، وخلو رواية الكافي من

(١) الكافي ٤: ٦/٣٧٤.

(٢) تفسير التبيان ٢: ١٦٣، مجمع البيان ٧: ٥٢٤، كنز العرفان ١: ٣٠٩.

(٣) الدر المنثور ١: ٥٢٧.

(٤) الدر المنثور ١: ٥٢٨ و ٥٢٩.

(٥) الكافي ٤: ٣/٣٣٧.

(٦) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢١٣/٩٦٨.

(٧) التهذيب ٥: ٢٩٧/١٠٠٥.

المفاخرة، وخلقوا رواية التهذيب من السُّبَاب، وكلها في مقام البيان.

وأيضاً أن الجماع هو المتيقن من الرُقْت في التفسير مع شهادة قوله (صلى) فيما سبق: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ أَلْقَيْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾^(١) ولئن ذكر له في كتب اللغة معانٍ أخر فهي على سبيل الاحتمال، والأصل فيه البراءة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ويوفِّكم جزاءكم، وهو العليم الذي لا يُضيع أجر المحسنين.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ من تقوى الله والأعمال الصالحة، والزاد: ما يُعَدُّ من الطعام لحاجة السفر، كتى به هنا عن الاستعداد للآخرة ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ﴾ متى يعتني به الإنسان بتزوده ويُعِدّه لضرورته، ويراها واجباً لازماً لحاجته، إنما هو ﴿التَّقْوَى﴾ لله والعمل بأوامره ونواهيه.

ولغمرى أن التفرُّع بالغاء ليوضح الرّد لما ذكر في تفسير الآية من أن قوماً كانوا يرمون أزواجهم^(٢) ويستمتون بالمتوكِّلين، فقيل لهم: تزودوا من الطعام، ولا تُلقوا كلَّكم على الناس، ولئن ذكرت بذلك رواية عن ابن عباس وغيره كما أحصاه في (الدر المنثور)^(٣) فإنَّ عرضها على كتاب الله في تفرُّع الآية بالغاء يعرفك وهنَّها.

﴿وَأَتَّقُوا﴾ عطف تفسير على تزودوا فائدته البيان والتأكيد ﴿بِمَا أُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ الذين يعرفون بمقوله حاجتهم إلى التزود بالأعمال الصالحة ووجوب تقوى الله، وما للتقوى من فضل للغاية العظمى.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا
مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفْتٍ
فَادْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ

(١) الآية: ١٨٧.

(٢) أزواد: جمع زاد، الطعام المتخذ للسفر.

(٣) الدر المنثور: ١: ٥٣٦.

وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَعِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتْهُ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿١٨٠﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في «أَنْ تَتَغَوَّا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ».

في (تفسير البرهان) عن (تفسير العياشي) عن الصادق (عليه السلام)، في تفسير الآية، قوله (عليه السلام): يعني الرزق، فإذا أحل الرجل من إحرامه وقضى نسكه فليشتر وليبيع، انتهى^(١).

ويكون وجه المناسبة في السياق في هذه الجملة، هو الاستدراك ورفع ما يتوهم بسبب تحريم الرقت والجدال والأمر بالتقوى والحلت عليها، فلا بأس في أن يكتسب ما هو زائد نوعاً عما أعد من المال لسفر الحج.

ودوي في ذلك ونحوه في (الدر المنثور) عدة أحاديث^(٢).

وفي (التيان) روي عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: لا جناح عليكم أن تتغوا فضلاً من ربكم، معناه: أن تطلبوا المغفرة^(٣).

(١) تفسير العياشي ١: ٢٦٢/٩٦، تفسير البرهان ١: ٢٠١/٢٠١.

(٢) الدر المنثور ١: ٥٣٤.

(٣) تفسير التبيان ٢: ١٦٨.

وفي (مجمع البيان) رواه جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام).^(١)

ولعل ذكر المغفرة باعتبار أنها المصداق الأهم لنوع الإنسان مما يبتغي حيثنؤه من الله، ووجه المناسبة في السياق هو أنه بعد الترغيب في التقوى وملزمة الحدود في الواجبات والمحرمات اقتضى اللطف أن يرغب في الازدیاد من الخير، ومنه طلب المغفرة بأسبابها، فجرى الترغيب بنحو الاحتجاج بثبوت مقتضى وعدم المانع، فإن مقتضى الابتغاء الفضل من الله بديهى عند العقل والعقلاء، وليس في ذلك مانع، ولا على المبتغي جناح، وأى جناح عليه في ذلك؟ فابتغوه واغتنموا فيه الفرص.

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ الإفاضة: جعل الشيء فائضاً، من فيض الماء، أي فإذا أقضتم جمعكم، تشبيهاً لاندفاع جمعهم الكثير في رحيلهم لساعتهم بعد العصر دفعةً بفيض الماء المنبعث في ابتدائه من عرفات، يقال: أفاض الحديث: أي أفاض كلامه فيه، وعرفات: هو الموقف المعروف، وفيه تُسك اليوم التاسع.

وفي التعبير بالإفاضة دلالة على أن الموقف في عرفات له مكث محدود الوقت، يجتمع فيه الناس ثم يرحلون بأجمعهم، كالماء الفائض، وإن عرفات منشأ هذه الإفاضة وفيض الجمع، وصرفت عرفات مع العلمية والتأنيث لأنها بصيغة الجمع فحملت عليه. ﴿فَإِذْ كُتِبَ اللَّهُ﴾ بالصلاة والتقرب إليه بطاعته في التسك والوقوف ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو المزدلفة وجمع، وسمي مشعراً لأنه محل لنحو من شعائر الله، وإذا جعلت جملة «فاذكروا» لبيان الوظيفة بمنزلة الجملة الخبرية، جاز أن يراد بالذكر ما يعم المستحب.

ثم أكد الله الترغيب بذكره والإقبال عليه ببيان الاحتجاج والتذكير باستحقاقه، شكرًا لنعمته العظمى، فقال (يُنْتَظَرُ): ﴿وَإِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنعم عليكم بالهدى، تلك النعمة الجليلة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ الواو للحال «وإن» مخففة من الثقيلة تفيد التأكيد، بمعنى: وقد كنتم ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل الهدى المدلول عليه بقوله هداكم ﴿لِمَنِ الْأَمْثَالُ﴾ ولا تجعلوا المشعر سبيل عابر من عرفات إلى منى، كما كانت

قريش تقترحه بتشريعهم وجبروتهم على سائر العرب، بل قفوا فيه للنسك، بحيث يكون اندفاع جمعكم منه بعد الوقوف فيه إفاضة منه كالإفاضة من عرفات، واذكروا الله فيه.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ العاملين على شريعة الحج بحقيقتها، وهو إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي أتى بشريعة الحج وإسماعيل وإسحاق ومن كان بعدهم من المتبعين لهذه الشريعة.

جاء فيما أشرنا إليه آنفاً من (الكافي) و(التهذيب) في الصحيح، عن معاوية بن عمار، عن الصادق (عليه السلام)، عن الباقر (عليه السلام)، في ذكره للحج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «... ثُمَّ غَدَا (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الله عليه وآله وسلم» أي من منى «والناس معه، وكانت قريش تفيض من المزدلفة، وهي جمع» أي لا يقفون في عرفة فتكون لهم منها إفاضة، بل يقفون في المشعر وتكون منه إفاضتهم «ويمنعون الناس من أن يفيضوا منها» أي من المزدلفة، يعني أنهم لا يدعون الناس بعد إفاضتهم من عرفات أن يقفوا في المزدلفة، لكي يكون لهم منها إفاضة أيضاً، بل لا يكون لهم إلا الاستطراق «فأقبل رسول الله وقريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون» أي لا يمضي إلى عرفة، بل يمكث في المزدلفة وتكون منها إفاضته (صلى الله عليه وآله وسلم) «فأنزل الله عليه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق في إفاضتهم ومن كان بعدهم» الحديث^(١).

ولا ينبغي الريب في أن مرجع الضمير في منها هو المزدلفة، إذ لم يسبق في الحديث أدنى ذكر أو إشارة إلى عرفات.

وفي (تفسير البرهان) أخذاً من (تفسير العياشي) ذكر خمس روايات تذكر أن المراد أفيضوا من عرفات:

نعم، فيها ما يؤيد حديث جابر في أن قريشاً منعوا الناس من أن يفيضوا معهم من المزدلفة، أي منعوه من أن يمكثوا فيها عند رجوعهم من عرفة، لكي تتحقق لهم

الإفاضة من المزدلفة^(١).

ولكن في تلك الروايات اختلاف، فإن بعضها يذكر أن المأمور بالإفاضة من حيث أفاض الناس هم قريش، وبعضها أنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذا ما أحصاه في (الدر المنثور) في رواياتهم^(٢)، والكل لا يقوى على المقاومة لحديث جابر المنتصر برواية الصادق (عليه السلام) والباقر (عليه السلام)، له، فإن ذلك تصديق منها (عليها السلام)، له، وينافيهما ويردّها أيضاً سياق الآية والعطف فيها بتم، ولا يجدي في ذلك ما ذكره في (الكشاف) وغيره بالقياس الواهي^(٣).

نعم، في (مجمع البيان) أنه قد روى أصحابنا أن هاهنا تقدياً وتأخيراً تقديره «فليس عليكم جناح أن تنفخوا فضلاً من ربكم، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله»^(٤) الآية.

ولم أجد الرواية عاجلاً لثرى سندها، ولو كانت عن إمام لذكره في (المجمع) على عادته، فالحكم لبيان رواية الصادق (عليه السلام) والباقر (عليه السلام) عن جابر المعتضة بترتيب القرآن المتسالم عليه.

وفي (التبيان) ذكر القول بأن الآية خطاب لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم (عليه السلام) من مزدلفة، وقال: إنه شاذ^(٥)، وعُلِّلَ شدوذه بكلام مضطرب عهدته اضطرابه على النسخ، وحاصله الاعتراض على كون المراد بالناس إبراهيم (عليه السلام) وحده، وقد عرفت أن رواية جابر ترفع هذا الاعتراض. وأما دعوى الإجماع على خلاف هذا القول، فلعلها ناظرة إلى المروي عن ابن

(١) تفسير البرهان ١: ٢٠١/٢ و ٤ و ٦/٢٠٢ - ٨، تفسير العياشي ١: ٢٦٣/٩٦ و ٢٦٤ و ٢٦٦/٩٧ - ٢٦٨.

(٢) الدر المنثور ١: ٥٤٥.

(٣) قال في الكشاف ١: ٢٤٧: فإن قلت: فكيف موقع تم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره. فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال: «ثُمَّ أَلْفِضُوا» لتفاوت ما بين الإفاضتين، وإن إحداهما صواب، والثانية خطأ.

(٤) مجمع البيان ٢: ٥٢٨.

(٥) تفسير التبيان ٢: ١٦٩.

عبّاس وعائشة وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة وبعض المفسرين، ولا حجة فيه، وكيف كان فلا إجماع، وبالنظر إلى (مجمع البيان) يظهر أن نساخ (التيبان) خلطوا بين قولي الضحاك والجبائي^(١)، وظني أن في عبارة التيبان سقطاً.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴿أَتَيْتُمْ بِهَا، وَفَرَّغْتُمْ مِنْهَا، وَالْمَنَاسِكَ هُنَا أَعْمَالُ الْحَجِّ لِأَنَّهُ يُنْسَكُ بِهَا لِلَّهِ ﴿فَإِذْ كُرُوا لِلَّهِ كَذِبَكُمْ ءَابَاءَ كُمْ أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا﴾ إِنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ وَخُصُوصِ الْعَرَبِ أَنْ لَا يَغِيبُ آبَاؤُهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ بِالْإِطْرَاءِ بِمَحَاسِنِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ أَوْ الْقَسَمِ بِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالْمَعْنَى الْعَامُ فِي الْآيَةِ أَنْ لَا تَغْفُلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ بَعْدَ أَدَاءِ الْمَنَاسِكَ، وَأَوَّلَى مَا يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّهُمْ لَا يَغْفُلُونَ عَنْ ذِكْرِ آبَائِهِمْ، إِذَنْ فَكَيْفَ يَغْفُلُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَهُوَ إِلَهُ الْعَظِيمِ، وَلَهُ الْمَجْدُ وَالْجَلَالُ وَهُوَ خَالِقُهُمْ، وَكُلَّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِمْ حَتَّى الَّتِي مِنْ آبَائِهِمْ هِيَ مِنْهُ جَنَّاتُ؟! بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُمْ لِلَّهِ أَشَدَّ مِنْ ذِكْرِ الْآبَاءِ، بِنَحْوِ يَنَاسِبُ جَلَالَ اللَّهِ وَنِعْمَانِهِ.

وجاء في التفسير في الروايات ببيان بعض المصاديق العادية في ذكرهم لآبائهم، ففي صحيحة (الكافي) عن منصور بن حازم، عن الصادق (عليه السلام): كانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا، فقال الرجل منهم: كان أبي كذا وكذا، فقال الله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾^(١).

ونحوها ما رواه العياشي عن الباقر (عليه السلام) والصادق (عليه السلام)، وجملة مما رواه

(١) قال في التيبان ٢: ١٦٨: قيل في معنى هذه الآية قولان:

أحدهما: قال ابن عباس وعائشة وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة والسدي والريعي، وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام): أنه أمر لقريش وخلفائهم، لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بهرقة، ولا يفيضون منها، ويقولون: نحن أهل حرم الله لا نخرج عنه، فكانوا يقفون بجمع ويفيضون منه، دون عرفة، فأمرهم الله (عليه السلام) أن يفيضوا من عرفة بعد الوقوف بها.

والثاني: قال الضحاك والجبائي، وحكا المبرد لكنه اختار الأول، لأنه خطاب لجميع الحاج أن يفيضوا من حيث أقاض إبراهيم (عليه السلام) من المزدلفة. والأول إجماع، وهذا شاذ.

(٢) الكافي ٤: ٥١٦/٣.

في الدَّرِّ المنثور^(١).

هذا، وإنَّ ذكر الله حقَّ الذكر يساق ملزمة التقوى، ولكن أحوال الناس مختلفة، يكونون فيها على أصناف، ذكر في الآيات بعضها:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وقد أعرض عن الآخرة ونسيها ﴿وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي من نصيب، لأنَّه أعرض عنها، ولم يعمل لها، ولم يسأل شيئاً من خيرها.

وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٥٣﴾
أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾
وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ نعمة ﴿حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نعمة ﴿حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وفي (الكافي) في صحيحة جميل، عن الصادق (عليه السلام): رضوان الله والجنة في الآخرة والمعاش وحسن الخلق في الدنيا^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ «مِن» في «بِمَا» بيانية، فإنَّ ما سأله لا ينال بمحض الدعاء ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لعباده من الصنفين المذكورين.

(١) تفسير العايشي ١: ٢٧١/٩٨، الدر المنثور ١: ٥٥٧.

(٢) الكافي ٥: ٢/٧١.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وهي أيام التشريق، كما في صحيحَي (الكافي) عن محمد بن مسلم ومنصور بن حازم.

وصحيفة (التهذيب) عن حماد بن عيسى، عن الصادق (عليه السلام) ^(١).

وكصحيحَي (الوسائل) عن (قرب الإسناد) عن حماد، عنه (عليه السلام) ^(٢).

ونحوها روايات العياشي، ورواية (الدر المنثور) عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ^(٣).

وذكر الله: هو التكبير، كما في صحيحَي محمد ومنصور المشار إليهما ^(٤).

وصورته المتفق عليها بين المسلمين كما ذكره في (التيان): الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر والله الحمد ^(٥).

وزاد أصحابنا تبعاً للروايات عن أئمتهم أهل البيت وجمعاً بينها: الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا ورزقنا من بهيمة الأنعام.

وهو مستحب على المشهور لصحيفة علي بن جعفر، عن أخيه الكاظم (عليه السلام)، قال: سألته عن التكبير في أيام التشريق، أوجب أو لا؟ قال (عليه السلام): مستحب، وإن نسي فلا شيء عليه ^(٦).

فالأمر في الآية للاستحباب، ووقته بعد كل فريضة من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من اليوم الثالث عشر، فيكون خمسة عشر تكبيراً، ولم ينفر بالنفر الأول بعد الزوال فيكون عشر مرات، واختلف كلام الفقهاء من الجمهور في عدده، ولكن مالكا والشافعي في أحد أقواله وافقا أصحابنا ^(٧).

(١) الكافي ٤: ٥١٦ و ٣، التهذيب ٥: ٤٨٧/١٧٣٦.

(٢) وسائل الشيعة ١٠: ٢٢٠/٨ و ٩، قرب الإسناد: ١٠ و ٨١.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٧٦/٩٩ - ٢٧٩، الدر المنثور ١: ٥٦٢.

(٤) انظر التخریج رقم (١١).

(٥) تفسير التبيان ٢: ١٧٥.

(٦) قرب الإسناد: ١٠٠، التهذيب ٥: ٤٨٨/١٧٤٥.

(٧) الخلاف ١: ٤٩٧/٣٣٢، كنز المرقاة ١: ٣١٩.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي﴾ ضمن ﴿يَوْمَيْنِ﴾ من تعجل الدين، أي تعجل مقامه بمنى في ضمن يومين بتعجل غايته فنفر النفر الأول.

ولو كان بمعنى استعجل وعجل، أو للمطاوعة كما في (الكشاف)^(١) لدلت الآية على جواز النفر في اليوم الأول منها أيضاً، وهو باطل بإجماع المسلمين، ولأجل جعل التعجل في ضمن يومين اشترط أصحابنا وفقهاء أهل السنة إلا أبا حنيفة وأصحابه كونه قبل الغروب من اليوم الثاني، فلو أمسى حرم عليه النفر الأول^(٢).

﴿فَلَا إِنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِنْ تَعَجَّلَ عَلَيْهِ﴾ هذه الجملة ظاهر لا حاجة إلى بيانه، لأن في رواية (الكافي) عن إسماعيل بن نجيح ردأ عليه^(٣)، ولأن الأحاديث عن الفريقين جاءت على خلافه، وهو أن المراد غفرت ذنوبه، منها صحيحة الحلبي، في قوله (حال): ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ وصحيحة عبد الأعلى، ورواية ابن عيينة، ورواية ابن نجيب، ورواية العياشي عن معاوية بن عمار، وعن أبي بصير، عن الصادق (عليه السلام)^(٤).

ورواه في (الدر المنثور) عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وابن مسعود وابن عمر، وابن عباس في إحدى الروايتين^(٥).

فيكون حاصل المراد من الآية الكريمة: فمن أتم حجه بالتعجل أو التأخر غفرت ذنوبه، فإنه لا أثر لخصوص عنواني التعجل والتأخر في غفران الذنوب، ومن هذا الوجه وكون التعجل إتماماً للحج يعرف جوازه.

وأنه ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ النساء والصيد، كما هو المشهور بين الإمامية باعتبار الاختصاص بالأمرين المذكورين^(٦).

(١) تفسير الكشاف ١: ٢٤٩.

(٢) تفسير التبيان ٢: ١٧٦، جمع البيان ٢: ٥٢٢، التفسير الكبير ٥: ١٩٥، المغني لابن قدامة ٣: ٤٧٩، كنز العرفان ٣٢٠: ١.

(٣) الكافي ٤: ١٢/٥٢٣.

(٤) الكافي ٤: ١٢٥٢ و ١٢٣٧ و ١٠/٥٢٢ و ١٢/٥٢٣، تفسير العياشي ١: ٢٨١/٩٩ و ٢٨٣/١٠٠.

(٥) الدر المنثور ١: ٥٦٧.

(٦) كنز العرفان ١: ٣٢٠، زبدة البيان: ٢٨٢.

والمجمع عليه باعتبار الدخول في كل ما يحرم على المحرم، كما عن ابن سعيد^(١).

أو ما يوجب عليه الكفارة، كما عن ابن إدريس وأبي المجد^(٢).
كما ورد في خصوص النساء والصيد صحيحة حماد بن عثمان، وروايته الأخرى كما في (التهذيب) وصحيحة جميل، ومعتبرة ابن المستنير عن الصادق (عليه السلام)^(٣).
وبه جاءت إحدى روايات (الدر المنثور) عن ابن عباس^(٤)، والمراد اتقاء المحرم وما يحرم عليه في حجه، مما يكون بين النساء والرجال، سواء كان رجلاً أو امرأة. وهناك روايات أخرى من الفريقين لم يأخذ بمضمونها الإمامية، وعلى ذلك إجماعهم^(٥)، مضافاً إلى أن قوله (سأ): ﴿لَنْ أَتَقَى﴾ لا يستقيم تفسيره بالتقوى المطلقة بعمومها، لأن حصولها إلى حين النفر لا يتفق إلا للمعصوم، فلا يبقى موقعاً للامتنان بغفران الذنوب إذا كان ذلك قيداً له، وكذا لا يبقى مورد للتخفيف على سائر الناس كما يعرف من روايات الفريقين بأجمعها إذا كان قيداً لجواز النفر، كما لا يستقيم تفسيره بمطلق حصول التقوى ومصادقها في الماضي، إذ لا فائدة على ذلك في هذا القيد، فإن كل من له حج قد حصل منه مصادق للتقوى، فلا بد من أن يراد بذلك تقوى خاصة، وهو ما يثبت الروايات المتقدمة، وبالنظر إلى هذا الذي ذكرناه يسقط كثير من الأحاديث.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مقتضى سوق الآية، هو أنه لا تتكلموا على غفران ما مضى من ذنوبكم بسبب الحج، بل اتقوا الله فيما بقي من أعماركم، وتحققوا، وليكن على علمكم وذكركم دائماً أنكم إلى الله لا محالة تحشرون،

(١) جواهر الكلام ٢٠: ٣٦.

(٢) جواهر الكلام ٢٠: ٣٦.

(٣) الكافي ٤: ٥٢١ و ٦/٥٢٢، التهذيب ٥: ٢٧٣/٩٣٢ و ٢٧٣/٩٣٣ و ١٩٠/١٧٥٨.

(٤) الدر المنثور ١: ٥٦٦.

(٥) تفسير العياشي ٩: ٩٩، ١٠٠، زبدة البيان: ٢٨٢ - ٢٨٤، الدر المنثور ١: ٥٦٦ - ٥٦٨، تفسير البرهان ١:

٢٠٥، نور الثقلين ١: ٢٠٩ - ٢٠٣.

فيحاسبكم على أعمالكم وبجازيكم، فاستعدوا لذلك بالتقوى وتزودوا منها فإنها خير الزاد.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
 اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
 فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
 لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
 بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
 النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٨﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ وتستحسنه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق
 بـمعجبك أي يظهر الإيهان والصفاء وحسن الصبغة، ويقول: إن ذلك في قلبي
 ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بضم الياء من أشهد، أي يقول أشهد الله على ذلك،
 ولازمه دعوى أن الله عالم بذلك.

﴿وَاللَّهُ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ في ذلك، واللدد: هو
 الشدة في الخصومة، والألد: صفة مشبهة، نحو أعمى العين وأعورها، أي شديد
 الخصومة، يقال: خصم ألد، وخصوم لُد، كقولهم (سار) في سورة مريم: ﴿وَتَنْزِيلِهِ يَوْمَ
 لُدٍّ﴾^(١).

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ من الولاية، بأن تصير له ولاية وتسلط ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾

السمي: الإسراع في المشي، قيل: والعمل، ومنه قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١) وفي سورة الدهر: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مُشْكُورًا﴾^(٢)، وظني أن ذلك من المعنى الأول، وكُنِيَ به عن العمل.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ المراد بالحرث هنا: الزرع لأنه تُحرث له الأرض، والنسل: ما يتولد بالتناسل، والناس: نسل آدم.

وعن (تفسير العياشي) عن الحسين بن بشارة عن الرضا (عليه السلام): قوله: النسل هم الذرية، والحرث الزرع.

وعن زارة، عن الصادق والباقر (عليهما السلام): النسل الولد، والحرث الأرض^(٣)، وهذا يرجع إلى تفسيره بالزرع.

وفي (مجمع البيان): وروي عن الصادق: أن الحرث في هذا الموضع الدين والنسل الناس^(٤).

وأظن أنه أخذه من (تفسير القمي) ففيه، قال: الحرث في هذا الموضع الدين^(٥)، وهذا الكلام لا دلالة فيه على أنه رواية عن الصادق (عليه السلام).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ ولا يُعين عليه، ولكن يُمهّل ذلك الساعي ويُعطي له. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ: أَي لَذَلِكَ الْمُفْسِدَ﴾ اتَّقِ اللَّهَ ﴿وَلَا تُفْسِدْ﴾ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ ﴿التي يراها لنفسه﴾ بِالْإِثْمِ ﴿واجتماع أتباعه معه على الضلال، أي استولى عليه اعتزازه بالإثم، أي بالتعاضد الباطل على الباطل والآثام، فيأنف من قول القائل له: اتَّقِ اللَّهَ.

وفي (التيبان): أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ من أجل الإثم الذي في قلبه من الكفر. وقيل: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ، أي دعتة العِزَّةُ إلى الإثم، كما تقول: أخذت فلاناً بأن

(١) الآية: ٣٩.

(٢) الآية: ٢٢.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٨٧/١٠٠ و ٢٨٨.

(٤) مجمع البيان ٢: ٥٣٤.

(٥) تفسير القمي ١: ٧٦.

يفعل، أي دعوته إلى أن يفعل، ونحوه قال في الكشف^(١).

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي فليكن محسوبه في عاقبة جهنم ﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾
الذي مهده لنفسه بسوء أفعاله هي.
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ في (التبيان) شري:
باع^(٢).

وفي (الكشاف): يبيعهما، أي يبيذهما في الجهاد^(٣).

أقول: ويمكن أن يراد به معنى الاشتراء المتعارف على نحو ما ذكرناه في الآية
التسمين، أي يشتري نفسه بالأعمال الصالحة ابتغاء لمرضاة الله عليها، وهي سعادتها
التي تشتري لها.

وفي (التبيان): وروي عن أبي جعفر - يعني الباقر (عليه السلام) - أنه قال: نزلت في
علي (عليه السلام)، حين بات على فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أرادت قريش
قتله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٤).

ورواه في (البرهان) و(غاية المرام) عن (تفسير العياشي) بإسناده عن ابن
عبّاس، وعن جابر عن الباقر (عليه السلام)^(٥).

ورواه الشيخ الطوسي في (أماله) بأسانيده من رجال أهل السنة وغيرهم، عن
زين العابدين وابن عباس وأنس وأبي عمرو بن العلاء، وعن أبي اليقظان عمّار، عن
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٦).

وفي (بحالسه) عن أبي ذر: أن أمير المؤمنين احتج في الشورى بأن الآية نزلت
في شأنه^(٧).

(١) تفسير التبيان ٢: ١٨٢، تفسير الكشف ١: ٢٥٩.

(٢) تفسير التبيان ٢: ١٨٤.

(٣) تفسير الكشف ١: ٢٥٩.

(٤) تفسير التبيان ٢: ١٨٣.

(٥) تفسير العياشي ١: ١٠١/٢٩٢، تفسير البرهان ١: ٧/٢٠٦، غاية المرام: ٣٤٦.

(٦) الأمالي ١: ٢٥٨، ٢: ٦٠ و٦١ و٨٤ و١٥٩.

(٧) الأمالي ٢: ١٦٤.

وفي (غاية المرام): رواه ابن بابويه وابن شاذان والكليني والطوسي وابن عُبدة
والبرقي وابن فياض والعبدكي والصفواني والثقفى، بأسانيدهم عن ابن عباس وأبي
رافع وهند بن أبي هالة^(١).

ورواه من أهل السنة الحافظ أبو نُعيم، عن ابن عباس^(٢)، والتعلبي في الجزء
الأول من (تفسيره)^(٣)، وابن عُبدة في (ملحمته)^(٤) وأبو السعادات في (فضائل العشرة)
بأسانيدهم عن أبي اليقظان عمار^(٥).

ورواه القزالي في باب الإبتار من (الإحياء) بالنحو المفصل في مباحاة الله
لجبرئيل وميكائيل بعلي ونزول الآية في شأنه^(٦).

وكذا أورده الرازي والنيسابوري والشيرازي في (تفاسيرهم)^(٧).

وعن ابن الأثير في (الإنصاف) في جمعه بين (الكشاف) و(التكشاف).

ورواه في (الفصول المهمة) عن (الإحياء)^(٨) ورواه التعلبي أيضاً بإسناده عن
السُّدي^(٩).

وروى الحاكم في (مستدرکه)^(١٠) والنَّهْبي في (تلخيص المستدرک)^(١١) وأخطب

خوارزم موفّق في (مناقبه)^(١٢) والمُهموني في (فرائده)^(١٣) و(فضائل الصحابة)

(١) غاية المرام: ٣١٤، ٣١٧.

(٢) خصائص الوحي المبين: ٦٤/٩٤.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب: ٦٤.

(٤) مناقب ابن شهر آشوب: ٦٥، غاية المرام: ٣٤٥.

(٥) مناقب ابن شهر آشوب: ٦٥، غاية المرام: ٣٤٥.

(٦) إحياء علوم الدين: ٣، ٢٧٣.

(٧) تفسير الرازي: ٥، ٢٠٤، تفسير النيسابوري: ٢، ٢٩٦.

(٨) الفصول المهمة: ٤٨.

(٩) غاية المرام: ٣٤٥.

(١٠) مستدرک الحاكم: ٣، ٤.

(١١) تلخيص المستدرک: ٣، ٤.

(١٢) مناقب الخوارزمي: ٧٤.

(١٣) فرائد السطین: ١، ٢٥٦/٣٣٠.

بأسانيدهم عن زين العابدين (عليه السلام)، قال: **أَوَّلُ مَنْ شَرَى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ مَبِيتِهِ عَلَى فَرَّاشِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)**.^(١)

وروى أحمد في (مسنده) بطريق صحيح^(٢)، والحاكم في (مستدرکه) وصححه على شرط البخاري ومسلم، وذكر روايته عن أبي داود والطيالسي وغيره^(٣).

ورواه النسائي في (خصائصه) صحيحاً، وأخطب خوارزمي في (مناقبه) والنهجي في (تلخيصه) وصححه، والكنجي في (كفاية الطالب) عن ابن عباس، في حديث: **وَشَرَى عَلِيٌّ نَفْسَهُ، وَلَبَسَ ثَوْبَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَنَامَ مَكَانَهُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أَلْبَسَهُ بُرْدَهُ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، الْحَدِيثُ**^(٤).

هذا وفي (الكشاف) لم يذكر هذه الرواية، وفُسر يشري نفسه بقوله: **يَبِيعُهَا** ويَبِذُلُهَا في الجهاد، ثم ذكر الرواية في صُهيْب، وأنه اشترى نفسه واقتداها من مشركي قُرَيْشٍ بِأَلِّهِ^(٥)، وهذا لا يناسب تفسيره ببيعها ويَبِذُلُهَا، وإنَّما يناسب ذلك ما روي في شأن أمير المؤمنين (عليه السلام) في بذل نفسه ومبيته على فراش الرسول ليفديه بها.

والعجب من السيوطي فإنه مع طول بابه في الحديث، واستقصائه في (الدر المنثور) للأحاديث المتعلقة بالتفسير حتَّى الشواذ والمناكير، ومع ذلك لم يذكر ما استفاد من طرقهم في نزول هذه الآية في شأن أمير المؤمنين ومبيته على الفراش، وروى نزولها في شأن صُهيْب، أو مع أبي ذرٍّ، أو مع غيرها^(٦).

وإنَّما يرويه صُهيْب من قول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) له: «**رَبِحَ الْبَيْعَ**» لا يناسب بذل ماله، ولا تناسب الآية إفلات أبي ذرٍّ من أهله.

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٦٤.

(٢) مستد أحمد ١: ٣٣٦.

(٣) مستدرک الحاكم ٣: ٤.

(٤) خصائص النسائي: ٩، كفاية الطالب: ٢٤٢، مناقب الخوارزمي: ٧٣، تلخيص المستدرک: ٤.

(٥) تفسير الكشاف ١: ٢٥٩.

(٦) الدر المنثور ٩: ٥٧٥ - ٥٧٨.

فإن قيل: إن الآية مدنية، فكيف يكون نزولها في مبيت علي (عليه السلام) على الفراش في مكة؟

قلت: إن حادثة المبيت كانت حين خروج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة مهاجراً، فنزلت الآية بعد ذلك في تمجيد علي (عليه السلام).

وأيضاً لم يكن بين ما يروونه من شأن صُهَيْب مع قريش وبذل ماله، وبين مبيت علي (عليه السلام) على الفراش إلا يوم ونحوه، فكيف ناسبت الآية المدنية شأن صُهَيْب، ولم تناسب شأن أمير المؤمنين في مبيته على الفراش؟!

﴿وَأَلَّهِ رُءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وهذه التتمة وامتنانها إنما تناسب شأن أمير المؤمنين (عليه السلام) ورأفة الله به في حفظه بجبرئيل وميكائيل من قتل قريش، كما فيها أشرنا إليه من روايات أبي نُعَيْمٍ والثُّعَلْبِيِّ وابن عُقْبَةَ وأبي السعادات والغزالي والرازي وغيرهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُزْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٠﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ فيها حضرننا من كتب اللغة السُّلْم بكسر السين وسكون اللام: الصلح، والمراد منه الملائمة وعدم الحرب، لا عقد المصالحة الذي يؤثر السُّلْم، وتؤنث حملاً على نقيضها الحرب، كقوله (نصار) في سورة

الأنفال: ﴿وَأَن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(١).

وقال العباس بن مرداس^(٢):

السُّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعٌ
ومن الغريب ما رواه في (الدر المنثور) من أن المراد بالسُّلْمِ شرائع الإسلام، وما
ذكره من سبب النزول، وأن المخاطبين هم أهل الكتاب، أو أن المراد بالسُّلْمِ الإسلام^(٣).
كما أغرب من نقل عنه في (الكشاف) أن المخاطبين هم المنافقون^(٤)، كما أغربوا
بتفسير السُّلْمِ بالطاعة.

كيف والآية والتي بعدها يناديان بأنهم نوع المؤمنين بالله ورسوله
محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد كانوا حين الخطاب بالآية ومدة حياة الرسول مستوسقين
بأجمعهم للسُّلْمِ فيما بينهم؟!

إذن، فهاذا الذي أمروا بأن يدخلوا فيه؟ ما هو إلا عنوان يضمن لهم دوام السُّلْمِ
بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبحكم انتظامه، ولم نجد لهذا العنوان بياناً وتفسيراً
معقولاً إلا ما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام)، ففي (الكافي) بسنده عن عبيد الله بن
عجلان، عن الباقر (عليه السلام)، في تفسير السُّلْمِ في الآية، قال (عليه السلام): في ولايتنا^(٥).
وكذا رواية سعد بن عبد الله القمي، بسنده عن الفضيل، عنه (عليه السلام)^(٦).
ورواية ابن شهر آشوب، عنه (عليه السلام)^(٧). ورواية العياشي عن الكلبي، عن الصادق،
عنه (عليه السلام)^(٨).

(١) الآية: ٦١.

(٢) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، من مضر، أبو الهيثم، شاعر فارس، ابن الخنساء الشاعرة، أسلم
قبيل الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم، سكن بادية البصرة. وتوفي نحو (١٨هـ). المحرر: ٢٣٧ و ٤٣٢، الإصابة ٤:
٤٥٠-٣/٢٩١، شرح شواهد المعنى ١: ١١٧، خزانة الأدب ١: ٧٣، الأعلام للزركلي ٣: ٢٦٧.

(٣) الدر المنثور ١: ٥٧٩.

(٤) تفسير الكشاف ١: ٢٥٢.

(٥) الكافي ١: ٢٩/٣٤٥.

(٦) مختصر بصائر الدرجات: ٦٤.

(٧) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٦، وفيه: في ولاية علي (عليه السلام).

(٨) تفسير العياشي ١: ٢٩٧/١٠٢.

٩ وفي (أمالى الشيخ) بسنده عن محمد بن إبراهيم، عن الصادق (عليه السلام)، قال: في ولاية علي بن أبي طالب^(١).

وكذا رواية ابن شهر آشوب، عن زين العابدين (عليه السلام)، والصادق (عليه السلام)^(٢).
ورواية العياشي، عن أبي بصير، عن الصادق (عليه السلام)^(٣).

وفي معناها روايات أخر عن العياشي، عن زرارة ومُحَمَّد بن مُسْلِم، عن الباقر والصادق (عليهما السلام)^(٤). وروايته عن جابر، عن الباقر (عليه السلام)^(٥). وروايته عن مُسْعَدَةَ، عن الصادق، عن أبيه، عن جده (عليهم السلام)^(٦).

ولعمر الحق أن ولاية علي (عليه السلام) والائمة من آل الرسول هي أشرف أنواع السُّلْم وأعظمها بركة، بها يستوسق السُّلْم العام بين المسلمين بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبها يستحكم نظامه، ويقرّ قراره، ولو تمسك كافة المسلمين بها لما حدثت الحروب الطاحنة كحروب البصرة وصفين والنهروان وكر بلاء والحرة وغيرها. ولما ذهب خيار المسلمين أضحاحي لقساوة زياد وابنه والحجاج وأشباههم، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

«وكافة» بمعنى جميعاً، حال من ضمير الجماعة في «ادخلوا» ولا يحصل لكونه حالاً من السُّلْم، خصوصاً مع ما ذكرناه من حال المسلمين في عهد رسول الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الخطوات: جمع خطوة، أي لا تتبعوا أثره، وتخطوا على خطاه في الضلال، ولا تنقادوا على أثره بغوايته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لعداوته، وهل تخفى عداوته، وما أنتم بأقلّ التفات تعلمون أنه يغريكم بكلّ قبيح، ويوقعكم بغوايته في كلّ شرٍّ ومكره؟

(١) الأمالي ١: ٣٠٦.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٦.

(٣) تفسير العياشي ١: ٢٩٤/١٠٢.

(٤) تفسير العياشي ١: ٢٩٥/١٠٢.

(٥) تفسير العياشي ١: ٢٩٦/١٠٢.

(٦) تفسير العياشي ١: ٢٩٧/١٠٢.

﴿فَإِنْ زُلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ ومنها قوله (عالي): ﴿إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١) وتأكد بيانه بتواتر الأحاديث من الفريقين في أن المراد من أهل البيت هم عليّ والزهراء وذريتهما (صلوات الله عليهم)^(٢). وقوله (عالي): ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٣) وغير ذلك من الآيات المأثورة تفسيرها في فضل عليّ (عليه السلام) وزعامته وولايته، كما مضى، وبأني إن شاء الله، وما تواتر لفظاً أو معنى من أحاديث الفريقين في فضل عليّ (عليه السلام) وولايته وإمرته على المؤمنين.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في إنفاذ أمره وإظهار الحق بلا إجماء.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي نوع الناس، إن كان المقصود من الآية أحوال القيامة وأهوالها، وإن كان المقصود أحوال أواخر الزمان فالمراد بعض الناس وأهل ذلك الحين ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ نسبة الإتيان إلى الله مجاز أي يأتيهم آثار قدرته وعظمته وسلطانه القاهر، كما يقال لمن جاءه جيش الملك بسطوة سلطانه: جاءك الملك، وظلل: جمع ظلة وهو ما أظلك، والغمام معروف، وظلل الغمام يحتمل أن تكون مجازاً في الشدائد التي تذهبهم وظلمات الأحوال كما يظلم الجو بالغمام.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فاعل بالعطف ليأتي، وإسناد الآيتين إليهم لا مانع من حقيقته، وفي روايات (الدر المنثور) في الآية ما يعسر تأويله ويستحيل مؤداه، لأنه تجسيم، وفيه نسبة التحين في المكان إلى الله (جلّ شأنه)^(٤).

﴿وَقَضَىٰ الْأَمْرُ﴾ فإنه لا راد لقضاء الله ﴿وَالِإِلَهِ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو وليها، يرجعها إليه سلطان إلهيته القاهر ووجوبه وإمكان ما سواه وحاجته في جميع أحواله إليه (جلّ شأنه).

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٢) راجع شواهد التنزيل ٢: ٦٠ - ٩٢، وغاية المرام: ٢٨٧ - ٣٠٠.

(٣) راجع شواهد التنزيل ٢: ١٣٠ - ١٤٦، وغاية المرام: ٣٠٦ - ٣١٠، الآية في سورة الشورى ٤٢: ٢٣.

(٤) الدر المنثور ١: ٥٨٠.

سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
 اللَّهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٦﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿٦٧﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ
 مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾

﴿سَلَّ﴾ يا رسول ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ على وجه التقرير والتوبيخ على تمردهم
 وكفران النعم ﴿كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي أظهرنا لهم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ واضحة تهديهم إلى
 الحق، وتوضح لهم سبل الرشاد في التوحيد، ووحى التوراة من الله، ونبوة رسول الله،
 ووحى قرآنه، وحظوا من تلك الآيات وبيّنات دلالتها وإرشادها بالنعمة العظمى، ولكن
 بدّلوها، وكم قابلوها بالارتداد والجحود والعناد وكفران النعمة.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كمجيء تلك الآيات البيّنات
 فبشره بالعقاب الشديد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
 ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ زينها الشيطان وأهواء النفس الآتمة، كما

في قوله في سورة الأنفال والنحل والنمل والعنكبوت^(١).
وقيل: إنَّ الله زَيَّنَّها لهم بأن خلق فيها الأشياء المرغوبة المعجبة. وليس بشيء،
لأن خلق هذه الأشياء إنما هو للناس عامة لا لخصوص الذين كفروا.
وفي (الكشاف): يجوز أن يكون الله زَيَّنَّها لهم بأن خذلهم حتى استحسوها، أو
لأنه أمهلهم^(٢).

قلت: وعلى ذلك جاء قوله (نمل) في سورة الأنعام: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ
عَمَلَهُمْ﴾^(٣) وفي سورة النمل: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٤) ولكن هذا مجاز لا يصار إليه إلا
بحسب اقتضاء الدليل.

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي الذين كفروا ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إما لأجل فقرهم، أو
لأجل إيمانهم بالآخرة ورجائها، أو لأجل إقدامهم على تحمّل الشدائد بسبب الإيمان.
﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ﴾ فوق الكافرين الساكخين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في نعيم
الجنان ورفعة الرضوان، وهل المراد بالذين اتَّقَوْا هم الذين آمنوا، أو الإشارة إلى أنَّ ما
كلَّ الذين آمنوا ينالون الدرجات الرفيعة يوم القيامة، كما ورد في الحديث المستفيض
المروي في صحاح أهل السنة وغيرها، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أَنَّهُ يُؤْخَذُ بَعْضُ
أَصْحَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّالِ، فيقول: أصحابي أصحابي، فيقال له:
إنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ^(٥)؟. الله هو العالم بالمراد.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ بالكرامة ورقة الدرجات ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بحسب
الأهلية واستحقاق الكرامة ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ولا حدٍّ محدود، والله ذو الفضل العظيم.
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لا تفرق بينهم فيما يرجع إلى نحلة أو شريعة.
وفي (البيان): روي عن أبي جعفر «الهاقمر عليه السلام» أَنَّهُ قَالَ: كَانُوا قَبْلَ نُوحٍ

(١) الأنفال ٨: ٤٨، النحل ١٦: ٦٣، النمل ٢٧: ٢٤، العنكبوت ٢٩: ٣٨.

(٢) تفسير الكشاف ١: ٢٥٤.

(٣) الآية: ١٠٨.

(٤) الآية: ٤.

(٥) صحيح البخاري ٦: ٢٧٩/٢٦٦، صحيح مسلم ٤: ٢١٩٤/٥٨.

أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ، لَا مُهْتَدِينَ وَلَا ضَلَالًا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ^(١)، انتهى.
والمراد لا مهتدين كل الاهتداء في المعارف، لأنَّ الفِطْرَةَ إِنَّمَا تَهْدِي إِلَى أَصْل
الإِلَهِيَّةِ والتوحيد وشيء من صفاته (جزئائه)، ولا توصل إلى المعاد الجسائي بالخصوصيات
التي جاء بها القرآن الكريم، ولا إلى الشريعة، ولا ضَلَالًا بِكُلِّ الضلال، إذن فهم
ضَلَالٌ في مطلق القول لضلالتهم عن كثير مما تراد منهم معرفته والاهتداء إليه.
وفي رواية العياشي، عن مَسْعُودَةَ، عن الصادق (عليه السلام)، قلت: أفضلاً كانوا
قبل النبيين، أم على هدى؟

قال (عليه السلام): لم يكونوا على هدى، بل على فِطْرَةِ اللَّهِ التي فطرهم عليها^(٢).
وهذا كله ينطبق على ما أسنده (الكافي) عن يعقوب بن شعيب، عن
الصادق (عليه السلام)، في الآية، قال: كان الناس قبل نوح أُمَّةً ضلال، فبعث الله النبيين^(٣).
وكذا في رواية العياشي، عن يعقوب، عنه (عليه السلام)^(٤).
وفي روايته عن محمد بن مسلم، عن الباقر (عليه السلام): كان هذا قبل نوح، كانوا
ضَلَالًا^(٥).

وروايته عن زُرَّارة ومُحَمَّد بن مسلم، عن الباقر (عليه السلام)
والصادق (عليه السلام): كانوا ضَلَالًا^(٦). ولم يرو عن أهل البيت أنهم كانوا كفَّاراً.
نعم، اضطربت الروايات كما في (الدر المنثور) عن ابن عباس، ففي بعضها
قوله: على الإسلام كلهم، وقريب منه ما رواه عن أبي بن كعب، وفي بعضها من طريق
العوفي، قال: كانوا كفَّاراً^(٧).

(١) تفسير التبيان ٢: ١٩٥.

(٢) تفسير العياشي ١: ٣٠٩/١٠٤.

(٣) الكافي ٨: ٤٠/٨٢.

(٤) تفسير العياشي ١: ٣٠٦/١٠٤.

(٥) تفسير العياشي ١: ٣٠٨/١٠٤.

(٦) تفسير العياشي ١: ٣٠٥/١٠٤.

(٧) الدر المنثور ١: ٥٨٢ - ٥٨٣.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ﴾ برضوان الله وجزائه، ونعيم الآخرة لمن آمن بالله واتقاه وعمل صالحاً ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لمن خالف كل ذلك أو بعضه بغضب الله وتكاله، ويوم القيامة وعذابه الأليم المهين.

﴿وَأُنْزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابُ﴾ أي نوع الكتاب الإلهي الذي يبيح به الرُّسل من الأنبياء من عند الله، فيحتمل أن يراد بالنبيين خصوص الرُّسل الذين ينزل عليهم كتاب، ويحتمل أن يراد بهم مطلق الأنبياء، وعبرُ بإنزال الكتاب معهم باعتبار إنزاله على الرسل منهم، فكان منزلاً مع نوبة بعثتهم (عليهم السلام).

أنزله الله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ليبيِّن الحق، ويوضح للناس نهج الهدى في دينهم وشرائعهم، ومن غايات ذلك وفوائده أن يكون مرجعاً وحكماً فاصلاً في الاختلاف.

وباعتبار هذه الغاية الشريفة قال (جنت الآيات): ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ببيانه ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي مطلق الناس، لا خصوص أولئك المذكورين، ولو كانوا هم المراد أقيل: ليحكم بينهم ﴿فِيمَا اختلفُوا فِيهِ﴾ ودعاهم إلى الاختلاف فيه جهلهم وأهواؤهم.

﴿وَمَا اختلف فِيهِ﴾ أي في الكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ أوتوه﴾ واختلفوا فيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ من محكماته المتحضدة بدلالة العقل.

وفي هذه الجملة دفع لما يتوهم من أن الكتاب كيف يحكم بين الناس مع أن كل فرقة من الأمة الواحدة في خصامها الديني والمذهبي مع الفرقة الأخرى تحتج بالكتاب الجامع بين الأمة، وتدعي دلالته على ما تقول به؟

فقال الله (تعالى) ما معناه: إنَّ الكتاب المنزل للأمة بحسب الحكمة بلسان البشر ولسان تلك الأمة ومحاورتها، وإن كان فيه صريح محكم وظاهر بالوضع ومجاز ظاهر المعنى بالقرائن اللفظية أو العقلية البديهة، لكن صريحه ومحكمه وبيِّناته لا تبقى مجالاً للتوهم، بل هي واقفة بالمرصاد لتلاعب الأهواء بظواهره ومجازاته.

فلم يختلفوا لحفاء دلالته وإشكالها، بل وقع الاختلاف ﴿بَغْيًا﴾ حاصلاً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وانحرافاً من بعضهم عن الحق، وزيفاً إلى البغي، ليموه الباغون أمرهم بالتشبه بالمتشابهات.

﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بحقيقة الإيمان، وأوصلهم بتوفيقه ﴿لَمَّا اختلفُوا

فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وتأييده باللفظ، لأنهم أهل لذلك بإيمانهم وتدريبهم في الكتاب.
﴿وَاللَّهُ يَهْدِي﴾ ويوصل إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مَنْ هو أهل للطفه وتوفيقه (جئت نماز)، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ويجوز أن تحمل الآية على الاختلاف في نفس الكتاب، وكونه منزلاً من الله، ويكون المراد من البينات هي المعجزات والدلائل على صدق الرسول ونزول الكتاب من الله.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى
يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ
نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وتنالوا درجاتها الرفيعة جزاءً ومكافأةً للأعمال الصالحة بدون إخلاص ثابت وصبر وثبات على نصر الدين وشدائده، وبدون تمحيص للصادق من الكاذب ﴿يَمْثُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَشْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، أي ولما يجاهد المجاهدون منكم، ويصبر الصابرون، فيكون الله قد علم بعلمه التابع في الأزل أنهم سيجاهدون ويصبرون باختيارهم رغبة فيما عند الله، ونصراً لدين الحق.

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من أنصار الحق من الأمم، والمثل بمعنى مثل بكسر الميم، أي تمتحنون وتبتلون وتصبرون كما امتحنوا وصبروا، والذي

أَتَاهُمْ وَصَبَرُوا عَلَيْهِ هُوَ أَنْ ﴿مُسْتَهُمُ الْبِاسَاءِ﴾ مِنَ الْبُؤْسِ ضِدَّ النِّعَاءِ ﴿وَالضَّرَاءِ﴾
 مِنَ الضَّرِّ ضِدَّ السَّرَاءِ. أَصَابَهُمْ ذَلِكَ وَمَسَّهُمْ بِأَمْلِهِ لَا بِمَجَرَّدِ عَرُوضِ ذَلِكَ.
 ﴿وَوَلَّوْا﴾ بِهَيْجَانِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْمَحْنِ وَاضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ، وَلَكِنْ الصَّابِرِينَ
 مِنْهُمْ ثَبَتُوا عَلَى شِدَّتِهِمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَلَمْ يَهِنُوا، بَلْ دَامَ بِهِمْ ذَلِكَ الْحَالُ، وَهُمْ عَلَى صَبْرِهِمْ
 وَثَبَاتِهِمْ ﴿حَتَّى﴾ يَفْزَعَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى نَصْرِ اللَّهِ، وَيَسْتَنْزِلُونَ نَصْرَهُ وَرَحْمَتَهُ
 وَ﴿يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ دَعَاءٌ وَاسْتَنْصَارٌ لِرَغْبَتِهِمْ فِي
 ظُهُورِ دِينِ الْحَقِّ، فَكَوْنُوا مِثْلَهُمْ وَاصْبِرُوا وَاثْبِتُوا - آيَاهَا الْمُسْلِمُونَ - وَلَكُمْ الْبُشْرَى
 بِالنَّصْرِ ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ
 فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِلسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦٥﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ﴾ فِي جَوَابِهِمْ مَا يَعْرِفُهُمْ مَا يُنْفِقُونَهُ، وَهُوَ مَا كَانَ
 خَيْرًا نَافِعًا يَرَادُ بِهِ الْإِحْسَانُ وَوَجْهُ اللَّهِ، وَمَا يَبَيِّنُ مَوَاضِعَهُ لئَلَّا يَكُونَ إِنْفَاقُهُمْ تَضْيِيعًا
 لِلْأَمْوَالِ وَمُسْتَلْزَمًا لِلْمَفَاسِدِ.

﴿مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ﴾ النَّاحِيَتَيْنِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ الْأَبِ وَالْجَدِّ، وَالْأُمِّ
 وَالْجَدَّةِ ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ لِلنَّفَقِ، وَقَدَّمُوا عَلَى مُطْلَقِ الْأَقْرَبِ تَمَّنْ فِي إِعْطَائِهِمْ صِلَةَ
 الرَّحِمِ، بَيَانًا لِأَهَمِّيَّتِهِمْ، وَتَقْدِيمَهُمْ عِنْدَ مَسَاوَاتِهِمْ لِلْفَقِيرِ فِي سَائِرِ الزِّيَّاتِ وَدَوْرَانِ الْأَمْرِ
 ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الْيَتِيمُ هُوَ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَبَ لَهُ ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الْفُقَرَاءُ ﴿وَابْنِ
 السَّبِيلِ﴾ وَهُوَ الْمَحْتَاجُ فِي سَفَرِهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وَإِنْ أَسْرَرْتُمْ بِهِ فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ
 خَافِيَةٌ، وَلَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
 الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلُّوْا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
 مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾

﴿كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ فرض كفاية، لتناولوا فضيلة الجهاد
 ونصر الدين، ويحظى بعضكم بكرامة الشهادة وحياتها الحسنى ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُوَ كُرْهُ
 لَكُمْ﴾ الكُرْهُ بالضم مصدر بمعنى المكروه كراهة طباع، وإن رغب فيه المخلصون في
 نصر الإسلام.

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأحسن أثراً وعاقبة في الدنيا، أو
 في الآخرة، أو في كليهما ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير
 لكم وما هو شرٌّ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بذلك فيختار لكم بلطفه وتوفيقه ما هو خير.
 ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ذكر القمي في تفسيره في سبب
 نزولها ما حاصله: أَنَّ سُرِيَّةَ لِرَسُولِ اللَّهِ بِرَأْسِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَأَقْوَا بِيْطْنِ نَخْلَةٍ

غيراً لقريش، فقتلوا عبداً لله بن الحَضْرَمِيِّ وغنموها وأَسْرَوْا أسيرين، وكان ذلك في أول يوم من رجب من الأشهر الحرم^(١).

وذكر في (الدر المنثور) رواية عن جُنْدَب بن عبد الله، وفيها: أَنَّ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شَكُّوا أَنَّ ذلك اليوم من رجب أو من جُمادى^(٢).

وفيها ذكره عن ابن عباس: أَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ تلك الليلة من جُمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا^(٣).

ونحوه ما رواه عن أبي مالك النِّفَارِيِّ^(٤)، وعن الزُّهْرِيِّ ومُقْسِمٍ^(٥)، واضطرب ما ذكر روايته عن عروة في ذلك وتدافع^(٦).

وفي (الكافي) في الصحيح، عن عمر بن يزيد، عن الصادق (عليه السلام): في أَنَّ اليوم يتبع الليلة الماضية لا الآتية، قال (عليه السلام): لِأَنَّ أَهْلَ بَطْنِ نَخْلَةٍ حَيْثُ رَأَوْا الْهَلَالَ قَالُوا: قَدْ دَخَلَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ^(٧)، انتهى. والرواية تشير إلى القصة.

والمعنى يسألك المشركون على سبيل الإنكار، أو المسلمون على سبيل الاستفهام عن الشهر الحرام قتال فيه، قتال: بدل اشتغال من الشهر الحرام ﴿قُلْ﴾ ما معناه أَنَّ ترك القتال في الشهر الحرام إِنَّمَا هو وسيلة لنوع من احترام الناس وتسكين للشر.

وأما إذا كان الناس هم الهاتكون للحرُمات فأولئك لا حرمة لهم ولا كرامة، فكيف يستتكر قتال المشركين في الشهر الحرام وهم الطواغيت المحادون لله ورسوله والمؤمنين دائماً؟! وفي الشهر الحرام ولهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ﴾ للناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا يزالون على هذا الصّد منذ ظهرت دعوة الإسلام والتوحيد بمحادة لله ﴿وَكُفْرًا

(١) تفسير القمي ١: ٧٦.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٠٠.

(٣) الدر المنثور ١: ٦٠٠.

(٤) الدر المنثور ١: ٦٠٢.

(٥) الدر المنثور ١: ٦٠٣.

(٦) الدر المنثور ١: ٦٠٢.

(٧) الكافي ٨: ٣٣٢/٥١٧.

بِهِ وَ﴿ صَدَّ عَنْ ﴾ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿ فلا يخلون سبيل المسلمين إليه. ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ وهم رسول الله ومن آمن به من أهل مكة، بذلك الإخراج المزعج عداوة لله وتوحيده، ورسوله ودعوته إلى الصلاح ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ مما تحسبونه كبيراً من قتال المشركين في الشهر الحرام.

بل إنهم لا يزالون يُريدون أن يفتنوا المؤمنين عن التوحيد ودين الحق بالمخادعة أو ما تيسر لهم من أنواع الإيذاء ﴿ وَالْفِتْنَةُ ﴾ عن الدين ﴿ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ مع أن غزوههم وقاتلهم إنما كانا لأجل تهديدهم وإرهابهم، وردعهم عن أذى المؤمنين، فإنهم لا يزالون مصرين على عداوة دين الحق ﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ في ضلالهم وغيثهم.

﴿ يَقَاتِلُونَكُمْ ﴾ هذا الثقات إلى خطاب المسلمين، وفيه مناسبة لأن يكونوا هم السائلين عن قتال المشركين في الشهر الحرام ﴿ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ﴾ وهذا غرضهم من قتالهم لكم ﴿ إِنْ أَسْتَطَاعُوا ﴾ أن يدوموا على قتالكم، وفيه بشرى بأنهم لا يستطيعون ولا يدومون.

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ ﴾ جمع باعتبار معنى مَنْ ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وسقطت كأنها لم تكن فلا أثر لها ولا كرامة ولا استحقاق مع الكفر والارتداد ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ باعتبار افتخارهم بأعمالهم في الإسلام أو ترتيب آثارها ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ فإن المرتد الذي يموت على الكفر قد أسقط نفسه بكفره عن أهلته للجزاء، وإن عمل العمل في حينه على وجهه.

﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

في (التيان) والمبسوط: روى أصحابنا أنه - أي قتال المشركين في الأشهر الحرم - باقي على التحريم فيمن يرى لهذه الأشهر حرمة^(١)، وأفتى بذلك في (النهاية)^(٢) ولم يحضرن كتاب الجهاد من خلافه، والرواية هي مضمرة تهذيبه^(٣)

(١) تفسير التبيان ٢: ٢٠٧، المبسوط ٢: ٣.

(٢) النهاية: ٢٩٣.

(٣) التهذيب ٦: ١٤٢/٢٤٣.

والتفسير العياشي) عن العلاء بن فضَّيل، وفي طريقها محمد بن سنان^(١).

وفي (المنتهى): أنه قول أصحابنا^(٢).

وفي (الجواهر): لا خلاف فيه عندنا، وجعل المضمة مجبورةً بذلك^(٣).

ولا يعارضه قتال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عام الفتح هوأزن في شوال والطائف في ذي القعدة، لأن الذين قاتلهم ممن هتكوا حرمة الشهر وبدأوا بالقتال، بل يدل عليه قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سورة براءة: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) والتعليق على ذلك ليس من حيث مهلة العهد، فإنها خاصة، وهذه الآية عامة، وتلك أربعة أشهر، وهذه نحو خمسين يوماً.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حق الإيمان، ويحتمل أن يراد بهم المؤمنون الذين لم يستطيعوا الهجرة حينئذ، وبالمعطوف المهاجرون المجاهدون، ويحتمل أن يراد المهاجرون وكرر لفظ الذين للعناية بهجرتهم وجهادهم.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من بلادهم لأجل الإسلام ونصرته، والهجرة مأخوذ من الهجر، واختصت شرعاً بمن هجر بلاد الشرك في سبيل الإسلام وأتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الفتح.

﴿وَجَاهَدُوا﴾ بذلك جهدهم وطاقتهم، واختص ذلك بالحرب الشرعية ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ جملة أولئك خبر للذين، وكفى برجائهم لرحمة

(١) تفسير العياشي ١: ٢١٥/٨٦.

(٢) المنتهى ٧: ٨٩٨.

(٣) جواهر الكلام ٢١: ٣٢.

(٤) الآية: ٥.

الله معرفة بالله، وازدياداً للخير من فضله ورحمته ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكأنه قيل إن الله يرحمهم لأنه رحيم، فكيف بمن يرجو رحمته بنيته وعمله، بل ويغفر لهم ما سلف، ويقبل توبتهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ
كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخُونَكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرُ حَكِيمٍ ﴿٥٧﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ في (التيان) قال جمهور أهل المدينة: كل ما أسكر
كثيره فهو خمر^(١)، انتهى.

واشتقاقها إما من الاختيار، وهو لازم لنوع المسكرات المائعة، وإما من مخامرتها
للعقل.

واستفاض من رواياتنا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من أهل البيت
أنها أسم لكل مسكر، كما في صحيح ابن الحجاج عن الصادق (عليه السلام)^(٢). ورواية

(١) تفسير التبيان ٢: ٢١٧.

(٢) الكافي ٦: ٣٩٧.

القَمِّي في (تفسيره) عن الباقر(عليه السلام)^(١). والمرسل من طريق، والمُسند المعتبر، عن عامر بن السُّنَط، عن زين العابدين(عليه السلام)^(٢). ورواية الهاشمي، عن الصادق(عليه السلام)، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣). ورواية (الأُمالي) للطوسي بسنده عن النعمان بن بشير، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)^(٤).

كما أحصاه في (الوسائل) في الباب الأوّل من الأشربة، وفي الباب الخامس عشر أيضاً، عن الباقر(عليه السلام)، قال: قال رسول الله: كُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ، وَكُلُّ مَسْكِرٍ خَمْرٌ^(٥).

واستفاضت الرواية عن الصادق والكاظم والرضا(عليهم السلام)، في أَنَّ الْفُقَاعَ خَمْرٌ^(٦).

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ هو القِسَار، وأخطأ في (المصباح) في قوله: الميسر قمار العرب بالأزلام^(٧)، ولم يلتفت إلى قوله(عليه السلام) في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾^(٨) ولو كانت الأزلام والمقامرة بها عين الميسر، لما صحَّ عطفها على الميسر مع الفاصل، لكنّها عطف على باب عطف الخاصّ على العامّ لما فيه من الأهمية. وفي (الكافي) مسنداً عن الكاظم(عليه السلام): الميسر هو القمار^(٩).

وبإسناده عن الباقر(عليه السلام)، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، قيل: يا رسول الله، ما الميسر؟ قال: كُلُّ مَا تَقَامَرُ بِهِ حَتَّى الْكِعَابُ وَالْجَوْزُ. قيل: فما الأزلام؟ قال(صلى الله عليه وآله وسلم): قِدَاحُهُمُ الَّتِي يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا^(١٠).

(١) تفسير القمي ١: ١٨٠.

(٢) تفسير العياشي ١: ٦-١٠/٣٩٣، الكافي ٦: ٣٩٢/٢.

(٣) الكافي ٦: ٣٩٢/٣.

(٤) الأُمالي ١: ٣٩٠.

(٥) الكافي ٦: ٤٠٨/٣.

(٦) وسائل الشيعة ١٧: ٢٨٧ باب (٢٧).

(٧) المصباح المنير ٢: ٤٠٥.

(٨) الآية: ٩٠.

(٩) الكافي ٥: ١٢٤/٩.

(١٠) الكافي ٥: ١٢٢/٢.

وفي رواية العياشي، عن الكاظم (عليه السلام)، عن الصادق (عليه السلام): التُّرد والشطرنج من الميسر^(١).
وفي (الكشاف) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إياكم وهاتين اللعبتين المشؤومتين، فإنَّهما من ميسر العَجَم.

وعن علي (عليه السلام): أنَّ التُّرد والشطرنج من الميسر^(٢).
وفي (الدر المنثور) بسنده عن ابن عباس، وابن عمر: الميسر القمار^(٣).
وقد خبط (الكشاف) هاهنا بقوله أولاً: الميسر القمار، وقوله بعد هذا، فإن قلت: ما صفة الميسر؟ قلت: كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلَام، إلى آخره. وقوله بعد هذا: وفي حكم الميسر أنواع القمار من التُّرد والشطرنج^(٤)، انتهى.
هذا، وإنَّ أسلوب الجواب في هذه الآية والنظر إلى قوله (نار) في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَزْلَامُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والآية التي بعدها، ليشعر بأنَّهم سألوه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم يذكرون منافعها للناس في شرب الخمر وبيع القمار ونحو ذلك ممَّا يسوِّله الهوى، فجاء الجواب على سبيل التساهل والتأكيد في الحجة على تحريمها.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ﴾ بالتنكير إشارة إلى مجهولتيها؛ وهو أنها ﴿لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا﴾ في الدنيا في الصِّحة والشرف والمعيشة والسلام مع الناس وفي الآخرة ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ وحقيق في لطف الله ورحمته ونظره إلى مصالح عباده، وتكميلهم وتهذيبهم في شريعة الحق أن يحرمها لأجل إثمها الكبير. ﴿وَيَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ عند فقرهم وغناهم ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾ كلٌّ بحسب حاله، ففي (الكافي) مسنداً عن الصادق (عليه السلام): الغفو الوسط^(٥)، أي المقدار

(١) تفسير العياشي ١: ٣٦٢/١٠٦.

(٢) تفسير الكشاف ١: ٢٦٢.

(٣) الدر المنثور ١: ٦٠٦.

(٤) تفسير الكشاف ١: ٢٦٦.

(٥) الكافي ٤: ٣/٥٢.

المتوسط بين ما يكون إسرافاً وما يكون من البخل بحسب حال الشخص.

ونحوه رواية العياشي، عن جميل، عنه (عليه السلام).^(١)

وفي روايته عن عبد الرحمن، عنه (عليه السلام)، قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢).

وعن يوسف، عن الصادق والباقر (عليهما السلام)، قال: الكفاف^(٣).

وفي رواية أبي بصير: القصد^(٤).

ولا يخفى أنه لم يقيد الإنفاق بكونه في سبيل الله، بل هو مطلق الإنفاق.

وقال أساء بن خارجة الفزاري^(٥) لزوجه:

خُذِي الْمَعْفُومِي تَسْتَدِيمِي مَوْدِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرِي حِينَ أَغْضَبُ^(٦)

﴿كَذَلِكَ﴾ خطاب لرسول الله ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ جمع الضمير باعتبار أن

البيان يشمل الأمة ﴿الْآيَاتِ﴾ في أمر الخمر والميسر والنفقة وغيرها ﴿لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ﴾ لناية أن تتفكروا باختياركم فتأخذوا بحظكم من الرشد ﴿فِي﴾ أمور

﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لتتبعوا رشدكم، وتعملوا بما فيه صلاح الدارين.

﴿وَسْتَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾ أمر ﴿الْيَتَامَى﴾ في مخالطتهم في أموالهم، ففي (تفسير

القمي) في الصحيح، عن الصادق (عليه السلام): أنه لما نزل قوله تعالى: (فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(٧)

(١) تفسير العياشي ١: ١٠٦/٣٦٤.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٠٦/٣٦٥، الآية في سورة الفرقان ٢٥: ٦٧، فسر عليه السلام الآية مورد التفسير بآية أخرى من القرآن.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٠٦/٣٦٦.

(٤) تفسير العياشي ١: ١٠٦/٣٦٧.

(٥) وهو أساء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري، تابعي، من أهل الكوفة، كان سيد قومه ومقدماً عند الخلفاء، وتوفي سنة (٦٦هـ)، المعتبر: ١٥٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢٦٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٨٤١/٥٣٥.

الأعلام للزركلي ١: ٣٠٥.

(٦) السورة: المائدة والسدة والمهاج.

(٧) الآية: ١٠.

أخرج كل من كان عنده يتيم، وسألوا رسول الله عن إخراجهم، فأنزل الله: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾^(١).

وفي معناها رواية (الدر المنثور) المصححة، عن ابن عباس^(٢):

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ بتولي أمرهم، وحفظ أموالهم، والإنفاق عليهم منها، وحسن تربيتهم وتأديبهم وتعليمهم ﴿خَيْرٌ﴾ من إخراجهم وضياع أموالهم وأديبهم. ﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوا فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَالِ﴾ فإخوانكم في الدين، أو في القبيلة، أو في النسب القريب، ولا بأس بمخالطتهم إذا صافيتهم مصافة الإخوان وأصلحتهم. ﴿وَاللَّهُ يَتْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ الذي يأكل أموال اليتامى ظلماً أو يضيعها ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ الذي يخالطهم بالإحسان والإصلاح، فاطلبوا الجزاء واحذروا العقاب ممن لا تخفى عليه خافية.

وقد روي في (الكافي) والتهذيب وغيرهما شيء من وجوه مخالطتهم فليراجع^(٣).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ أي حللكم على ما فيه مشقة عليكم، وكلفكم به من إصلاح امر اليتامى وعدم مخالطتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَزِيرٌ﴾ في إرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ في شريعته، يجريها على حكمة العدل والتيسير.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ

(١) تفسير القمي ١: ٧٢.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٦٢.

(٣) الكافي ٥: ١٢٨ - ٥ و ١٢٩ باب (٤٤)، التهذيب ١: ٣٣٩ - ١٤٦/٣٤١ - ٩٥٢ - ٩٤٩/٢٤٤.

وَبَيِّنْ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣١﴾

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنُ﴾ في (الذّر المنثور) مما أخرجه البخاري وغيره، عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية استشهد لتحريمه بهذه الآية^(١).

وفي (التيان): وهذه الآية على عمومها في تحريم مناهكة جميع الكفار، وليست منسوخة ولا مخصوصة^(٢).

وتبعه في (مجمع البيان) على هذه العبارة إلى آخرها، وزاد بقوله: وهي عامة عندنا، وأكد ذلك في آخر كلامه بقوله: وهو مذهبننا^(٣).

وفي هذا شك، فإن الإجماع الذي ادّعاه في (الانتصار) على حظر نكاح الكتابيات^(٤)، يمكن تأويله بكثير من إجماعاته، لأنّ القمي قال في (تفسيره): إنّ الآية منسوخة بقوله (صلى): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٥) ونصّ على الحلّ والنسخ في تفسير هذه الآية، وهي الخامسة من سورة المائدة^(٦).

وفي (المبسوط) نسب التحريم إلى المحصلين من أصحابنا، أو إلى بعضهم، وقال: وقد أجاز أصحابنا كلّهم التمتع بالكتابيات ووطأهن بملك اليمين^(٧).

وتبعه على ذلك في (المجمع) في تفسير قوله (صلى): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٨).

(١) الذر المنثور: ١: ٦١٥.

(٢) تفسير التيان: ٢: ٢١٧.

(٣) مجمع البيان: ٢: ٥٦٠.

(٤) الانتصار: ١١٧.

(٥) تفسير القمي: ١: ٧٣.

(٦) تفسير القمي: ١: ١٦٣.

(٧) المبسوط: ٤: ٢٠٩ و ٢١٦.

(٨) مجمع البيان: ٣: ٢٥١.

وقد حكى جواز الدوام أيضاً عن الحسن والصدوقين من القدماء^(١).
 ووجه الكلام هنا أَنَّ هذه الآية وكذا قوله (نار) في سورة المحتنة: ﴿وَلَا تَمْسُكُوا
 بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾^(٢) هل هما منسوختان بقوله (نار) في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ
 الطَّيِّبَاتُ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ﴾^(٣) أم هذه هي المنسوخة؟

وقد اختلفت الروايات في هذا الشأن، وتحرير الكلام في ذلك موكول إلى
 مباحث الفقه، ويمكن أن يقال: إن آية المائدة مختصة بتحليل الكتابيات بنكاح المتعة،
 وذلك لاشتراطه بقوله (نار): ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فإن هذا الشرط مختص
 بنكاح المتعة، لا يقال: إن هذا منقوض بورود هذا الشرط في الآية العاشرة من سورة
 المحتنة في نكاح المؤمنات المهاجرات^(٤)، لأننا نقول: إن ذلك في آية المحتنة يمكن كما
 هو الراجح أن يكون بياناً لأن لا يسقط المسلمون مهورهن بالمرّة اكتفاءً بما أمروا به
 من إعطاء أزواجهن الأول من المشركين ما أنفقوا عليهن من المهر، وحاصل ذلك أن
 تزوجهم للمهاجرات يكون على عادة الزواج النوعية، بدون مقاصة^(٥) هنّ بما أُعطي
 لأزواجهن الأول من أجلهنّ، ولا إسقاط لمهورهنّ.

﴿وَلَا مَـمْنَةٌ خَيْرٌ لَّكُمْ فِي الزَّوْاجِ﴾ ﴿مِنْ﴾ حرّة ﴿مُشْرِكَةٍ﴾ مِمَّا كَانَتْ
 ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ورغبت فيها.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ نساءكم ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ قيل ذلك نظراً إلى العادة من أن المرأة
 يزوجه الولي، فيحرّم أيضاً على المؤمنة أن تزوج نفسها من المشركين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾
 وَلَقَدْ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ حَرٍّ ﴿مُشْرِكٍ﴾ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني المشركين نساء ورجالاً ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ وإنّ وسوسة

(١) جواهر الكلام ٣٠: ٣٦.

(٢) الآية: ٨٠.

(٣) الآية: ٥.

(٤) قوله (نار): ﴿وَلَا تَنْكِحُوا عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

(٥) قاضيه مقاصة: كان له دين مثل ما على صاحبه، فجعل الدين في مقابلة الدين «المعجم الوسيط ٢: ٧٣٩».

الخليط من نحو الزوج أو الزوجة من المشركين لها أثر سيء مخوف يجب التحذّر منه.
﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ ومن ذلك أن يأمركم بأن تتابعوا عن وسوسة الخليط
 المشرك **﴿و﴾** يدعوكم إلى نيل **﴿الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾** في ذلك بسبب هدايته وإرشاده لكم،
 ونوفيقكم للأعمال الصالحة. **﴿وَيُتَيْنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾** بها فيه هداهم والإشارة إلى
 الحكمة **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** أي لغاية أن يتذكروا باختيارهم فتنفعهم الذكرى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي
 الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
 فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ
 وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١٥٦﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ
 أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
 مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ المحيض: مصدر لحاضت المرأة، إذا أخذها الدم
 المعروف المعتاد للنساء، وبجيء المحيض اسماً لزمان الحيض ومكانه **﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾** أي
 قذر كما تقدّم في قوله (عالي): **﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾** ^(١) أَنَّ الْأَذَى الْقَمَلُ.
 ولا بدّ في قوله: **﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾** من نحو من الاستخدام، فإنّ الحيض بمعنى
 المصدري ليس قذراً يمتنّبه الرجال، وإنّما القمّر والأذى هو الدم، وبمعنى هذا
 الاستخدام بشدة الملابس، والاستغناء به عن التصريح باسم دم الحيض المستفاد.
﴿فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي لا تأتوهنّ في محلّ الحيض والقذارة، وهو
 الفرج، ويمكن حمل المحيض على اسم الزمان، فيجب حمل الاعتزال على اعتزال

مخصوص يسبق إليه الذهن من المقام، وهو الجماع في الفرج، ويوضحه التنفير بكون دم الحيض أذى وقذارة، فَرَعَ عليه الأمر بالاعتزال.

وأما مطلق اعتزال النساء في زمان الحيض، فهو مخالف لإجماع المسلمين، ودعوى الأخذ بالإطلاق بعد التخصيص بما دلّ عليه الإجماع يلزمها تخصيص الأكثر، وهو مُستَهَجَن، وأما اعتزال ما تحت المِئْزَر كما يقول أبو حنيفة وأبو يوسف فلا يساعده وجه من وجوه الآية الكريمة، وحديثهم عن عائشة متعارض^(١).

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ بالجماع، وهو تأكيد للأمر بالاعتزال ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بتخفيف الطاء كما هو المرسوم في المصاحف المتداولة بين المسلمين يداً عن يد، وعليه قراءتهم، ولا عبرة بما خرج عن ذلك من بعض القراءات كما ذكرنا في الفصل الثاني من المقدمة.

والمعنى: حَتَّى ينظف من ذلك الأذى والقذارة بانقطاع الحيض، ونقاء المحل الذي هو الغاية لوجوب الاعتزال وعدم القرب، وهذا هو المناسب لتفريع الأمر بالاعتزال على كون دم الحيض أذى وقذارة وتعليقه به، وعلى ذلك إجماع الإمامية وأحاديثهم، ووافقهم أبو حنيفة وأصحابه إذا انقطع الدم على العشرة دون ما قبلها^(٢)، وفي هذا التفصيل اضطراب ظاهر.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ لا يلزم أن يكون هذا التفريع تكراراً في بيان الغاية المذكورة في «حَتَّى يَطْهُرْنَ» بل اللازم في قانون المحاورة بحسب النظر إلى «يَطْهُرْنَ» بالتخفيف و«تَطَهَّرْنَ» بالتشديد أن يكون تفرعاً لأمر آخر وراء تلك الغاية، وهو أن الإباحة بالمعنى الأعم المضاد للحرمة، تحصل عند غاية التحريم ووجوب الاعتزال، وهو النقاء من الحيض، وإن الوطء الذي يؤمر به ويطلب لبقاء النوع وحسن الألفة بين الزوجين، أو يكون مباحاً بالمعنى الأخص، فهو إذا تَطَهَّرْنَ من الأقذار، بأن غسلن

(١) كتاب الخلاف ١: ٦٩/٢، الكشاف ١: ٢٦٥، بداية المجتهد ١: ٥٨، تفسير القرطبي ٣: ٨٧، كنز العرفان ٤٣: ١.

(٢) الكافي ٥: ٥٣٩/٢، التهذيب ١: ١٦٦/٤٧٧ - ٤٧٧، كتاب الخلاف ١: ٧٠/٣، الكشاف ١: ٢٦٦، بداية المجتهد ١: ٥٩، كنز العرفان ١: ٤٣ - ٤٥، جواهر الكلام ٣: ٢٠٥.

فروجهن من آثام الدم، ولو بغسل الميض، وعلّق هذا على تطهرهن جرياً على الغالب، وإلا فالغرض يحصل وإن سقطن في الماء مثلاً بدون اختيارهن.

﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ في الآية بالاعتزال عنه، وعليه رواية (الثور المنثور) عن ابن عباس^(١)، وهو المناسب لتعريف ما يؤتى منه، ولا يضر في ذلك التعبير بلفظ «مِنْ» كما حكاه في (التيبان) عن الفراء.

وحكى في (التيبان) التفسير بقولهم: من حيث ما أمر الله به من النكاح دون الفجور، كما عن أبي حنيفة، أو من حيث أباحه الله دون إثبات الزوجة الصائمة أو المحرمة مثلاً، كما عن الزجاج^(٢). والقولان بعيدان من وجوه. ولقد أغرب من قال: إن الأمر في «أَمَرَكُمُ اللَّهُ» هو الأمر التكويني^(٣)، هذا وإن إباحة الانثيان من الفرج بعد الأمر باعتزاله لا تدلّ على انحصار الإباحة بالوطء فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ في (الفقيه) و(العلل) و(الحصائل) و(الكافي) و(تفسير العياشي) في رواياتهم ذكر المتطهرين من الغائط بالماء، وأن الآية نزلت في ذلك^(٤)، ولعله باعتبار بعض المصاديق.

﴿نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ﴾ الحرث في الأصل: الكَرَاب، مصدر حَرَّتْ الأرض أي كَرَبها، ثم استعمل في الأرض التي تُحَرث كما في هذه الآية، ثم استعمل في نبات الأرض المسبّب عن الحرث كما في قوله (ما): «يُمْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ»^(٥).

وفي الآية شبه تمّعت الرجل بزوجه بحرث الأرض، والزوجة بالأرض التي تُحَرث فسميت حرثاً، أي محلّ تمّعت لكم، كما أن الأرض محلّ حفر وحرث، وليس المراد أن إنيان

(١) الدر المنثور ١: ٦٢٥.

(٢) تفسير التبيان ٢: ٢٢٢.

(٣) تفسير المنار ٢: ٣٦٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه ١: ٥٩/٢٠، علل الشرائع: ١/٢٨٦، الحصال: ١٩٢/٢٦٧، الكافي ٣: ١٨/١٣، تفسير

العياشي ١: ١٠٩/٣٢٦ و٣٢٨.

(٥) البقرة ٢: ٢٠٥.

المرأة لا يحلّ إلا حيث يكون إتيانها زرعاً للنسل، حتى لو قلنا: إن معنى «أنتي شتتم» هو أنتي وقت شتتم، أو في القبل سواء كان من أمام أو من خلف، فإن الآية على هذين التقديرين ساكنة عن تحریم ما عداها، حتى لو قلنا: إن الأمر في قوله (نار): ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ﴾ للوجوب^(١)، كيف ولا خلاف بين المسلمين في جواز إتيان اليانسة ومعلومة العقم، وإتيان المرأة مطلقاً في أعكانها^(٢) وبين فخذها وساقها حتى ما بين أليتيها مثلاً؟.

﴿فَاتُوا﴾ الأمر للإباحة ﴿حَرْثَكُمْ أَنْتِي شِتْتُمْ﴾ أين شتتم، وقد أنكر بعضهم بجيء «أنتي» في اللفظة بمعنى كيف، أو بمعنى أي وقت، والأول متيقن في اللفظة، والأخيران شكك فيهما.

والظاهر أن «أنتي» الاستفهامية مساوية في المعنى للشرطية، وكلما جاء في القرآن من الاستفهامية صالح لأن يراد منه المكان والجهة، مع أن منها ما لا يصلح أن يكون بمعنى كيف، كما في قوله (نار): في سورة آل عمران: ﴿قُلْتُمْ أَنْتِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) و: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنْتِي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٤).

وأما بمعنى أي وقت، فليس في القرآن ما يصلح له، وفي (الدر المنثور) في ذكر القول الثاني من المسألة ذكر من أخرج عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزلت: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِي شِتْتُمْ﴾^(٥).

وذكر من أخرج اثني عشرة رواية عن عبدالله بن عمر: أن الآية نزلت

(١) في (الدر المنثور): أخرج الحاكم عن ابن عبد الحكم: أن الشافعي ناظر محمد بن الحسن في ذلك - أي في حرمة إتيان الزوجة في دبرها - فاحتج عليه ابن الحسن بأن الحرث إنما يكون في الفرج، فقال له: فيكون ما سوى الفرج محرماً، فالتزمه، فقال: أرأيت لو وطأها بين ساقها أو في أعكانها، أي ذلك حرث؟ قال: لا، قال: أضرعتم؟ قال: لا، قال: فكيف تحتج بها لا تقول به؟ «منه نثر سري».

(٢) الأعكان: الأطواء في البطن من السمن «لسان العرب - عكن - ١٣: ٢٨٨».

(٣) الآية: ١٦٥.

(٤) الآية: ٣٧.

(٥) الدر المنثور ١: ٦٣٧.

رخصةً في وطء النساء في أدبارهن^(١).

وروي عن ابن عبد البر: أنَّ الرواية عن ابن عمر بهذا المعنى صحيحة معروفة مشهورة^(٢)، وأورد عن مالك ما يكذب رواية الخلاف عن ابن عمر، وضححه الدارقطني عن مالك^(٣).

وفي (تهذيب الشيخ) في الصحيح، عن الصادق (عليه السلام): أنه استشهد للحل بهذه الآية، ولم يذكر أنها نزلت في ذلك^(٤)، وكذا رواية العياشي، عن زرارة، عن الباقر (عليه السلام)^(٥).

والظاهر أنَّ استشهداهما (عليهما السلام) إنما هو بعمومها لا بنزولها في هذا الشأن، وملخص الكلام في المسألة أنَّ قول نافع بالجواز معروف، وحكاية الطحاوي وحجاج بن أرطاة، وعن مالك روايتان.

وفي (الخلاف) عن المزني: قال بعض أصحابنا: حرام، وقال بعضهم: حلال، ثم قال: وآخر ما قال الشافعي: لا أرخص فيه^(٦).

وذكرت في (الدر المنثور) وغيره رواية الجواز عن أبي مليكة، وعن عبدالله بن القاسم، قال: ما أدركت أحداً أقنعتني به في ديني يشك أنه حلال، يعني وطء المرأة من دبرها، ثم قرأ: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ ثم قال: وأي شيء أبين من هذا؟.

وفيه: أخرج الطحاوي والحاكم في (مناقب الشافعي) والخطيب عن محمد بن عبدالله بن الحكم: أنَّ الشافعي سئل عنه، فقال: ما صحَّ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في تحليله ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال^(٧).

وفيه أيضاً بعد أن ذكر روايات القول في التحريم: قال الحفاظ في جميع

(١) الدر المنثور ١: ٦٣٥ - ٦٣٨.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٣٧.

(٣) التهذيب ٧: ٤١٤/١٦٥٧.

(٤) غير القاسي ١: ٣٣٧/١١١.

(٥) الخلاف ٢: ١١٧/١١٧.

(٦) الدر المنثور ١: ٦٣٨.

الأحاديث المرفوعة - يعني المسندة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - وعدتها نحو عشرين حديثاً: كلها ضعيفة، لا يصح منها شيء، والموقوفة - يعني ما وقف سنده على الصحابي أو التابعي - هو الصحيح، وقال الحافظ بن حجر في المرفوع^(١): منكر لا يصح من وجه، كما صرح بذلك البخاري والبخاري والنسائي، انتهى^(٢).

أقول: وذهب أصحابنا إلى جوازه على كراهية شديدة^(٣)، وهي المحصل من أحاديثنا ووجه الجمع بينها، وبذلك يستنكر أن يكون نزول الآية في إباحته، نعم لا بأس في نزولها للعموم.

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي هذه أحكام ما يعود إلى دنياكم، وقدموا لآخرتكم من الخيرات والأعمال الصالحة ما ينفعكم فيها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإن خير الزاد التقوى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أي وليكن عملكم عمل العالم المتيقن بأنه يموت ويحشر ويلقي ربه يوم الحساب والجزاء، لا عمل الغافل مع إقراره بالمعاد في إسلامه. ﴿وَيَشْرِكْ﴾ يا رسول الله ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ حق الإيمان والثابتين عليه بحيث استحَقوا الوصف بذلك.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا

(١) في المصدر: في ذلك.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٣٤ - ٦٣٥.

(٣) كتاب الخلاف ٢: ١١٧/١١٧، شرائع الإسلام ٢: ٢١٤.

الطَّلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ العُرْضَةُ: ما تكثر ملاقاته ومصادفته، كما يقال: الإنسان عُرْضَةُ للبلاء، فلا تُكثروا أيمانكم بالله بحسب كل ما يسنح لكم، ويقولون له في الرضا والغضب، فتقولون في ذلك: والله لا أعطي فلاناً، والله لا أنفق على الفقراء، والله لا أكلّم أخى، والله لا أزور أُمي، والله لا أصلح بين الناس.

وفي رواية العياشي، عن منصور بن حازم، عن الصادق (عليه السلام)، وعن محمد بن مسلم، عن الباقر (عليه السلام)، في الآية: يعني الرجل يحلف أن لا يكلم أخاه وما أشبه ذلك، أو لا يكلم أمه^(١).

﴿أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي لأن تبروا وتتقوا وتصلحوا تملأاً وبيئاً لبعض ما يكون وجهاً وغاية للنهي في «لَا تَجْعَلُوا» وإن كان هناك وجه آخر لتعظيم الله وإجلاله، ففي (الكافي) في صحيح الخزاز، عن الصادق (عليه السلام): لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾^(٢).

وربما كان هذا الوجه يدخل في البر والتقوى، فيكون النهي عن الحلف المعارض للبر والتقوى والإصلاح كناية عن عدم انعقاده في هذه الموارد، ففي (الكافي) عن إسحاق بن عمار، عن الصادق (عليه السلام) - في الآية - قال: «إذا دُعيت لتصلح بين اثنين فلا تقل: عليّ يمين أن لا أفعل»^(٣).

وشبه ذلك ما أورد روايته في (الدر المنثور) عن ابن عباس^(٤).
وقيل: المعنى لا تجعلوا الله بواسطة الحلف به مانعاً وحاجزاً عما حلفتم على تركه

(١) تفسير العياشي ١: ١١٢/٣٣٩.

(٢) الكافي ٧: ٤٣٤.

(٣) الكافي ٧: ١٦٧.

(٤) الدر المنثور ١: ٦٤٢.

بتسمية المحلوف على تركه يميناً، وهذا مرجع ما ذكره في (التيبان)^(١) أولاً، وصريح ما اقتصر عليه في (الكشاف)^(٢) والاول أظهر، وأنسب بالمروي، وأجمع.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لَأَيَانِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم وما يصلحكم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي بسبب اللغو في أيمانكم، إذا خالفتم اليمين أولم يطابق الواقع، واللغو: ما لم يقصد به عقد اليمين، بل يجري على اللسان توكّؤاً في الكلام، كما ترى الرجل تقول له: ماذا فعلت اليوم؟ فيقول: والله جلست من النوم، والله خرجت إلى المحلّ الفلاني، بلا قصد لليمين.

وفي (مجمع البيان) وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)^(٣).

وقد تنجر العادة في الكلام إلى «لا والله، بلى والله»، ففي (الكافي) عن مسعدة، عن الصادق (عليه السلام)، في الآية: اللغو قول الرجل: لا والله، بلى والله، ولا يعقد على شيء^(٤).

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الآثام، فيها عقدتم عليه الأيمان وكذبتم أو حنثتم فيه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ إِنْ تَتُوبَ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة لعلكم تتوبون.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ الإيلاء: الحلف من الألية أي الحلفة، ويعرف من تنمّة الآية وباقى القران أنه الحلف على ترك وطء الزوجة مطلقاً أو مدة معينة، والموضوع لأحكام الآية هو ما يزيد على أربعة أشهر، والجارّ والمجرور خبر مقدم متعلّق في التقدير بـ«حاصل، وكان» ونحو ذلك.

﴿مِنْ نِّسَائِهِمْ﴾ أي من جانب نساءهم وحقوقهنّ في المعاشرة بالمعروف، والجارّ والمجرور متعلّقان بحاصل ونحوه.

﴿تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تربص: مبتدأ مؤخر، فلا حقّ للزوجات فيها في

(١) تفسير النبيان ٢: ٢٢٥.

(٢) تفسير الكشاف ١: ٢٦٧.

(٣) مجمع البيان ٢: ٥٦٨.

(٤) الكافي ٧: ٤٤٣/١.

المطالبة بالجناح، ولهن المطالبة بعدها، فإن سكتن أو رضين فلا حرج على الزوج، لأن الأمر في جماعهن من المحقوق لا التكليف، فإن انتقضت الأربعة أشهر وطالبن، أو طالبن بعد ذلك ﴿فَإِنْ قَامُوا﴾ أي رجعوا عن يمينهم إلى جماعهن ﴿فَإِنْ أَلَّه﴾ يغفر لهم الحنث ومخالفة اليمين رحمة بالزوجين في حسن اجتماعهم ونظام أمر الأولاد، فإنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أو أوقعوه ﴿فَإِنْ أَلَّه سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

والآيتان تدلان على أن المولي إذا طالبت المرأة بحقها بعد الأربعة أشهر ينحصر أمره ويدور بين أن يفيء أو يطلق، فإن فاء ووطئ لزمته كفارة جنث اليمين المذكورة في سورة المائدة في الآية (التاسعة والثمانين). وليست اليمين بالنسبة إلى ما بعد الأربعة أشهر يميناً على ظلم، لكي تنحل حينئذ وتسقط كفارتها، وذلك لأنه يمكن للمولي أن يخرجها عن الظلم بأن يطلق، وعلى هذا كله جاءت أحاديث الفريقين^(١).

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ
لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا
وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ بالطلاق المشروع ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ جملة خبرية يراد بها الأمر، وذلك أبلغ من الإنشاء في الطلب والإيجاب، لصوغه بقالب أن المطلوب منه يقع منه

ذلك ولا يكذبك ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ وبمسكنها عما يقتضيه الحال وطبائهن من الطموح إلى الزواج ومقدماته، ولا يخرجن من رعاية الزوج وحيطته ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ القرء يأتي للظهر والحيض، وهو هنا الظهر، وعليه إجماع الإمامية وحديثهم، وقول المالكية والشافعية^(١).

والمروى عن عائشة وزيد بن ثابت وابن عمر، كما في (الدر المنثور). وفيه: قال ابن شهاب: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول هذا، انتهى^(٢).

ولقوله (نار) في أول سورة الطلاق الموسومة بأنها مكعبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(٣) أي في عدتهن التي تراد لاستبراء الرحم، وعندها

(١) تفسير التبيان ٢: ٢٣٧، كتاب الخلاف ٢: ٢/٣٠٩، مجمع البيان ٢: ٥٧٣، بداية المجتهد ٢: ٨٨، المغني لابن قدامة ٩: ٨٣، كنز العرفان ٢: ٢٥٦، تفسير البرهان ١: ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٥٩، قال الأعشى في خطابه لكثير الغزو:

لَمَّا ضَاغَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ.

يريد أن أطهار نساته ضاعت لما فات فيها من الجماع والحيل، ومن الغريب تأويل (الكشاف) [٢٧١: ١] للقرء في شعر الأعشى بالعدة.

وفي (المصباح) { - قرئ - ٢: ١٨٢ } عن ابن فارس: يقال: إنه أي «القرء» للظهر - أي بحسب الوضع وذلك أن المرأة الطاهر كان الدم اجتمع في بدنها وامتسك.

وفي (لسان العرب) { - قرأ - ٩: ١٣١ } قال أبو إسحاق: إن الذي عندي في حقيقة هذا أن القرء في اللغة الجمع، فإنما القرء اجتماع الدم في الرحم، وذلك إنما يكون في الظهر.

وأقول: إن المحصل من معناه بحسب موارد الاستعمال هو ما يناسب الجمع والاحتواء والضم، ففي معلقة عمرو بن كلثوم: [شرح المعلقات السبع: ١٦٩].

بِرَاضَعِي غِيظَلٍ أَدْنَاءَ بَكْرٍ
هَجَانِ السَّلَوِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا

أي لم تضم جنيناً ولم تحتو عليه.

وفي (لسان العرب) { - قرأ - ٩: ١٣١ } وَلَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا وَلَا نَمًا.

ومنه قولهم: أقرأت النجوم، إذا غابت، أي دخلت فيها يضمها عن الظهور، ويكون استعمال القرء بالحيض مجازاً بعلaque أن الدم الخارج فيه كان مفروءاً في الجسم أو الرحم، وأما أن معنى القرء الوقت، فلم يعرف له شاهد، وحمل الآية عليه تصف وشذوذ، «متدثر سز».

(٣) الآية: ١.

كما يُقال: «لِدَ لَسْتُ خُلُونِ مِنَ الشَّهْرِ، أَوْ لِسَبْعٍ بَقِيْنَ مِنْهُ» .
وقد انعقد الإجماع من المسلمين على أَنَّ طلاق السُّنَّة هو ما كان في الطُّهْرِ^(١)،
وبه جاء قول الرسول الأكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لابن عمر حين طَلَّق امرأته وهي
حائض: ما هكذا أَمَرَ اللهُ، إِنَّا السُّنَّةُ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الطُّهْرَ اسْتِقْبَالًا.
وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَطْلُقَهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَهَا فَذَاكَ
الطَّلَاقُ لِلْعِدَّةِ، كما أنزل اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ).
أو قَتَلَ الْعِدَّةَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تَطْلُقَ لَهَا النِّسَاءُ، كما في (جوامع الجهور)
(وجوامعنا) في الحديث^(٢).

وإِطْلَاقُ حُكْمِ الْمُطَّلَقَاتِ هُنَا مَقْبَدٌ بِحُكْمِ الْآيَةِ النَّاسِخَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ سُورَةِ
الْأَحْزَابِ، وَالرَّابِعَةِ مِنْ سُورَةِ الطَّلَاقِ، مَعَ تَأْكِيدِهَا بِرَوَايَاتِنَا فِي الْيَأْسِ بِغَيْرِ رَيْبَةٍ^(٣).
«وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» يَعْنِي أَنَّ مَنْ كَانَتْ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا تَحْتَرِئُ عَلَى كِتَابَنِ مَا
خَلَقَ اللهُ فِي رَحِمِهَا، وَهَذَا الزَّجَرُ الشَّدِيدُ يَنْسَبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى كِتَابَنِ الْحَمْلِ، إِمَّا لِأَنَّ
تَخْرُجَ مِنَ الْعِدَّةِ فِي ظَاهِرِ الْحَالِ عَاجِلًا، أَوْ لِأَنَّ تَكْتُمَ لِكِرَاهِيَةِ انْتِسَابِهِ لِأَبِيهِ، أَوْ لِغَيْرِ
ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْكِتَانِ.

وَأَمَّا كِتَابَنِ الْحَيْضِ فِي أَيَّامِ الْعِدَّةِ وَبَعْدَ آخِرِهَا لِأَجْلِ الْإِزْدِيَادِ مِنْ مَدَّةِ الْعِدَّةِ
لِتَأْكُلَ النُّفْقَةُ، وَتَأْمَلَ الرَّجْعَةُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ الْوَاقِعِيَّةِ، فَهُوَ بَعِيدٌ، لاسْتِزَامِهِ أَنْ
تَكُونَ صِلَةُ الْمَوْصُولِ وَهِيَ «خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ» وَارِدَةً بِاعْتِبَارِ مَا مَضَى عَنْ زَمَانِ
الْكِتَانِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ.

إِذْنًا، فَالْمُنَاسِبُ لِأَسْلُوبِ اللَّفْظِ وَظَاهِرِهِ وَذَلِكَ الزَّجَرُ الشَّدِيدُ هُوَ كِتَابَنِ الْحَمْلِ،
وَيُؤَيِّدُهُ رَوَايَةُ (الْبَرْهَانِ) وَ(الْوَسَائِلِ) عَنِ الْعِيَّاشِيِّ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ
الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فِي الْآيَةِ: لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكْتُمَ الْحَمْلَ، إِذَا طَلَّقَتْ وَهِيَ حُبْلَى، وَالزَّوْجُ

(١) الخلاف ٢: ٢٢٤ و ٢٢٩، بداية المجتهد ٢: ٦٣، المغني لابن قدامة ٨: ٢٢٥.

(٢) سنن الترمذي ٣: ١١٧٥/٤٧٨ و ١١٧٦/٤٧٩، السنن الكبرى ٧: ٣٢٣، وسائل الشريعة ١٥: ٣٤٤، باب (١).

(٣) وسائل الشريعة ١٥: ٣٠٥، باب (٢٥).

لا يعلم^(١).

ولا يمكن الجمع بين المعنيين، من هذا اللفظ، كما ذكر في (الدر المنثور) روايته عن ابن عمر ومجاهد^(٢)، وذلك لأن كتمان ما خلق الله في أرحامهن من الحيض إنما هو باعتبار خروجه من الرحم، ويكون المراد من خلقه في أرحامهن إنما هو باعتبار ما مضى، فالكلام على هذا بمعنى أن يقال: ولا يكتمن ما خرج من أرحامهن مما خلق فيها قبل ذلك، وكتمان الحمل إنما هو باعتبار استقراره في الرحم، واللفظ الواحد لا يصلح للجمع بين هذين اللحاظين والاعتبارين.

وفي (تفسير القمي) في الآية، قال: لا يحل للمرأة أن تكتم حملها أو حيضها أو طهرها، وقد فوض الله تعالى إلى النساء ثلاثة أشياء: الطهر، والحيض، والحمل^(٣). انتهى.

ولا يظهر من المقام كونها رواية واردة عن إمام في بيان المراد بها خلق الله في أرحامهن إن لم يظهر خلاف ذلك، فضلاً عما بيناه من أنه لا يمكن الجمع بين الأمرين في اللفظ الواحد.

وفي (مجمع البيان) نسب ما ذكرناه من (تفسير القمي) إلى الرواية عن الصادق (عليه السلام)^(٤)، ولم نجد لها أثراً ولعله اعتمد على (تفسير القمي).

﴿وَيَعُولُنَّ﴾ جمع يعول، والتاء لتأنيث الجمع، ومعنى البعل: الزوج، مع معنى التمتع بزوجه وملاعبتها ومباشرتها، والبعل والمباغلة: مباشرة النساء وملاعبتهن. ولعل العدول عن التعبير بالأزواج إلى التعبير بالمعولة لإخراج غير المدخول بها، وللإيماء إلى الوجه في أنهم ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ نظراً إلى الحالة التي قبل الطلاق من الزوجية، ولا حق للمرأة في معارضة البعل في ردّها ﴿فِي ذَلِكَ﴾ التبرص ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ لا مضارة.

(١) تفسير البرهان ١: ٢٢٠/٨٤، وسائل الشيعة ١٥: ٤٢٠/٨١.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٦٠.

(٣) تفسير القمي ١: ٧٤.

(٤) مجمع البيان ٢: ٥٧٤.

وجيء بلفظ «إن» لذكر الحالة التي يتحقق بها الرد وإرادته، كما في قوله (ما):
 ﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتَابَتَكُمْ عَلَى الْبَيْعِ إِنِ ارْتَضْتُمْ مَخَصَّنًا﴾^(١). وهذا الحكم في الرد مقيد بحكم
 المختلطة كما في الآية الآتية، وحكم المطلقة ثلاثاً كما في التي بعدها.
 ﴿وَمَنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ من حُسن المعاشرة ﴿بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ
 عَلَيْهِنَّ ذَرْجَةٌ﴾ في الفضل والتفوق، وجيء بلفظ الرجال دون الأزواج إشارة إلى وجه
 التفوق وكمال الرجولية، وفضل قيام الرجل بأمرها، وإنفاقه عليها.
 ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في حكمه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ
 وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَوْ تَتِمُّوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ
 يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا
 وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا
 فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
 وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿الطَّلَاقُ﴾ للزوجة الواحدة الذي شرع فيه الرد المذكور، ولم يجعل الله
 زاجراً عنه بتعليق المراجعة بعده على نكاح المرأة زوجاً غيره ﴿مَرَّتَانٍ﴾ لأنَّ الطلاق

هو أن يقطع الزوج عُلقة الزوجية بينه وبين امرأته، ويطلق سراحها من قيد زوجيته، يكون من البديهي أنه لا يتحقق بدون الزوجية وعلقتها العادية التي يتوقف عليها تحقق موضوعه، كما روى هذا المعنى في (الكافي) وغيره، عن الباقر والصادق (عليهما السلام)^(١)، وعليه مذهب أهل البيت وإجماع الإمامية^(٢)، ومذهب ابن عباس^(٣).

وفي (الدر المنثور) أخرج البيهقي، عن ابن عباس: أَنَّ رُكَائَةَ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ.

قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): نَعَمْ، إِنَّمَا تِلْكَ وَاحِدَةٌ^(٤).

وأخرج عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والنسائي والشافعي والحاكم والبيهقي، عن ابن عباس: كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَأَبِي بَكْرٍ وَسِتْنَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عَمْرِ طَلَاقُ الثَّلَاثَةِ وَاحِدَةً - أَيِ الثَّلَاثَةِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ وَنَحْوِهِ - فَقَالَ عَمْرٌ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَمَجَلُوا فِي أَمْرِ لَمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضِيَنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ، وَنَحْوَهُ مِنْ طَرِيقِ طَاوُسٍ^(٥).

فإذا طلق الرجل طلاقاً صحيحاً فقد انقطعت من زوجيتها تلك العُلقة التي يقطعها الطلاق، فلا يقع منه طلاق لتلك المطلقة إلا بأن تكون تلك العُلقة قد رجعت، إما برجعة وإما بتزويج بعقد جديد. وإن كان ما وقع لفظه أولاً ليس صحيحاً ولا طلاقاً، لم يكن ما يقع بعده طلاقاً ثانياً، بل هو أول، وكذا الكلام في الثالث.

فإذا وقع الطلاق المذكور ﴿فَأَمْسَاكَ﴾ أي فحكم الله في ذلك إما أن تردوهن بالرجعة إلى الزوجية وتُسكوهن على ذلك ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ في المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيعٍ﴾ بأن تركوا الطلاق على رسله إلى أن تنقضي العدة ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ في أداء النفقة

(١) الكافي: ٦: ٦٢ باب (٦)، التهذيب ٨: ١٦٦/٥٢ - ١٦٧.

(٢) جواهر الكلام ٣٢: ٢٧.

(٣) بداية المجتهد ٢: ٨٣.

(٤) الدر المنثور ١: ٦٦٨.

(٥) الدر المنثور ١: ٦٦٨.

والإسكان والمعاملة.

قال في (التيبان): وهو المروي عن أئمتنا.

وقال في (مجمع البيان): وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام) وأبي عبد الله (عليه السلام).^(١)

أقول: ولم أجد ذلك مروباً بعنوان التفسير للتسريح بالإحسان، ولعلها أخذاه مما روي في شرح طلاق السنة، أو يكون المراد بالتسريح بالإحسان هي التطبيقية الثالثة، كما رواه في (الكافي) و(التهذيب) عن أبي عبد الله (عليه السلام).^(٢)

وفي (الفتاوى) عن الرضا (عليه السلام).^(٣)

وعن (تفسير العياشي) عن الباقر (عليه السلام) والصادق (عليه السلام).^(٤)

وفي (الدر المنثور) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).^(٥)

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ في مطلق الطلاق ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ولا من غيره ﴿شَيْئاً﴾ وخص الأخذ مما أوتين نظراً إلى الغالب من أن الزوج عند نفقته من زوجته، أو نفرة الزوجة منه، ينظر في أمر طلاقها إلى استرداد ما آتاها من المهر.

﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان، بسبب كراهية الزوجة له، وتهديدها له بالإثم إن لم يطلقها، فيكون كل من الزوجين معرضاً لمخالفة الله في أوامره ونواهيه ومحرماته، فيخافا ﴿أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فيما بين الأزواج لدواعٍ خصوصية، وعدل من الخطاب إلى الغيبة تكريماً وتبعية من الخطاب بما يراد هنا من عدم الإقامة لحدود الله.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ بحسب ما عرفتم من حالها ومقالمها ﴿أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ﴿عَلَيْهِمَا﴾ بحسب البذل والأخذ ﴿فِيمَا أَفْتَدَتْ بِهِ﴾ نفسها من زوجها، ويُفهم من الآية أمور:

(١) تفسير النبيان ٢: ٢٤٤، مجمع البيان ٢: ٥٧٨.

(٢) الكافي ٦: ١/٦٤، وفيه الثانية بدل الثالثة، التهذيب ٨: ٨٢/٢٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٤/١٥٧٠.

(٤) تفسير العياشي ١: ١١٦/٣٦١ و٣٦٣.

(٥) الدر المنثور ١: ٦٦٤.

الأول: يجوز أن تكون الفدية في مورد الآية تمام ما آتاها أو أكثر منه، كما لا خلاف فيه عندنا نصاً وفتوى^(١)، لأن عدم الجناح أنيط بها افتدت به مطلقاً، ولو أريد البعض مما أوتيت أو الكل لا غير لقل: فلا جناح عليها في أخذه.

الثاني: أن تكون من الزوجة نفرة بحيث يخاف لأجل نفرتها أن لا تُقيم حدود الله، كما يدل أيضاً قوله (صار): ﴿أَفْتَدَتْ بِهِ﴾.

الثالث: يُعرف من لفظ الافتداء أنه لا رجعة للزوج في العدة، وإلا لم يتحقق الافتداء.

الرابع: أن مورد هذه يغاير مورد الخامسة والعشرين من سورة النساء، لأن تلك اقتصر على استثناء موردها من الذهاب ببعض ما أوتين حينما تأتي بالفاحشة البيئة، بل يجوز للزوج عندنا أن يعضلها حينئذ^(٢).

الخامس: أن صورة ما ذكر من الفراق بافتداء الزوجة هو بحكم سياق الآية من الطلاق الذي جرى البيان في أحكامه، فلا يفرق عنه من حيث وقوع الثلاث، كما عليه نصوص أحاديثنا، وهو المشهور بل عليه الإجماع، وكذا وقوع التحليل به، وإن وقع بلفظ «خلعتك» بدون لفظ الطلاق، كما هو المنصوص عليه في أحاديثنا^(٣).

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام، للطلاق والأخذ ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ اعتدى الحد وتعاده بمعنى واحد.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لغيرهم، بل لأنفسهم بإيقاعها في وبال المعصية.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ ثالثة، ولا تنس أن الطلاق لا يتحقق إلا إذا ورد على زوجية ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ﴾ لا بالرجوع ولا بالنكاح ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أي بعد الطلاق الثالث، مهما طال الأمد ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ وتكون له زوجة شرعية بخصوص العقد الدائم.

(١) جواهر الكلام ٣٣: ٢٠.

(٢) كنز العرفان ٢: ٢٨٧، جواهر الكلام ٣٣: ٥٩.

(٣) الكافي ٦: ٣/١٤٠، من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٣٨/١٦٣، التهذيب ٨: ٣٢٤/٩٥ و ٣٣١/٩٨ و ٣٣٢/٩٩.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ ذلك الغير طلاقاً صحيحاً، والمراد من ذلك المثال لانقطاع عُلقة النكاح الدائم، فَإِنَّ الموت مثل الطلاق في التحليل بإجماع الأمة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ بأن يستأنفا عُقدة النكاح برغبة منها، وثبات على حُسن العشرة، وتآدب بها تتخلل من نكاح الثاني عن المسلوعة إلى الشَّعْب وَخَرَّازَةَ^(١) الطلاق ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

وقد ثبت في السُّنَّة من طريق الفريقين أَنَّ إطلاق الآية في نكاح الثاني مقيد بوطئه لها، وعليه إجماع الأمة^(٢)، ولا يُعتبر في الوطئ الإنزال لإطلاق السُّنَّة.

وأما ذوق عسيلته في أحاديث الفريقين^(٣)، فالمراد منه لذة الجماع، لا التذاذها بهاء الرجل، ويوضح ذلك أَنَّ فيها ذوق عسيلتها، ومن المعلوم أَنه لا معتبر لنزول ماء المرأة، كما أَنه لا لذة للرجل بهاء المرأة ليكون له كذوق العسيلة، بل المراد حتَّى تذوق لذة جماعه، ويذوق لذة جماعها في القُبُل، لأنَّه يَجْمَعُ العسيلتين غالباً دون غيره. نعم، يقتضي ذلك عدم الاكتفاء بمقدار الحَشْفَةِ فما دون، ولا بأس بالأخذ بها هو أحوط.

﴿وَتِلْكَ﴾ عطف على قوله (نار) في الآية السابقة: «تلك» ﴿حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ليعرفوا وجوبها على حقيقتها، ويعلموها على التفصيل للجاهلين بها.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِئَعْنُدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يَعِظُكُمْ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ قَوْمُ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) اختاره: أَناه وهو بَيْتٌ جماعَةٌ فأخذه منها، والمراد هنا أَنَّ الطلاق يَحْزَنُ المرأة من العائلة.

(٢) كتاب الخلاف ٢: ٦٤٩، بداية المجتهد ٢: ٨٦، جواهر الكلام ٣٢: ١٦٠.

(٣) الكافي ٦: ٣/٧٦ - ٥، الدر المنثور ١: ٦٧٨.

وَاِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ
مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ لِلَّهِ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ﴾ أي أشرفن على الوصول إلى آخر
عِدَّتِهِنَّ، كما يقال: بلغت البلد، أي أشرت على الوصول إليه ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بسبب
الرجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ في معاملتها، كقوله (نار) في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١) أو المعنى فراجعوهن بمعروف ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ واتركوهن على حالهن
إلى أن تنقضي عِدَّتِهِنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ في المعاملة والنفقة والإسكان، بدون إضرار في
شيء من ذلك.

﴿وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ﴾ بالرجعة، أو ولا ترجعوهن ﴿ضِرَاراً﴾ هو مصدر ضَرَّه
يُضِرُّه، نائب عن المفعول المطلق، أي إمساكاً ضارراً ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ عليهن ﴿وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بظلمه للمرأة الضعيفة، وأوقع نفسه في وبال معصية الله
وغضبه، ومخاصمة الضعيف الذي ضَرَّه واعتدى عليه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ بما يَبَيِّنُ فيها من أحكامكم في صلاحكم ونظام
اجتماعكم ﴿هُزُواً﴾ بل خذوا حظكم ورشدكم من العمل بها، فإن من لم يسعد
بالعمل بها كان كالمستهزئ أو مستهزئاً بها.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بعبائهم النعم في الحياة والمعيشة والإسلام.
﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ﴾ باعتبار النزول على رسول الله لتبليغكم ﴿مِنْ
الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن الكريم هُداكم في الدين والشريعة والدعوة إلى الله
﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ التي اشتمل عليها حال كون الكتاب ﴿يُعِظُّكُمْ﴾ الله ﴿بِهِ وَأَتَّقُوا

﴿فَمَا شَرَعَ لَكُمْ مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَزْوَاجُكُمْ مِنْهُ﴾ فإنه المطلق عليكم.
 ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أي واعملوا عملكم حال كونكم تعلمون ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُفَضِّلَنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ وأشرفن على انقضاء الأجل ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي المطلقون، والعَضْل: المنع أو الحبس من ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ﴾ من يكونون في المستقبل ﴿أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وذلك بأن يراجعها المطلق قريب انقضاء العدة، لا لرغبة فيها، بل لأجل أن يمنعها عن الأزواج.
 وقيل: إن المراد أن يمنعها الولي العرفي من أن تنكح من كان زوجها بعد انقضاء عدته، كما روي في (الدر المنثور) نزولها في شأن معقل وأخته أو جابر وابنة عمه^(١).

ويلزمه التجوز في «طلقتن النساء» بحمله على تطليق نوع الإنسان، فإن الولي غير مطلق، وفي هذا المجاز بعد، وإذا صرنا إليه فالأولى جعل الخطاب لمطلق العاضل وإن كان المطلق، أو أن المطلق يعضل زوجته، ويمنعها بعد العدة من أن تتزوج، وهو فرض نادر، إذ قل من يكون من المطلقين من له هذه السلطة، والأقرب الأول.
 ولفظ «أزواجهن» مجاز، إما من حيث كون الزوجية في الماضي كما في الثاني، أو من حيث كونها في المستقبل كما في الأول والثالث.

﴿ذَلِكَ﴾ خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أي من المسلمين ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإنه هو الأهل لأن يوعظ فتتفعه الموعظة، ويقف عند نواهي الشريعة.

﴿ذَلِكَ﴾ خطاب للمسلمين، والمشار إليه ترك العضل المذكور ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَالْوِلْدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ

الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ
نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ
بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ
مِنْهُمَا وَتَشَاوُرًا فَلِجَنَاحِ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا
أَوْلَادَكُمْ فَلِجَنَاحِ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ
وَالْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَاتَعُمُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ مطلقاً؛ مطلقات، وغير مطلقات ﴿يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ إخبار
عن الوظيفة المقررة لمن في الشريعة جمعاً لأنحاء المصلحة على ما يأتي ﴿حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ﴾ لا تنقص عن أربعة وعشرين شهراً ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ ويعطي
ما يلزأنها من أجرة، وهو الأب ومن بيده أمر الطفل بعده، ومن أراد إرضاعه دون
الحولين فله ذلك وحده أحد وعشرون شهراً، كما نقل عليه اتفاقنا وعليه روايتنا ساعة
وعبدالوهاب عن الصادق (عليه السلام) ^(١).

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الظاهر عدم الخلاف في أن الرزق
والكسوة كناية عن الأجرة المذكورة في الآية السادسة من سورة الطلاق، والملاحظ
في تقريرها حالتا السعة والضيق كما في السابعة منها أيضاً.

ولعل أجرة المثل تقارب مالية الرزق والكسوة، ولكن عنوانها أقرب إلى
الحشمة من عنوان الأجرة والتاكس فيها ^(٢).

وجرى التعبير هنا عن الأب بـ«المولود له» بياناً لوجه الحكمة في كون الأجرة

(١) وسائل الشريعة ٥: ١٧٧/٢ و٥.

(٢) أي إنقاصها والتنازلة فيها.

للرضاع عليه، لأن الولد بعضه ونهاء مائه، وأن الأم تربي برضاعها من ولد له.
﴿بِالْغُرُوفِ﴾ ومن دون إجحاف بأحد الأبوين، ولا يضيق بذلك على الأب فوق وسعه، بحسب حاله وما يراد منه في أمر معيشته ومن تجب نفقته عليه.
﴿لَا تَكُلْفُ نَفْسَ﴾ في جهة **﴿إِلَّا وَسْعَهَا﴾** في تلك الجهة.
﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ القراءة المعمول عليها بين الناس وعليها رسم المصاحف هي فتح الراء من «تُضَارُّ» على أنه مجزوم بلا الناهية، وحركت لألتقام الساكنين بالفتحة لمشاكلتها للألف التي قبلها.
 والكلمة صالحة لأن تكون مبنية لفاعل ومبنية للمفعول، باعتبار أن الراء المدغمة مكسورة في التقدير أو مفتوحة، ولكن الظاهر من الصحيح المروي في (الكافي) عن الصادق (عليه السلام) أنها مبنية للفاعل لقوله (عليه السلام): نهى الله أن تُضَارَّ المرأة الرجل، وأن يُضَارَّ الرجل المرأة، وإن الوارث نهى أن يُضَارَّ الصبي أو يُضَارَّ أمه بالرضاعة^(١).

هذا، والنهي عن المضارة بسبب الولد مطلق، سواء كانت المضارة من جهة الأجرة وما أشبه ذلك في أمر الرضاع، أم من جهة منع الوالدة لزوجها الوالد عن جماعها لخوفها من الحبل وضرره للرضيع، أو من حيث امتناع الوالد عما يجب للوالدة من الجماع لخوفه من حبلها وضرره للرضيع، كما استشهد (عليه السلام) بالأية الأمرين، وجاء بكل من المعنيين روايات أخر.

وفي (التبيان) ذكر رواية الجهة الثانية عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)، وكذا في (مجمع البيان)^(٢) وكان عليها أن يذكر رواية الجهة الأولى كالصحيح، ولم أجد ما أشار إليه من الرواية عن أبي جعفر (عليه السلام).

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ في صحيحة الحلبي وروايي الكتاني وأبي بصير، عن الصادق (عليه السلام): أنه نهى أن يُضَارَّ بالصبي أو يُضَارَّ بأمه في رضاعه^(٣).

(١) الكافي ٦: ١٠٣.

(٢) تفسير التبيان ٢: ٢٥٨، مجمع البيان ٢: ٥٨٧.

(٣) الكافي ٦: ١٠٣ و ٣/١٠٣، ومن لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٩٤/٣٢٩.

وفي (الدر المنثور) عن ابن عباس: أن لا يُضَارَّ^(١)، فمن الغريب - مع ذلك - ما في (كنز العرفان) في تفسير الوارث بالصبي^(٢).
وفي (التيبان): وقد روي في أخبارنا أن على الوارث - كائناً ما كان - النِّفَقَة^(٣)، وأشار في (الخلاف) و(المبسوط) أيضاً إلى الرواية^(٤)، والظاهر كونها رواية غياث، عن الصادق (عليه السلام): أتي أمير المؤمنين (عليه السلام) بيتيم، فقال: خذوا بنِّفَقَتَهُ أقرب الناس منه من العشرة، كما يأكل ميراثه^(٥).

والرواية إن لم يكن الوارث في واقعته الخاصة هو الجَدُّ أمكن تنزيلها في واقعته على الإلزام لشيوع الفتوى بذلك حينئذٍ، فإن مذهب الإمامية حتى الشيخ في كتبه أن النِّفَقَة إنما تجب على العمودين، فهو إجماع مت^(٦).

فالوارث في الآية إما وارث الطفل، بمعنى كون الطفل إرثاً، أي بقية له في القيام بأمره، فهو وارثه بهذا المعنى، كالجد والوصي والحاكم، وليس في ذلك مجاز بحسب اللغة، وإن كان الدائر في المحاورات هو وارث المال.

وأما إنه جار مجرى الغالب في كون من له الولاية بنفسه أو بالوصاية وارثاً، كالجد والأخ والوصي مثلاً، أو المولى من قبل الحاكم، ولا دلالة من القرآن الكريم على أكثر مما في الروايات المتقدمة من أن الذي على الوارث هو أن لا يُضَارَّ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ المرضعة والوالد، وإن كان جدّاً ﴿فَصَالَا﴾ للطفل عن الرضاع قبل الحولين ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بالنظر إلى صلاح الطفل، لا مجرد تراضيها مراعاة لأهوائها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا﴾ ويحتمل أن يشمل ذلك ما بعد الحولين، حينما يكون تعجيل الفطام مُضْراً بالطفل، كما إذا كان مريضاً مثلاً في المدة

(١) الدر المنثور: ١: ٦٩٠.

(٢) كنز العرفان: ٢: ٢٣٤.

(٣) تفسير التيبان: ٢: ٢٥٩.

(٤) كتاب الخلاف: ٢: ٣٩/٣٣٤، المبسوط: ٦: ٣٥.

(٥) التهذيب: ٦: ٢٩٣/٨١٤.

(٦) كتاب الخلاف: ٢: ٣٩/٣٣٤، شرائع الاسلام: ٢: ٢٩٦، جواهر الكلام: ٣١: ٣٦٦.

التي يجوز التأخير فيها.

﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ﴾ عند عدم الإضرار ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا﴾ المراضع ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ مفعول ثانٍ لتسترضعوا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا﴾ راعيتن مصلحة الطفل بعدم ماطلة المرضعة بأجرتها ﴿وَسَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُمْ﴾ وقررتنوه في الاسترضاع ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا مدافعة ولا مُعاصرة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيها أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أي واعملوا على مقتضى علمكم ﴿أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فخافوه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿١٢٦﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ
أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ
وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
وَلَا تَقْرَبُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذُرُوهُ وَأَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي يُؤْخَذُونَ وافين، ويراد بذلك الأخذ بالموت، كما مرّ مشروحاً في المقام الأول من الفصل الرابع من المقدمة ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ الذين: مبتدأ، وجملة «يُتَوَفَّوْنَ» صلته، وجملة «يَذَرُونَ» معطوفة عليها، وجملة

﴿يَتَرْتَضْنَ﴾. وهي خبر، يراد به الأمر المؤكد. تكون خبراً للمبتدأ، والرباط بينها هو الضمير الذي يحلوه المقام والسياق بمثل جُلُوه المذكور، لوضوح أن فاعل الترتيص تلك الأزواج اللاتي يتركنها المتوفون، فقدر لذلك ما يناسب تقديره.

﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ ويمسكها عن الزواج والزينة ونحوها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي وعشر ليالٍ.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بإتمام ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الخروج من البيوت، وطلب الأزواج، وترك الحِداد مما يكون ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المشروع الموافق للاستقامة والعفة.

وفي (تفسير القمي) والنبيان) و(مجمع البيان) وغيرها: أن هذه الآية ناسخة لحكم الآية السابعة بعدها^(١) وعلى ذلك روايات (الدر المنثور) في هذه الآية، عن ابن عباس وابن عمر^(٢).

أقول: وربما كان تقديمها في ترتيب القراءة على تلك، لكي تنتظم في نسق واحد مع الآيات المحكمة في الطلاق والعدد، وربما يشير إلى النسخ في قوله (قال): ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن يكون المراد لا جناح عليكم من خروجهن وتعرضهن للأزواج قبل الحول، مما كان يجب عليكم النهي عنه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا تغالفة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا غَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ نظم الآيات وسياق الآية وقوله (قال) فيها: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ تدل على أن المراد من النساء المعتدات للوفاء، وعليه الاتفاق^(٣)، والآية صالحة للعموم لبعض المعتدات أيضاً، وتفصيل ذلك موكول إلى كتب الفقه.

والتعريض: هو خلاف التصريحات، بما يسمعه مجال الخطبة من وجوه الكلام، وهو تضمين الكلام دلالة على شيء ليس فيه ذكر له.

والخطبة: هو الكلام الدال على طلب المرأة للتزويج، ولعل الأصل فيه أن

(١) تفسير القمي ١: ٧٧، تفسير النبيان ٢: ٢٦٦، مجمع البيان ٢: ٥٩١، تفسير الرازي ٦: ١٢٨.

(٢) الدر المنثور ١: ٦٩١ و٧٣٨.

(٣) تفسير القمي ١: ٧٧، مجمع البيان ٢: ٥٩٢، تفسير الرازي ٦: ١٣١.

الطلب كان يُصاغ كثيراً بكلام يُنشئه خطيب القوم، ثم استعمل في مطلق الطلب فتعدى، ويقال: خطبها، وهو خاطب. ﴿وَأَوْ أَكْتُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ بأن خطر في أنفسكم الرغبة في نكاحها والعزم عليه وأسررقوه.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لساناً بإبداء الرغبة في نكاحهن، ولا يدل ذلك على التوبيخ لجواز أن يقصدوا في ذكرها وجهاً راجعاً، خصوصاً في عصر الرسول (ص) عليه وآله وسلم، كتطبيب قلوب المؤمنات المهاجرات المنقطعات ذوات الأيتام، لكي تطمئن قلوبهن بوجود الكافل.

﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾ في صحيحة الحلبي، عن الصادق (ع) (ع) السلام: أن يقول لها: أواعدك بيت آل فلان^(١)، ونحوها رواية عبد الله بن سنان، عنه (ع) (ع) السلام^(٢). وفي رواية علي بن حمزة، عنه (ع) (ع) السلام: أواعدك بيت آل فلان، يعرض لها بالرفق ويرقت^(٣)، الرواية.

أي يرفت قولاً، بأن يذكر لها الجماع وما يرجع إليه صريحاً على خلاف الكناية والاحتشام، فإن الجماع يعبر عنه بالسّر كقول امرئ القيس: أَلَا زَعَمْتَ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنِّي كَبُرْتُ وَأَنْ لَا يَشْهَدَ السِّرُّ أَمْسَالِي^(٤) وقول الأعشى^(٥):

وَلَا تَقْرَبَنَّ جَارَةً إِنْ سِرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِبَنَّ أَوْ تَابَسَدَا^(٦)

(١) الكافي ٥: ٤٣٤.

(٢) الكافي ٥: ٤٣٤.

(٣) الكافي ٥: ٤٣٥.

(٤) ديوان امرئ القيس: ٨٤٠.

(٥) هو ميمون بن قيس، أبو بصير، لُقّب بالأعشى لضعف بصره، من شعراء المعلقات في الجاهلية، وأدرك الإسلام ولم يُسلم، وتوفي في سنة (٧هـ). شرح شواهد المغني ٢: ٩٦٧ - ٩٦٩، خزائن الأدب ١: ٨٤ - ٨٦، الأعلام للزركلي ٣: ٤٦١.

(٦) ديوان الأعشى: ١٠٦.

وقول الفرزدق^(١):

موانعُ للأسرارِ إلَّا لأهلِهَا وَتُخْلِفَنَ مَا ظَنَّ الْعَيُورُ الْمُشْفِشُ^(٢)
﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ الاستثناء منقطع، لرفع ما يتوهم من المنع عن كل ما يدل على التزويج، لأن التزويج يؤول إلى الجِماع، بل يجوز القول بالمعروف الموافق للحياء والحِشمة وكريم الخطاب، كقوله: لا تسبقيني بنفسك إذا انقضت العدة، أو: إني مكرم للنساء، أو: لو انقضت عدتك لا تفوتيني، ونحو هذا من معاريض الكلام، وبه جاءت روايات (الدر المنثور) عن ابن عباس^(٣).

﴿وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَ الْنِكَاحِ﴾ ولا توقعوها وتوجبوها، وبذلك جاءت رواية (الدر المنثور) عن ابن عباس^(٤).

وأما العزم على العقد بعد العدة فهو مَرخص فيه في الآية، خصوصاً في قوله: **﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾**.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ في (التبيان): معناه انقضاء العدة بلا خلاف^(٥). ومقتضى اللفظ حتى يبلغ القرآن باعتبار فرض العدة أجله في انقضائها، أو حتى يبلغ الفرض، من «كتب» بمعنى فرض، وكلاهما في وجه التجوز ببلوغها الأجل سواء. **﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾** مما بيعت على الأعمال الخارجية، ومنها ما هو محرم عليكم، والمقصود تنبيههم على ما يعرفونه من علم الله زيادة في التحذير **﴿فَاخْذَرُوا﴾** من أن تخالفوه وتعملوا بالمعاصي.

﴿وَأَعْلَمُوا﴾ مع ذلك **﴿أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾** إن تبتم فبادروا إلى التوبة، ولا تقنطروا

(١) هو همام بن غالب بن مصصة التميمي، أبو فراس، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه. شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، له مهاجاة مع جرير والأخطل مشهورة. وتوفي في سنة (١١٠هـ). خزنة الأدب ١: ١٠٥ - ١٠٨، الأعلام للزركلي ٨: ٩٣.

(٢) ديوان الفرزدق ٢: ١١٤، المشفشف أي المهزول من أثر الهم والوجد.

(٣) الدر المنثور ١: ٦٩٥.

(٤) الدر المنثور ١: ٦٩٦.

(٥) تفسير التبيان ٢: ٢٦٨.

من رحمة الله. واحذروه من ترك التوبة كما تحذرونه من المعصية ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة، بل يُمهلكم لأن تتوبوا إليه فيقبل عليكم بحليمه كأن لم تذنبوا.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا
لَهُنَّ فَرِيضَةٌ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ
مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ
مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ
النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٢﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم، وهذا دفع لما يُتوهم من الإثم في الصورتين المذكورتين، لأنهما فراق قبل النتيجة المحبوبة المطلوبة شرعاً من النكاح، وقطع لما كان يُؤمل من ألفة الزواج وأفراحه دون أن يصدر سوء صُحبة، خصوصاً مع مجاملة المرأة وأهلها بعدم المعاصرة في تقديم الصَّدَاق وفرضه في العقد.

وفي (الكشاف) فُسر «لَا جُنَاحَ» بقوله: لا تَبِعَةٌ عليكم من إيجاب مهر^(١)، ويدفعه أنه لم يعرف من اللغة والقرآن مجيء الجُنَاح بغير معنى الإثم، فلماذا يُفسرُه هنا بِتَبِعَةِ الْمَالِ؟

﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا﴾ أي في مُدَّة، وحال أنكم ﴿لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ بالوطء، وكان ذلك على جاري العادة في فرض الصَّدَاق لهنَّ في العقد.

﴿أَوْ تَقْرِضُوا﴾ تَوَجَّبُوا، وهو مجزوم بالعطف على تَمْسُوهُنَّ ﴿فَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ وهو الصَّدَاق، والمراد رفع الجَنَاح في كُلِّ مِنَ الْحَالَيْنِ: حال عدم الوَطءِ مع فرض الصَّدَاق، وحال عدمه مع عدم الفرض.

وعطف بكلمة «أو» كما في قوله (سار) في سورة الذَّهَرِ: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُنَّ أُنْثَىٰ أَوْ كَفُورًا﴾^(١) لثَلَا بَتَوَهَّمِ اشْتِرَاطَ اجْتِنَاعِهَا، ولعلَّه إلى هذا ينظر ما في (التبيان) و(مَجْمَعُ الْبَيَانِ) أَنَّ التَّقْدِيرَ «مَنْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ أَوْ لَمْ تَقْرِضُوا»^(٢) وَإِنَّ النَّظَرَ إِلَى نَظْمِ هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي بَعْدَهَا لَزَعِيمٌ بِهَا ذِكْرَانَهُ.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ وجوباً لظاهر الأمر، وَإِنَّ الْآيَةَ الْآخَرَى بِحَسَبِ سَوْنِهَا وَنَظْمِهَا مَعَ هَذِهِ كَالصَّرِيحَةِ فِي أَنَّ نِصْفَ الْمَهْرِ هُوَ تَمَامُ مَا تَسْتَحِقُّهُ الَّتِي فُرِضَ لَهَا الصَّدَاقُ، فَتَخْتَصُّ الْمُتَّعَةَ الْوَاجِبَةَ بِمَنْ لَمْ تَمَسَّ بِالْوَطءِ، وَلَمْ يُفَرَضْ لَهَا مَهْرٌ، وَعَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعُنَا^(٣)، وَصَحِيحَةُ (الكَافِي) عَنِ الْحَلِيِّ، وَصَحِيحَتُهُ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، وَرَوَاتُهُ عَنْهُ^(٤) أَيْضاً، وَرَوَايَةُ (الْفَقِيهِ) عَنِ الْكِنَانِيِّ عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(٥)، وَرَوَايَةُ (الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦). وَفِي (الْخِلَافِ): عَلَيْهِ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ^(٧).

وَيَكُونُ مَقَادِ الْآيَتَيْنِ فِي نَظْمِهَا تَشْرِيكَ الْقَسْمَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ فِي عَدَمِ الْجَنَاحِ بِطَلَاقِهِنَّ، ثُمَّ التَّقْسِيمُ بِاخْتِصَاصِ نِصْفِ الْمَهْرِ بِمَنْ فُرِضَ لَهَا، وَاخْتِصَاصِ الْمُتَّعَةِ بِمَنْ لَمْ تُفَرَضْ لَهَا فَرِيضَةٌ.

وعلى هذا التقسيم والتقييد يُحْتَمَلُ إِطْلَاقُ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْأَرْبَعِينَ بَعْدَ الْمَائَتَيْنِ مِنَ السُّورَةِ، وَالتَّاسِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنَ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَلَيْسَ الْمَقَامُ مِنَ النُّسْخِ لَكِي

(١) الْآيَةُ: ٢٤.

(٢) تَفْسِيرُ التَّبْيَانِ ٢: ٢٦٩، مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٢: ٥٩٥.

(٣) جَوَاهِرُ الْكَلَامِ ٣٩: ٥١.

(٤) الْكَافِي ٦: ١٠٦/٣، ١١/١٠٨.

(٥) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهُ ٣: ٣٢٦/١٥٧٩.

(٦) الْمَرْ الْمَشْهُورُ ١: ٦٩٨.

(٧) كِتَابُ الْخِلَافِ ٢: ١٥/١٩٣.

يَتَوَقَّفُ على معرفة المتقدم والمتأخر، بل هو من حَمَلِ المطلق على المقيّد، سواء كان الكلام تفصيلاً بعد إجمال، أو إجمالاً مَبْنِيّاً على التفصيل.

وَالْمَتَّعَةُ ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ﴾ أي ذي السَّعة في المال مثل المُثري ﴿قَدَرُهُ﴾ أي المقدار الذي يُلَبِّقُ بِسَعَتِهِ من المال ﴿وَعَلَى الْمُفْقِرِ﴾ أي المُقِلِّ من المال ﴿قَدَرُهُ﴾ وما يناسب إقلاله، وكأنّه يذكر الأمرين قبل على كلّ ما يناسب حاله.

وفي (الفتاوى): رُوي أنّ الغني يُمتنع بدارٍ أو خادمٍ، والوسيط بشوبٍ، والفقير بذرهمٍ أو خاتَمٍ^(١).

وفي رواية أبي بصير، عن الباقر (ع) السلام: أنّ أدنى المتعة على المُعْسِرِ حِجَارٌ وشِبْهه^(٢).

وفي رواية الحلبي وعبدالله بن سنان وسَيَّاعة، عن الصادق (ع) السلام: أنّ الموسع يُمتنع بالعبد والأمة، ومُتَّعُ الفقير بالحنطة والزبيب والثوب والذَّراهم^(٣). ولعلّ الكلّ على سبيل المثال، ومُناسبة الحال.

﴿مَتَاعاً﴾ المتاع: ما يُمتنع به، فيكون مفعولاً لـ «مَتَّعُوهُنَّ» وقد يجيء بمعنى التمتع.

وفي (التبيان): أنّه حال من «قَدَرَهُ» والعامل فيه الظرف^(٤)، وكأنّه لما في كلمة «عَلَى» من معنى الإيجاب.

وفي (الكشاف): أنّه تأكيد لـ «مَتَّعُوهُنَّ»^(٥) والمآل واحد. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صفة للمتاع على الأولى، ومُتَّعَلَقٌ به على الأخيرين، والمآل في الكلّ واحد.

﴿حَقّاً﴾ صفة للمتاع ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ بيان لكون المتعة بالمعروف إحساناً

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٧/١٥٨٢.

(٢) الكافي ٦: ١٠٥/٥.

(٣) الكافي ٦: ٣/١٠٥، التهذيب ٨: ١٣٩/٤٨٤ و٤٨٥.

(٤) تفسير التبيان ٢: ٢٧٠.

(٥) الكشاف ١: ٢٨٥.

يَرْغَبُ فِيهِ الْمُحْسِنُونَ، وِيَرُونَهَا حَقًّا عَلَيْهِمْ فِي شَرِيعَةِ الْإِحْسَانِ.
﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ بَيَانٌ لِلْحُكْمِ
الْقِسْمِ الْأَوَّلِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَحَقِّهِ، فَيَعْرِفُ مِنْهُ اخْتِصَاصُ الْقِسْمِ الثَّانِي بِالْمُنْتَعَةِ
﴿فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وَهُوَ حَقٌّ لَهُنَّ يَجِبُ إِعْطَاؤُهُ.

﴿إِلَّا أَنْ يَغْفُوَنَّ﴾ عَنْهُ، كَلًّا أَوْ بَعْضًا، إِذَا كُنَّ بِالْغَاتِ جَائِزَاتِ التَّصَرُّفِ فِي
أَمْوَالِهِنَّ، سَوَاءَ كَانَ الْعَفْوُ مِنْهُنَّ مُبَاشَرَةً أَمْ مِنْ وَكِيلِهِنَّ عَلَى الْعَفْوِ، أَمْ الْوَكِيلُ الْمَأْذُونُ لَهُ
فِي كُلِّ تَصَرُّفٍ فِي أَمْوَالِهِنَّ، أَمْ فِي خُصُوصِ هَذَا الطَّلَاقِ مَثَلًا.

﴿أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وَهُوَ وَلِيُّ الصَّغِيرَةِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ بِيَدِهِ
أَنْ يَعْقِدَ عَقْدَةَ نِكَاحِهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَنَا إِلَّا الْأَبُ وَالْجَدُّ، أَعْنَى أَبَا الْأَبِ أَوْ أَبَاهُ، فَفِي
صَحِيحَةِ (التَّهْذِيبِ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَيَّانٍ عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): هُوَ وَلِيُّ أَمْرِهَا^(١).
وَعَنْ رِفَاعَةَ عَنْهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): الْوَلِيُّ الَّذِي يَأْخُذُ بَعْضًا وَيَتْرَكُ بَعْضًا^(٢).

وَفِي بَعْضِ أَحَادِيثِنَا مَا جُمِعَ فِيهِ مِنْ يَغْفُو بِحَسَبِ الْوَلَايَةِ، أَوْ بِحَسَبِ الْوَكَالَةِ
الْعَامَّةِ، فَفِي مُتَبَرِّةِ (التَّهْذِيبِ) بِإِرْسَالِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): الْأَبُ
وَالَّذِي تَوَكَّلَهُ الْمَرْأَةُ وَتَوَلَّيَهُ أَمْرُهَا مِنْ أَخٍ أَوْ قَرَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا^(٣).

وَفِي الصَّحِيحَةِ الْمَرْوِيَةِ فِي (الْكَافِي) وَ(الْفَقِيهِ) وَ(التَّهْذِيبِ) عَنْ الْحَلْبِيِّ وَأَبِي بَصِيرٍ
وَسَمَاعَةَ، عَنْهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): هُوَ الْأَبُ وَالْأَخُ وَالرَّجُلُ يُوصَى إِلَيْهِ، وَالَّذِي يَجُوزُ أَمْرُهُ فِي مَالِ
الْمَرْأَةِ فَيَتَنَاقَضُ لَهَا وَيَتَجَرَّ^(٤).

وَنَحْوُهَا صَحِيحَةُ (التَّهْذِيبِ) عَنْ أَبِي بَصِيرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ
الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامِ)^(٥).

فَأَمَّا الْمُوصَى إِلَيْهِ فِي الصَّحِيحَتَيْنِ، فَهُوَ مِنْ أَوْصَى إِلَيْهِ الْأَبُ وَالْجَدُّ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِ

(١) التَّهْذِيبُ ٧: ٣٩٢/١٥٧٠.

(٢) التَّهْذِيبُ ٧: ٣٩٢/١٥٧٢.

(٣) التَّهْذِيبُ ٦: ٢١٥/٥٠٧٢.

(٤) الْكَافِي ٦: ١٠٦/٣، وَ لَا يَحْضَرُهُ الْفَقِيهُ ٣: ٣٢٧/١٥٨٤، التَّهْذِيبُ ٧: ٣٩٣/١٥٧٣ وَ ١٤٢/٤٩٣.

(٥) التَّهْذِيبُ ٧: ٤٨٤/١٩٤٦.

الصغيرة، إذا رأى المصلحة في العفو، كما في عفو الأب والجَد. وأما الأخ فيُعرَف أمره من مُرسلة ابن أبي عمير^(١).

والظاهر أنَّ عدم ذكر الجَد هنا لدخوله في عنوان الأب.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ وعفوكم أيها الناس ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ربنا تَعْبُدُ المرأة الضعيفة النفس في نفسها شيئاً، إذا رَجَّحَ الله لها العفو بخطاب خاص، فلفظ الله بها معناه أَنَّهُ لَا يَرْجِّحُ العفو لها من حيث إنها امرأة، ولا من حيث إِنَّهُ مَهْرٌ، بل إِنَّ كُلَّ عفو هو حسن راجع من جميع الناس، وهذا المقام منه، وإن الزوج لم ينتفع بلذَّةٍ أو خدمةٍ بإزاء ماله، فيكون طلب العفو بهذا النحو أطيب لقلب المرأة المطلقة وأدعى لها لأن تعفو، فَإِنَّ لِمُطَلَّقِ عفو الإنسان عن حقِّه فضلاً وفضيلةً، وهو بفضيلته أقرب إلى فضيلة التقوى.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها الناس، واسمعي أيها المطلقة، ولا تحمِلِكُم حَزَازَاتُ النُّفُوسِ على ترك ما فيه الفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على إحسانكم.

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٩﴾

﴿حَافِظُوا﴾ أيها الناس ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ في إقامتها في أوقاتها بحدودها وشرائطها وإخلاصها وإقبالها عموماً ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وهي صلاة الظهر، وعن

(الخلاف): أن عليه إجماع الفرقة^(١).

والمروني في أحاديثنا أنها صلاة الظهر، كصحيفة (معاني الأخبار) عن أبي بصير^(٢)، وروايي العياشي عن عبد الله بن سنان^(٣). ومحمد بن مسلم، عن الصادق (عليه السلام)، وصحيفة زرارة، عن الياقوت (عليه السلام).

وإن ورد فيها بعد ذلك كما في (الكافي) والفقيه ما صورته: وقال في بعض القراءات حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر^(٤). وبناءً على هذه الرواية، فلا يخفى أن الإمام لا يتعلل ببعض القراءات إلا محاذرة من الوقت وأهله، فذكر الرواية الرائجة عن موصف عائشة وروايتها، وأحدى الروايات عن موصف حفصة وروايتها، عن قراءة ابن عباس وأبي بن كعب، والسائب بن يزيد، إسكاناً عن بيانه الأول للحكم الواقعي.

وإذا نظرت إلى ما أحصاه (الدر المنثور) من روايات المقام ترى فيها من الاضطراب والتعارض شيئاً مهولاً، ففي بعضها: الفجر، وفي بعضها: الظهر، وفي بعضها: العصر، وفي بعضها: المغرب، وكثيراً ما تتعارض الرواية عن الشخص الواحد^(٥):

وما أفة الأخبار إلا روايتها.

﴿وَقُومُوا﴾ في الصلاة ﴿لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ عن العياشي، عن الصادق (عليه السلام): طائعين^(٦).

وفي رواية سباعة هو الدعاء^(٧). ومنه قوله (نار) في سورة الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ

(١) كتاب الخلاف ١: ٢٩٤/٤٠.

(٢) معاني الأخبار: ٣٣١.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٢٧/٤١٨.

(٤) تفسير العياشي ١: ١٢٨/٤١٩.

(٥) الكافي ٣: ١/٢٧٩، من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٤/٦٠٠.

(٦) الدر المنثور ١: ٧١٨ - ٧٢٩.

(٧) تفسير العياشي ١: ١٢٨/٤٢١.

(٨) تفسير العياشي ١: ١٢٨/٤٢٠.

إِنَّمَا اللَّيْلُ سَاجِدٌ وَقَانِيًا^(١).

وفي (التيان): قيل أصله الدعاء في حال القيام^(٢)، أي في الصلاة.

وفي (مجمع البيان): وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله^(٣).

أقول: ولم أجده عنهما (عليهما السلام) في تفسير الآية، نعم في صحيحة زرارة، عن الباقر (عليه السلام): ونزلت هذه الآية في يوم الجمعة ورسول الله في سفره فَقَنَّتْ فِيهَا^(٤).

نعم كثر استعمالهم (عليهم السلام) للفظ القنوت بالدعاء في الصلاة في حال القيام، وهو القنوت المعروف كما في رواياتنا^(٥).

وهو معروف في لسان الصحابة وغيرهم كما في روايات (الترمذي المنشور)^(٦) وغيره

في الآية.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا﴾ جمع راجل، وهو الماشي على رجله، مثل: قيام جمع قائم، كما في سورتي الفرقان^(٧) والزمر^(٨)، أي فإذا خِفْتُمْ فحُكِّمَكُمْ في صلاتكم أن تتركوا ما يُنَافِي التحذُر من الوقوف والركوع والسجود، بحسب ما يقتضيه الخوف والحذر، وعلى رِسْلِكُمْ حال كونكم رجالًا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب، ويبقى ما لا يُنَافِي التحذُر على حاله، كالقراءة والتسبيح والتشهد والتسليم.

نعم قد تخفى دلالة الآية على الإيحاء للركوع والسجود، إلّا بالنظر إلى أنه ميسور من خضوعها، وأتضح قاعدة الميسور في هذا المورد للعقل والعقلاء كغيره من الموارد.

(١) الآية: ٩.

(٢) تفسير التبيان ٢: ٢٧٦.

(٣) مجمع البيان ٢: ٦٠٠.

(٤) الكافي ٣: ٢٧٩، من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٤/٦٠٠.

(٥) وسائل الشريعة ٤: ٩٠٦ باب (٧).

(٦) الدر المنثور ١: ٧٣٣.

(٧) الآية: ٦٤.

(٨) الآية: ٦٨.

وفي (الكافي) في صحيح عبد الرحمن، قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) في الآية: ما تقول إذا خاف من سبعٍ أو لصٍّ، كيف يصلي؟ قال: يُكَبِّرُ ويُمَوِّئُ إِبَاءً بِرَأْسِهِ ^(١). أي للركوع والسجود. ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ بلطفه في الصلاة وغيرها ﴿وَمَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من أذكار الصلاة وأحكامها وغير ذلك.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ
مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١١١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي يشرفون على الوفاة ﴿وَيَذَرُونَ﴾ بعدهم ﴿أَزْوَاجًا﴾ كتب الله عليهم ﴿وَصِيَّةً﴾ تأتي الوصية بمعنى الموصى به ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا﴾ بدل من «وصية» بمعنى الموصى به، وإذا جعلنا الوصية هنا بمعنى الإيصاء كان التقدير «جعل الله لمن ما يوصى به في الإيصاء متاعاً» ونحو ذلك، والآخر أظهر. ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ من حين وفاته في مؤنتها ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ صفة المتاع ليتم السكنى، وربما لم يكن هذا أجلاً لِعِدَّةِ الوفاة على كُلِّ حال، بل إن شاءت أن تبقى في بيت زوجها فلها الإنفاق والإسكان بحسب الوصية حولاً.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من قِبَلِ أَنْفُسِهِنَّ مطلقاً، أو من بعد أن تقضي أربعة أشهر وعشراً، أو أبعد الأجلين إذا كانت حاملاً، فقد أسقطت حقها.

وقيل: إنَّ الحول كان عِدَّتُهَا فُنُسُخٌ^(١)، والمراد من الآية خرجن بعد الحول. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ من حيث الزواج الشرعي، أو اختيار ما يوافق حالها وصلاحتها في الخروج.

أما وجوب الوصية إن كان فهو منسوخ بالاتفاق^(٢)، وأما جوازها فعن (مختصر التبيان) أنه باق عندنا لم يُنسخ^(٣) ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في أحكامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شريعته. ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بحق ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ إن كان المراد من الآية تأكيد ما تقدم من مُتْعَةٍ مَنْ لَمْ تَمْسُ، ولم تُفرض لها فريضة، كان إطلاقها جارياً على ذلك التقيد، وهذا هو المناسب لقرنها من تينك الآيتين، ولظاهر قوله (تعالى): ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ولما أشرنا إليه آنفاً من الإجماع والروايات.

ويمكن أن تُحمل هذه الآية على الاستحباب في مُطلق المُطَلَّقات، بالنظر إلى صحيحة الحلبي وروايته، وصحيحة عبدالله بن سنان وسباعة، كما في (الكافي) ورواية أبي بصير كما عن العياشي^(٤)، وفيه شك.

﴿كَذَلِكَ﴾ خطاب لرسول الله ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ بلفظه ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ خطاب للناس لاحتياجهم في نظام أمرهم إلى بيان هذه الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لغاية أن تعقلوا، إذا أقبلتم باختياركم على التدبر لهذه الآيات والعمل بها.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

(١) كنز العرفان ٢: ٢٦٣.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦٠٢، تفسير الرازي ٦: ١٥٨.

(٣) تفسير التبيان ٢: ٢٧٨.

(٤) نضر العياشي ٩: ١٢٩/٤٢٩، الكافي ٦: ٣/١٠٥.

عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً ۖ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ أي ألم تعلم بأمرهم، ونزل علمه (من الله عليه وآله وسلم) بها فيه من الإيمان واليقين بمنزلة الرؤية بالبصر ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي خرجوا حذراً من الموت وفراراً. ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا﴾ وإنا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فعبر عن إرادته التكوينية بالأمر بالموت وبالكون، إشارة إلى أن قدرته لا تحتاج إلى عمل وممارسة مقدمات.

﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بعد موتهم، روي في (روضة الكافي) عن الباقر والصادق (عليهما السلام) قصة هؤلاء وهربهم من الطاعون وموتهم، ويقانهم بلا دفن حتى صاروا عظاماً فجمعها المارة ونحوها عن الطريق، فمر عليها حزقيل النبي من بني إسرائيل فدعا الله في إحيائهم فأحياهم^(١).

وعن العياشي وسعد بن عبد الله، عن محمد بن عمار، عن الباقر (عليه السلام)، مختصر في هذه القصة^(٢).

وروي في ذلك في (الدر المنثور) عدة روايات عن ابن عباس وبعض التابعين^(٣).

(١) الكافي ٨: ٢٣٧/١٩٨.

(٢) تفسير العياشي ١: ٤٣٣/١٣٠، مختصر بصائر الدرجات: ٢٣.

(٣) (الدر المنثور ١: ٧٤١ - ٧٤٤)، وهذه القصة شؤن، فقد ذكر نظيرها في العهد القديم في كتاب حزقيال من العدد الأول إلى الحادي عشر من الفصل السابع والثلاثين، فجاءت جمعية المرسلين الأمريكان في الجزء الثاني ←

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يَعْرِفُهُمْ قدرته وَيُبْصِرُهُمْ بمواعظه، ويحيطهم بألطافه ومجللهم برحمته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا﴾ أيها الناس ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا تخافوا من الموت، فإن الأمور بيد الله، ولكم الموعظة بفرار هؤلاء من الموت وموتهم وإحيائهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم واستنصاركم وما تقولونه في أمر الجهاد والدعوة إلى الله ودين الحق ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم في جهادكم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قد اقتضت حكمة الله ورحمته في شأن الإنسان ونظام مدنيته وتشابكه في الاجتماع أن يجعل بعضهم محتاجاً إلى بعض في شؤون التعيش والأموال، كما اقتضت حكمته ورحمته في كمال الإنسان وتبليغ كرامته الفضيلة وحسن الجزاء بأن يجعله مختاراً في أفعاله وأحواله في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، واقتضت حكمته ورحمته ولطفه أن يأمر بالتعاون على البر والإحسان. وأن يعود الغني على الفقير بشيء مما هو من رزق الله وخلقه، ويتفق شيئاً من مال الله في نصر الحق وأهله ودفاع الباطل وأهله، واقتضت رحمته ولطفه أن يرغب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله والخير في الفقراء والجهاد، ويُنصِرَه بهذا الترغيب على شح نفسه ونزعات حِرْصِه وما يسوِّله له فقر إمكانه.

فجاء القرآن الكريم على أحسن وجه في الترغيب، وحاصل ما يشير إليه وينوّه به هو أنكم أيها الناس لا بد لكم من أنكم تعرفون أن كل نعمة عندكم إنما هي من الله

→ من كتابهم الذي سَمَّوه «الهداية» واعترضوا على القرآن المجيد، وأنكروا مضمونها والإحياء، وجعلوا ما ذكر في كتاب حزقيال رؤياً منامية غايها البُشرى بانتعاش بني إسرائيل بعد السبي، ورجوعهم إلى فوميتهم وحالتهم السياسية.

دع جمعية الأمر بكان وَقَلَّمَ الخطاب في بعض مُفسري المسلمين المعاصرين من المصريين إذ كتبوا وطبعوا إنكار الأمر الذي ذكره القرآن الكريم بالمحاوراة الصريحة الدائرة بين السفلاء بين الحقائق، وفُسِّروا الآية بأن موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعدُّ أمة، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، إلى آخره. وبإليت النزعة العصرية واللهاجة السياسية لم يعمدوا أيديهم إلى القرآن الكريم.

وخلقه للعالم وما فيه، ومع ذلك فإنَّ الله بحسب حكمته ولطفه يُنذِّركم إلى أن تُنفقوا شيئاً مما أنعم به عليكم في طريق صلاحكم وسعادتكم، وإنَّ الذي يُنفق في ذلك شيئاً من ماله وهو يريد به وجه الله، يجعله الله قرضاً عليه، إذا كان قرضاً، وإنفاقاً حسناً من المال الحلال فاقداً لما يشينه من الرياء والمنِّ ونحو ذلك.

﴿فَيُضَاعَفْ لَهُ﴾ بنصب «يضاعفه» جواباً للاستفهام بعد الغاء، وفي الحقيقة هو جواب لطلب القرض المؤكَّد بأسلوب قوله (قال): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللهَ قرَضاً حسناً فَيُضَاعَفْ لَهُ﴾.

﴿أَضْعَافاً كَثِيراً﴾ روى الصدوق في (معاني الأخبار) في الصحيح عن الحزاز، والعبَّاسي عن علي بن عمار عن الصادق (عنه السلام): لما نزل ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾^(١) قال رسول الله: اللهم زدني، فأنزل الله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أََمْثَالِهَا﴾^(٢) فقال: رب زدني، فأنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللهَ قرَضاً حسناً فَيُضَاعَفْ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً﴾، فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّ الكثير منه لا يُحصى، وليس له منتهى^(٣).

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ في (تفسير البرهان) عن الصدوق مُسنداً، عن الصادق: يمنع ويُعطي^(٤). والمراد استلفانهم إلى أن أمر الرزق بيد الله (جلَّ شأنه)، فليفتنم ذو السَّعة فرصة الإنفاق وقرض الله قبل أن يضيق عليه رزقه وتبقى له الحسرة، ولا يخف في إنفاقه فقراً، فإنَّ يديه بسط الرزق ﴿وَالِلهِ تُرجعون﴾ فيوفِّكم جزاء ما أنفقتم، وتشتدُّ حسرات المريص الشحيح على ما فرط.

لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا

(١) التل ٢٧: ٨٩.

(٢) الأنعام ٦: ١٦٠.

(٣) تفسير العبَّاسي ١: ٤٣٤/١٣٩، معاني الأخبار: ٣٩٧/٥٤.

(٤) تفسير البرهان ١: ٢٣٤/١.

لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْنَةٌ لَنَا مَلَكَ أَنْتَقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرواية كما تقدم قريباً كناية عن العلم ﴿إِنِّي أَلَمَّا﴾ أي الأشراف والأعيان ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ﴾ موت ﴿مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ﴾ في تفسير القُصِّي في الصحيح عن الباقر (عليه السلام): أَنَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَمِلُوا الْمَعَاصِيَ، وَغَيَّرُوا دِينَ اللَّهِ، وَغَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَكَانَ فِيهِمْ نَبِيٌّ يَأْمُرُهُمْ وَنَهَاهُمْ فَلَمْ يُطِيعُوهُ، وَرَوَى أَنَّ اسْمَهُ أَرْمِيا النَبِيُّ^(١).

أقول: هذا وما بعده ليس من الصحيح، بل هو إرسال من القُصِّي، وفيه ما هو خلاف الصحيح، فإن نفس القُصِّي سيروي في تفسير الآية التاسعة والخمسين بعد المائتين في الصحيح عن الصادق أَنَّ أَرْمِيا النَبِيَّ مُعَاصِرٌ لِبَحْتِ نَصْرٍ وَسَبِي بَابِلَ، كَمَا هُوَ مُقْتَضَى التَّارِيخِ^(٢)، وَبَيْنَ ذَلِكَ الْمَصْرُ وَعَصْرُ طَالُوتَ نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ، وَتَسْمَةُ أَجْبَالٍ.

وفي (التَّبْيَانِ) وَ(جَمْعُ الْبَيَانِ) وقيل: هو اشْمُونِيل، وهو المروي عن أَبِي جَعْفَرٍ، يَعْنِي الْبَاقِرَ (عليه السلام).

وفي (جَمْعُ الْبَيَانِ) وهو بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيل^(٣). وفيه منع، فَإِنَّ إِسْمَاعِيلَ فِي

(١) تفسير القمي ١: ٨٦.

(٢) تفسير القمي ١: ٨٦ - ٨٨.

(٣) تفسير التبيان ٢: ٢٨٨، جمع البيان ٢: ٦١٠.

العبرائية «يشمع أيل».

﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ عسى معناها الترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ المطرّد فيها بعد عسى أن يأتي مقروناً بكلمة «أن» الناصبة، ولكن لأجل أن المؤلّدين بعد اختلاط اللسان ضاعت عليهم مزايا اللغة العريية بعد أن كانت معروفة لأهلها، فقال بعض النحويين، أو جهورهم: إن عسى من الأفعال الناقصة، والمنصوب بأن خبرها على حذف المضاف منه أو من اسمها.

﴿قَالُوا﴾ ما مؤداه: ماذا يمنعنا من القتال؟ ﴿وَمَا لَنَا﴾ من الفائدة في ﴿أَلَّا﴾ ألا: هي أن المصدرية ولا النافية ﴿نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَنَا﴾ بالحرب والطرّد عن الأوطان، وهل بعد هذا مانع نفساني عن القتال أو فائدة تدعو إلى تركه؟ مضافاً إلى أنه قتال في سبيل الله، ودفاع عن الدين والتوحيد.

ومع هذا البيان منهم. ﴿فَلَمَّا﴾ بعث لهم طالوت ملكاً و ﴿كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ معه ﴿تَوَلَّوْا﴾ وتخاذلوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعلم حالهم من قبل ذلك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ
يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ قبل: سُمي طالوت

لطوله، وفي كتب اليهود أنه كان أطول من كل بني إسرائيل من كَيْفِهِ فما فوق.
﴿قَالُوا أَنَّىٰ﴾ من أين **﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾** وفي
 (تفسير القمي) أو روايته: أنه كان من سبط بنيامين^(١).

قلت: وتاريخ اليهود يذكر في أواخر سفر القضاة: أن سبط بنيامين قد صدرت
 من بعضهم بادرة قبيحة، فأراد بنو إسرائيل أن يؤدبوا هؤلاء فحاربهم سبطهم، فحاربهم
 باقي الأسباط حتى نكلوا بهم، فصار سبط بنيامين بعد ذلك سبطاً قليلاً مستحقراً فيما
 بين بني إسرائيل.

﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ ليؤسس به مملكته وإدارتها.
﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم **﴿إِنَّ اللَّهَ أَضْطَفَاكُمْ وَعَزَّاهُ بِسُطَّةٍ﴾** أي سعة **﴿فِي**
الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ يذُبر بعلمه المملكة وشؤون القتال، ويملاً ببسطة جسمه الأبصار
 هيبة تناسب الملوك ومخائل القوة والشجاعة.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ﴾ فلا اعتراض لكم في ذلك **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾** في
 فضله ورحمته، أي واسع الفضل والرحمة **﴿عَلِيمٌ﴾** بما تقتضيه الحكمة في كل مقام.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا

(١) [تفسير القمي ١: ٨٩]، قال الطنطاوي في الجزء الأول من (تفسيره) صفحة (١٩٠) في كلام بني إسرائيل مع
 نبيهم في هذا المقام: «قالوا: إن طالوت ليس من بيت لاوي، بيت النبوة، ومنه موسى وهارون، ولا من بيت يهوذا،
 بيت الملك، ومنه داود وسليمان» - إلى أن قال - فأجابهم.

وأقول: يا للعجب! متى كان من قبل أن يملك طالوت يهوذا ملكاً ومملكة، ومتى كان قبل طالوت داود
 وسليمان ملكين، لكي يذكر بنو إسرائيل مملكتها لنبيهم وكيف والذي يعرف من القرآن هو أن داود لما قتل
 جالوت كان رعية في جُند طالوت؟!!

وانظر إلى كلام المُفسِّر في صفحة (١٩١): «يقول الله في سورة النمل: ١٦: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ ولم يذكر
 أن الأشراف من بني إسرائيل احتجوا بسبطين من أسباطهم، بل قالوا: نحن أحقُّ بالملك منه، وهل كان ذكرهم
 للملك يهوذا وداود وسليمان تنبؤاً عن المستقبل؟! إنني أتى مؤرخ ذكر هذا التنبؤ منهم، وما هي قيمته التاريخية؟! «متنشر

تَرَكَ ءَالَ مُوسَى وَءَالَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾
 فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
 بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
 مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
 لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
 يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا بِاللَّهِ كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ فَمِنْهُمْ
 غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادُّنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ في مقام الاحتجاج والدلالة على أن طالوت يكون ملكاً عليهم، وذلك باصطفاء الله له ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ والحُجَّة التي تعرفون بها ذلك ﴿أَن يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ﴾ الصُّنْدُوق، في (تَجَمُّع البيان) أنه كان في أيدي أعداء بني إسرائيل، غلبوهم عليه لما مَرَجَ^(١) أمر بني إسرائيل، وحدث فيهم الأحداث، ثم انتزعه الله من أيديهم، وردّه على بني إسرائيل تَحْمِلُهُ الملائكة، وروى ذلك عن أبي عبد الله (عليه السلام).^(٢)
 ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في (تفسير القمي) عن الرضا (عليه السلام): أنها ريح من الجنة، لها وجه كوجه الإنسان^(٣). ونحوه في (تَجَمُّع البيان) و(الدَّر المنثور) عن أمير

(١) أي اخلط.

(٢) جَمع البيان ٢: ٦٦٤.

(٣) تفسير القمي ١: ٨٢.

المؤمنين^(١).

وفي رواية (معاني الأخيار) عن يونس، عن الرضا(عليه السلام): رَوَحَ الله^(٢).
 لكن في (أصول الكافي) في صحيح محمد بن مسلم، عن الباقر(عليه السلام):
 السُّكِينَةُ: الإيمان. ونحوه في صحيح حَفْصٍ وَهْشَامٍ عن الصادق(عليه السلام)، ونحوه في
 صحيح أبي حمزة عن الباقر(عليه السلام).
 وزاد في قوله(عليه السلام): ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٣) قال: هو الإيمان. ونحوه في صحيح
 جميل عن الصادق(عليه السلام)^(٤).

والظاهر أنَّ هذه التعبيرات تشبيهات وإشارات بحسب حال المورد والخطاب
 والمخاطب، فلعلَّ السُّكِينَةُ أمر يُوجب الأمانة والطمأنينة، جعله الله في التابوت لِيَسْكُنَ
 إليه بنو إسرائيل، فقد كان لهم بمنزلة اللواء الأعظم في الحروب.
 وفي (التيبان) أنَّه الأولى^(٥)، واستظهر نحو ذلك في (مَجْمَعُ البَيَان)^(٦) وهو إحدى
 روايات (الدَّرِّ المنثور) عن ابن عباس^(٧).

﴿وَسَيَقِيَّةٌ تَمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ من أنصار النبوة ﴿تَحْمِلُهُ
 الْمَلَائِكَةُ﴾ الجملة حال من «يأتيكم» وفي (روضة الكافي) في مُعتبرة عباده بن
 سُلَيْمَانَ^(٨). عن الباقر(عليه السلام) - في التابوت - ما لفظه: «والملائكة كانت تَحْمِلُهُ على
 صُورَةِ البقر»^(٩).

(١) مجمع البيان ٢: ٦١٤، الدر المنثور ١: ٧٥٧.

(٢) معاني الأخيار: ٢/٢٨٤.

(٣) المجادلة ٥٨: ٢٢.

(٤) الكافي ٢: ١/١٢ و ٣ - ٥.

(٥) تفسير التبيان ٢: ٢٩٣.

(٦) مجمع البيان ٢: ٦١٤.

(٧) الدر المنثور ١: ٧٥٧.

(٨) فَإِنَّ (الكافي) يروى بالسند الصحيح عن يحيى الحلبي، عن عباده بن سليمان، وقد شهد النجاشي وابن داود
 والعمالي بأن يحيى ثقة صحيح الحديث، وقد ذكر عباده بن أمصاب الباقر(عليه السلام) ولم يتشوش فيه بشيء، رجال
 النجاشي: ٤٤٤/١١٩٩، رجال ابن داود: ١٧١٣/٢٠٤، الخلاصة: ١٢٢/١٨٢، «منه (نقش سر)».

(٩) الكافي ٨: ٤٩٩/٣١٧.

أقول: وعلى تقدير صدور هذا المروي عن الإمام (عليه السلام) يكون ما في كتب اليهود صورة لما ذكره (عليه السلام) من الحقيقة، ففي الفصل السادس من كتاب (صموئيل الأول) في الآية وَخَرَقَ الْعَادَةُ فِي رَجُوعِ التَّابُوتِ، وهو: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمَّا انْتَهَبُوا التَّابُوتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَصَابَهُمْ بَلَاءٌ مِنَ الْمَوْتِ وَالْأَمْرَاضِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرُدُّوا التَّابُوتَ وَيَسْتَعْلَمُوا مِنْ حَالِهِ وَكَرَامَتِهِ أَنَّهُ هَلْ هُوَ الَّذِي سَبَّبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْبَلَاءَ مِنْ اللَّهِ، فَتَبَانُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي عَجَلَةٍ وَيَرْطُوهَا بِقَرْتَيْنِ مُرْضَعَتَيْنِ صَعْبَتَيْنِ، لَمْ يَعْلُمَاهَا نِيَّةً^(١)، وبعد ذلك يُرْجِعُونَهَا عَنْهَا وَلَدِيهَا إِلَى الْبَيْتِ، فَإِنْ سَارَتِ الْبَقْرَتَانِ بِالْعَجَلَةِ عَلَى الْهَدْيِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ مِنْ حَالِ الْبَقْرَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِبَيَانِ كَرَامَةِ التَّابُوتِ، فَسَارَتِ الْبَقْرَتَانِ بِالتَّابُوتِ وَالْعَجَلَةِ عَلَى أَحْسَنِ اسْتِقَامَةٍ وَمَعْرِفَةٍ لِلطَّرِيقِ إِلَى أَنْ أَوْصَلْنَا التَّابُوتَ إِلَى بِلَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وبمقتضى الآية الكريمة والرواية الشريفة أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَتَوَلَّى حَمْلَ التَّابُوتِ بِهَذَا الْحَمْلِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ مِنْ تَسْخِيرِ الْبَقْرَتَيْنِ، وَفِي (مَجْمَعِ الْبَيَانِ) ذَكَرَ شَيْئاً فِيهِ شَبْهُ لِهَذَا، وَلَمْ يَنْسِبْهُ إِلَى إِمَامٍ^(٢)، وَذَكَرَ فِي شَرْحِ (رُوضَةِ الْكَافِي) شَيْئاً مِنْ تَارِيخِ ابْنِ الْأَثِيرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ^(٣).

وأقول: إِنَّ تَفَاسِيرَ هَذِهِ الْأُمُورِ إِنَّمَا أَنْ تُؤْخَذَ عَنِ النَّبِيِّ (سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أَوْ الْإِمَامِ، وَإِلَّا فَلَا، لِأَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ، بَلْ وَالْمُفَسِّرِينَ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْمَقَامِ الثَّلَاثِ مِنَ الْفَصْلِ الرَّابِعِ مِنَ الْمَقَدِّمَةِ، أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ مِنَ النُّقْلِ الْأَفْوَاهِيِّ الْمُتَقَلِّبِ بِالْتَّحْرِيفِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الرَّاجِعِ إِلَى كِتَابِهِمْ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَزْمَنَةِ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ بِاللِّسَانِ الْعِبْرَانِيِّ وَالْبَابِلِيِّ وَالْيُونَانِيِّ، وَهِيَ مَمْنُوعَةٌ عَنْ غَيْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَنَحَرِّمْ فِي مَذْهَبِ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يُعْكَتُوا مِنْهَا حَتَّى الْعَوَامُّ مِنْهُمْ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ فِي النَّصَارَى فِرْقَةُ الْأَنْجِلِيِّينَ تَرْجُمُوهَا بِكُلِّ لِسَانٍ وَنَشْرُوهَا فِي الْبِلَادِ، فَهَذِهِ الْكُتُبُ عَلَى

(١) هو الخشية المعترضة فوق عُنُقِ الثَّوْرِ لِحَرِّ الْحَرَاثِ.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦١٥.

(٣) مرآة العقول ٢٦: ٤٢٠.

ما فيها من التحريف أَقْلُ تحريفاً من الأنفال المأخوذة عنها بالنقل الأفواهي، الذي لم يُبَيِّنْ على الحِفْظ والأمانة.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي في إخباري لإتيان التابوت حال كونه تحمله الملائكة ﴿لَايَةً لَّكُمْ﴾ تعرّفكم نعمة الله وقدرته لتطيعوه وتعرّفكم صدقي، وأنّ طالوت جعله الله ملكاً عليكم، كل ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله وآياته ودلائها حقّ الإيمان.

في (تفسير القمّي) بسند صحيح عن الرضا (عليه السلام): كان إذا وُضع التابوت بين المسلمين والكافرين، فإن تقدّم التابوت رجل لا يرّجع حتّى يُقتل أو يغلب، فأوحى الله إلى نبيهم أنّ جالوت - وهو رئيس المشركين وشجاعهم - يقتله من يستوي عليه درع موسى اسمه داود بن آسي، وفي كتب اليهود في العبرانية «يسي» وكان آسي راعياً، وكان له عشر بنين، أصغرم داود، فلما جمع طالوت بني إسرائيل للحرب بعث إلى آسي أن احضر ولدك. فلما حضروا دعا واحداً واحداً منهم، فألبسه درع موسى، فممنهم من طالت عليه، ومنهم من قصّرت عنه، فقال لآسي، هل خلفت من ولدك أحداً؟ قال: نعم، أصغرم تركته في الغنم، فبعث إليه، فلما دُعي أقبل ومعه مقلع^(١) فنادته ثلاث صخرات في طريقه: يا داود، خُذْنا. فأخذها في مِخْلَته^(٢)، فلما جاء إلى طالوت ألبسه درع موسى فاستوت عليه، ففصل طالوت بالجنود^(٣).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما ملك وجنّد جنوده في معسكره، وفصل بمعنى انفصل بجنوده عن المعسكر ومحل التجمع وسار إلى محل الحرب ﴿قَالَ﴾ لجنوده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ في طريقكم، ليتبين مطيعكم من عاصيكم ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي من أصحابي المطيعين، ولا من حزب الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من أصحابي، ومن حزب الله ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً﴾ واحدة ﴿بِيَدِهِ﴾ فإنه مُسَامَح في ذلك ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ﴾ وعَصَا ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

(١) المقلع: ما يُرمى به الحجر.

(٢) المِخْلَته: ما يوضع فيه السّيف ويُلقى في عنق الدابة.

(٣) تفسير القمي ٨: ٨٢.

وفي (تفسير القمي) عن الصادق (عليه السلام): أَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا وَلَمْ يَغْتَرِفُوا كَانُوا ثَلَاثًا ثَلَاثَةً وَثَلَاثَةً عَشَرَ رَجُلًا^(١). ونحوه عن (تفسير العياشي) عنه (عليه السلام)^(٢). وذكر في (الدر المنثور) رواية ذلك عن البراء وابن عباس^(٣).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم جنده الذين شربوا، والذين لم يشربوا، لأنهم كلهم كانوا مؤمنين غير مشركين، وإن عصى بعضهم ﴿قَالُوا﴾ أي قال نوعهم، لا كلهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

وفي (روضة الكافي) في الصحيح، عن الباقر (عليه السلام) كما روي في (تفسير القمي) عن الصادق (عليه السلام): أَنَّ الَّذِينَ اغْتَرَفُوا قَالُوا هَذَا الْقَوْل، والذين لم يَغْتَرِفُوا هم الذين قال الله فيهم:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾^(٤) أي الذين لم يلهمهم الأمل، بل قرَّبوا الموت في كل حين إلى ظَنِّهم شوقاً إلى لقاء الله، برفع الحجاب الشهواني، كما قدمناه في الآية السادسة والأربعين، قالوا من قُوَّةِ إيمانهم وثبات عزمهم وحسن ظَنِّهم بالله، والمؤمن ينظر بعين الله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي جماعة وفرقة ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ونصره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُدُ دَجَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ

(١) تفسير القمي ١: ٨٣.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٣٤/١٤٣ عن أبي جعفر (عليه السلام).

(٣) الدر المنثور ١: ٧٦٠.

(٤) تفسير القمي ١: ٨٣، الكافي ٨: ٤٩٨/٣١٦.

وَعَلَّمَهُ مَكَايِشَاءَ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْقَتَالِ﴾ هَزَبُوا ﴿فِي مَوْقِفِ الْحَرْبِ﴾ الْجَالُوتَ وَجُنُودَهُ لَمْ
يَعْتَمِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، مَهْمَا بَلَغُوا مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّقَايِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَلِ ﴿قَالُوا﴾ فِي
التَّجَاهَتِ إِلَى اللَّهِ وَدَعَايِهِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ وَالنَّصْرِ لِإِظْهَارِ دِينِ الْحَقِّ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الْإِفْرَاقَ: الصَّبْرَ، شَبَّهُوا الصَّبْرَ بِالمَاءِ الَّذِي يُغْمَسُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَطَلَبُوا
مِنْ اللَّهِ التَّوْفِيقَ لِلصَّبْرِ الْكَثِيرِ الْمُجْدِي، بِحَيْثُ يَكُونُ كَمَا يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الصَّبْرُ صَبْرًا
﴿وَتَبَيَّنَ أَقْدَامُنَا﴾ عَلَى الْحَقِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
إِعْلَاءَ لَدِينِ الْحَقِّ.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الْمَانُورُ أَنَّ هَزِيمَةَ الْكُفَّارِ كَانَتْ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ دَاوُدُ
جَالُوتَ، وَلَكِنْ أُخِرَ ذِكْرُ الْقَتْلِ لِيجري مَا ذُكِرَ لِدَاوُدَ مِنَ الْفَضَائِلِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ،
فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي تَعْجِيدِهِ وَأَظْهَرُ بَيَانًا لِعَظَمَةِ النِّعَةِ عَلَيْهِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ
اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الْمُهَيْبَ ﴿وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ كَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالنَّبُوءَةِ، وَالزُّبُورِ
وَعَمَلِ السَّابِقَاتِ.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ عَنِ الطُّغْيَانِ وَالْإِفْسَادِ الْعَامِّ ﴿بِبَعْضِهِمْ﴾ بِدَلٍ مِنَ
النَّاسِ ﴿بِبَعْضِهِمْ﴾ آخَرُ ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ (جَلَّ جَلَالُهُ) خَلَقَ النَّاسَ
مُخْتَارِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَمِنَ الْغَايَاتِ أَنْ يَتَمَتَّعُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَحْصُلَ مِنْهُمْ النِّسْلُ، وَيَلِدَ
الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ، وَالْفَاجِرُ الصَّالِحَ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ يَكُونُ فِي النَّاسِ أَمْثَالُ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ
بِنَ عَقْبَةٍ وَالْحَبَّاجِ، وَإِذَا خَلَى السَّبِيلَ لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مَلَأُوا الْأَرْضَ فُسَادًا وَأَفْسَدُوهَا،
وَأَنَّ إِهْلَاكَ الْمُنْقَسِدِ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا لَا يَرْتَدِعُ بِهِ مَنْ يَرِيدُ الْفُسَادَ الْعَامَّ، بَلِ

يَعُدُّونَ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْكَوْنِ وَمَقْتَضِيَّاتِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ، كَالْمَوْتِ الَّذِي لَمْ يَرُدَّعِ النَّاسَ عَنْ غِيْهِمْ وَإِنْ قَارَبُوهُ بِالشَّيْخُوخَةِ وَالْمَرَضِ، فَكَانَ مِنَ الرَّادِعِ لَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِدِفَاعِ الْمُفْسِدِينَ وَوُجُودِ الْمُتَازِعِينَ مِنَ النَّاسِ لِلْمُفْسِدِينَ فِي أَغْرَاضِهِمْ، فَكَانَ ذَلِكَ وَمَا وَقَعَ مِنْ مَغْلُوبِيَّةِ الْمُفْسِدِينَ وَمَقْهُورِيَّتِهِمْ عِنْدَ النِّزَاعِ دَافِعاً مِنْ اللَّهِ لَشُمُولِ الْفُسَادِ، وَكَانَ حَذَرُ الْمُفْسِدِينَ مِنْ صَوْلَةِ الْقُوَّةِ وَثَوْرَةِ النِّزَاعِ وَفُوزِ الْخَصْمِ رَادِعاً نَوْعِيّاً فِي الْغَالِبِ، يُوقِفُ الْفُسَادَ عَنْ طَغْيَانِهِ الْعَامِّ.

﴿وَلَكِنْ اللَّهُ﴾ تَفَضَّلَ عَلَى الْعَالَمِينَ بِأَنْ مَنَعَ عُمُومَ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، بِدَفْعِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ عَلَى مَوَاقِعِهَا، فَاللَّهُ (جَنَّتْ آيَةٌ) ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ أَيَّ قَصَصِ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ ﴿آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَعَلَى حَقِيقَتِهَا بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ﴿وَإِنَّكَ لَبِنُ الْمُرْسَلِينَ﴾ مِنْ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، لِتُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلِ الَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
فَعِنَهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٥٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُوا
مِمَّا زَرَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿تِلْكَ أَلْسُلُ﴾ أنثت الإشارة باعتبار الجماعة ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مِّنْ كَلَمِ اللَّهِ﴾ إياه وَفَضَّلَهُ بتكليمه له كموسى ورسول الله، فقد ورد مستفيضاً عن الصادق (عليه السلام): أَنَّ التَّغْيِيرَ الَّذِي يَعْتَرِيهِ (سائر الله عليه وآله وسلم) عند الوحي إنما هو عند تكليم الله له بدون توسُّط جَبْرَائِيلَ، كما رُوِيَ مُسْتَدًّأً فِي (مَحَاسِنِ الْبَرْقِيِّ) و(علل الشرائع) و(توحيد الصدوق) و(كمال الدين) و(أمالى الشيخ)^(١).

بل إن أحاديث المِرْعَاجِ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ناطقة بأن الله كلّمه وناجاه وناداه، كما في (تفسير القمي) و(بصائر الدرجات) و(علل الشرائع) و(أمالى الصدوق) و(أمالى الشيخ) بأسانيدهم عن الكاظم والصادق والباقر وأسير المؤمنين (عليهم السلام) وابن عباس، كما روى أهل السُنَّةِ ذلك في حديث المِرْعَاجِ^(٢).

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ المعجزات ﴿الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جَبْرَائِيلَ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يلجئ عباده على عدم الكفر والمِصْيَانِ له، ووافق ذلك حكمته لفعل، فإنه هو القادر القاهر.

﴿وَمَا أَقْتَتَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من أمهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ ولم يكن ذلك لأجل خفاء الحق على أحد الفريقين ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ بسبب اتباع الهوى من بعضهم ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ﴾ بالله وبما جاءه من البَيِّنَاتِ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ واتبع هواه فاقْتَتَلُوا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ ولكن ليجزي المؤمنين جزاء المجاهدين في نصر الحق ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مما يقتضيه اللطف والحكمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إن أريد الإنفاق الواجب، كما هو ظاهر الطلب، فهو الزكاة، إذا لا يُعْهَدُ إنفاقه عام واجب غيرها ولا تخافوا الفقر في إنفاقكم، فإن ما عندكم إنما هو من رزق الله، وهو رازقكم، فاعتنوا الفرصة في أموالكم في دار الدنيا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ فِيهِ﴾

(١) المحاسن: ١٢١/٣٣٨، التوحيد: ١٥/١١٥، كمال الدين وقام النعمة: ٨٥، أمالي الطوسي: ٢: ٢٧٦.

(٢) تفسير القمي: ١: ٩٥، بصائر الدرجات: ١/٢١٠ و ٣٦/٥٣٤، علل الشرائع: ٢/١٣٢ و ١/٣١٢، أمالي

الصدوق: ٢٧/٢٨٧ و ٤/٥٠٤، أمالي الطوسي: ١: ١٠٣ و ٣٥٣ و ٣٦٢، صحيح البخاري: ٥: ١٤٦/٧٠٣.

صحيح مسلم: ١: ٢٥٩/١٤٥، الدر المنثور: ٥: ١٨٣ - ١٩٨.

فتبتاعون ما ينفعكم فيه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ تُجديكم فيه، إن لم تكونوا من الذين اتقوا الله فيها أمرهم به ونهاهم عنه، وقدموا لأنفسهم ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١) كما في سورة الزخرف ﴿وَلَا شَفَاعَةُ﴾ إِلَّا لِمَن اتَّخَذَ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا وَإِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَمَن ارْتَضَى، كما أشرنا إليه في سورة الفاتحة في الشفاعة^(٢).

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، إذ لم يتركوا لأنفسهم لذلك اليوم وسيلةً تؤهلهم لرحمة الله لهم ونجاتهم.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

﴿الله﴾ اسم وعلم لواجب الوجود إله العالمين (ج ١)، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الإله: هو الذات المقدسة المتصفة بصفات الإلهية، كوجوب الوجود، والعلم والقدرة، والخالقية وغيرها، فلا شيء متصفاً بصفات الإلهية ويستحق أن يُسمى إلهاً وله تحقق إلا الله. ﴿الحي﴾ الثابتة له صفة الحياة، والدائمة بدوام ذاته، ووجوب وجوده لذاته، ومعنى الحي واضح ظاهر.

﴿القيوم﴾ مبالغة في مَنْ قام بالأمر، فإنه (ج ١)، هو القائم بإيجاد العالم وتديره، والمبالغة باعتبار العموم والدوام.

(١) الآية: ٦٧.

(٢) تقدم في: ٦٢.

﴿لَا تَأْخُذْهُ﴾ لا تَغْلِبُهُ وتستولي عليه ﴿سِنَةٌ﴾ بل ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنَّة من الوَسَن: وهو النعاس الذي لا يَبُلُغ النوم، ولكنه يَغْلِب ويوجب الذهول والغفلة عن القيام بما يقام به من الأمور. والنوم معروف ويجوز أن لا تَغْلِب السِّنَّة ولا تستولي، بل يطرأ النوم فيَغْلِب، ولكن الله (جذبه) زيادةً على أنه لا تأخذه ولا تغلبه سِنَةٌ، لا يأخذه ولا يَغْلِبُهُ على قيوَمِيته نوم، وإن كان أقوى من السِّنَّة بكثير.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الموجودات ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميعاً حتى السماوات والأرض، كما تقول: المَلِك له وتحت نفوذ مُلُوكِيته ما في العراق. أي حتى أرض العراق وحدودها، كما اكتفى القرآن في هذا المعنى المتعارف في المحاوراة العُرفِيَّة، بقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما في نحو ثمانية عشر مورداً^(١).

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فَإِنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ وَمَنْ خَلَقَهُ، فليس هناك مَنْ يُتَوَكَّلُ - كما يقول المشركون - أَنْ لَهُ استحقاقاً طَبِيعِيّاً للشفاعة والتأثير لِيَتَوَكَّلُوا تَأْلِيهِمْ مع الله بأحد الوجوه التي يتوَكَّلُونَهَا، ومنها الولادة والمظهرية - تعالى الله عما يقولون، لا إله إلا هو - وإِنَّمَا تكون الشفاعة لعَبْدٍ مُقَرَّبٍ بإِذْنِ الله له بها، تشريعاً له وإِعْلَاءً لِقَدْرِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الْمُطِيعِينَ لَهُ، وترغيباً للناس في الطاعة وما لها من علو الدرجات.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي الملائكة والجن والإنس من العقلاء الذين يَصْبَحُ نَفْيُ الشفاعة عنهم وإثباتها لهم بوجه، والمراد بما بين أيديهم وما خلفهم ما مضى وما هو آتٍ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ أي بما يعلمه ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وعلمه لعباده وفتح لهم باب إدراكه.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ روى الصدوق في (توحيده) بسنده

(١) وهي: البقرة ٢: ١٠٧، آل عمران ٣: ١٨٩، المائدة ٥: ١٧ و ١٨ و ٤٠ و ١٢٠، الأعراف ٧: ١٥٨، التوبة ٩:

١١٦، النور ٢٤: ٤٢، الفرقان ٢٥: ٢، الزمر ٣٩: ٤٤، الصورى ٤٢: ٤٩، الزخرف ٤٣: ٨٥، المجادلة ٤٥: ٢٧،

الفتح ٤٨: ١٤، الحديد ٥٧: ٢، هود ٨٥: ٩.

عن المُفَضَّل، عن الصادق (عليه السلام): أنَّ العرش هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه وحججه، والكُرْسِيُّ هو العلم الذي لم يُطلع عليه أحدًا^(١).

وبسنده عن حفص بن غِيَاث، عنه (عليه السلام) - عن الكرسي في الآية - قال (عليه السلام): علمه^(٢).

وبسنده عن عبد الله بن سِنَان، عنه (عليه السلام) - في الكرسي أو العرش - هو العلم الذي لا يُقدَّر أحد قدره^(٣). وفي (مَجْمَعُ الْبَيَان): أنَّ هذا مروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)^(٤)، وفي (التَّبَيَان): وهو مروي عنها^(٥).

وفي (الدر المنثور) ذكر جماعة أخرجه عن ابن عباس، وذكر جماعة أخرجه عن أبي موسى الأشعري، قال: الكرسي موضع القدمين، وله أطياف كأطياف الرُّحُل^(٦).

وجامعة أخرجوا عن ابن مسعود، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - في المقام المحمود - قال: ذلك يوم ينزل الله على كرسيه، يَنْطُ منه كما يَنْطُ الرُّحُلُ الجديد من تضايقه^(٧).

وجامعة أخرجوا عن عمر، عن رسول الله، أنه قال: إِنَّ كُرْسِيَّه وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّ لَهُ أَطْيَافًا كَأَطْيَافِ الرُّحُلِ الجديد إذا ركب من ثقله، ما يفضل منه أربع أصابع^(٨).

هذا، ولَمَّا بَيَّنَّ الله (جَلَّ جَلَالُهُ) أَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَاءَ أَنْ يَبَيِّنَ إحاطة علمه وسلطته تدبيره بجميع ما هو له وملكه، فتناسب التقريب لإدراكنا القاصر

(١) معاني الأخبار: ٢٩.

(٢) التوحيد: ١/٣٢٧.

(٣) التوحيد: ٢/٣٢٧.

(٤) مجمع البيان ٢: ٦٢٨.

(٥) تفسير التبيان ٢: ٣٠٩.

(٦) الدر المنثور ٢: ١٧، الأطياف: صوت الأفتاب، وأطياف الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتياله.

(٧) الدر المنثور ٢: ١٨.

(٨) الدر المنثور ٢: ١٧.

بالتمثيل بالجسانيات المألوفة لنا، فشبه الإحاطة والسلطة بها لو كانت بحسب التخيل في كرسي الملك، وعلى ذلك جرى تعبير الأئمة (عليهم السلام) في السماوات والأرض أنها في الكرسي.

﴿وَلَا يَتُودُّهُ﴾ يُنْقَلُهُ وَيُسْقَى عَلَيْهِ ﴿حِفْظُهَا﴾ أي النوعين من السماوات والأرض، وكيف ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ في شأنه وقدرته وعلمه ﴿الْعَظِيمُ﴾ في سلطانه وجلاله؟!

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ
آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١٦١﴾

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قد مرّ تفسير الدين في الآية الثالثة والتسعين بعد المائة، وليس الدين بشيء يخفى على الناس بخدّ حقيقته وكرامة كماله لكي يراد منهم بالإكراه، كيف وهو دين الفطرة، مُستقيم صراطه، واضح منهجه، مشرقة أرجاؤه، منيرة أعلامه، بيّنة آياته، هادية دلائله.

﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ بدلالة العقل والفطرة وتتابع المعجزات وتوارد الحجج، وإن تعامى عنها المعاند له حتى أعمى عناده قلبه وعين بصيرته. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾

الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم ثمان مرات، ففي بعضها يكون مسماً خبراً للجمع، ويعود عليه ضمير الجمع، كما في ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ﴾ في الآية، وفي بعضها الضمير المؤنث الظاهر في الجماعة كما في ﴿يَعْبُدُونَهَا﴾ في السابعة عشرة من سورة الزمر^(١)، وفي بعضها ضمير المفرد كما في السنتين من سورة النساء^(٢)، وفي بعضها أُشير إليه بهؤلاء كما في الواحدة والخمسين من سورة النساء^(٣).

وفي (النهاية) و(القاموس): تكون للواحد والجمع، وذكر اللغويون أنه يقال طاغوت للصنم والشیطان ورأس كل ضلال.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان إما باعتبار كونه سبباً كبيراً لطغيان الضلال كالأصنام، وفي (النهاية): ومنه الحديث: هذه طاغية دوس وخنعم. أي صنمهم ومعبودهم^(٤).

وإما باعتبار طغيانه في إغوائه وتجرده ودعوته إلى الضلال كالشیطان ورؤساء الضلال، ففي كل مقام من القرآن الكريم يُراد من الطاغوت ما يناسب سَوْقه، والمناسب للمقام هو الأصنام أو دُعاة الشرك أو الشياطين، ومعنى يَكْفُر بالنسبة لكل من الأخيرين يخالفه في إغوائه بالشرك ويتبرأ منه ومن أتباعه.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ أي أحكم تمسكه ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التي هي أوثق العرى، فإنها ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أبداً، وليس في الإيمان بالله منشأ تردّد أو ريب أو وهن في المحجة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم في الإيمان به ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي هو المُدبر الأولى والأحق بتدبيرهم فيها هو الأصلح لهم بلطفه، وإن كان لطفه (بجنته)، بالدلالة والإرشاد عام لكل البشر، ولكن خصّ الذين آمنوا بالذكر لأنهم لم يعاندوا الحق، ولم يخرجوا أنفسهم عن الأهلية

(١) قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَىٰ آلِهِمُمُ الْبَشَرِ فَنَقَرَهُمُ الْجَنَّاتُ﴾.

(٢) قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوكَ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

(٣) قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّائِفَاتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْنَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾.

(٤) النهاية ٣: ١٢٨، القاموس المحيط ٤: ٣٥٩، الصحاح ٦: ٢٤١٣، لسان العرب ١٥: ٩.

لتوفيق الله لهم إلى الحق والإيصال إلى المقام السامي. فهو ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بتوفيقه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الضلال والمعاصي ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور الهدى والطاعة. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعاندوا الحق، وأخرجوا أنفسهم عن الأهلية للطف الله وولايته في تدبير شؤونهم بالتوفيق والتسديد، وقد تولوا الطاغوت، فهم إذن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يُخْرِجُونَهُمُ الظاهر من الضمير إرادة المغوين على الكفر والمغرين بالضلال كالشياطين ورووس الضلال، فإنهم يُخْرِجُونَهُمُ ﴿مِنَ النُّورِ﴾ نور التوفيق والوصول إلى الحق ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الخذلان والكفر والضلال ﴿أُولَئِكَ﴾ الكافرون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
 أَنِ اتَّخَذَ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِثُ
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ
 عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
 بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
 قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
 فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
 جِمَازِكَ وَانْجَعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ المراد ألم تعلم، كما ذكرنا قريباً ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ المحاجة تشتمل الجدل وإن كان داحضاً، والظاهر أَنَّ المحاجَّ هو النمرود الملك. وفي (تجمع البيان): أَنَّ هذه المحاجة كانت قبل إلقاء إبراهيم في النار، عن الصادق (عليه السلام) ^(١).

قلت: ولم أجد روايتها، وفي (تفسير القمي) لا بعنوان الرواية، ولا (الدر المنثور) عن السدي: أَنَّها بعد ذلك ^(٢). وقد جرأه على محاجة إبراهيم بالباطل طغيانه وعتوه وطره.

﴿أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأنَّ الله آتاه الملك في الدنيا وأمل له فحاجَّ إبراهيم. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي﴾ وإلهي هو ﴿الَّذِي يُخَبِّرُنِي بِأَمْرِي﴾ قال: ﴿نمرود:﴾ أَنَا أَحْيَى وَأَمِيتُ ﴿قيل:﴾ إِنَّه صرف الكلام عن وجهه، حيث قال له إبراهيم: كيف تحيي وميت؟ قال: أَعْمِدُ إِلَى رَجُلَيْنِ قَدْ وَجِبَ عَلَيْهَا الْقَتْلُ، فَأُخْلِ عَنْ وَاحِدٍ، وَأَقْتُلُ الْآخَرَ، فَأَكُونُ قَدْ أَحْيَيْتُ وَأَمِتُ.

قاله القمي في (تفسيره) لا بعنوان الرواية، وأورد نحوه في (الدر المنثور) رواية عن ابن عباس ^(٣).

أقول: مقتضى الآية ومحاجة نمرود لإبراهيم في ربه هو أَنه لم يدع كونه شريكاً لله ليقول: أَنَا أيضاً أَحْيَى وَأَمِيتُ مثل الله، ويُغالط في ذلك بأن يقتل أحد الشخصين ويستحيي الآخر، بل إِنَّه يُنكر ربَّ إبراهيم ويدعي الإلهية لنفسه، فيكون قوله: «أَنَا أَحْيَى وَأَمِيتُ» مصادرةً جزائيةً يريد بها الإحياء والموت للذين قالها إبراهيم، فأراد إبراهيم أَنْ يَسُدَّ باب المصادر بالدعاوى السخيفة الباطلة ولذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾

(١) مجمع البيان ٢: ٦٣٥.

(٢) تفسير القمي ١: ٨٦، الدر المنثور ٢: ٢٥.

(٣) التخریج السابقة.

إِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ كَمَا تَزْعُمُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ والقادر على الإحياء والإماتة قادر على التصرف بالشمس ﴿فَأَتَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي نمرود الكافر بالله، أو نوع الذي كفر من الحاضرين نمرود وأذنايه، و«بُهِتَ» بالبناء للمفعول فهو مبهوت ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يوصل بلطفه ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بل يتركهم وأهواءهم.

ومن المعلوم أَنَّ القرآن الكريم لا تتعلق أغراضه الكريمة في نهجه المجيد بالقصص من حيث تاريخيتها، وإنما يذكرها للموعظة وضرب المثل وغير ذلك من الأغراض الحميدة، فكانه قيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ إلى آخر الآية، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِي عِنَادِهِ وَضَلَالِهِ وَمُكَابَرَتِهِ لِلْحَقِّ الْوَاضِحِ كَهَذَا ﴿أَوْ﴾ يَكُونُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُعْتَقِدُ بِلَايَاتِهِ ﴿كَأَلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ روى القمي في (تفسيره) والطبرسي في (احتجاجه) عن الصادق (عليه السلام): أَنَّهُ أَرَمِيَا النَّبِيَّ^(١).

وفي (تفسير البرهان) عن أمير المؤمنين (عليه السلام): أَنَّهُ عَزَّيْرٌ^(٢). وفي (الدر المنثور) عن أمير المؤمنين، وصححه الحاكم، وعن ابن عباس بعدة طرق أَنَّهُ عَزَّيْرٌ^(٣). فلا مَسَاسَ لصاحب الكشف في اختياره أَنَّ صاحب القصة كافر^(٤). وقد كفانا ابن المنير في (حاشيته) مؤنة الردِّ لما استند إليه (الكشاف) في دعواه.

﴿وَجَنِّ خَاوِيَةٍ﴾ أي ساقطة أعاليها، كقوله في سورة الحاقة: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخَلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٥).

﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي سقوفها، ويقال: العرش للسري، وإرادته هنا مُمكنة، وقيل: معنى خاوية خالية، وفي (المصباح) والقاسوس) خوت الدار: خلت من أهلها^(٦)، لكن يكون على هذا في إعراب «على عروشها» تكلف بعيد عن كرامة

(١) تفسير القمي ١: ٩٠، الاحتجاج ٢: ٣٤٤.

(٢) تفسير البرهان ١: ٢٤٩.

(٣) الدر المنثور ٢: ٢٦.

(٤) الكشف ١: ٣٠٦.

(٥) الآية: ٧.

(٦) المصباح المنير ١: ٢٢٤، القاموس المحيط ٤: ٣٢٧ - ٣٢٨.

القرآن.

﴿قَالَ أَنَّى﴾ كيف ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ في رواية القمي في (تفسيره) عن الصادق: فنظر إلى السباع تأكل الجيف فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(١).

وفي رواية (الدر المنثور) عن ابن عباس، في ذكر القرية: قد باد أهلها ورأى عظاماً فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾ الآية^(٢).

ولا يخفى أَنَّ الظاهر من لفظ «يحيي» و«موتها» وقصة موت القاتل وإحيائه والاحتجاج عليه بذلك، هذه كلها تشير وتؤمى إلى المشار إليه بكلمة «هذه» وهي الأجساد أو العظام، واستغنى عن ذكرها بدلالة المقام، وإشارات الآية كما في قوله (سار) قبل آيات: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾^(٣) وكثير من نحو ذلك.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ لا يخفى أَنَّ الظاهر من الآية هو المعنى الحقيقي للموت مع أَنَّ رواية القمي عن الصادق (عليه السلام) ورواية (الدر المنثور) التي صححها الحاكم عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ورواياته الأخرى عن ابن عباس والحسن ووطب، هذه كلها صريحة في أَنَّ هذا الشخص قد مات وتلاشت أجزاؤه وتفرقت، فأحياه الله بأن جمعها وكسا عظامه، ولكن المفسر المصري المعاصر قال ما حاصله: إِنَّ الإمامة والموت هنا عبارة عن فقد الحس والإدراك، وهو المسمى بالسبات، لا مفارقة الروح للبدن^(٤)، ولم يتخضرن في الجزء الأول من تفسيره لكي أراه ماذا يقول فيها مر من قوله (سار)، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٥).

﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في موتك هذا ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ وقد أظهرت المشيئة الإلهية لك شيئاً من خارق العادة

(١) تفسير القمي: ٩٠: ١.

(٢) الدر المنثور: ٢٧: ٢٧.

(٣) الآية: ٢٤٣.

(٤) تفسير المنار: ٤٩: ٥٠.

(٥) الآية: ٥٦.

ودلائل القدرة على إحياء الموتى وإن تفرقت أوصالهم.
﴿فَأَنْظِرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَخَسَّسْهُ﴾ لم يتأثر بالسنين المتطاولة، فإن مقتضى العادة أن تتتابع عليه تغييرات السنين إلى أن تلاشيهِ في أثناء المائة عام، فهذه القدرة يحیی الله الموتى.

﴿وَأَنْظِرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ تكرر الأمر بالنظر يُشير إلى انتقال الكلام إلى وجهة أخرى تدل على طول لبثه في الموت، وهي أن حماره قد أفنته السنين، وبادت أجزاؤه، وتفرقت عظامه، كما صرحت به الروايات المشار إليها.

﴿وَلَنَجْجِلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي أمتناك وبعثناك بعد البلى، ل ترى بالعيان كيف يحيي الله الموتى، ولنجعلنك آية وموعظة للناس في إحياء الموتى وقُدرة الله، وهذا ظاهر من وجود واو العطف وسياق الكلام.

﴿وَأَنْظِرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي المعجمة وضَمَّ النون الأولى، أي نجعلها بعد تفرقها بالبلى يرتفع وينشُر بعضها إلى بعض بالتركيب، وقد نصت الروايتان المشار إليهما على عظامه وعظام حماره، وأما عظام أهل القرية فلم يُعرف إحياءها.

﴿ثُمَّ نَكْسُوْهَا لَهَا فَلْيَا تَبَيَّنْ لَهُ﴾ ما ذكر ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ يعرف من أنه لم يقل: الآن علمت أنه عالم بذلك، وأنه يعلم بالعلم المستمر وهذه المشاهدات تؤكد علمه ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ جرت في ذلك شؤون، ويُدلُّ على تلك الشؤون ويُفسِّرُها ما في الآية وهو ﴿قَالَ﴾ الله له بالاستفهام التقريري: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ بقدرتي على إحياء الموتى، وأني أحييها.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَى﴾ إني مؤمن بذلك ﴿وَلَكِنْ﴾ للعيان أثر كبير في الاطمئنان ورسوخ العلم في القلب فطلبتُ الرؤية ﴿لِيُظَمِّنَ قَلْبِي﴾ ويزداد يقيني بسبب المشاهدة بما أمنت به كما في رواية (الكافي) في أول باب الشك من أصوله، والصحيحة عن (المحاسن)^(١).

﴿قَالَ﴾ الله له: وإذا كنت تطلبُ الرؤية ﴿فَخُذْ أَرْقَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضم الصاد وسكون الراء بمعنى أملهن واجمعهن إليك. وقيل: معناه فقطعهن، ولكن لا معنى لتعليق إليك به، وأما تعليقها بقوله (تعال): ﴿خُذْ﴾ مع وجود الفاصل الكثير والتفريع بالفاء، فلا مسأله له في فصيح الكلام، والأخذ ليس مُساوفاً للإمالة والضم إليه بل هو أعم.

﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ وهذا كافٍ في الدلالة على سبق الأمر بالتقطيع، وقد تعددت الروايات الصحاح والمعتبرة عن الباقر والصادق والرضا (عليهم السلام) في أن الجبال كانت عشرة، كما أحصى غالبها في (الوسائل) في باب الوصية بالجزء^(٢).

﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ وقد اكتفى بذكر هذا الوعد عن ذكر الوقوع لما هو معلوم من قدرة الله، وإنه لا خُلفَ لوعده ﴿وَأَعْلَمُ﴾ أي وليتأكد علمك ﴿أَنَّ﴾ الله عزيزٌ بقدرته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أُتْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

(١) الكافي ٢: ٢٩٣، ١/المحاسن: ٢٤٧/٢٤٩.

(٢) وسائل الشيعة ١٣: ٤٤٢ باب (٥٤).

لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إن المثل الذي يضرب لهؤلاء في جزائهم المضاعف من الله ونتيجة أنفاقهم المباركة هو ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي كالمثل الذي يضرب بحبة ﴿أُنْبِتَتْ﴾ من إسناد الفعل إلى بعض أسبابه ﴿سَبْعِ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ وليس ذلك فرضاً موهوماً كأنياب الأغوال، بل هو كثير مُشاهد مرئي، وإن كان قليلاً بالنسبة إلى نوع الزرع الكثير، وكثيراً ما يُشاهد أن الحبة يخرج منها أكثر من سبع سنابل، بل وعشر وعشرين، وكثيراً ما شوهد في قُطُرنا في السنبِل القويّ الجيد من الجنطة والشعير تَبْلُغُ الثَّانِينَ حَبَةً.

﴿وَاللَّهُ يَضَاعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب نيته وإخلاصه وإقباله على الخير ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ في رحمته وقدرته وجزائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده ونياتهم فيها ووجوهها، ولا يخفى أن سبيل الله غير مختصّ بالجهاد.

وفي (مجمع البيان): أن الآية عامة في النفقة في أبواب البرِّ، وهو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام).^(١)

قلت: وإن قوله (عالم): ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ مع سَوْقِ الآية يُعْطِي أن الجزاء المضاعف غير مختصّ بالإنفاق، بل يُعَمُّ أعمال الخير كلها، كما روي في (محاسن البرقي) في صحيحة عمر بن يزيد^(٢)، وعن (أمالى الشيخ) و(تفسير العياشي) في مُعتبرة الواشي، عن أبي عبد الله (عليه السلام).^(٣)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ
مَا أَنْفَقُوا مَنَآوِلًا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

(١) مجمع البيان ٤: ٦٤٦.

(٢) المحاسن: ٢٥٤/٢٨٣.

(٣) الأمالى ١: ٢٢٧، تفسير العياشي ١: ١٤٧/٤٨٩.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ
 مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ يَتَأَيَّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
 يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ
 فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا
 كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا﴾ بعد إصاله
 لمن أعطوه إياه ﴿مَتَى﴾ المن معروف، وهو أن يتناول المعطي على من أعطاه بأنه
 أعطاه، ومنه قوله: ألم أعطك؟ ألم أحسن؟ استطالة عليه، لا في مقام ما يرجع من
 التنصل من القطيعة والبخل ﴿وَلَا أَذًى﴾ بسبب الإعطاء.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بيان لأن الجزاء المضاعف المذكور في الآية السابقة
 هو أجر للمنفقين على إنفاقهم، وذلك أهنأ في نفوس العامة، وفيه ترغيب لهم، وإن كان
 تفضل الله أهنأ عند الخواص وأقرب إلى الكرامة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ في الاعتذار غير منكر ولا مستوحش، كأن يتلطف بالكلام
 في رد السائل والاعتذار منه والدعاء له ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما يصدر منه من إلحاف أو إزعاج
 في المسألة ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ يعني السائل من سعيته، ولكنه
 لأجل مصالحكم في الدنيا والآخرة استفرضكم في الصدقة وإعطاء السائل ﴿حَلِيمٌ﴾
 فعليكم يا عباده بالحلم والفران لما يبتئ من السائل.

وقد أكد الله إرشاده في أمر الإنفاق والصدقة فقال ﴿جَنَّتِ الْآيَةُ﴾: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ وتكونوا قد أنفقتم أموالكم، ولم تبقوا لكم عند الله شيئاً من الأجر والثواب، فَإِنَّ مَفْسَدَةَ الْمَنِّ وَالْأَذَى ورذيلتها تذهب بفضيلة صدقاتكم، وإن قصدتم بها القربة في حينها فأنتم في ذلك ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ الرِّثَاءُ والرياء والمراءاة مأخوذة من الرؤية، وهو أن يعمل الإنسان العمل لا لحسنه ولا لوجه الله، بل لأن يراه الناس تهاياً به ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لكي يطلب ما عند الله.

﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي مثل المرابي المنافق الذي لا يؤمن بالله في أنه لا خير فيه ولا في إنفاقه ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانَ﴾ الصَّفْوَانُ كالصِّفَا هو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يُخْبِلُ أَنَّهُ أَرْضٌ نَافِعَةٌ صَالِحَةٌ لِلنَّبَاتِ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي مطر عظيم القطر شديد الوجود فَجَرَفَ ذَلِكَ التُّرَابَ عَنْ ذَلِكَ الصَّفْوَانَ ﴿فَتَرَكَهُ﴾ صَفْوَانًا مُجَرِّدًا ﴿صَلْدًا﴾ أي صلباً أملس لا يصلح للنتيجة.

﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ أي المرازون بإنفاقهم الذي أشير إليه بالآية ﴿عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا﴾ على فائدة مَّا أنفقوه، وكان مَّا كَسَبُوهُ وتعبوا في كسبه وجمعه، فلا يَقْدِرُونَ لا على شيء من عينه، ولا من ثوابه، فذهب عليهم بريائهم ونفاقهم هدرًا، وذلك أشدَّ لمسراتهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولا يوصل إلى الهدى بتوفيقه ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإنهم أخرجوا أنفسهم بنفاقهم عن أهليتهم للتوفيق.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٥﴾ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ

لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ولأن يُثَبِّتُوا أنفسهم على طاعة الله وطلب رضاه، فإنَّ هذا المال عند نوع الناس صعب، وإن سَهَّلَتْ عليهم العبادات البدنية، ويقال: إنَّ نوع الأعراب كانوا يستصعبون الزكاة ويَعُدُّونها كالإتاوة، فالذين يسمحون بأموالهم ويُنفقونها ابتغاء مرضاة الله يكون لهم من الغايات الحميدة تثبيت أنفسهم على الطاعة وعمل الخير.

ودخول «من» الجارة على «أنفسهم» مع أنها مفعول للتثبيت مثله شائع في اللفظة كقولهم: رَوْضٌ من عريكته، وهَزٌّ من عطفه، ولعلُّ السرِّ في ذلك أنَّ هذا المنفق يُنْفِقُ مِن نَفْسٍ قد رَوْضَهَا وَثَبَّتَهَا في الجملة على الطاعة حتَّى سمحت لله بالمال العزيز عندها، فهو يجعل من مقاصده في الإنفاق تثبيتها على طاعة الله وابتغاء مرضاته بالنسبة للمستقبل من الأزمان والحالات، وهذا الاعتبار يكون هؤلاء المُنفِقُونَ الكرام كأنهم يُثَبِّتُونَ من أنفسهم بعضها، فمثلهم ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بُسْتَانٌ ﴿بِهَرْمُوزٍ﴾ أرض مرتفعة، لإِنِّهَا تكون أَزْكَى شَجَرًا وَأَحْسَن ثَمَرًا وَأَنْفَى هَوَاءً، لسلامتها من وَخَامَةِ المُسْتَنْقَعَاتِ وَزَرَ الْأَرْضِ، وإضرار ذلك بالشجر والثمر.

﴿أَصَابَهَا وَأَيْلٌ﴾ تقدَّم تفسيره^(١)، ومن المعلوم أنَّ سقي المطر للبُستان، بل كلُّ زرع، أحسن لتنميتها وجودة تربتها من كلِّ سقي ﴿فَقَاتَتْ أَكْلَهَا﴾ أي ثمرها المأكول ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ لما تَوَتَّيَه إذا سقيت بغير المطر.

﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِتْهَا وَأَهْلٌ فَطُلَّ﴾ يكفيها في ذلك لجودة منبتها، وإن كان مطراً صغير القطر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومنه إنفاقكم بحسب ثباتكم ﴿بَصِيرٌ﴾.

ثم كرر المثل في الزجر عن إبطال الصدقة بالمن والأذى بقوله (تار): ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ﴾ وكيف يؤد، ومن ذا الذي يؤد ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾! ومن حيث بهجة منظرها ودوام سقيها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونه ﴿لَهُ فِيهَا﴾ زيادة على النخيل والأعناب اللذين تكون ثمراتها فاكهة وغلّة وقوتا ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي يُسْتَغَلُّ ويُتَفَكَّهُ بها ﴿وَلَهُ﴾ هو في زمان وحال يكون فيها أحرص ما يكون على هذه الجنة حيث إنه ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ والشيخوخة وانقطع عن الكسب وشب فيه الحرص ﴿وَلَهُ﴾ زيادة على ذلك ﴿ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا﴾ يحرص على الإنفاق عليهم وعلى توريثهم ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي تلك الجنة العزيرة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ الإعصار ريح ترتفع بتراب فتلتف وتستدير وتقلع الشجر والنخل بقوتها ﴿فَأَحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنة العزيرة بالنار وتلاشت بالإعصار.

وإذا كان أحدكم لا يؤد ذلك، بل هو عليه من أعظم المصائب، فلماذا يُسلط نار المن والأذى في إعصار جهله، ويحرق بها إنفاقه ويُبطله مع أن الحاجة إلى ثمراته أشد من الحاجة إلى تلك الجنة من ذلك المحتاج؟

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لغاية أن تتفكروا فتعرفوا رُشدكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ
تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُّوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٤٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ

وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿٥٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَزْوَاجًا لَّيْسَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بالتجارة ونحوها
﴿وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ من المعادن والزراعة، والظاهر أن المراد مطلق
الإنفاق في سبيل الله سواء كان في الزكاة أم في غيرها، والمراد بالطيب هو غير الرديء
في ذاته أو بحرمة، كما فُسر بالأمرين المذكورين في روايات (الكافي) عن أبي بصير
عن الصادق (عليه السلام) ^(١). وروايات العياشي عن عبدالله بن سنان وأبي بصير ورفاعة،
عن الصادق (عليه السلام). وعن زُرارة وأبي الصباح عن الباقر (عليه السلام) ^(٢). ونحوها روايات
(الدر المنثور) ^(٣). ومن ذلك يتأكد ظهور الآية في المعنى الأعم من الطيب بالحِلِّ
والجودة أو بالجودة المقابل للرداءة والخبيث.

﴿وَلَا تَيْمَمُوا﴾ ولا تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ وتعديلوا إليه عن الطيب مع خُبثه
بالرداءة أو بالحرمة بالمعنى المقابل للطيب بالمعنى العام المتقدم ﴿مِنْهُ تَنْفَقُونَ﴾
وتجعلون إنفاقكم منه مع وجود الطيب، وأما من لم يعدل عن الطيب إلى الخبيث، بل
كان كلُّ ماله رديئاً قبل منه في الزكاة وشكر على الإنفاق منه.

﴿وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِينَ﴾ الواو للحال، والجملة لرفع المغالطة في مِصدق الخبيث،
أي إنكم لا تأخذونه في حقوقكم وهداياكم وصلاتكم ﴿إِلَّا﴾ أن تتنازلوا وتتساهلوا في
رداءته وخُبثه ﴿أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ كناية عن التنازل المذكور، كمن يُغمض عينيه
لئلا يرى خُبثه.

(١) الكافي ٤: ٤٨/٩ و١٠.

(٢) تفسير العياشي ٩: ١٤٨ - ١٤٩/٤٨٨ - ٤٩٢.

(٣) الدر المنثور ٢: ٥٨ - ٦٠.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم على عباده، وهو الذي يرزقكم وإياهم، وما بكم من نعمة فمن الله ﴿حَمِيدٌ﴾ أي محمود على نعمائه وآلائه العامة، ولكنه شرع لكم الإنفاق وطلبه منكم لأجل مصالحكم في الدنيا والآخرة، فلا يحرمكم الشيطان بإغوائه عظيم فضل الإنفاق.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ ويخوفكم به لنلا تنفقوا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ التي لا يخفى عليكم كونها فحشاء، فاعرفوا بهذا عداوته لكم وخُبثه وخِذاعه فيما يعدكم ويخوفكم به.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لكم فيها فرطتم به ﴿وَفَضْلاً﴾ أي زيادة في نعمته ورحمته ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ في فضله ورحمته، أي واسع الفضل والرحمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بإنفاقكم ونياتكم فيه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ في (التيان) و(تجمع البيان) في معنى الحكمة: وقيل: وهي القرآن والفقه، وهو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) ^(١) انتهى.

والذي وجدته عن (تفسير العياشي) عن الصادق (عليه السلام): أن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين ^(٢).

وفي (تفسير البرهان) عن الصادق (عليه السلام): الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمرة الصدق ^(٣).

وفي (الكافي) في باب معرفة الإمام، في الصحيح عن الصادق: طاعة الله ومعرفة الإمام، وعن (المحاسن) نحوه ^(٤).

وعن (الكافي) أيضاً، عن الصادق (عليه السلام): معرفة الإمام واجتنب الكبائر ^(٥).

وفي روايات (الدر المنثور) عن ابن عباس: أن الحكمة النبوة أوقفه القرآن،

(١) تفسير التبيان ٢: ٣٤٩، مجمع البيان ٢: ٦٥٩.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٥٩/٤٩٨.

(٣) تفسير البرهان ١: ٢٥٦/٨٠.

(٤) الكافي ١: ١٤٢/١١، المحاسن: ٦٠/١٤٨.

(٥) الكافي ٢: ٢١٦/٢٠.

أو المعرفة به، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله^(١).

أقول: ولعل ذلك باعتبار ما هو أعمّ نفعاً وأعظم من مصاديق الحكمة، فإنها ما ينفع من العلم بالحقائق، ومن المؤلم والمؤسف أن اسم الحكمة شاع استعماله - مثلاً سُمي اللديغ سليماً - بالفلسفة اليونانية، ومنها مزاعم العقول العشرة، تلك المزاعم التي جحدت مقام الله الجليل في الإلهية، بنحو لم تجرأ عليه الوثنية، بل هي عبارة موهمة عن الطبيعة، إذ لم تسمح لله إلا بأنه علل العقل الأول بالتعليل الطبيعي بلا إرادة منه ولا اختيار، فلا إرادة ولا خلق ولا مشيئة له أيضاً في غير العقل الأول من الموجودات، ولا سنجية ولا ربط، خلافاً لدلالة العقل والقرآن الكريم على أن الله خالق الخلق بمشيئته، وأن العالم صادر عن خلق وإرادة، وأن التشبثات لهذه المزاعم مردودة بالحل والنقض ولزوم التناقض وسخافة ابتنائها في عدد العقول على موهومات الهيئة القديمة في الأفلاك وحصر عددها بالتسع، وقد أشير إلى شيء من ذلك في (فصول العقائد) لنصير الدين الطوسي^(٢)، وآخر الجزء الثاني من (المدرسة السيارية) ومع هذا كله يسمي القائلون بمزاعم العقول بالعرفاء وأهل الوصول والمكاشفات - مثلاً سُمي اللديغ سليماً - تعالى الله عما يقولون.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بحسب جده وما حصله باختياره من كونه أهلاً لهذه الرحمة والنعمة والتوفيق لها.

﴿وَمَنْ يُوْتُ﴾ بالبناء للمفعول والجزم بأداة الشرط ﴿أَتَحْكُمَ﴾ مفعول ثانٍ ﴿فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُهُ﴾ بما ذُكر به من آيات القرآن الكريم في الإنفاق وغيره من الأخلاق والأحكام، ويكون له نصيب من الحكمة ﴿إِلَّا أُولَ الْأَنْثَابِ﴾ الظاهر في اللب القلب، والقرآن ينسب التعقل والتفهم إلى القلب، والمراد هنا من لم يتم قلبه بالهادي على الضلال وغفلة الجهل البسيط والضلال المركب وهو أقبحه، فإنه كأنه لا قلب له ولا لب، وربما فُسر اللب هنا بالعقل، وكأنه تفسير بما يؤول إليه المعنى المكنى عنه.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تُبْدُوا
الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
وَلَا كَانَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ
﴿٧٩﴾

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ «ما» موصولة متضمنة معنى الشرط، صلتها «أنفقتم» وعاندها ضمير محذوف يفسره ويبيّنه «مِنْ نَفَقَةٍ» سواء كان الإنفاق في الطاعة أم في المعصية، مقررنا بالإخلاص أم بالرياء ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ عطف على أنفقتم، والنذر المشروع أن يقول: لله علي أن أفعل، أو أترك كذا، أو لله علي أن كان كذا أن أفعل أو أترك كذا، ويشترط أن يكون المنذور طاعة لله.

وقد يكون النذر للطاغات أو في معصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ على ما هو عليه ويجازي عليه جزائه، والجملة خبر للموصول، والرباط هو الضمير في «يعلمه» والخبر ساد مسد الجزاء للشرط، ولذا دخلت عليه الفاء.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في إنفاقهم أو نذرهم للطاغات أو في المعصية أو في مخالفتهم للنذر الصحيح لله ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم على الله ويعارضونه ويمنعونهم بالقوة من عقابه.

﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ﴾ التي يُراد بها وجه الله من الواجبة والمندوبة ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ أي فإن الصدقة نعمة شيئاً هي في ذاتها، ولا يُذهب الإبداء لها بفضلها إذا لم يُعرض عليها بسببه شيء من الرياء أو إذلال المُتصدق عليه، وأما ما ذكره في (مجمع البيان) والكَشَاف من أن المعنى فَنِعْمَ شيئاً إبداءها^(١)، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وأعطى إعرابه فهو تَكْلُفٌ لا يُناسب جلالة القرآن الكريم.

﴿وَأَنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْتُوَهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أي وتكتمتم مع إخفائها من إيصالها إلى مُستحقِّها من الفقراء بحسب الحاجة والأولية ﴿فَهُوَ﴾ أي الإخفاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص وحِفظ عِزَّةِ الفقير وحرمة المُتَعَفِّفِ. ﴿وَيُكْفِرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي ويكون الإخفاء سبباً لأن يُكْفِرَ الله عنكم بعض سيئاتكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مما تبُدونه أو تخفونه تُرَاوِنُ فيه أو تُخْلِصُونَ به له ﴿خَيْرٌ﴾ لا يَخْفَى عليه شيء.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الله ﴿هَذَا هُمْ﴾ أي إيصالهم إلى الحق، ولا أنت مسؤول عن ذلك، فإنما عليك البلاغ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ أي يُوصِلُ بتوفيقه إلى الحق والعمل الصالح ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مَنْ هو أهل للتوفيق.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ يا أيها الناس ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ من المال أو طيبه وخيره، أو سُمِّي خيراً لأنه يقصد به وجه الله وسبيل الخير ﴿فَلَا تُفْسِدْكُمْ﴾ يعود النفع من إنفاقه.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي الوجه الذي يُتَوَجَّهُ به إلى الله، وفي (التيبان): ابتغاء مرضاة الله^(٢). وفي (الكَشَاف): وطلب ما عنده^(٣)، انتهى.

وما ذكره إنما هو غاية يَقْصِدُهَا الغالب في عملهم لوجه الله، وقد تكون الغاية للأولياء هو أن الله أهل للعبادة، كما يروى عن زين العابدين (عليه السلام) تصريحه بذلك. وإذا لم يُثَبِّتْ ما ذُكِرَ في (الدر المنثور) وغيره من أن السبب في نزول هذه الجملة هو

(١) الكشاف ١: ٣١٦، مجمع البيان ٢: ٦٦٢.

(٢) تفسير التبان ٢: ٣٥٤.

(٣) الكشاف ١: ٣١٧.

الرخصة لمن امتنع عن الإنفاق على أرحامه المشركين^(١)، فالظاهر أنها خبرية يُراد بها تأكيد النهي عن أن يُنفقوا إلا ابتغاء وجه الله خالصاً من الرياء.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يوصل إليكم جزاؤه تاماً وافياً ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ بنفسه ولا تأخير إبعاله عن محل الحاجة، فإنه يصل إليكم في حال أنتم فيه في أشد الحاجة إلى ذلك الجزاء.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَأِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِالْئِيلِ وَالْتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٤﴾
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
قَاوَلَتْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ قال في (التيبان) و(تَجَمُّعُ البَيَانِ) و(الْكَشَافُ): تقديره «النفقة للفقراء»^(١) ويدلُّ على ذلك تعدُّد ذكر الإنفاق في الآيات، وكونها مَسْوَقة له، وأمَّا تعليق الجارِّ والمجرور بكلمة «وما تُتَفَقَّوْا» في أوَّل الآية فلا يَصِحُّ لأنَّ الإنفاق إنما يُعَدَّى بعلَى لا باللام مضافاً إلى ما بعده من حيث الفصل الطويل وعدم الانسجام.

﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في (تَجَمُّعُ البَيَانِ): قال أبو جعفر ، يعني الباقِر (عنه السلام): نزلت في أصحاب الصُّفَّة. ورواه الكلبي عن ابن عبَّاس^(٢) انتهى.

وفي (الدر المنثور) ذكر أنه أخرجه ابن المنذر من طريق الكلبي، وأخرجه ابن سعد، عن محمد بن كُثْب القُرَظِي، عن ابن عبَّاس^(٣).

ولفظ الآية عامٌّ وإن كان أصحاب الصُّفَّة بمقتضى الرواية مورد النزول، والإحصار هو المنع أو الحبس الذي يكون من ناحية المُحْصَر، أي مَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ وحبسوها في سبيل الله بسبب معاداتهم للمشركين، أو لأنَّهم وقفوا أَنْفُسَهُمْ على التَّجَنُّد في سرايا رسول الله وحرابه، فَحَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ على انتظار ذلك أو على خدمة الدين أو طلب العلوم الدينية، فهم من أجل ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ﴾ للتكسب والاحتراف للرزق بالتجارة ونحوها ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ﴾ وترويض أَنْفُسَهُمْ على العِفَّة مع شدَّة الحاجة، فإنَّ مَلَكَ العِفَّة قد يَغْلِبُهَا الْفَقْر ودوام الحاجة، ولكنها إذا كانت لا تزال مؤيِّدة بالتعفُّف وترويض النفس كانت هي الغالبة.

﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ بما هم فيه من الْفَقْر والحاجة ﴿بِسِيَاهُمْ﴾ وبخائِلهم ودلائل أحوالهم على الحاجة، أي إنَّ سِيَاهُمْ كافية في تعريف حالهم، لا إنَّ معرفتهم بالفقر منحصرةٌ بدلالة السِيَاهِ، فإنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكثير من الناس كانوا يعرفون حال الكثير من المذكورين بالخبرة والاطِّلاع، والظاهر أنَّ الخطاب في «تَعْرِفُهُمْ» ليس لحصر المعرفة بالرسول، بل المعنى يَعْرِفُ حالهم بسِيَاهِهِمْ، فهم وإن

(١) تفسير التبيان ٢: ٣٥٥، الكشاف ١: ٣٦٨، مجمع البيان ٢: ٦٦٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦٦٦.

(٣) الدر المنثور ٢: ٨٩٨.

تقضى بهم الفقر ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

في نهاية ابن الأثير: من سأل وله أربعون درهمًا فقد سأل الناس إلحافًا^(١).
وقال الزجاج: ألحف: شمل بالمسألة وهو مُسْتَقِنٌ عنها^(٢)، ونحوه في (أساس الزمخشري)^(٣).

وفسروا الإلحاف أيضاً بالإلحاح في المسألة، ومعنى الآية: لا يسألون نوع الناس منها احتجوا، ولا يشمل سؤالهم كل من يحتملون إسعافه لهم، فيكونوا بذلك مُلِحِّفِينَ ومُلِحِّين بنوع السؤال وإن لم يلحوا في أفرادهم، ولا يُلَزَم في فضل المذكورين أن لا يسألوا أهدأ أبداً، فلا يتجدش في تعفُّفهم أن تلجئهم الضرورة إلى أن يذكروا حالهم اتفاقاً لمن هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم أو من ينوب عنه.

ولا يتعد أنه لا ينفك أحد من أن يسأل حاجة ولو من خواصه، بل قد يجب ذلك أو يُندب، ولكن في (تجمع البيان) قيل: معناه أنهم لا يسألون الناس أصلاً عن ابن عباس، وهو قول الفرأ والزجاج وأكثر أرباب المعاني، واستشهد له بقول الأعشى:

لَا يَغْمِزُ السَّاقِ مِنْ آيِنٍ وَمِنْ وَصَبٍ^(٤).

أي ليس بها آين ولا وصب ليغمز ساقها، واستشهد في (التبيان) لذلك بقولهم: ما رأيت مثله. يُريدون بذلك أنه ليس له مثل، كما استشهدوا لذلك بقول امرئ القيس:

عَلَّ لَا حِجْبَ لَا يُتَدَى بِمَنَارِهِ^(٥).

أي ليس فيه منار يُتَدَى به^(٦).

(١) النهاية ٤: ٢٣٧.

(٢) لسان العرب ٩: ٣٩٥.

(٣) أساس البلاغة: ٤٠٥.

(٤) الفهرست: الجس والكس باليد والآين: الإعياء، والوصب: المرض.

(٥) اللاجب: الطريق الواضح، المنار: العلامات التي يُتَدَى بها في الطريق.

(٦) تفسير التبيان ٢: ٣٥٦، مجمع البيان ٢: ٦٦٦.

أقول: وهذه الشواهد لا تشبه الآية، ولو كان المراد أنهم لا يسألون أصلاً لما صحَّ من مثل كرامة القرآن أن يُبين فضلهم بلفظ يظهر منه خلاف المراد ولا يُقارب المراد إلا بها ذكره من التأويل البعيد.

﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يوفيكُم جزاءه.
 ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
 وببده مضاعفته. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيما رواه الصدوق في (العيون) مُسْتَدًّا عن الرضا عن آبائه (عليهم السلام): أنها نزلت في علي (عليه السلام).^(١)

وروي المُفيد في (الاختصاص) مُسْتَدًّا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أنها نزلت في علي (عليه السلام)، وذلك لأنه كان عنده أربعة دراهم، فتصدقَ بِدَرْهَمٍ لَيْلاً، وبِدَرْهَمٍ نَهَاراً، وبِدَرْهَمٍ سِرًّا، وبِدَرْهَمٍ علانية^(٢).

وروي في (التيبان) مثله عن ابن عباس. وقال: وهو المروي عنها (عليها السلام).^(٣)
 وفي (تَجْمَعُ البَيَان) وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام).^(٤)
 ورواه في (الكَشَافِ)^(٥).

وأُسْنَدُهُ الواحدِي في (أسباب النزول) عن ابن عباس^(٦).
 وحكى العياشي والواحدِي روايته عن الكلبي^(٧).
 ونحوه أيضاً في (مناقب الخوَارِزْمِي)^(٨)، وعن الحافظ أبي نُعَيْم^(٩)، والتَّعَلُّبِي

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ٢: ٢٥٥/٦٢.

(٢) الاختصاص: ١٥٠.

(٣) تفسير التيبان ٢: ٣٥٧.

(٤) مجمع البيان ٢: ٦٦٧.

(٥) الكشاف ٩: ٣٩٩.

(٦) أسباب النزول: ٥٢.

(٧) تفسير العياشي ١: ٥٠٢/١٥٩، أسباب النزول: ٥٢.

(٨) المناقب: ٩٩٨.

(٩) النور المشتعل: ٤٣.

(تفسيره) ^(١)، والمُحْمُونِي فِي (فرانده) ^(٢)، وابن المغازلي ^(٣)
 وذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج): أَنَّ شَيْخَهُ الْإِسْكَافِي احتجَّ في ردِّ
 الجاحظ بنزول الآية في عليٍّ (عليه السلام) ^(٤)

وفي (الدر المنثور): أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر
 وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر، من طريق عبداً بن مجاهد، عن أبيه، عن
 ابن عباس، وذكر نحوه ^(٥)

وفي (مناقب ابن شهر آشوب)، روي ذلك عن ابن عباس والسدي ومجاهد
 والكلبي وأبي صالح والتلميذ والطوسي والواحدي والطبرسي والمأزني والقشيري
 والثعالبي والنقاش والفتال وعلي بن حرب الطائي وعبدالله بن الحسين في
 (تفاسيرهم) ^(٦)

قلت: وكذا في (تنوير المقباس) وهو التفسير المنسوب لابن عباس ^(٧)
 وأيضاً عن التلميذ: روى جُوَيْر، عن الضحَّاك، عن ابن عباس: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي
 شَأْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام)، وكانت صدقة عليٍّ أحبَّ
 الصدقتين إلى الله ^(٨)

وروى الواحدي وصاحب الدر المنثور: أَنَّ الآية نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْخَيْلِ الَّذِينَ
 يَلْفُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(٩) وَلَكِنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الْآيَةِ مُنَاسِبَةً تُلِيقُ بِكَرَامَةِ
 الْقُرْآنِ، هَذَا وَلَا يَخْفَى مَا فِي الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ فِي الْمَصَالِحِ الدِّينِيَةِ

(١) المدة: ٦٦٩/٣٤٩ عن الصلي.

(٢) فرائد السطين ١: ٢٨٢/٣٥٦.

(٣) المناقب: ٣٢٥/٢٨٠.

(٤) شرح النهج ١٣: ٢٧٦.

(٥) الدر المنثور ٢: ١٠٠.

(٦) المناقب ٢: ٧١.

(٧) تنوير المقباس: ٣٩.

(٨) المدة: ٣٥٠/٣٧٢.

(٩) أسباب النزول: ٥١، الدر المنثور ٢: ١٠٠.

والاجتماعية، وللمنفق في تهذيب نفسه من رذيلة الشُّح، وفي قُرْبِه من الله، واستحقاقه الجزاء المضاعف.

كما لا يخفى أَنَّ الربا في مضارّه على عكس ذلك، ويقابله بالضدية في كلّ ما ذكرناه تمام المقابلة، وهل يخفى ضرره بإيقافه سوق التجارة وتبادل المنافع والمساعدات بالمعروف بين الناس؟

ألا ترى أَنَّ الرجل بينما هو مثرٍ إذا به قد استهلك الربا ثروته، وتركه يعجز عن مُؤنة عياله؟ فناسب ذلك في لطف الله وإرشاده لعباده أن يُشيع أمره وترغيبه في الإنفاق والصدقة بزجره وتوبيخه على الربا، فقال (جنت آية): ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أصل الربا الزيادة، واشتهر استعماله في خصوص الزيادة التي تؤخذ في معاوضة بعض النوع بمثلته من المكيّل والموزون، سواء كان ذلك في معاملة أو قرض، وحُرْمته في الجملة معلومة من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل لا يبعد كونها من ضروريات الشريعة^(١)، وإن خفي بعض مصاديقه عن بعض الناس، كما في بعض المعاملات الربوية.

والمراد من الربا أخذه وانتزاعه من مالكه، كما في قوله (نار) في السورة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾^(٢).

وفي سورة النساء: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^(٣)، ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾^(٤).

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الخبط: هو الضرب على غير استواء، وضرب الشجر ليتناثر منه الورق، وخَبَطْتُ الشجر: أسقطت منه الورق. واسم الورق المتساقط من الشجر خَبَطٌ بفتح الحاء والباء.

(١) المغني لابن قدامة ٤: ١٧٢، جواهر الكلام ٢٣: ٣٣٢.

(٢) الآية: ١٨٨.

(٣) الآية: ٢.

(٤) الآية: ٢٩.

والظاهر أَنَّ «تَخَبُّطَهُ» مثل: تَزَوَّجَهَا، وَتَبَّأَهُ: اتَّخَذَهُ خَبْطًا، أي جعله كالحَبْطِ في تنابع سُقُوطِهِ بسبب مَسِّهِ لَهُ.

في (تَجَمُّعِ الْبَيَانِ) من رواية الجمهور، وفي (تفسير القمي) من رواياتنا: أَنَّ رسول الله أُرِي حال هؤلاء ليلة أُسْرِي بِهِ إِلَى السَّاءِ^(١).

وفي روايات (الدر المنثور) عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وابن عباس وابن مسعود وأنس وابن سلام: لَا يَقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ^(٢)، وبذلك فسره (تَجَمُّعُ الْبَيَانِ)^(٣) وهو ظاهر المقام، وفي (التبيان) كَأَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى الْقِيلِ^(٤).

﴿ذَلِكَ﴾ أي حالهم في القيام المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي عقوبة بسبب أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا﴾ في باطل قياسهم وغلط اعتراضهم على الشريعة وحكمتها ﴿إِنَّمَا أَلْيَبِيعُ مِثْلُ آلَزَوا﴾ في أَنَّهُ يَكُونُ في تعايطه ربح وتكون المَالِيَّةُ في أَحَدِ الْعَوَضَيْنِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الْآخَرِ، مع أَنَّ الْبَيْعَ مُتَدَاوِلٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ غَلَطُوا فِي قِيَاسِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ (جَلَّ جَلَالُهُ) قَدْ أَجْرَى أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ عَلَى الْحُكْمِ، وَكَثِيرًا مَا يَظْهَرُ وَجْهَهَا.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ لقيامه بنظام الاجتماع ومصلحة المدنية في تبادل المنفعة بأعيان الأموال، ووجوه الحاجة إلى خصوصياتها، مع ابتنائها على العدل في تساوي الْعَوَضَيْنِ فِي الْمَالِيَّةِ بحسب الاعتبار عند المَبَايَعَةِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ الزِّيَادَةُ اتِّفَاقًا بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الرِّغْبَةِ أَوْ الزَّمَانِ أَوْ الْمَكَانِ.

﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لابتنائها من أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي الْعَيْنِ وَمَالِيَّتِهَا، وَعَلَى الْإِحْجَافِ وَالْإِخْلَافِ بِحَسَنِ الْجَمْعِ بِالْمَعْرُوفِ، لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَسَدِّ بَابِ الْإِحْسَانِ وَالْمَعَاوَنَةِ.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الموعظة: التذكير، والتخويف من عقاب الله على معصيته ومخالفة نهيهِ عَنِ الرِّبَا، سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ بِالتَّخْوِيفِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ

(١) جمع البيان ٢: ٦٦٩، تفسير القمي ١: ٩٣.

(٢) الدر المنثور ٢: ١٠٢ - ١٠٤.

(٣) جمع البيان ٢: ٦٦٩.

(٤) تفسير التبيان ٢: ٣٥٩.

وخوفهم به من آي القرآن، كما في (التبيان)^(١) أو بالتخويف الذي ينتهي إلى وحي الله مما يخوف به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم الأئمة (عليهم السلام) ثم الوعاظ، نحو ما روي في (الكافي) و(الفتاوى) و(التهذيب) في الصحيح عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): **يَرْهَمُ رَبًّا عِنْدَ اللَّهِ يَعْدِلُ سَبْعِينَ زَنِيَّةً كُلَّهَا بِذَاتٍ مُحَرَّمٍ**^(٢).

وفي حديث آخر: «في بيت الله الحرام». وفيها أيضاً: **مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ**^(٣) ومثل ما ورد من **لَعَنَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لَأَكَلَ الرَّبَا**^(٤).

وفي روايات (الدُّرِّ الْمُنْتَوَرِ) وغيره نحو من ذلك^(٥).
﴿فَاقْتَنَهَى﴾ عن الربا بسبب الموعظة وتاب **﴿قُلْ مَا سَلَفَ﴾** الظاهر منه الفعل السالف، وهو أخذ الربا وتعاطي معاملته، أي إن الله يتوب عليه ويغفر له، وأما إرادة أنه يحل له ما أخذه فيها سلف، إذا تاب، فتحتاج إلى تصرف في اللفظ وقرينة دالة على ذلك.

وفي (التبيان): قال أبو جعفر - يعني الباقر (عليه السلام) - من أدرك الإسلام وتاب عملاً في الجاهلية، وضع الله عنه ما سلف. ونحوه في (مجمع البيان)^(٦).
 والرواية مع إرسالها، لا يُعلم كونها تفسيراً لهذه الآية، ولو كان موردها الربا، وعرف منها أن الذي وضعه الله هو المال الذي أخذ رباً فيها سلف، لكانت من قبيل أن الإسلام يجب ما قبله.

﴿وَأَمْرُهُ﴾ في توبة الله عليه وتوفيقه للثبات عليها **﴿إِلَى اللَّهِ﴾** بحسب علمه بصدق توبته وأهليته للتوفيق للدوام عليها، فإن المغفرة ليست بلازم طبيعي لمحض

(١) تفسير التبيان ٢: ٣٦١.

(٢) الكافي ٥: ١٤٤/١، من لا يحضره الفقيه ٣: ٧٤٤/٧٨٢، التهذيب ١٤: ٥١/١٤.

(٣) تفسير القمي ١: ٩٣، المحصول: ٨/٥٨٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣: ٧٤٤/٧٨٤، التهذيب ٧: ٦٤/٦٥.

(٥) مستدرک الحاكم ٢: ٣٧، تفسير ابن كثير ١: ٣٣٥، الدر المنثور ٢: ٨٠٢.

(٦) تفسير التبيان ٢: ٣٦٠، مجمع البيان ٢: ٦٧٠.

إظهار التوبة، هذا من حيث الإثم.

وأما من حيث المال الزائد الذي هو ربا في الدين، أو أحد العِوَضَيْن في المعاملة الربويّة الفاسدة، فالأمر موكول إلى ما تقتضيه الأحكام الشرعيّة في أموال الناس، وإن أخذت في حال الجهل بحُرمة الربا، لا كما يظهر من كلامي الصدوق في (الهداية) والشيخ في (النهاية) من أن المأخوذ في حال الجهل بحُرمة الربا، لا يجب ردّه، هو حلال لأخذه^(١).

واعتمده في (الدروس)^(٢) ومال إليه بعض متأخري المتأخرين، استناداً إلى روايات لا دلالة فيها على ذلك، فإن ما روي في (الكافي) عن أبي المغراء، وفي (التهذيب) عن الحلبي، وفي (الفتاوى) ما عدا صدره، مُرسلاً جميعاً عن الصادق (عليه السلام)^(٣)، فإنما يدلُّ صدره المروي في (الكافي) و(التهذيب) على قبول التوبة من الربا، وإن كانت حُرمة شديدة مُغلظة.

ولفظ الجهالة في الرواية مثلاً في القرآن في الوعد بالتوبة لمن يعمل بالسوء بجهالة، كما في سورة النساء^(٤)، والأنعام^(٥)، والنحل^(٦)، لا الجهل بالحُرمة، ثم على حِلِّ المال الموروث المختلط بالربا، ومُحمل على الذي يُطهّره الخمس جمعاً.

وأما عجزه الذي انفرد به (الكافي) و(الفتاوى) وعن (التهذيب) فبالنظر إلى قوله (عليه السلام): «فأراد أن ينزعه» وقوله (عليه السلام): «فما مضى فله، ويدعه فيما يستأنف» لا يدلُّ إلا على أنه يُغفر له ما مضى من عمله بسبب توبته ونزع المال الربوي من ماله.

وأما ما أسنده (الكافي) و(التهذيب) عن الحلبي، وأرسله (الفتاوى) عن

(١) الهداية: ٨٠، النهاية: ٣٧٦.

(٢) الدروس: ٣٦٩.

(٣) الكافي: ٥/١٤٥، التهذيب: ٧/١٦/٦٩، من لا يحضره الفقيه ٣: ٧٨٧/٧٨٨ و٧٨٨.

(٤) الآية: ٨٧.

(٥) الآية: ٥٤.

(٦) الآية: ١١٩.

الصادق عليه السلام، فيمن أتى الباقر عليه السلام، فإنما يَدُلُّ صدره على حِلِّ المختلط، ويُحْمِلُ على السذي يُطَهِّرُهُ الخمس جمعاً، أو على ما يُحْتَمَلُ وجود المحرام فيه، وذلك لقوله عليه السلام: «فإنَّ المال مالك».

وأما عجزه من قوله عليه السلام: «فإنَّ رسول الله قد وضع» إلى آخره^(١)، فلا دلالة فيه على أنه تعليل لقوله عليه السلام: «فكلُّه هنيئاً، فإنَّ المال مالك»، ولم يجر في السؤال آن مؤرثه كان جاهلاً حُرمة الربا، فغاية ما يظهر منه هو أنَّ للجاهل بحرمة الربا إذا عمل به فهو معذور من حيث الإثم. فالظاهر أنَّ المراد منه تطييب قلب السائل بأنَّ العامل بالربا معذور إذا كان جاهلاً بحرمة، فأنت أولى بالاطمئنان من الإثم.

وأما ما رواه في (التهذيب) عن محمد بن مسلم، عن الباقر عليه السلام، فيمن عمل الربا حتَّى كَثُرَ ماله^(٢)، فهو شامل لصورة معرفته للربا وعلمه بتحريمه، إن لم يكن ظاهر الحال والسؤال ذلك، كما أنَّ الظاهر من قول القائلين له: ليس يقبل منك شيء إلا أنَّ تَرُدَّه على أصحابه، هو أنَّهم سَدُّوا عليه باب المغفرة وقبول التوبة إلا أنَّ يَرُدَّ الربا على أصحابه، وإنَّ جهلهم أو تعثر عليه.

فيكون قول الباقر عليه السلام: «مُخْرِجُكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾» الآية، رَدًّا على تشديد هؤلاء، وإنَّ التوبة الصادقة والانتهاه مخرج من إثم الربا إلى المغفرة، وأما مال الربا فقد يكفي فيه في بعض الموارد رَدُّه إلى الإمام أو نائبه أو إلى الفقراء، فلا ينحصر قبول التوبة بخصوص رَدِّه على أصحابه على كلِّ تقدير.

وقوله عليه السلام: «والموعظة التوبة» يُريد به أنَّ الذي يتعلَّق به الغرض في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ ويغفر به الذنب إنَّما هو التوبة، وأما المال فله أحكامه.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تعاظمي الربا مُسْتَحْلَالًا له بعد ما نزل القرآن بتحريمه وبلغه ذلك، أو إلى الاعتراض على الشريعة بقوله: إنَّما البيع مثل الربا، أو إلى كلِّ من ذينك

(١) الكافي ٥: ١٤٥، التهذيب ٧: ١٦٦/٧٠، من لا يحضره الفقيه ٣: ٧٨٩/١٧٥.

(٢) التهذيب ٧: ١٥/٦٨.

كُنْزاً وَارْتِدَاداً وَأَصْرُوا عَلَى عَوْدِهِمْ هَذَا حَتَّى مَا تَوَاكَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أَشِيرُ
بِالْجَمْعِ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى فِي الْمَوْصُولِ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ
أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن
تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رِمُسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَنْظِلُمُونَ
وَلَا تَنْظَلُمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ الْمَحَقُّ: الْإِنْقَاصُ لِلشَّيْءِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ حَتَّى يَتَلَفَ، فَالَّذِي
يَتَلَفُ الرِّبَا وَإِنْ أُمِّلَ لِأَخْذِهِ زَمَاناً حَتَّى يُذْهِبَهُ مِنْهُ، أَوْ مَنْ جَمَعَهُ لِأَجْلِهِمْ، كَوَرَاثَةٍ.
﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أَي يَزِيدُهَا بِاعْتِبَارِ الْجَزَاءِ وَالتَّوَابِ الْمُضَاعَفِ.
﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ صِفَةُ مُبَالِغَةٍ فِي الْكُفْرِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا هُوَ
كُفْرُ النِّعْمَةِ وَعَدَمُ الْاِكْتِفَاءِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلَالِ حَتَّى يَتَقَحَّمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ مِنَ الرِّبَا، لَا الْكُفْرَ الشَّرْعِي، وَتَحَقُّقُ الْمُبَالِغَةِ بِتَكَرُّرِ أَخْذِهِ الرِّبَا وَكُفْرَانِ النِّعْمِ.
وَفِي (التَّبْيَانِ) وَ(تَجَمُّعِ الْبَيَانِ) حَمَلَا الْكُفْرَ عَلَى الشَّرْعِيِّ فِيمَنْ يَسْتَحِلُّ أَكْلَ
الرِّبَا^(١). وَالْأَوَّلُ أَعَمُّ فِي الزَّجْرِ وَأَظْهَرُ فِي الْمَقَامِ ﴿أَثِيمٍ﴾ مُتَنَاهٍ عَلَى عَمَلِ الْإِثْمِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله وكتابه وشريعته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومنها كف النفس عما حرم الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾ نص عليها بالذكر تعظيماً لشأنها، وإن كانا من نوع الأعمال الصالحة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وأسلموا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه، ولا تغالغوا أمره ونهيه ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ﴾ لكم عند الناس ﴿مِنْ أَلْيَانٍ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ على حقيقة الإيمان فذرّوه.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَقْعَلُوا﴾ ولم تذرّوه بل أصررتم على أخذه ﴿فَإَذْنُوا﴾ أي فاعلموا، وكأنه مأخوذ من العلم بواسطة السمع بالأذن ﴿يَحْرَبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ عن الإصرار على أخذه، أو أخذتموه وتبتم بعد ذلك ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ دون الزيادة الربوية ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقص من رؤوس أموالكم.

وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٦﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا
تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٧﴾

﴿وَأِنْ كَانَ﴾ حصل ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ أو وإن كان ذو عُسْرَةٍ غريباً لكم، وهو من لا يجد ما يفي به من غير ما استثنى له في الشريعة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي فعلبكم في أمره أو فالذي يحكم الله به في أمره هو نَظَرَةٌ منكم له إلى حصول ميسرة له، ومن الميسرة أن يصل خبره إلى الإمام فيفي عنه من سهم الغارمين، إذا كان أنفق

الحُذَيْنَ بالمعروف، كما أسنده في (الكافي) عن الرضا عليه السلام^(١)، وأرسله في (مجمع البيان) عن الباقر عليه السلام^(٢).

﴿وَأَنْ تَصَّدَّقُوا﴾ عليه بالذَّيْنِ كَلًّا أَوْ بَعْضًا ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وَصَدَقْتُمْ عليه بذلك خير لما فيها من ثواب الصَّدَقَةِ، وتفريج همّ المديون، وتسكين قلبه في عُسرته. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في هذا التصدّق من الفوائد التي لا غنى لكم عنها. وجاءت الجملة شرطية لمزيد الترغيب، أي إن كنتم تعلمون ما في التصدّق المذكور من الخير فإنكم ترغبون فيه بما أنكم عَفَلَاءَ فتصدّقوا، وعبر عن المصدر بالفعل ليكون أظهر في إقدامهم على فعل الصدقة واختيارها وفي تعلق التصدّق بالذَّيْنِ على المُعْسِر.

ولا دلالة في الآية على اختصاص حُكْمِهَا بمن ذكر في الآية السابقة من المدينين بالمعاملة الربويّة، فإن لفظها مُطلق وحكمتها عامّة، بل لو كانت مُرتبطة لذكرت بالتفريع بالفاء، فالظاهر هو عمومها لكل ذَيْن. وفي (التيبان): وهو قولها، وفي (مجمع البيان): وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام)^(٣). وما روي في (الدر المنثور) عن ابن عباس، ممّا يُؤهِم اختصاصها بذَيْن الربا^(٤)، لا اعتبار لِسَنَدِهِ، فضلاً عن خَلَلِ مَتْنِهِ واضطرابه، وجعل المقابل لذَيْن الربا هو الأمانة.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ رجوع معاد واستسلام، اتَّقُوا ذلك اليوم وأهواله العُظمى بطاعة الله والانزجار عن معاصيه.

﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، وتَوَفَّيْتُهُ باعتبار تَوْفِيَةِ جزائه من ثواب أو عقاب ﴿وَقَمَّ﴾ أي الناس المدلول عليهم بكلّ نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب عن قياس العمل أو عدمه، وزيادة العقاب عن قياس الجرم أو ابتدائه

(١) الكافي ٥: ٩٣/٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦٧٦.

(٣) تفسير التبيان ٢: ٣٦٨، مجمع البيان ٢: ٦٧٦.

(٤) الدر المنثور ٢: ١١٢.

بلا جرم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَأَكْتُوبُهُ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِلْحِدَهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُوبَهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجْرَةً حَاضِرَةٌ يُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ
أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي تعاملتم بمعاملة فيها دين ﴿إِلَى﴾

أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١﴾ وهذا بيان، لأنَّ الأجل لا بدَّ من أن يكون معيَّناً لا جهالة فيه ﴿فَأَكْتُبُوهُ﴾ أي فاجعلوه مكتوباً أعم من مباشرة الكتابة أو تسيبها، وهذا الدين غير القرض المُخَصَّص، فإنه لا أَجَلَ فيه ولا عبرة بتأجيله.

ولعلَّ السَّرَّ في تخصيص ذي الأجل بالذكر، هو كون المؤجل في الغالب مُعْرَضاً للوهم والنزاع في الأجل والشروط، وإن كانت حكمة عدم الارتياح جارية في القرض أيضاً باعتبار نفس المال ومقداره كما يشير إلى ذلك قوله (سأى): ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُهَا﴾ الخ، كما أَنَّ قوله (سأى): ﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ يشير إلى أَنَّ حكم الكتابة والإشهاد للإرشاد لا للوجوب، مضافاً إلى المعروف من عمل المشرعة من عدم الكتابة في موارد الاطمئنان، كما في قوله (سأى): ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فَلَْيُوذِ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

وفي (التيبان): لإجماع عصرنا على ذلك^(١)، أي على عدم الوجوب. ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي على حقيقة المعاملة والأجل والشروط، والأمر هنا للمتعاملين كقولك: يا صاحب الضَّيْعَةِ لِيَبِتْ فِي ضَيْعَتِكَ حَارِسٌ، أي أَبِتْ حَارِساً، وقد ذكرنا أَنَّهُ للإرشاد، وهذا أعمُّ من أن يكون الكاتب بينها هو أحدهما لحصول الغرض به، أو هو ناظر إلى الحال في عصر النزول، من كون الغالب من العرب لا يكتبون.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي من يُحَسِّنُ الكتابة في مثل المقام ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾ والنبى هنا للمكراهة، إذ لا يجب تسيب الكتابة على المتعاملين، فكيف تجب على غيرها؟ ولئن وجبت صُنْعَةُ الكتابة كفاثاً أداءً للوجوب في نظام العالم لم يقتضِ ذلك أن يجب على كُلِّ كاتب أن يكتب في كُلِّ مورد ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ وأنعم عليه بالكتابة.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ للناس في محل حاجتهم شُكراً لنعمة الله، وهذا هو المعنى التأسيسي والظاهر لهذه الجملة، وأسلوبه أيضاً يدلُّ على أَنَّ الكتابة مُسْتَحَبَّةٌ.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ والدين، يُمْلِلُ ويُملي على الكاتب بمعنى واحد،

أي يذكر له الحال عند الكتابة ليكتب ما يذكره له المديون.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في إملائه، فإن الله ربه والعليم بالأمور والقادر عليه، ومن إليه مرجعه وبهده عقابه.

﴿وَلَا يَتَخَسَّ﴾ في إملائه ﴿مِنْهُ﴾ أي من الحق الذي عليه ﴿شَيْئاً﴾ ولو من شؤونه.

وقد طلب الإملاء منه بهذا النحو استحباباً، لأنه عارف بالحق ووجوهه، فيكون إملائه على الحقيقة أقرب إلى توطئ نفسه على الوفاء وإلى اطمئنان الدائن بذلك وإلى المجاراة بينها على المعروف، ويجوز بلا خلاف أن يُعمل غيره أو يكتب الكاتب بحسب اطلاعه، ثم يعترف المديون به ويشهد على اعترافه.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ في تصرفاته بهاله، بحبت ألفى الشارع معاملاته واعترافاته فيها، وأرجع الأمر في ذلك إلى وليه ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ في عقله كالصغير والمجنون والأبله والخرف ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ﴾ كالأخرس ونحوه، أو من لا يحسن أن يبين الخصوصيات التي جرت عليها المعاملة.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيَّهُ﴾ الذي جعلت ولايته في الشريعة ﴿بِالْعَدْلِ﴾ على حقيقة المعاملة وخصوصياتها المطلوبة، والولي على الصغير أبوه وجدّه لأبيه، وإن لم يوجد فولي سائر المذكورين، وهو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الإمام أو النائب عن أحدهما، ولو بعموم الجعل كالحاكم الشرعي أو نائبيه، ولو في خصوص تلك المعاملة.

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ المسلمين ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾ أي الشاهدان الحاضران للذان هما من المسلمين ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ﴾ أي كالذي يكفي بشهادته رجل وامرأتان، لكن لا مطلق الشاهد بل ﴿مَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي ممن يرضاهم النوع في الشهادة، ويتركن إلى شهادتهم، لأجل انصافهم بالصّلاح والعدالة الرادعة لهم عن الكذب والتساهل في الشهادة.

وجعل بدل الرجل امرأتان حذراً من ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ وتتيه في أداء الشهادة، لأن نوع النساء أبعد عن ضبط هذه الأمور من نوع الرجال ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ أي فحين الضلال تذكّر ﴿إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فيتحاوران في الأمر، وكلّ منها تذكّر

الأخرى بخصوصية أمر، فتذكر الضالة حقيقة الأمر بخصوصياته، هذا في مقام الإشهاد الكافي في ثبوت الحق به، فلا يثنائي ما دل على ثبوته بالشاهد واليمين.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لتحمل الشهادة، ولا ينبغي أن يأب إذا دُعي لذلك، كما في صحيحة (التهذيب)، وروايته عن أبي الصباح وسباعة، عن الصادق (عليه السلام)، وروايته أيضاً عن الكاظم (عليه السلام)^(١). ورواية (الكافي) عن أبي الصباح. وصحيحته عن الحلبي، عن الصادق (عليه السلام)^(٢). ونحوها روايات (العياشي)^(٣). والنهي للكرهية، ويشهد لذلك سياق الآية في أوامرها ونواهيها. وقول الإمامين (عليهما السلام): «لا ينبغي».

﴿وَلَا تَسْتُمُوا﴾ أي لا تملوا ولا تضجروا من ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ أي الدين في شؤنه ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ فإن التساهل في كل من ذلك قد يوجب النزاع وضياح شيء من الحقوق ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي الدين ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما تقدم من أحكام الكتابة، وإشهاد المرضيين، وعدم السأم من الاستقصاء في الكتابة ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أعدل وأولى بأن تكونوا مقسطين عادلين ﴿وَأَقْرَبُ لِلشُّهَادَةِ وَأَدْنَى﴾ وأقرب إلى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ بعد ذلك في مبلغ الدين وخصوصياته وأجله، وهذه الأمور مطلوبة لحصول غاياتها الحميدة التي ربما يحتاجون إليها.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ المعاملة بينكم ﴿بِحِجَارَةٍ حَاضِرَةٍ﴾ ليس فيها دين بل ﴿تَدِيرُونَهَا﴾ أي تتناقلون العوض والمعوض ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بأن يأخذ كل منكم عوض ما دفعه في التجارة.

﴿فَلْيَسْ عَلَىكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ضيق وحزاة مما أرشدتم إلى التخلص منه في أمر الدين، فلا ضير في ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي تلك التجارة.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وعلى استحباب ذلك إجماعنا في الحاضرة، بل الاتفاق، مما عدا أهل الظاهر، وهو الصحيح في غيرها.

(١) التهذيب ٦: ٢٧٥ - ٢٧٦/٧٥٦، ٧٥٣، ٧٥٤.

(٢) الكافي ٧: ٢/٢٨٠.

(٣) تفسير العياشي ١: ٥٢٢/١٥٥ و ٥٢٣/١٥٦، ٥٢٤.

﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ الظاهر بسبب رجحان التأسيس، وما يناسب المقام من الاستقصاء في الأحكام الاجتماعية العادلة، وحكمة النظر من علّام الغيوب إلى حوادث المستقبل، هو أن يكون «يُضَارُّ» مبنياً للمفعول أصله «يضارُّ» بفتح الراء الأولى، فسُكُنَتْ وحُرِّكَتِ الثانية بالفتحة، حَذَرًا من التقاء الساكنين بسبب الجزم بالنهي، أي ولا يَدْخُلْ على الكاتب بسبب كتابته، ولا على الشاهد بسبب شهادته ضَرُّ ما في ذات الكتابة وعواقبها، وفي ذات الشهادة وأدائها، وليس عليه إلا أدائها بلا ضَرَر.

وعلى البناء للمفعول تفسير ابن عباس على ما في (تنوير المقباس)^(١)، ورواية (الدر المنثور) وروايته أيضاً لقراءة عمر عند فكه لإدغام الراءين^(٢).

﴿وَأَنْ تَقْعَلُوا﴾ وتضرّوهم ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ أي خُروج عن الطاعة والاستقامة كائن ﴿بِكُمْ﴾ كما يقال: به داء كذا، وإنه لما به، وبه جُنُون، وبه جَنَّة، كما جاء في سور الأعراف^(٣) والمؤمنون^(٤) وسبأ^(٥).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ فاشكروا فضله واعملوا بها علمكم بما فيه صلاحكم وطريقكم إلى تقوى الله فإنكم جاهلون ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمَنَتَهُ وَلْيَسْقِ
اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عِندَ اللَّهِ قَلْبُهُ مُّذْمُومٌ وَاللَّهُ يَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾

(١) تنوير المقباس: ٤٦.

(٢) الدر المنثور ٢: ١٢٢.

(٣) الآية: ١٨٤.

(٤) الآية: ٢٥.

(٥) الآية: ٨.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ وأردتم الاستيثاق من دينكم ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي فواتقكم رهان مقبوضة، والرهن: مصدر رهننت الشيء أرهنه، وتستعمل في المرهون كاستعمال الوقف في الموقوف، وهو في النظم والنثر كثير، ومنه: إن يَفْتُلُونِي فَرِهَانٌ دِمَيتي لَهُمْ بِذَاتِ وَقْفَيْنِ لَا يَعْفُو لَهَا أَتَرُ^(١) وجمعه رهان كثر وثبار، وربما يقال: إن قيد القبض هنا إنما هو لأجل توقف الاستيثاق في السفر الذي ليس فيه كاتب، وحصول هذه الفائدة فيه على القبض. وأما الرهن في المحضر الذي هو مشروع بالسنة والإجماع فلا يشترط فيه القبض، كما هو مذهب مالك من الجمهور^(٢)، بل يكفي في فوائده أن لا يتعلق المحجر لباقي الغرماء بالمرهون.

لكن في (التيبان): ومن شروط صحة الرهن أن يكون مقبوضاً لقوله (نأى): ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾^(٣) وعن (خلافه) خلاف ذلك^(٤). وفي (تجمع البيان): فإن لم يقبض لم ينمقذ الرهن إجماعاً^(٥). وفي رواية (التهذيب) عن الباقر (عليه السلام): لا رهن إلا ما كان مقبوضاً^(٦). ونحوه عن (تفسير العياشي)^(٧).

لكن يكفي في منع الإجماع ما في (السرائر) و(الغنية) من نقل عدم الخلاف في

(١) هذا البيت يُنسب لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وذات الوقفين: الحرب الشديدة، وهو من الوقف والوداق، أي الحرص على طلب الفعل، لأن الحرب توصف باللفاح. وقول: هو من الوقف بمعنى الطر، يقال للحرب الشديدة: ذات وقفين، تشبيهاً بسحابة ذات مطرتين شديتين «النهاية - ودق - ٥: ١٦٨، لسان العرب - ودق - ١٠: ٣٧٣».

(٢) كثر الرهانات: ٢٠.

(٣) تفسير التهبان ٤: ٣٨٠.

(٤) كتاب الخلاف ١: ٥/٦٠٢.

(٥) مجمع البيان ٤: ٦٨٦.

(٦) التهذيب ٧: ١٧٦/٧٧٩.

(٧) تفسير العياشي ١: ١٥٦/٥٢٥.

صَحَّتْهُ إِذَا اسْتَجْمَعَ شَرْوْطاً ذَكَرَها، وَلَيْسَ مِنْهَا الْقَبْضُ ^(١) .
 وَفِي (كَنْزِ الْعِرْفَانِ): أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى عَدَمِ الْإِشْتِرَاطِ ^(٢) ، بَلْ فِي (السَّرَائِرِ): أَنَّ
 الْأَكْثَرَ مِنَ الْمُحَصِّلِينَ عَلَى أَنَّ الْقَبْضَ لَيْسَ شَرْطاً فِي اللَّزْمِ، وَالرَّوَايَةُ ضَعْفَتْ
 بِالِإِشْتِرَاقِ ^(٣) ، وَيَقَامُ الْكَلَامُ فِي الْفَقْهِ.

﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُ وَثِيقَةً، بَلْ اتَّيَمَّنَ عَلَى دِينِهِ ﴿قَلْبِيَّوْدَةً
 الَّتِي أَتَمَّنَّ أَمَانَتَهُ﴾ وَهُوَ الدِّينُ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَعُمَّ جَمِيعُ الْأَمَانَاتِ حَتَّى الْوَدِيعَةِ، نَظَرًا
 إِلَى إِشْعَارِهَا بِالتَّعْلِيلِ، وَبِهَوْنِ هَذَا الْمُرَدِّ مِنْ أَحَدِ الْمَصَادِيقِ لِلْعَامِ ﴿وَلَيْتَقِيَ﴾ بِذَلِكَ
 ﴿اللَّهُ رَبَّهُ﴾ وَمَالِكِ أَمْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ آثِمٌ: خَبِيرٌ إِنْ، وَقَلْبُهُ،
 فَاعِلٌ. أَوْ خَبِرَ مُقَدَّمٌ، وَقَلْبُهُ: مَبْتَدَأٌ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ إِنْ، وَنَسَبَ الْإِثْمَ إِلَى الْقَلْبِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ
 آلَةُ الْكِتَابَةِ، وَلِتَغْلِظَ الْإِثْمَ بِيَبَانِ فُسَادِ الْمَبْدَأِ لِلْأَعْمَالِ، فَإِنَّ فُسَادَ الْقَلْبِ أَصْلُ الشَّرِّ
 وَابْتِغَاءُ عَلَى الْفُسَادِ، وَقَالَ: «آثِمٌ» وَلَمْ يُعَبِّرْ بِالْفِعْلِ لِيَدُلَّ عَلَى دَوَامِ الْإِثْمِ بِدَوَامِ الْكِتَابَةِ
 ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
 أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَهُوَ الْخَالِقُ لِلْكُلِّ، وَالْمُدَبِّرُ لَهُ وَبِيَدِهِ
 أَمْرُهُ، وَأَنْتُمْ مِنْ جَمَلَةِ ذَلِكَ، فَهَلْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ؟!
 ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فِي (التَّبَيَّانِ) وَاجْتِمَاعِ

(١) الفقيه: ٥٣٠، السرائر: ٢٥٨.

(٢) كنز العرفان: ٦٠، ٦١.

(٣) السرائر: ٢٥٨.

البيان): أَنَّ الْمُرَادَ بِالآيَةِ مَا يَتَنَاولُهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ مِمَّا هُوَ مُسْتَوَرٌّ عَنَّا^(١)، وَعَلَى ذَلِكَ رَوَايَةُ الْعِيَّاشِيِّ عَنْ رَجُلٍ، وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو الزُّبَيْرِيِّ، عَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(٢).

وقد أورد في (الدر المنثور) في هذه روايات كثيرة مختلفة مُتَعَارِضَةٌ وَمُضْطَرِبَةٌ: منها عن ابن عباس: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الشَّهَادَةِ وَإِقَامَتِهَا وَكِتَابَتِهَا^(٣)، وَيُرَدُّ عَلَى الرِّوَايَةِ أَنَّهُ مَا مَعْنَى الْحِسَابِ عَلَى إِبْدَائِهَا وَإِقَامَتِهَا؟ ومنها عن ابن عباس وعائشة: أَنَّهَا غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، وَفُسِّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا يُخْفَوْنَهُ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهَا الْحَفَظَةُ^(٤).

ومنها عن أبي هريرة وابن عباس: أَنَّهَا نُسِخَتْ بِقَوْلِهِ (سار): ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥) وفي الرواية عن ابن عباس تفسيرها بِوَسْوَسةِ النَّفْسِ^(٦)، وَعَنْهُ تَفْسِيرُهَا تَارَةً بِحَدِيثِ النَّفْسِ^(٧) وَتَارَةً بِالتَّكْذِيبِ^(٨).

ومنها عن ابن مسعود وعائشة: أَنَّ النَّاسِخَ لَهَا هُوَ قَوْلُهُ (سار): ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٩) وَلَكِنْ هَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ، فَإِنَّ مَا لَا يَدْخُلُ فِي وُسْعِ الْإِنْسَانِ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ بِهِ، لِأَنَّ التَّكْلِيفَ بِهِ قَبِيحٌ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْبَغَ لَكُمُ يُنْسخُ بِقَوْلِهِ (سار): ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وَلَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ نَسْخًا لِمَا هُوَ دَاخِلٌ فِي الْوُسْعِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ (سار): ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ اخْتَصَّ إِثْبَاتُهُ بِالْأَعْمَالِ الْخَارِجَةِ لَمَا كَانَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى النِّفْيِ عَنْ غَيْرِهَا لِيَكُونَ نَاسِخًا.

(١) تفسير التبيان ٢: ٣٨٢، مجمع البيان ٢: ٦٨٧.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٥٦ - ١٥٧/٥٢٨ و ٥٢٩.

(٣) الدر المنثور ٢: ١٢٦.

(٤) الدر المنثور ٢: ١٢٩ و ١٣١.

(٥) الدر المنثور ٢: ١٢٧ و ١٢٨.

(٦) الدر المنثور ٢: ١٢٨.

(٧) الدر المنثور ٢: ١٢٨.

(٨) الدر المنثور ٢: ١٢٩.

(٩) الدر المنثور ٢: ١٢٩.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ مَن يَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ إِنْ كَانَ أَهْلًا لِأَن يُثَابَ عَلَيْهِ
﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ محمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ في (تفسير
الْقُتَيْبِيِّ) في الصحيح عن الصادق (عليه السلام)، وفي (تفسير البرهان) عن علي أمير
المؤمنين (عليه السلام)، وعن (مقتضب الآثار) مُسْنَدًا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أَنَّهُ لَمَّا
أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ نَادَاهُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ فَأَجَابَ
رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِهِ ^(١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾
ولعله إشارة إلى من حَمَلَتْهُ الْعَصْبِيَّةُ الْقَوْمِيَّةُ أَوْ الْأَغْرَاضُ الْفَاسِدَةُ عَلَى جَعْدِ الرُّسُولِ
بعد قيام الْحُجَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ، جَعَدَهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمِهِ أَوْ لِأَنَّهُ يُعَارِضُ أَغْرَاضَهُ
الْفَاسِدَةَ، وَإِلَى الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿ءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنُكْفِرُونَ
بِمَا وَرَّاهُ﴾ الآية، كما في الآية الحادية والتسعين.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إخبار من الله بفضلهم في الطاعة والإيمان.
﴿غُفْرَانَكَ﴾ منصوب بفعل من لفظه، وهو «اغفر» ومعناه نسألك غفرانك يا
﴿رَبَّنَا﴾ وفيه تَلَطُّفٌ فِي الْمَسْأَلَةِ بِنَحْوِ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ عَلَى رَحْمَتِهِ، ومعناه أَنْتَ رَبُّنَا وَوَلِيُّ

أمرنا، وإلى أين يذهب العبد إلا إلى مولاه، ولم يذكر مُتَعَلِّقُ الْغُرَانِ لِأَنَّهُ طَلِبُهُ عَامٌ لِكُلِّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْغُرَانِ، وَلَمْ يَخْرُجْ بِسَوْءِ اخْتِيَارِهِ عَنْ أَهْلِيَّتِهِ لَهُ ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أَي مَصِيرُنَا فِي أُمُورِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ بأمره أو نهيهِ ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الوُسْعُ مَا تَسْمَعُهُ قُدْرَةُ الْإِنْسَانِ وَيدْخُلُ فِي وُسْعِهَا، وَنَسَبُ الْوُسْعِ إِلَى النَّفْسِ بِهَذَا الْاِعتِبَارِ، وَالْمَعْنَى إِلَّا مَا تَسْمَعُهُ قُدْرَتِهَا، وَقَدْ تَعَجَّدَ اللَّهُ بِذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى تَقْدُّسِهِ فِي كِبَالِهِ عَنِ الْعَيْثِ وَالْقَبِيحِ فِي التَّكْلِيفِ بِغَيْرِ الْمَقْدُورِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ تَعْجِيداً لَهُ بَعْدَهُ. ﴿لَهَا﴾ أَيِ لِلنَّفْسِ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ، يَوْفِيهَا اللَّهُ إِيَّاهُ وَلَا يَفُوتُهَا مِنْ فَضِيلَتِهِ وَجَزَائِهِ شَيْءٌ.

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ مِنَ الشَّرِّ، أَيِ عَلَيْهَا وَزَرَهُ وَنَقَصَهُ لَا عَلَى غَيْرِهَا، وَعَبَّرَ فِي الشَّرِّ بِالْاِكْتِسَابِ لِأَجْلِ التَّوْبِيخِ لِفَاعِلِهِ وَالاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْاِكْتِسَابَ يَدُلُّ عَلَى الْاِعْتِمَالِ وَالْمَعَالَجَةِ فِي طَلَبِ الْكَسْبِ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ عَمَلَ الشَّرِّ كَانَ بِاِخْتِبَارٍ وَمَعَالَجَةٍ مِنَ النَّفْسِ فِي طَلَبِهِ، مَعَ أَنَّهُ شَرٌّ، قَدْ زَجَرَهَا الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ عَنْهُ. يَا ﴿رَبَّنَا﴾ وَمَالِكَ أَمْرُنَا وَمُقَرَّرَتِنَا فِي أُمُورِنَا ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

من الخطأ ضدَّ العَمْد، وإن كثيراً من النسيان والخطأ ما يقع بسبب التساهل والتقصير في التحفظ، لتحصيل ما كُلِّفَ به، وهذا مما لا تنهض فيه المواخذة على مخالفة الواقع، فطلبوا من الله أن لا يؤاخذهم في ذلك.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَجْعَلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي عِثْرًا ثَقِيلاً من التكاليف الشاقة، ولو لحكمة التأديب ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ لتمرُّدهم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَلًا طَاقَةً لَّنَا بِهِ﴾ من الابتلاء والامتحان أو العذاب في دار الدنيا بل والآخرة.

﴿وَاغْفُ عَنَّا﴾ العفو: هو إسقاط الحق، والمراد إسقاط حق العقوبة.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: هو الصَّنْع عن الذنب ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ وهو دعاء جامع.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ ووليُّ أمرنا وملجأنا لا غيرك ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ﴾ لنوفِّق لإظهار دينك وطاعتك في دين الحق.

تمَّ الجزء الأول من تفسير (آلاء الرحمن) حسب تجزئتنا والحمد لله والشكر

كما هو أهله، ويتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى أوله تفسير سورة

آل عمران.

فهرس موضوعات الجزء الأول

٧	مقدمة التحقيق
٩	ترجمة المؤلف
	اسمه ونسبه
	مولده
	حياته
٢٠	وفاته
٢٩	الفصل الأول: في إعجاز القرآن
	وجه شهادة المُعْجِز
٣٠	حكمة تنوع المُعْجِز
٣١	حكمة كون المُعْجِز للعرب هو القرآن
٣٢	امتيازه عن غيره من المعجزات
٣٧	إعجازه من وجهة التاريخ
٤١	إعجازه من وجهة الاحتجاج
٤٢	إعجازه من وجهة الاستقامة والسلامة من الاختلاف والتناقض
٤٣	إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية
٤٤	إعجازه من وجهة الأخلاق
٤٦	إعجازه من وجهة علم الغيب

٤٩	الفصل الثاني: في جمعه في مصحف واحد
٥٢	اضطراب الروايات في جمع القرآن
٥٣	بعض ما ألحق بكرامة القرآن الكريم
٦٣	قول الإمامية بعدم النقيصة في القرآن
٧٣	الفصل الثالث: في قراءته
٧٩	الفصل الرابع: في تفسيره
١٠٩	خاتمة
١١١	سورة فاتحة الكتاب:
١١٣	تسميتها
١١٤	بركاتها
	محل نزولها
١١٥	بسملتها
١١٦	الجهر بالسملة
١١٧	إعراب السملة
١١٩	خلق القرآن
١٢٧	العبادة
١٣١	حصر الاستعانة بالله (جل اسمه)
١٣٢	الاستشفاع إلى الله
١٣٤	الاستشفاع بالمقرّبين من الأموات
١٣٤	بقاء النفس بعد الموت
١٣٥	الشّفاة
١٤١	سورة البقرة:
١٤٣	الآية ١ - ٣
١٤٥	الآية ٤ - ٥

فهرس موضوعات ٤٦٩

١٤٦	الآية ٦-٧
١٥١	الآية ٨-١٠
١٥٤-١٥٣	الآية ١١-١٦
١٥٦	الآية ١٧-١٨
١٥٨	الآية ١٩-٢٠
١٦٠	الآية ٢١-٢٢
١٦٢	الآية ٢٣-٢٤
١٦٤	الآية ٢٥
١٦٥	الآية ٢٦
١٦٦	الآية ٢٧-٢٨
١٦٩-١٦٨	الآية ٢٩-٣٠
١٧٤	الآية ٣١-٣٥
١٧٨	الآية ٣٦-٣٨
١٨١	الآية ٣٩-٤٣
١٨٤	الآية ٤٤-٤٨
١٨٧-١٨٦	الآية ٤٩-٥٢
١٨٩	الآية ٥٣-٥٧
١٩٢	الآية ٥٨-٦٠
١٩٤	الآية ٦١
١٩٧	الآية ٦٢-٦٤
٢٠٠	الآية ٦٥-٦٨
٢٠٢	الآية ٦٩-٧٣
٢٠٤	الآية ٧٤-٧٨
٢٠٦	الآية ٧٩-٨٠

٢٠٨-٢٠٧	الآية ٨١-٨٣
٢٠٩	الآية ٨٤-٨٥
٢١٠	الآية ٨٦-٨٨
٢١٢	الآية ٨٩-٩٠
٢١٥-٢١٤	الآية ٩١-٩٤
٢١٧-٢١٦	الآية ٩٥-٩٦
٢١٩	الآية ٩٧-١٠١
٢٢١	الآية ١٠٢-١٠٣
٢٢٣	الآية ١٠٤-١٠٥
٢٢٦	الآية ١٠٦-١٠٩
٢٢٩	الآية ١١٠-١١٢
٢٣١	الآية ١١٣-١١٤
٢٣٣	الآية ١١٥
٢٣٦-٢٣٥	الآية ١١٦-١١٩
٢٣٨	الآية ١٢٠-١٢٣
٢٣٩	الآية ١٢٤
٢٤٣	الآية ١٢٥
٢٤٧	الآية ١٢٦-١٢٩
٢٥٠-٢٤٩	الآية ١٣٠-١٣٤
٢٥١	الآية ١٣٥-١٣٧
٢٥٣	الآية ١٣٨-١٤١
٢٥٥	الآية ١٤٢-١٤٣
٢٦١	الآية ١٤٤-١٤٥
٢٦٤	الآية ١٤٦-١٤٩

٢٦٧	الآية ١٥٠ - ١٥٢
٢٦٩	الآية ١٥٣ - ١٥٧
٢٧٠	الآية ١٥٨ - ١٦٠
٢٧٣	الآية ١٦١ - ١٦٤
٢٧٦	الآية ١٦٥ - ١٦٧
٢٧٩	الآية ١٦٨ - ١٧٠
٢٨١	الآية ١٧١ - ١٧٣
٢٨٤	الآية ١٧٤ - ١٧٦
٢٨٥	الآية ١٧٧
٢٨٨	الآية ١٧٨ - ١٧٩
٢٩٤ - ٢٩٣	الآية ١٨٠ - ١٨٢
٢٩٧ - ٢٩٦	الآية ١٨٣ - ١٨٤
٣٠٤	الآية ١٨٥ - ١٨٦
٣٠٨ - ٣٠٧	الآية ١٨٧
٣١٢ - ٣١١	الآية ١٨٨ - ١٨٩
٣١٤ - ٣١٣	الآية ١٩٠ - ١٩٢
٣١٥	الآية ١٩٣ - ١٩٥
٣١٧	الآية ١٩٦
٣٣٢	الآية ١٩٧
٣٣٨ - ٣٣٧	الآية ١٩٨ - ٢٠٠
٣٤٣	الآية ٢٠١ - ٢٠٣
٣٤٧	الآية ٢٠٤ - ٢٠٧
٣٥٢	الآية ٢٠٨ - ٢١٠
٣٥٦	الآية ٢١١ - ٢١٣

..... ٢١٤	 الآية ٢١٤
..... ٢١٥	 الآية ٢١٥
..... ٢١٧-٢١٦	 الآية ٢١٦-٢١٧
..... ٢١٨	 الآية ٢١٨
..... ٢٢٠-٢٢١	 الآية ٢٢١-٢٢٠
..... ٢٢١-٢٧١	 الآية ٢٢١
..... ٢٢٣-٢٢٢	 الآية ٢٢٢-٢٢٣
..... ٢٢٧-٢٢٤	 الآية ٢٢٤-٢٢٧
..... ٢٢٨	 الآية ٢٢٨
..... ٢٢٩-٢٣٠	 الآية ٢٢٩
..... ٢٣١-٢٣٢	 الآية ٢٣٢-٢٣١
..... ٢٣٣	 الآية ٢٣٣
..... ٢٣٤-٢٣٥	 الآية ٢٣٤-٢٣٥
..... ٢٣٧-٢٣٦	 الآية ٢٣٦-٢٣٧
..... ٢٣٨-٢٣٩	 الآية ٢٣٨-٢٣٩
..... ٢٤٠-٢٤٢	 الآية ٢٤٢-٢٤٠
..... ٢٤٣-٢٤٥	 الآية ٢٤٣-٢٤٥
..... ٢٤٦	 الآية ٢٤٦
..... ٢٤٧	 الآية ٢٤٧
..... ٢٤٨-٢٤٩	 الآية ٢٤٨-٢٤٩
..... ٢٥٠-٢٥٢	 الآية ٢٥٢-٢٥٠
..... ٢٥٤-٢٥٣	 الآية ٢٥٣-٢٥٤
..... ٢٥٥	 الآية ٢٥٥
..... ٢٥٦	 الآية ٢٥٦

فهرس موضوعات ٤٧٣

٤٢٨-٤٢٧	الآية ٢٥٨-٢٥٩
٤٣١	الآية ٢٦٠
٤٣٣-٤٣٢	الآية ٢٦١
٤٣٤-٤٣٣	الآية ٢٦٢-٢٦٤
٤٣٦-٤٣٥	الآية ٢٦٥-٢٦٦
٤٣٨-٤٣٧	الآية ٢٦٧-٢٦٩
٤٤١	الآية ٢٧٠-٢٧٢
٤٤٣	الآية ٢٧٣-٢٧٥
٤٥٣	الآية ٢٧٦-٢٧٩
٤٥٤	الآية ٢٨٠-٢٨١
٤٥٦	الآية ٢٨٢
٤٦٠	الآية ٢٨٣
٤٦٢	الآية ٢٨٤
٤٦٤	الآية ٢٨٥
٤٦٥	الآية ٢٨٦